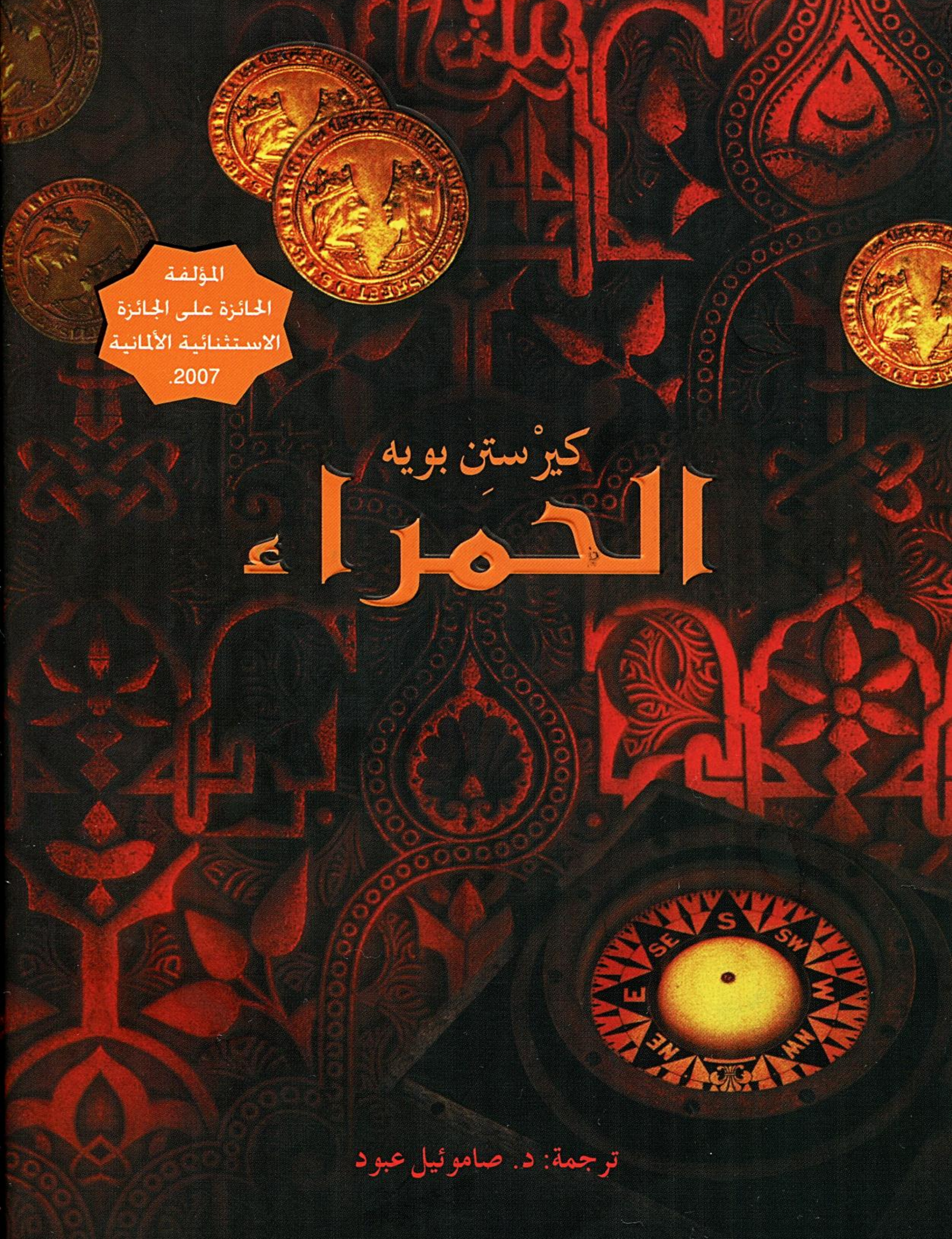

المؤلفة
الحائزة على الجائزة
الاستثنائية الألمانية
2007.
كيرْستِن بويه
الحمراء
ترجمة: د. صاموئيل عبود

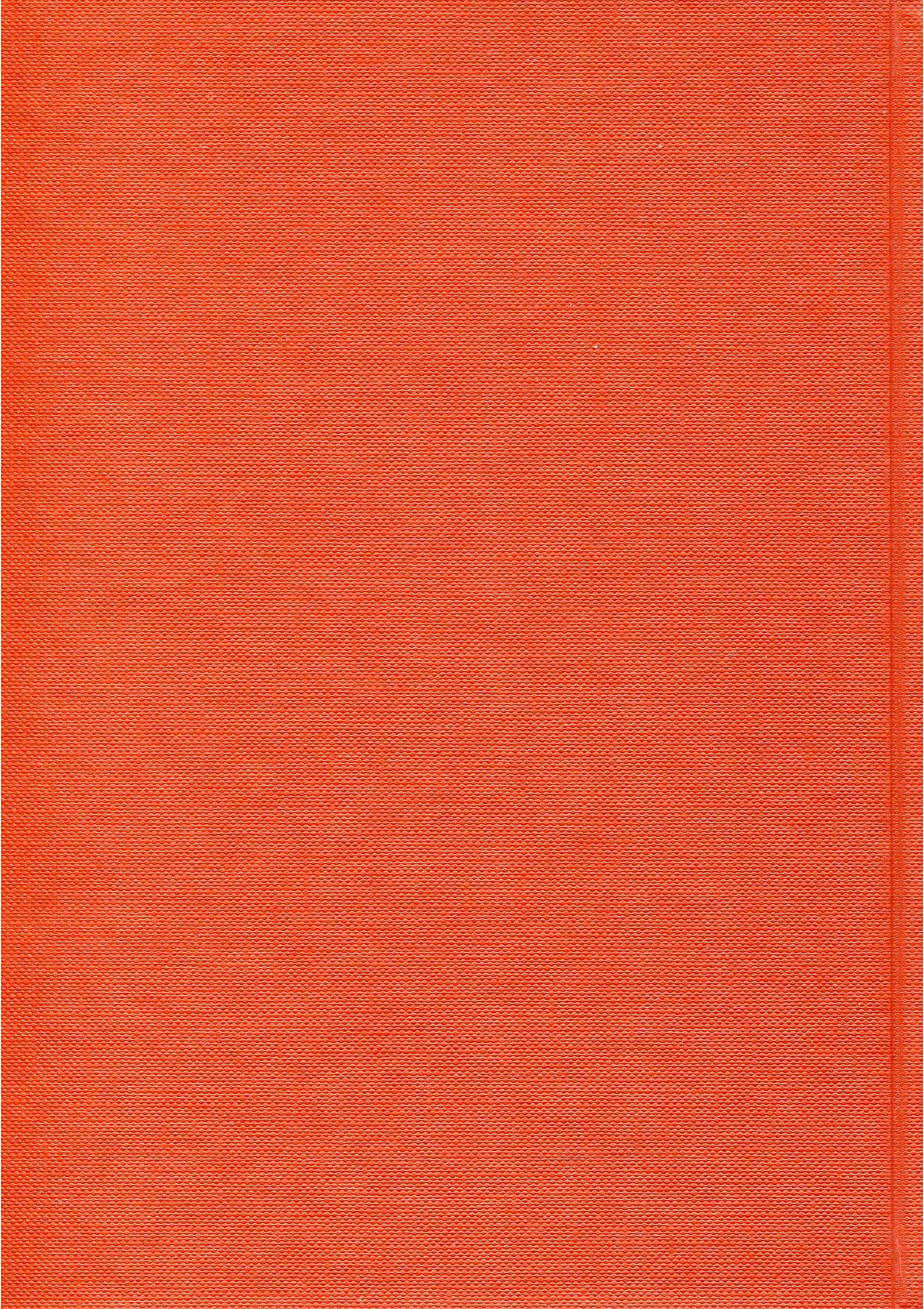


نبذة عن المؤلفة :

ولدت كيرْستِن بويه عام 1950 في هامبورغ/ ألمانيا، عملت لعدة سنوات معلمة قبل أن تنشر كتابها الأول في العام 1985 ومعه اشتهرت ككاتبة للأطفال والناشئة. تعتبر اليوم واحدة من أهم الكتّاب باللغة الألمانية في مجال أدب الأطفال والناشئة.

جازت كيرْستِن بويه عام 2007، على الجائزة الاستثنائية لأدب الناشئة في ألمانيا،وتدعم مشاريع تشجيع القراءة بشكل متميز وكثيرا ما تقوم بمثل هذا النشاطات بتكليف من قبل معهد غوته. وهي أستاذة في جامعة أولدينبورغ.





كيرْستِن بويه

الحمراء

ترجمة: د. صاموئيل عبود

مراجعة: نبيل الحفار

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م
حقوق الطبع محفوظة

ISBN: 978-9948-01-759-2
PZ33 .B5712 2010
Boie, Kirsten, 1950-
الحمراء / تأليف كيرْستِن بويه ؛ ترجمة صاموئيل عبود ؛
مراجعة نبيل الحفار.- أبوظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث،
كلمة، نوفمبر 2010.
ص. 500 ؛ 21x14.8 سم.
ترجمة كتاب : Alhambra.
رواية -ألمانيا-المترجمات إلى العربية.
أ-عبود، صاموئيل. ب-حفار، نبيل.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Alhambra
Kirsten Boie

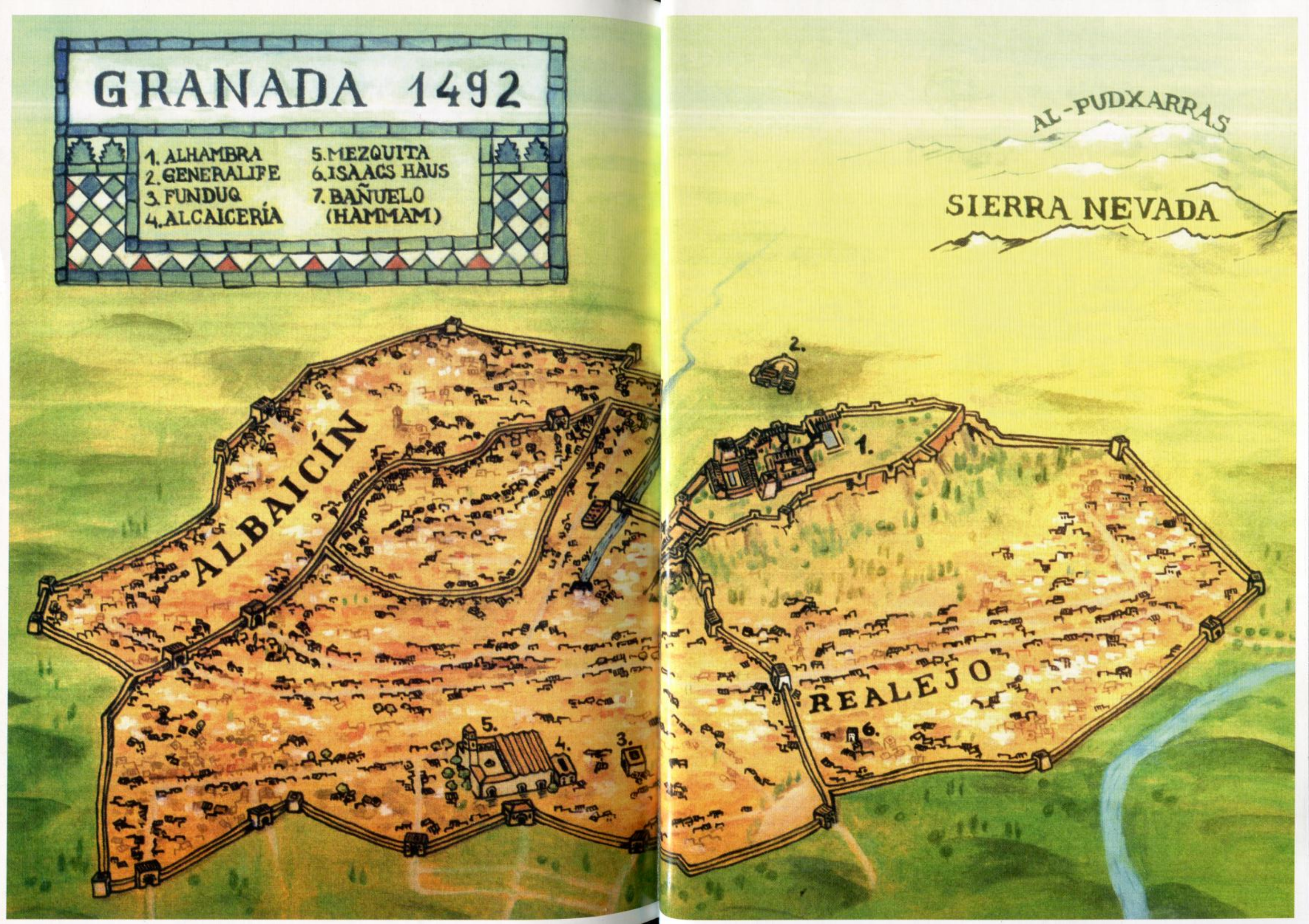


www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



http://www.fask.uni-mainz.de
Johannes Gutenberg-Universität Mainz
Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft
An der Hochschule 2, 76726 Germersheim
Postfach 11 50, 76711 Germersheim
Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

الحمراء


GRANADA 1492
1. ALHAMBRA
2. GENERALIFE
3. FUNDUQ
4. ALCAICERÍA
5. MEZQUITA
6. ISAACS HAUS
7. BAÑUELO (HAMMAM)
AL-PUDXARRAS
SIERRA NEVADA
ALBAICÍN
REALEJO
1.
2.
3.
4.
5.
6.
7.



تمهيد. غرناطه. في الوقت الحاضر

نادراً ما تمطر في غرناطة.

ولكن عندما تفتح طاقات السماء أبوابها فوق المدينة، (ولا توجد صيغة أخرى ملائمة يمكن استخدامها أفضل تعبيراً لوصف ما جرى قبل ظهر هذا اليوم)، فالمدينة الواقعة أسفل الجبال تصبح مدينة أخرى.

برك الماء الموحلة المحاصرة بين أحجار الغرانيت المتباينة في سويتها، كانت قد تجمّعت أمام الكاتدرائية، كما تجمعت بين الأحجار الخشنة ذات اللون الأبيض والأسود التي تم رصف الطريق الحجرية بها في ***رياليخو***[1]، والمجاري التي شطفتها المياه على مرّ مئات السنين، ملأتها مياه متدفقة، كانت تندفع بغزارة عبر الأزقة الضيقة في حي ***المغاربيين*** حيث منطقة ألبايثين، وفوق الأزقة والحواري الضيقة في ***القيصرية***، حيث يقوم البازار الشرقي الذي يقع بين ***بلازا بيب- رامبلا*** والخان العتيق، وفي عجلة من أمرهم، قام التجار بنصب الستارة البلاستيكية التي لا نهاية لها فوق الأحذية المبوزة في مقدمتها، وفوق الوسائد الجلدية، والنراجيل والقناديل النحاسية.

وفي ***كاليه ديل لوس رياس كاثوليكوس*** كان البائع الأفريقي المتجول، بمظلته الرخيصة القابلة للطي، يحقق كسباً خلال ساعات بما يفوق ما كان يحققه

(1) يرجى الرجوع إلى ملحق شرح الكلمات في آخر الكتاب بالنسبة لمعنى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات، ولا سيما تلك التي كتبت بخط مائل بالحبر الغامق، وهو ما جرت عليه المؤلفة. وقد تم إعداد الكشف بشرح الكلمات طبقاً للتسلسل الأبجدي. ويود المترجم الإشارة هنا، بأن التوضيحات كافةً التي لا تحمل كلمة (المترجم) هي توضيحات تمت من قبل الكاتبة.
وقد عمل المترجم على التقيد بالنسبة لغالبية الأسماء الإسبانية بكتابتها وفق لفظها الإسباني، بفضل المساعدة التي تلقاها من موظفات المركز الثقافي الإسباني بدمشق، ويود بهذه المناسبة تقديم شكره لهن ولكل من قدم مساعدته لإنجاح هذه الترجمة.

خلال ما تبقى من العام بكامله، فالسواح القادمون من الشمال الممطر البارد، والساعون في رحلتهم وراء الشمس كهدف رئيس لهم، كانوا يتخاطفون بضاعته بشراهة من بين يديه.

نساء مسنات قصيرات القامة مرتديات ألبسة سوداء يجرين بعزم بخطواتهن القصيرة ممتطيات شباشبهن المنزلية الطرية، ساعيات صعوداً ونزولاً لشراء السمك والخبز، غير آبهات بالطقس خارجاً.

الشوارع بدأت تخلو من العابرين أما النساء المسنات، فكنّ وهنّ يفتحن أبواب منازلهن، يلقين نظرة أخيرة من خلفهن على ذلك الجو المكفهر الذي تركنه من ورائهن قبل أن يدلفن إلى داخل بيوتهن.

وكنّ على يقين، من أن الشمس ستعيد للمدينة لونها في اليوم التالي، وستجف برك الماء الموحلة وسيعود البهاء عند أقدام جبال *سييرا* التي ستسترد السائحين للحضور من جديد، كما وعدهم المرشد السياحي، بل وقد يكون ذلك ربما بعد ظهر هذا اليوم أيضاً.

كانت النساء المسنات يُلقين بسمكهن داخل ثلاجة المطبخ وبالخبز على طاولته. ففي الشتاء يقول المطر وحده الحقيقة، أما الشمس فهي كاذبة. ولكنهن كنّ مدركات أنَّهن سينهضن في صباح يوم ما ليجدن أن آخر ما يذكرنه من وجود بقية من الثلج على قمم الجبال المنتصبة على الجانب الآخر من *الحمراء*، قد اختفى، وسيعود الصيف جالباً معه الألوان والضياء إلى المدينة من جبال سييرا في شمال غرناطة، هكذا كان الحال دائماً، وهكذا سيكون الحال أيضاً في هذا العام.

-1-

كانوا قد غاصوا في الغيوم خلال الاستعداد للهبوط، وفيما كانت الطائرة تهتز، تحسس بوسطن من جديد حزام الأمان في كرسي الطائرة الذي يجلس عليه، ليتحقق ما إن كان مثبتاً على جسمه بإحكام، وشعر بالارتياح عندما شاهد قدير بجانبه يفعل الأمر نفسه خلسة، وهو ما فعله طوقان أيضا على الجانب الآخر من الممر. كان كلاهما قد أبديا غضبهما عند تدقيق بطاقات ركوب الطائرة لأنهما لم ينالا مقعديهما متجاورين.

«لماذا ينبغي أن أجلس بجانب هذا؟»، صاح قدير معترضاً، «إنه أمر يدعو للغيظ، لماذا لا أجلس بجانب طوقان؟».

«ولكن لا يفصل بينكما سوى الممر»، قالت السيدة هيلبرت.

«قدير!، إجلس إذن حيث أنت بجانب طوقان، ولا تُبدِ تذمراً هنا».

«اجلسوا، أرجوكم، إجلسوا جميعاً»، قال متدرب اللغة الإسبانية الخجول، الذي كان يتنقل في الممر منفعلاً، كما لو أن أحداً منهم كان سيفعل أمراً مختلفاً عمّا هو مقرر لهم من قبل.

«تباً، هذه قذارة، يا رجل!»، قال قدير، وقام بحركة ساخرة وهو يمدّ لسانه للسيدة هيلبرت من وراء ظهرها، مما جعل بوسطن ينكمش على نفسه إثر ذلك قدر استطاعته ضمن مقعده محاولاً تجنب لفت النظر إليه ما أمكن. وكان طيلة الرحلة لم يشأ ولو لمرة واحدة، حتى تناول الكتاب من كيس

الظهر الذي ألقى به بين قدميه، بالرغم من أنه ترك *فرودو*، في موقف حرج؛ متغاضياً بذلك عن القراءة تجنباً لأي تعليق ساخر قد يتفوه قدير به، وبدلاً من ذلك سرح بنظره عبر نافذة الطائرة جائلاً بها في الغيوم التي بدت كقطع هائلة من القطن، ومن فوقها شمس، فشمس، فشمس.

حطوا بالطبع بسلام، كان مطار مالاقا يرقد في غلالة قاتمة، وكان المطر ينهمرعلى الاسفلت اللامع للمدرج.

«هائل!»، قال سيرغاي، في الوقت الذي كان ركاب الطائرة يتزاحمون في الممر الضيق وبين مقاعد اليمين واليسار على جانبيه، منتظرين أن يتم أخيراً فتح باب الخروج من الطائرة، «كان من الخير لنا البقاء في بيوتنا في طقس كهذا الذي نراه».

«أنتم لا تعرفون النطق بأفضل من مثل هذه الكلمات، أليس كذلك؟»، قال رجل مسن ذو وجه كثير الإحمرار، فخلال رحلة الطائرة تظاهر معظم المسافرين كما لو أن المجموعة التي تضم اثنين وثلاثين فتى وفتاة، لا تزعجهم، أو أنَّ لا وجودَ لها. وحتى بوسطن وجد تصرف المجموعة مؤدباً طوال الرحلة، إذ لم يرتفع لهم صوت أو أي شيء من هذا القبيل. وبالنسبة لتناول المشروب، اقتصر هذا على المسافرين الأكبر عمراً فقط، لذا كان هؤلاء في حالة من المرح الدائم، فتناول الكحول للتغلب على رهبة الطيران، كان أمراً شائعاً لدى الجميع.

ولكن حتى لو أراد أحد أفراد المجموعة تناول المشروب، ما كان ليحصل عليه، فمضيفات الطائرة لن يقدّمْنَهُ له أولاً، وثانياً لأن الأهل كانوا قد وقعوا على تعهد قبل الرحلة، يوافقون بموجبه على أن يعاد إلى ألمانيا أي واحد من أبنائهم على حسابه الخاص ومن دون أية مرافقة، إن أقدم على تناول

الكحول، فلْنَرَ، هَمَسَ بوسطن لنفسه، ولننظر إن كان المعلمون سيجرؤون على تنفيذ ذلك.

«أخيراً!»، قال قدير، وكان قد بدأ طابور المنتظرين في الممر ينزاح شيئاً فشيئاً نحو الأمام، بقي بوسطن جالساً في مقعده، فلديه متسع كافٍ من الوقت للنهوض، حالما يصبح التزاحم أخف قليلاً.

كان مانويل كوراثون يجلس مباشرة إلى جانب الباب متأففاً فوق مقعد صغير واطئٍ من غير مسند بداخل دكانه المعتم، وقد أعاد رفع الستارة التي غطى بها بضائعه الموجودة في الزقاق، للمرة الثانية بواسطة عصا مكنسة كي يمنع المطر المتجمع داخل الطيات العميقة لتجويفات الستارة البلاستيكية الشفافة، من أن يصبح ثقيلاً، فإن استمر الهطول هكذا، فسيضطر إلى حمل عصا مكنسته من جديد إلى خارج دكانه مرة أخرى كل بضع دقائق.

«*ميردا*!»، غمغم مانويل قائلاً، إن القيصرية تعيش على الشمس، وفقط عندما تكون الشمس مشرقة يأتي السواح قادمين من الساحل، فبعد مشاهدة الحمراء، يهبطون من هناك في جولة استطلاعية قصيرة عبر الأزقة المتعرجة للمدينة، ليصلوا بعد ذلك إلى الكاتدرائية، ومن هناك يقودهم الأدلاء السياحيون إلى البازار، ليندهشوا بروح الشرق التي ما زالت تهب في هذه الحواري على الرغم من مضي خمسمائة سنة على انسحاب المغاربيين (الماوريين) من هنا، ومع تزايد السواح القادمين من الشمال بأعداد أكثر، فكر مانويل في نفسه ساخراً، ستظل تلك الروح تهب أقوى عاماً بعد آخر.

ثم يطلق السواح شهقة إعجاب قصيرة، يقلّبون مصنوعات الزجاج اليدوي بأكفهم، تاركين لأصابعهم الانزلاق لتتفحص نعومة الثريات النحاسية، أما صحون السجائر المصنوعة يدوياً بعناية والتي تم تزيينها بأحرف

عربية مخطوطة باليد، فبدت وكأنها مطلية بالميناء. كان السواح يبحثون عن الحلي الفضية، والتماثيل المنحوته من الجص اللماع والمقاعد الواطئة على شكل جمل، دون مسند ظهر، تمت صناعتها في تايوان، كان الباعة يتضاحكون ويهزون برؤوسهم وينتظرون زبائنهم بصبر.

ولكن في النهاية كان السواح يشترون شيئاً ما، إذ لا تترك القيصرية أحداً لا ينال صيده منها، أما الأدلاء السياحيون، الذين يقون في الساحة جالسين في أحد المقاهي بانتظار مرافقيهم من المجموعات السياحية، فكانوا ينالون الامتنان من الباعة على شكل نقد باليورو والسنت.

أما عندما تمطر، فكان الزوار يقون بفنادقهم على الساحل حيث يلعبون البينغو أو يشاهدون الفضائيات، ليطلعوا من خلالها على مجريات ما يحدث في بلدانهم. فعندما تمطر، تصب المكاسب لصالح بارات الفنادق المنتشرة بين جبل طارق و(ألميرا) فقط، حيث يحتسي روادها القهوة الساخنة أو الكاكاو مع الروم الذي يسمونه لومومبا، فحتى المطاعم التي في منطقة الـ بيب - رامبلا تظل فارغة رغم أنهم نصبوا المظلات المفتوحة فوق الموائد وأرخوا ستائر الماركيز لتحميها من مطر السماء المنهمر.

عزّى مانويل نفسه بأن الزمن الذي كان يسأل فيه نفسه من جديد مع كل صباح، إن كان الأجدى له غلق دكانه، قد ولّى الآن. ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل أفضل؟ فما دام جيرانه يفتحون حوانيتهم ويكدسون أمامها في الزقاق، الأحذية المدببة والأغطية ذات الحواف المطرزة، وعلّاقات المفاتيح، فإنه سيظل يفعل هو أيضاً مثلهم. ولأن موارد البيع والشراء كانت مضحكة في شحتها، كان هذا يصرف الباعة للثرثرة فيما بينهم، أو لتدخين لفافة من التبغ مع *الكورتادو*. بل وعندما تكون حركة السوق راكدة، يتيسر لهم أحياناً

سحب نفس من النارجيلة.

ومن جديد لم يستغل وقت الشتاء، ليقرر في النهاية ما الذي يتوجب عليه فعله.

انتابت مانويل رعدة سرت في أوصاله، ونظر من حوله، لا أحد يلاحظه.

وعلى الرغم من أنه أعاد اكتشافها من جديد قبل أسابيع، عندما كان في عتمة الجزء الخلفي من دكانه، الذي يسميه بالمخزن، فيما كان يفتش بين الرفوف، إذ فقط في الشتاء يتاح له الوقت، عندما لا يكون لديه أولئك الزبائن الذين يجبرونه على الخروج في كل مرة إلى أمام محله في الزقاق، محاولين من خلال ابتسامة ماكرة، المساومة على تنزيل سعر الشالات الحريرية أو فناجين القهوة الصغيرة لشرائها بأثمان زهيدة مدعاة للسخرية.

تنهد مانويل بعمق، فقد كان مع مقدم كل خريف يضع في حسبانه أن يلقي نظرة متفحصة على خزانة الرفوف في مخزن خلفية دكانه، وفرز محتوياتها، كأن ينقل للأمام تلك التي كانت تحتل أمكنة ليست لها، والتي قد يكون في بيعها ما هو مجد، ففي كل خريف، ومع هطول المطرة الأولى، يبدأ في ترتيب وتنظيم الرفوف، ماضياً في عمله إلى أن يصيبه الملل، فيفضل في النهاية الذهاب خارجاً ليقف مع الباعة الآخرين في الزقاق كي يتسامر معهم في أحاديث شتى، إنها اللامبالاة والحيرة.

استدار للداخل محدقاً في عمق حانوته المعتم، لم يكن ذهنُهُ مشوشاً في واقع الأمر عندما رآها في الخريف الماضي فجأة لأول مرة بعد مضي سنوات عديدة، لقد كانت تلك هي أول ما وقعت عيناه عليه، فيما كان يفتح الغطاء عن تلك العلبة الكرتونية المغبرة كي يرى ما تخبئه بداخلها، الكتابة العربية

التي تزين الطبقة العليا، ذات الحواف المنقورة ببعض الكسور، في الأمكنة التي تم فيها- الطرق لنزع البلاطة من الجدار، والتي تقول، ***ولا غالب إلا الله***[1]، مع أن أحداً لم يعد يتكلم العربية في غرناطة الآن، بل لا يتكلمها أحدٌ منذ قرون.

سأل نفسه، لماذا طفت أمام ناظريه فجأة، وتحديداً في هذا الشتاء، بعد كل هذا الوقت الذي كاد فيه أن ينساها تماماً، وبعد أن كاد يظن أنها غير موجودة أصلاً، فبعض الذكريات، وهو ما يدركه مانويل تماماً، هي مثل الحكايات التي تصحبها، لا تعدو كونها ترّهات.

كان يسره نسيانها، وكان يود من كل قلبه أن يمضي في تجاهلها كما لو كانت غير موجودة، بالرغم من الفضول الذي كان يتملكه.

نهض مانويل واقفاً، مع انه لم يكن من داع لذلك، كي ينفض الماء من فوق الغطاء البلاستيكي، وبخطوات مترددة، اقترب من المخزن، إنه شهر نيسان/أبريل الآن، وهو لم يحزم أمره بعد.

«بالطبع ستسافر معهم، بوسطن»، قالت له أمه، عندما دلفت آنذاك داخل غرفته بغية إطفاء النور لديه، إثر عودتها من اجتماع الأهالي، فوجدته يرقد في سريره يقظاً، ممسكا بكتاب في يده، «هذه فرصة لا يجوز لك تفويتها».

«إنها مكلفة»، غمغم بوسطن وانتابته للحال مشاعر الإحساس بالذنب، فأمه دائماً تردد بأن المرء لا يتحدث عن النقود، والمال ليس هو الأهم في الحياة، إياك الاعتقاد بذلك يوماً ما.

إلا ان بوسطن كان واثقاً بأن أمه إنما تقول ذلك لأنها لا تملكه بالأصل، فمع بداية دراستها الجامعية، كانت قد سافرت إلى الولايات المتحدة لمدة

(1) أورد النص الكلمات نفسها، مكتوبة باللغة الألمانية (المترجم)

عام، وتعرفت هناك على فتى أمريكي رائع. ثم عادت إلى ألمانيا وهي حامل حيث جاءها بوسطن الذي سمته باسم المدينة التي كان يسكنها والده، ولم تتابع دراستها بعد ذلك حتى النهاية.

«ولكن إن كان والدي غنياً بحق، لماذا لم تخبريه إذن بأنك ولدتني؟» سأل بوسطن من جديد.

هنا حاولت أمه المداورة قليلاً في إجابتها وقالت إنها بكل بساطة لم تعلم آنذاك أنها تريد تلك التعقيدات، التي تم حدوثها بعد ذلك.

إلا أن بوسطن كان على قناعة، أنه كان سيرغب بتلك التعقيدات، وسيرغب أن يكون ذاك الأب هو والده أيضاً، إذ كان بذلك سيستعيد تسلسل عائلته لاربعمئة سنة خلت، وكان ذلك يعتبر في الولايات المتحدة له قيمة على الأقل تعادل نيل لقب شرف هنا، قالت له أمه، ما يعني أن من هاجر كأسلافه قبل أربعمئة سنة بواسطة «*ماي فلاور*» كان كمثل من يحمل لقب بارون في أيامنا هذه.

لقد قرأ بوسطن بعد ذلك، ما كانت عليه«ماي فلاور»؛ وقرر إثرها، أن لا تخيفه أية تعقيدات من أجل أن يسافر فيما بعد إلى أمريكا ليتعرف إلى والده حالما تتيسر له النقود الكافية التي سيقوم بتوفيرها.

أما الآن فليس لديه حتى المال الكافي ليقوم بالرحلة الإسبانية، ومع أن رحلة غرناطة كانت بالطبع سبباً له ليختار تعلم الإسبانية وليس الاقتصاد او الرياضة كمادة إضافية. فدارسو الإسبانية يذهبون إلى اسبانيا مرة في العام لمدة أسبوعين. وفور بدء الواحد دورة اللغة، يمكن له في المدرسة دفع مبلغ شهري في حساب مخصص لذلك، ليتمكن من الحصول على النقود الكثيرة المتجمعة فيما بعد دفعة واحدة، وقد اشتهرت الرحلات الإسبانية، حتى

أن من هم في المرحلة الإعدادية ممن كانوا مقتدرين مالياً، كانوا قد سافروا مرتين– أو حتى ثلاث مرات، إذن، لا بد أن تكون تلك الرحلات جيدة.

«كيفما كان سنتغلب على هذه الصعوبة»، قالت له أمه، «ولماذا تقوم إذن بعمل توزيع الصحف؟ بوسطن! فكر جيداً، إنها إسبانيا! فحتى أنا نفسي لم أكن هناك في يوم من الأيام!».

وكما لو أن ما قالته أمه يغير الكثير من الأمور، فكر بوسطن في نفسه، فأي بلدان زرتِ فيما عدا أمريكا التي كنتِ فيها ذلك الحين منذ ألف عام.

«لا يتعلق الأمر بزيارة (*مايوركا*) أو (*كوستا ديل سوول*) أو بأي من الأمكنة الرخيصة الأخرى! إنها غرناطة! وهي مدينة رائعة بحق، كما قالت السيدة هيلبرت، وفيها يوجد جبل وكاتدرائية و...».

«أنا لا أميل لمثل تلك الأمور»، قال بوسطن. مع أن ما قاله لم يكن صحيحاً، فهو يعلم ومنذ زمن بعيد، ما يمكن مشاهدته في غرناطه، ففي صالة المعلوماتية بحث عنها في الإنترنيت كما ألقى نظرة عليها عبر صفحات الـ (غوغل إرث– google Earth). إلا أن هذه المعلومات تخص تلك المعرفة البديهية في الحياة التي لا يمكن التباهي بمعرفتها، ولا يمكن حتى البوح لأحد من أين استقاها، حتى ليس لأمه، فمن بوسعه أن يضمن أنها لن تحكي للآخرين مباهية بولدها الفهلوي، فتصل هذه الرواية إلى أبناء صفه فتناله النقمة والغيظ جراء ذلك. لذا حاول القفز بالموضوع إلى ناحية أخرى فسأل: «وهل توجد محلات لبيع الألبسة؟ وهل توجد حانات؟».

نظرت إليه أمه مندهشة، ثم ما لبثت أن ضحكت وقالت: «لا بد من أن تكون هذه موجودة، على أي حال، لقد أبلغت أنا بمشاركتك»، وهكذا تم حسم هذه المسألة.

وفيما كان بوسطن يرقب الآن المطر المنهمر عبر نافذة الحافلة، التي كانت تنقلهم من ***مالاقا*** إلى غرناطة، حيث الرحلة هكذا أرخص مما لو كانت مباشرة إلى غرناطة. ثم عاد فسأل نفسه ما إن كان من الأفضل له لو انسحب من هذه الرحلة منذ البداية، فمن أبناء صفه كان هناك أربعة فقط، قدير وطوقان وسيرغاي وهو؛ ومن الصف الأعلى ثلاث بنات منهن واحدة تدعى سيلفيا وأخرى يسيم والثالثة لا يعرف اسمها؛ ومعهن ستة صبيان. أما أولئك الذين من صفوف أعلى أخرى فهم على أي حال أكبر سناً بالنسبة إليه بكثير، وربما يكون بوسعه التقرب من البنات، فقدير وطوقان لا يستمزجانه على أي حال، أما سعي سيرغاي لأن يكون له شأن مع الإثنين فقد وضحت محاولته منذ أن كانوا بالمطار.

كان المطر يجلد زجاج النافذة من الخارج بدفقات تترك خطوطاً متقطعة. وباتجاه يكاد يكون أفقياً، وكانت قطرات المطر الثقيلة تسحب من ورائها خطاً مرتعشاً يتجه من الأمام للخلف، لتقوم من ثم بصنع منحنى حذر على غير رغبة منها باتجاه الأسفل، حيث يتجمع الماء عند الحافة السفلى للنافذة، طافية من فوق إطار العزل الكاوتشوكي لها، لتختفي أخيراً على الجدار المعدني للحافلة، وللحظة يخال المرء وكأن قطرات المطر اللاحقة تتوقف هنيهة وكأنها تتردد في وجهتها، قبل أن تتابع في النهاية انسيابها على مسار رفيقاتها اللواتي سبقنها.

وفي الخارج، على الجانب الآخر من وراء اللوح الزجاجي للنافذة، توجد إسبانيا، وكوستا ديل زول: مساكن نمطية، مجمعات سكنية، ضواحي لا حدود لنهايتها، وفندق بني مباشرة بجانب الأوتوستراد، كتب على لوحة جدارية باللغات الإسبانية والألمانية والإنكليزية أنّه الوحيد في فخامته، بالرغم من

ذلك، أحس بوسطن، بأن شعوراً بدأ يخالجه، إذ أخذ ينشرح قليلاً، ومن حين لآخر كان يتبدى له من خلف تلتين في لمحة خاطفة، خط صغير رمادي غير واضح المعالم، لا يلبث أن يختفي، إنه البحر الأبيض المتوسط.

«تباً، إنها حفنة من القذارة! ألا ترى معي ذلك؟» قال سيرغاي بجانبه، «هل ترغب في قطعة من العلكة؟»».

هزّ بوسطن رأسه موافقاً ومتفاجئاً، وبالطبع كان طوقان وقدير قد ناما على المقعد الذي أَمامه، وقد ارتمى رأس قدير على كتف طوقان، فالتقطت واحدة من بنات الصف الأعلى لهما صورة، وقد كان كثيرون قد استغرقوا خلال ذلك في النوم، إذ كانوا قد أخذوا الطيران الأبكر، لأنه الأرخص. ومع ذلك لم يكن من المعتاد حديث سيرغاي معه، فما بالك أن يقدم له قطعة اللبان.

«لو رأى عجائزي ما يجري! لظل والدي يحدّق ساعات إضافية ولقال، إبي، ألا يكفي غلاء الرحلة ليوقعنا الطقس في مثل هذه الوحلة»، كان سيرغاي قد غمغم بذلك بعد أن قدم إلى بوسطن رزمة اللبان المدعوكة والممزقة.

هز بوسطن رأسه من جديد وقال: «في مثل هذا الوقت من العام يكون الطقس هنا غير مستقر دائماً. لقد قرأت،»».

«– البروفيسور يتحدث مرة أخرى– مرة أخرى البروفيسور»، قال سيرغاي وهو يهز برأسه، ولكن ما خفف عن بوسطن، أن ما قاله سيرغاي لم يكن أبدا بلهجة عدائية، «يا رجل!» تابع سيرغاي»، إما أن يصبح الطقس جيداً أو يبقى على حاله كما هو الآن، فلست في حاجة للقراءة، فهذه لن تغير من الأمر شيئاً».

«لا»، قال بوسطن مغلوباً على أمره.

«سأغفو أنا الآخر قليلاً»، قال سيرغاي، «على كل حال، لا يوجد في الخارج ما يستحق الذكر، ولكن إياك أن لا توقظني كلما ارتميت عليك أثناء نومي، أيها العجوز، ادفعني بعيداً عنك».

«أوكي»، قال بوسطن، وابتعد عن سيرغاي باتجاه النافذة بقدر ما هو متاح له.

أخذت خطوط المطر تقل على زجاج النافذة وتزداد ارتعاشاً، وازدادت السماء ضياء، وهنا أغمض بوسطن عينيه.

نفض مانويل كوراثون حبات المطر من على الستارة ولفها بحركة اعتاد عليها، ربما كان من الأجدى له انتظار وقت أطول وتركها مشدودة حتى تجف؛ ولكن الآن، ومع عودة الشمس في نشر ضيائها من علٍ في سماء لازوردية الزرقة، فسيطل السواح الأوئل في الزقاق، حاملين مظلاتهم المبلولة في أيديهم، بسعادة وانسجام، بالرغم من أن توقعات الطقس تقول بأنه سيستمر بهيجاً ومقبولاً.

وبحسب خبرته في مثل هذه الحالة، كان على معرفة بأن أولى المشتريات التي يقبل عليها الزبائن الآن هي ***صنادل الباغاتا***، وبقدر أندر قليلاً أيضاً الأحذية الجلدية المزينة بالنقوش العربية التي يلبسها السائحون خلال المطر بدلاً من تلك التي لديهم، لتحاشي طمس أقدامهم في شوارع غرناطة غير المستوية التي يبللها المطر، وقد توقفت الآن سيدتان أمام دكانه وبدأتا تقلبان صندلاً بلاستيكياً بأيديهما.

ابتسم مانويل وأزاح الستارة الملفوفة ورماها في الأسفل بداخل دكانه، بين الكرسي الطابورية التي على شكل جمل وبين الوسائد الفارغة من

حشواتها، ففي المساء، وعندما لا يبقى أثر لسائح، سيعيد نشرها من جديد.
إن أول صندل يتم تجريبه الآن في قدمين مبللتين لطفل، وألقيت أول قطعة من النقود أمامه، وقد ناول سيدة كيساً كي تضع فيه حذاء مبللاً.

أسرتان مع أطفالهما كانتا تتضاحكان أمام بسطة دكانه، ترفعان الأحذية المدببة في مقدمتها وتريان بعضهما صحون السجائر وأساور الأيدي، ربما كانتا قد قدمتا معاً للسياحة من الشمال، أو قد تكونان تعرفتا على بعضهما في مطعم الفندق الذي ينزلان فيه، وهما تحتاجان لبعض الوقت كي تقررا، ما تريدان شراءه لأصدقائهما في بلدهما، أو ربما شاؤوا شراءه لأنفسهم، وهو ما يعرفه مانو يل من خلال تجربته، تراجع خطوة لداخل دكانه، فهما بذلك تستطيعان اتخاذ قرارهما بيسر وسهولة أكثر، مما لو تحدث إليهما، وهذا ما يعرفه جيداً من الباعة الآخرين في البازار، فهذا شأن التعامل مع أولئك القادمين من الشمال؛ ولكن على المرء أن تكون لديه عينان مراقبتان جيدتان بانتظار اللحظة المناسبة لتحويل نصف قرارهم، بابتسامة منه إلى قرار حاسم.

أما مراقبتهم فلا داعي لها، فهم لا يسرقون إلا ما ندر بل يمكن القول لا شيء، وإن حصل، فليس لما يأخذونه قيمة تذكر، فإن حدث أمر كهذا فمن المفترض أن يتم ذلك عنده.

استدار مانويل لداخل محله وأمعن النظر في علبة الكرتون المفتوحة، كان يود أن يضعها في الجزء الأمامي من المحل إلى جانب قطع البلاط الخزفية الأخرى، التي صنعت على النمط المغاربي، وجرى شيها مع ذلك في بلد ما في شرق آسيا، وتم لصق بطانة رقيقة من اللباد في أسفلها كي يستخدمها المشترون كقاعدة لأشياء يضعونها عليها، أما إن سأل أحدهم لماذا تبدو هذه

البلاطة بشعة وبالية ومكسّرة الحواف، فسيقول إن هذا بالذات هو ما يمنحها قيمتها: فهي الوحيدة الأصلية، وهي قديمة، أما كم هي قديمة فليس بوسع أحد تخمين ذلك.

دقت نبضات قلبه بشدة أكثر، فلن يكون ما سيقوله كذباً، قال مانويل لنفسه. ثم لماذا ينبغي الإفصاح أكثر؟ فهم سيعتبرون ما يقوله على أية حال نوعاً من رواية الخرافات، وربما يكون الأمر كذلك فعلاً، سأتمكن من تصريفها، وسيحصل المشتري على لقطة ثمينة مقابل حفنة قليلة من النقود. وإن أنا تأملت بالأمر جيداً، فهذه البلاطة في الواقع، هي الشيء الوحيد الذي لديّ مما يستحق نقله عبر الحدود، وإن كان هذا بطبيعة الحال، أمراً غير مشروع.

تناول علبة الكرتون وحملها للأمام، فمدّ أحد الأطفال نحوه يداً ممسكاً فيها طائراً صنع من نسيج مخملي، له رقبة ورجلان من سلك حلزوني، فيما مدّ باليد الأخرى قطعة نقد ورقية صغيرة القيمة، ابتسم له مانويل وتناول من درجه بقية المبلغ، وأعطاها له، ممسداً رأس الصبي بيده. كان يعلم أن هذا يعني لسكان الشمال نوعاً من الثناء والمودة للأطفال، فلماذا يبخل عليهم بذلك، إن هم كانوا يتوقعون هذا، ربما يتحمسون للشراء مرة أخرى.

هولا تشيكو [1]، قال مانويل، انتزع الصبي رأسه، وأسرع راكضاً نحو أمه ضاماً ساقيها بقوة، وفي طريق العودة وقبل الوصول للفندق، كان رأس الطائر ورجلاه قد أفلتا من جسده، فالدراهم القليلة لم تمنح الطفل سوى سعادة قصيرة.

«وهذا أيضاً من فضلك»، قال رجل يحمل دورقاً، «كم يساوي هذا؟».

---

(1) تعني بالإسبانية، مرحباً أيها الصغير.

وضع مانويل علبة الكرتون التي توجد بداخلها اللقية الموضوعة مع بقية بلاطات السيراميك وبدأ يحاسب نفسه، لماذا لديه دائماً كل هذا التهيب تجاهها قبل أن يمسها؟ من سيعتقد إذن، أنه سيحدث ما أخبره والده به، وما أخبر به والد والده قبله رجوعاً إلى أول الزمن؟ فالناس لا يختفون، حتى وإن كان هذا هو ما يحكيه كبار السن من التجار من مثل تلك الحكايات فيما بينهم سراً.

لقد آمن بذلك فيما مضى لأنه كان طفلاً حينها، وإيمان الأطفال، كما كرر ذلك ألف مرة، لا يمكن أن يتزعزع بسهولة في المستقبل، سيان ما يقوله العقل في ذلك، وما حدث لم يتكرر منذ زمن بعيد، إن كان هذا قد حدث حقاً.

ولكن لا يستطيع أحد أن يعلم الحقيقة، قال مانويل لنفسه ورسم إشارة الصليب على وجهه بسرعة، في نهاية الأمر كل شيء جائز، طالما أن الناس يتناقلون هذه الحكاية جيلاً بعد آخر، وطالما أن احداً كائناً من كان، لم يبرهن العكس، فلا أحد يعلم إن كان الباب ما زال مفتوحاً.

عاجلاً قد يأتي زبون ما ليشتري ما يعتقد أنه لقطة، ولكن لا أحد يعلم حقيقة ما يمكن أن يحدث.

-2-

كان الفطور رديئاً بالطبع

«لا، وإلا ما قولكم؟» قال سيرغاي، وهو يحدق في قهوة كوبه الخفيفة الممزوجة بالحليب، «ومن أجل هذا دفع عجوزيٌّ مبلغاً لا يقدر، ظننت أن هناك بوفيه مفتوحاً للفطور؟ أقله أنني موجود في فندق».

«إن هذا يدعى هوستال، تشيكو»، قالت السيدة هيلبرت، «ولا يوجد أفضل منه كموقع وسطي، كما قد تكون لاحظت ذلك خلال جولتنا يوم أمس، فهل من الأفضل تناول فطور خيالي، على أن يكون علينا ركوب الحافلة أو القطار لمدة ساعة إلى المدينة؟».

«سيرغاي يريد موقعاً وسطياً وفطوراً خيالياً»، قال قدير، الذي كان قد جلس إلى طاولة سطحها من المرمر الصناعي مع طوقان في جانب، ومقابلهما سيرغاي وبوسطن في الجانب الآخر من الطاولة. ولم يعترض أحد، عندما دخل بوسطن يوم أمس إلى الغرفة المخصصة لأربعتهم، ومن دون أسئلة، وضع بكل هدوء كيس الظهر على آخر سرير بقي فارغاً، وإن كان لم يهلل أحد منهم له بالطبع، «وأنا أجد بأنه لطيف أن تكون محلات البيع مباشرة بعد الناصية».

«تماماً كما أنت دائماً»، قالت السيدة هيلبرت، وتابعت كلامها: «حول الكاتدرائية لم تسخَ بإضاعة كلمة صغيرة طيبة واحدة؟».

«أوا!»، تأوه قدير وهزّ جسمه، ولكن بدت عليه ظاهرياً أمارات الرضا، بل إن الجميع كان يبدو راضياً، كما فكر بوسطن، بما في ذلك سيرغاي. فليس منهم من هو معني بأمر الفطور بأي قدر كان، أشرقت الشمس، كان الهوستال يقع في وسط المدينة بالقرب من *غران فيا*، ومع أنه كان بائساً، وربما لم يكن على جانب من النظافة، فذلك لم يزعج أحداً، بالرغم من شكواهم وتنديدهم، إذ في الرحلات المدرسية على المرء أن يفعل ما يحلو له فعله. محلات البيع كانت على بعد رمية حجر منهم، وكذلك كان الحال بالنسبة للكاتدرائية والبايثين والقيصرية؛ وعلى بعد رميتي حجر وقريباً منهم في الأعلى وإن كانت لا تُرى، توجد الحمراء، وهي لم تعد تعني لهم شيئاً بالطبع، بعد أن علموا أين تقع محلات البيع.

السيدة هيلبرت وثلاثة من الصف الأعلى ممن يعيدون الزيارة، أروهم بالأمس سريعاً المنطقة التي يسكنون فيها، مبدين خلالها مللاً، وكأنهم هم نفسهم ولدوا في غرناطة.

«هذه جولة كي لا يتوه أحدكم، في الأوقات الحرة»، قالت السيدة هيلبرت، «فأنتم ترغبون بالتأكيد بمثل هذا الوقت الحر مرة ما».

«يييه!»، هتف سيرغاي.

«هو فقط ما نريده دائماً!»، قال بوسطن، وإن لم يكن صوته على نحو مرتفع بما يكفي، ولكنه كان كافياً لأن يلكمه طوقان بمودة على جنبه.

ولكن لا يعقل أن تبدأ الرحلة إلى إسبانيا على الفور بالوقت الحر، «لذلك سنبدأ هذا الصباح بالحمراء»، قالت السيدة هيلبرت.

«لا!»، قال واحد من العشرة مشتكياً، «ليس للحال، أليس كذلك؟ظننت بأننا سنذهب مرة ما أيضاً إلى البحر؟».

فتاتان جاءتا إلى صالة الطعام تبحثان عن مكان فارغ لهما، بشعرهما الطليق الطويل المغسول حديثاً والذي تركتاه من دون تجفيف، إلا أن ماكياج وجهَيْهما كانتا قد أتمتاه على النحو الأكمل.

«*مرة ما تعني مرة ما*»، قالت السيدة هيلبرت، «*والمرة الـ ما* لا تعني أن تبدأ الآن في اليوم الأول، لدينا اليوم بطاقات لزيارة الحمراء قمت بحجزها على الإنترنيت منذ ثلاثة أشهر، فلا يمكنكم أن تكونوا جادين، عندما تتصورون، أن الدخول إليها كان سيتاح لنا بسهولة».

«من هو الذي سيزعجه ذلك؟»، قال طوقان هامساً، فضحك بوسطن على نحو أعلى، كما لو أن ضحكه كان ضرورياً.

«بالضبط!» قال بوسطن، بالرغم من نظرة السيدة هيلبرت له، ولكنه كان أقرب إلى اليقين، بأنها على دراية مطلقة، بمدى سعادته في رؤية الحمراء، ربما الأوحد بين الجميع، وربما مع البعض من الصف الأعلى، أو ربما من بين العشرة من صفه.

«بوسطن؟» نادته السيدة هيلبرت»، هل من شيء؟».

«كلا، كل شيء على ما يرام»، أجاب بوسطن، وأجبر نفسه على إظهار ابتسامة باتجاه السيدة هيلبرت، إلا أن السيدة هيلبرت تنهدت وهزت رأسها. لم يلكمه أحد على الأقل بخاصرته، إلا أن بوسطن كان قد أدرك أنه احتل مكانه على هذه الطاولة، كما أن حصته في غرفة الأربعة قد اتسع مداها.

«سنلتقي خلال عشرين دقيقة أمام البناء»، قالت السيدة هيلبرت، «سنصعد مشياً إلى هناك».

كانت تنهدات عدم الرضا عالية، كما ينبغي لها أن تكون مع مثل ذلك

الإعلان، وعلى وجوه الجميع قرأ بوسطن كم يسعد الجميع في أن يواصلوا بقاءهم هنا.

الأندلس، نيسان/ابريل 1492

تأملت الملكة باحة الأسود الفسيحة التي يتدفق الماء من نوافيرها البيضاء منبجساً للأعلى إلى وسط الأحواض، آخذاً شكل أقواس بديعة تخرج من أشداق اثني عشر أسداً تحمل على ظهورها حويضة النوافير، وتكاد الملكة تصدق بصعوبة أنّ كل هذا الجمال أصبح ملكاً لها، ولكنها كانت لا تكف عن شكر الله كل يوم على أعطيته لها.

«لو أنكم قمتم بتركهم من دون أن ينالوا قصاصهم... »، قال كبير ***المفتشين***. كان ظله قد سقط طويلاً ورفيعاً على حصى الباحة الثقيل، «لكانوا هزئوا بكم، ولكان الكفار تابعوا سخريتهم بمواصلة ممارسة عقائدهم سراً، أمام مذابح هياكلهم الفاسقة، ألم نبرهن لكم في سائر مدن إمبراطوريتكم الأخرى مثل بورغوز وتوليدو، وأيضاً في قرطبة أنه بالقتل وحده».

القتل.. القتل، دوما القتل، صورة المحرقة المشتعلة وتخايل كائن حي يرتدي جلباب ***السانبينيتو***، موسوم عليه إشارة الشيطان، يصرخ متأوهاً وهو يتلظى في النار الملتهبة، ثم ما يلبث أن يلتوي، وبعد ذلك الصمت، وليس غير أزيز النار.

كانت امرأة قوية، وكانت قد أنجبت ستة أطفال، وهي مع زوجها فرديناند وحّدت مملكتين، وعندما كانت تحتدم إحدى المعارك التي تبدو وكأن لا نهاية لها، كانت تهبّ مسرعة لميدان المعركة، كي تمنح جنودها الشجاعة. فغرناطة كانت أيضاً في يد غير المؤمنين، ولولا أنها تجندت للحرب، لما كان

لها بناء معسكر ***سانتافي***، على شكل الصليب المقدس في فيغا التي هي على مرأى من الحمراء، كانت الملكة تتخذ القرار، عندما ينبغي أخذه، فهي لم تكن تعرف التردد أبداً.

إلا أنها، وفقط عندما يتعلق الأمر بالمعتقد، تصبح صغيرة ومتواضعة، ولم يكن أصعب عليها من إدراك رغبة الرب، الذي لم يشأ مرة التحدث إليها. وفقط، ومن خلال توصيات كهنته الأقداس، كان يوصل إليها رغباته، فمن بمقدوره الجزم بأن خَدَمَته فهموا رغباته على الوجه الصحيح؟ فأين يوجد البرهان، بأن كل أولئك الضحايا الذين قضوا بشناعة في أتون الموت بسبب خطيئتهم المميتة، في أرجاء مملكتها، قد قضوا نحبهم حقاً من أجل تنفيذ رغبة الرب؟

«لقد نفذنا لكم طلبكم وقمنا بتوقيع ***مرسوم اليهود***»، قالت إزابيلا، «ألا يعد هذا كافياً؟ أليس بوسعنا الانتظار حتى نهاية المدة التي منحناها لهم؟».

«لقد اختاركم الرب من بين كل حكام الممالك، لتكونوا أنتم الذين سترفعون راية الإيمان الحقيقي على بلاده في كل من قشتالة وأراغونا»، قال لها ***توركيمادا***، «ألم يمنحكم الله النصر تلو النصر ضد الكفرة، كما منحكم نجاحاً بعد آخر، فلو لم تكن تلك رغبته، بأن تكوني أنت التي تقيمين سلطان الديانة الكاثوليكية على هذه الأرض يا ابنتي، أكان يتحقق لك هذا؟ أوليس من ضمن مهمتكم الأولى في هذا السعي، معاقبة الهراطقة وأصحاب البدع قصاصاً لهم عن الخطيئة التي ارتكبوها؟».

«لقد حدثنا إلهنا عن المغفرة»، تمتمت إيزابيلا، كان من الممكن أن يكون كل شيء بمنتهى السهولة، لو أبلغ الرب إرادته بوضوح، كي يتمكن كل إنسان، وحتى أنتم، من فهم تلك الإرادة، ولكنه رضي أن يترك بعض الأمور

غير واضحة، «أحب جارك كنفسك!»، لا بل قال السيد المسيح: «أحبوا أعداءكم!»، فلماذا يتحدث كهنته بلغة أخرى، ولم لا يتَّبِعوا تعاليم كتابه المقدس؟

«الله رحمة!»، توجه توركيمادا بكلامه إليها بحماسة، ثم تابع قائلاً: «إنه يغفر حتى لغير المؤمنين أيضاً، عندما يعودون إليه ويعلنون توبتهم. أما هؤلاء الذين أتحدث أنا عنهم، فإنهم لا ينافقون أمامنا فقط يا ابنتي، إذ في الحقيقة ينبغي أن نغفر لهم، كما علمنا السيد المسيح، الذي طلب أن نغفر للمذنبين إلينا. ولكنهم ينافقون أمام الله نفسه، وهدفهم ليس أقل من تدمير الكنيسة الأم المقدسة، فما هي الفائدة من كل تلك الانتصارات التي حققتموها، يا ابنتي، إذا كنتم تطلبون الغفران لعدو الإيمان، الذي يرغب باستعادة الأرض لآلهته المزيفة وأنتم ترون رؤية العين بأنه يريد فعل ذلك؟».

«ولكن ألا تقول الوصية الخامسة من الوصايا العشر: لا *تقتل*؟»، سألت إيزابيلا. وكان هذا من جديد ما حيرها، ففي كل مرة تجد أن هناك تناقضاً، إذ بسهولة وبساطة يمكن أن يخطئ المرء، وفي منتهى السهولة يمكن أن نرتكب الخطيئة، من غير أن نريدها، «ثم، ألا تسري هذه الوصية على جميع الناس الآخرين؟».

ابتسم الأسقف وقال»، على الجميع يا ابنتي، تسري الوصية الأولى التي تقول: *أنا الرب إلهك*، كما يقول: لا *يكن لك إله آخر غيري*، ألم تتحققي أنت بنفسك، بأن بركة الله عمت على معاركنا، عندما كنا نهاجم من أجل مجده، فعندما يكون القتل لازماً، من أجل القضاء على الذين لا يؤمنون بمُثل إيماننا المقدس، ونعاقب عنادهم، ألا يطلب الله عندئذٍ من أولاده، في مثل هذه الحالة أن ينسوا الوصية الخامسة وإن كان ذلك بألم؟».

التزمت إيزابيلا الصمت، فاقتلاع غير المؤمنين من غرناطة كان ضرورياً مثلما كانت الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة، وهو ما لم يكن لديها فيه أي شك. أما الذي يحصل هنا، وكل هذا الذي يطلبه منها كبير المفتشين...

تابع الأسقف كلامه متسائلاً: «ثم ألا تأتي وصية، *مجّد الرب إلهك*، في مقدمة الوصايا، وأن طاعتها واتّباعها، هي واجب ملزم لكل إنسان مسيحي. وأنه بناء على ذلك، فجميع الوصايا الأخرى، ومهما كانت قدسيتها، تتراجع إلى ما دون تلك الوصية؟».

هزت إيزابيلا رأسها بإعياء وقالت: «سأفكر في كل ذلك»، وأنهت بذلك حوارها، وقد استوعب توركيمادا رغبتها، فانحنى لها.

وعند الباب استدار باتجاهها وقال بنبرة تحمل حدة جديدة: «لا تترددي طويلاً يا صاحبة الجلالة، فإن أنت أطلت التردد، فقد يكون الوقت متأخراً. اليوم هو الخميس. وغداً مساءً سيكون لديكم البرهان الذي طلبتموه، فليكن اسم الرب مباركاً».

«ليكن اسم الرب مباركاً»، ردت إيزابيلا.

وقالت في سرها، إنما هو يحثها بمثل تلك القوة، لأنه طاعن في السن. ولعله يظن أن الله لن يمنحه سنوات طويلة أكثر على هذه الأرض، لذا فهو يود أن ينهي ما يعتقد أنها واجباته.

اثنان وسبعون عاماً، وهي لا تعرف أحداً وصل إلى هذا العمر بمثل سن كبير المفتشين، ويكفي أن يكون الله وهبه كل هذا العمر المديد، ليكون في هذا برهانٌ بأن الله يرى في توركيمادا أداته، ولكم يبدو سخطه مهولاً أيضاً، عندما يطلب ما يريد أن يناله.

ثم أغمضت عينيها.

غرناطة في نيسان / إبريل من الوقت الحاضر

كان المزاج الطيب، في الطابور الذي لا نهاية له للزائرين قد تدنى، بالنسبة لأولئك، الذين وقفوا في صف الانتظار أمام شباك التذاكر على الهضبة التي تنتصب الحمراء فوقها.

تناول طوقان طاقية شفافة ولوح بها كما لو أنه يرسل تحية قائلاً: «أتمنى لكم يوماً سعيداً، تباً لهذا الذي يدعونا للانتظار وقوفاً لساعات طويلة من أجل البحلقة ببضعة أحجار!».

لم يكن بمقدور أحد الجزم، إن كان الزوار الآخرون قد فهموا ما قاله أم لا، فقد تعرف بوسطن خلال أحاديث الزائرين إلى لغات عديدة مختلفة، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وأيضاً لغات أخرى لم يسمعها من قبل، أو أنه على أي حال لم يفهمها، ربما الدانماركية، أو الهولندية أو السويدية، وبالطبع اللغة اليابانية.

وكل هؤلاء البشر كانوا على استعداد للانتظار لساعات، وجميعهم راغبون في رؤية الحمراء، قصر المغاربيين الشامخ فوق المدينة. كان لافتاً أن يكون للعرب قصر هنا، في قلب أوروبا. لقد سمع بوسطن بذلك من قبل، من خلال أحد طلبة صف أعلى من دورتهم، كان قد قدم عرضاً عن القصر، أعده على الكومبيتر بطريقة (الباور بوينت power- point)، وعرضه بجهاز العرض الضوئي، في إطار الإستعداد والتحضير لهذه الرحلة. ومع هذا فلم يكن باستطاعة أحد التصور أنَّ العرب كانوا قد حكموا هنا لمدة سبعمائة سنة متواصلة. وأنَّ المغاربيين المسلمين، بنوا مدينة مليئة بالمآذن، وأنه ربما من بين

كل أولئك السواح الذين على الشاطئ بمسافة ساعة واحدة فقط، لا يعرف نصفهم على الأقل شيئاً عنها.

«ابقوا معاً!»، قالت السيدة هيلبرت، أما متدرب اللغة الإسبانية الخجول، فكان تلويحه بساعديه من دون كثير أمل، كما لو أنه أراد أن يبرهن، أنَّ حضوره كان فيه فائدة كبيرة، «من دوني لن يتمكن أحد من الدخول، أيها السادة!».

«لنعد إلى تحت!»، قال سيرغاي، وغمز بعينه إلى طوقان، «صياعة، وشرب قليل من *السيرفيتزا*، هل تأتي؟».

إلا أن مراقب المدخل كان قد أومأ بيده إيذاناً بسماحه بالدخول.

«عظيم»، هتف قدير ودار حول نفسه دورة كاملة ثم قال: «وهل لهذا ينبغي أن أسير نصف الكرة الأرضية».

أما بوسطن فلم يعد يصغي للحديث الذي جرى، كان شجر السرو يقف على جانبي الطريق الضيق، وكان من العلو بما لم يكن يسمح للشمس بالوصول إلى أرض ذلك الطريق المرصع بالموزايك، الذي يتسم بفنية فائقة، نتيجة رصف أحجاره السوداء والبيضاء بدقة بديعة تمنح الإحساس بأنها قد أنجزت للتو.

وتساءل بوسطن في نفسه إذا ما كانت قديمة حقاً، أو إذا ما كانت حقيقية فعلاً، وما إن كان الناس قد عرفوا بالمطلق مثل هذا الفن منذ ما يزيد على خمسمائة عام من الآن؟ وكيف تمكنوا، من العثور على تلك الأحجار المتساوية في كبرها ؟ وهل قاموا بشحذها؟ وكيف تمكنوا من فعل ذلك؟

«إيي، ألا تسمع! قدير يريد أن يعلم إن كنت تود الإسراع لاحتساء الشراب»، قال طوقان.

انقض بوسطن على كيس الظهر الخاص به والذي وضع فيه هاتفه المحمول مع النقود التي لديه، لقد شحنه في الليلة السابقة، وقد استغرب حينها أن يوجد في غرفة النوم مثل تلك التي في الـهوستال مآخذ للكهرباء من حيث الأساس.

«لا، للأسف كلا»، أجاب بوسطن.

«تباً، إنها قذارة يا رجل! أكاد أموت من العطش»، قال قدير.

«ابقوا معاً!»، نادت عليهم السيدة هيلبرت، «روبرت، قم أنت بالعد، ها قد وصلنا الآن إلى أمام الهدف الأول، *الخينيراليفي* المقر الصيفي للحكام المغاربيين..».

ولماذا كان احتياجهم لمقر صيفي أيضاً؟ فكر بوسطن، فتحتهم على سفح التل، وبين الأشجار كان يختبئ بناء الحمراء، أبراج لها ثغرات يصوب منها الجنود، وأبراج لها أسطح أنيقة المنظر، إنها قصور المغاربيين، ألم يكن لديهم هناك ما يكفيهم.

«... أجمل حديقة في العالم»، تابعت السيدة هيلبرت كلامها، «وانتبهوا بصورة خاصة لتوزع الماء في كل مكان، لقد تم جلبه بصعوبة إلى هنا بأقنية من سلسلة جبال سيرانيفادا، وهو نظام يسمى بالإسبانية أغوادوكت، سيلفيا؟ ما هو الأغوادوكت؟».

«ها؟» قالت سيلفيا، ورفعت نظرها مذعورة عن هاتفها المحمول، دوّرت اللبانة في فمها وقالت: «لم أفهم تماماً ما أردتِ سؤاله؟».

«من الأفضل لكِ أن تفهميني من الآن فصاعداً»، قالت السيدة هيلبرت، «سألقي عليك السؤال نفسه مساء هذا اليوم ثانية، واحتياطاً لذلك ينبغي عليك الاستعانة فيما بعد بكُتيِّب الإرشاد السياحي، كما عليكِ أن تبذلي جهداً

في قراءته، ليكون لزيارتنا إلى هنا الفائدة المرجوة، فما هو الأغوادوكت؟».

شدّ بوسطن ذراعيه على جسمه بقوة، فليس الآن وقت خربطة الأمور مع زملاء غرفة سكنه، واحد من الصف الأعلى قام بتقديم شرح لشبكة تمديد الأقنية المائية للمغاربيين بتلاوة كلامية مملة، وبيَّن كيف تعمل منظومة الأقنية المائية تحت الأرض وتحت الأحواض في الحمراء، فطلبة تلك المرحلة يمكنهم تقديم مثل هذه التوضيحات من غير أن يشعروا بالحرج، فهم هنا يتلقون المعرفة ويقومون بإعادة إعطائها للغير.

«ولهذا السبب كان لزوم الـ ***باتثيو دي لا أسيكويا***... »، قالت السيدة هيلبرت، لقد جاءت إلى هنا عدداً لا يحصى من المرات، بل ربما تحفظ كل ذلك عن ظهر قلب، بلاط أحمر رصّ بجانب أحواض مائية مربع، وعدد لا يحصى من النوافير على يمين ويسار الممرات، تنبثق ذؤابات مائها بدون انقطاع، صانعة أقواساً مائية على سوية واحدة لتتناثرمن ثم في وسط أحواضها وكأنها قبل انسكابها بقليل تريد ملامسة سطح الماء فيها بغاية الرفق، وبمحاذاة السور توجد سكائب فيها دغيلات بلون بنفسجي غامق من الـ (***بوغينفيللين***)، التي حفظ بوسطن اسمها، لأن أمه تحاول في كل صيف، إجبار نبتة مثلها، كلما كانت تبدو عليها علامات المرض، لإبقائها على قيد الحياة في شرفة منزلهم.

«... دورة أخرى»، قالت السيدة هيلبرت، «لن يمكن العودة إلى هنا ثانية، وانتم في أوقاتكم الحرة نادراً ما تفكرون بالصعود إلى هنا، لذلك دعونا نذهب من الآن إلى الحمراء».

حاول بوسطن أن يستظهر صورة المكان، فهو سيحدّث أمه عن ***البوغينفيللين***، فعلى الأغلب هذا ما سيكون محور اهتمامها، إذ كانت قد

قالت له إنَّ عليه أن ينتبه لكل شيء، كي يتمكن من أن يعيد سرد مشاهداته لها بدقة. وسيقول لها «لا أمل في نمو هذه *الـ الباوغي... البطيخة... لديك، إذ لا يمكن تصور ضخامة مثيلتها في الحمراء، وكم هي تبدو مزهرة»*.

هرول بوسطن مسرعاً بعض الشيء، وعند الوصول إلى الدرج كان الآخرون قد اختفوا، وبقي هو فقط وثلاثة من طلاب الصف الأعلى، وهو يظن، أنَّ هؤلاء يريدون في الحقيقة الانسحاب أيضاً، ولكن بهدوء.

«ما بالك»، قال أحدهم بنبرة غير ودية.

هزّ بوسطن رأسه بسرعة وما لبث أن تجاوزه، وقال لنفسه، لو كان معه آلة تصوير، لكان التقط صوراً لكل شيء هنا، كي يريهم هناك بعد عودته، كل ما رآه، ولكن ربما أيضاً لم يكن ليقوم بالتصوير حتى وإن توفرت له تلك الآلة. وبالقطع، لن يفعل ذلك عندما يقف الكل حوله ويحملقون به.

الحمراء في شهر نيسان /إبريل 1492

عندما ذهب توركيمادا، خرجت إيزابيلا إلى الباحة، كان شعاع شمس المساء قد انسحب وأبقى القليل من ضوئه على الواجهة الواقعة في جهة الشرق فقط، حيث الأروقة ذات الأعمدة المزدوجة، ***والأرابيسك*** الذي يزين ما فوق الأقواس، فصبغت أشعة شمس المساء كل ما وقعت عليه بلون أحمر. وكان هذا آخر ضوء ينبجس في تلك العشية قبل أن تحل العتمة، إنها قلعة الحمراء، قالتها بالعربية، مع أنها لا تعرف منها سوى القليل، إذ لم تعد من حاجة كبيرة لها بعد الآن.

ومن خلفها كانت صالة الأختين قد أصبحت في الظل، وكان السقف النجمي المزين بعدد لا يحصى من الحليمات الموشاة بالذهب واللازورد،

لماذا منح السيد الرب كل هذا الجمال لتصنعه بالذات تلك الأيدي غير المؤمنة؟ وكثيراً ما كانت تعيد طرح هذا السؤال على نفسها، كلما كانت تندهش من أناقة تلك المساجد: برشاقتها، وأحجارها المطرزة كالدانتيل، كما كل القصور التي بناها فيما بعد الحكام المسيحيون داخل بلدانهم في قشتاله وأراغون على نمط النموذج المغاربي حيث شيدت هي الأخرى أيضاً بأيدي المهنيين المغاربيين المهرة.

فلماذا يسمح الرب الإله أن تخرج كل تلك الروائع من بين أيدي من هم غير مؤمنين، إن كان هو نفسه، قد رغب في الوقت ذاته بأن يتم تدميرها؟

أم أن الحل يكمن في تنصيرهم، لعل هذا هو الأرجح، وهو ما لا يطلب توركيمادا أكثر منه، إنه التنصير، إلا أنهم على قدر من العناد غير المحدود، مغاربيون كانوا أم يهوداً. فعندما نطلب منهم التحول إلى معتقدنا فإنهم يتظاهرون، بأنهم يؤمنون حقيقة بما نؤمن به، فيذهبون للقداديس، ويأخذون مناولة العشاء الرباني، ويركعون أمام الصليب، ويصلون للسيدة العذراء. ولكن خلف أبواب منازلهم المغلقة، يسخرون من الكنيسة المقدسة ويتهكمون على الرب الإله، فيما هم يتابعون طقوسهم الوثنية. فإن كان هذا ما يفعلونه في كل إسبانيا، حيث يرتد اليهود إلى يهوديتهم فيصبحون ***كونفرسوس*** ويرتد المغاربيون إلى إسلامهم فيصبحون ***موريسكوس***، فلماذا ينبغي إذن أن يكون حالهم لدينا هنا في غرناطة، مختلفاً. وأنا، إن كنت أعلم بذلك، فهو أمر لا يمكن أن أقبله، وإلا صرت مذنبة مثلهم، لا بل أكثر ذنباً منهم، لأنني أعرف أكثر منهم ومنذ حداثتي، ما هو جوهر الإيمان الحقيقي.

توركيمادا على حق، لقد اختارني الرب، كي أوصل العقيدة الكاثوليكية الحقة حتى إلى أولئك الذين لا إله لهم، أما وقوع الضحايا فأمر لا بد منه.

سجدت إيزابيلا على الأرض، فصدرت طقطقة من تنورة التفتا الحريرية التي ترتديها، المصنوعة في الأندلس، والمطرزة بخيوط من الفضة التي جلبت من الميريا، «ليتقدس آسمكِ أيتها العذراء مريم، يا والدة الإله»، قالت إيزابيلا ذلك وهي ترفع صلاتها نحو السماء.

كانت هي الحاكمة على قشتاله وكان زوجها فرديناند يشاركها الحكم على أراغون. وكانت قد انتزعت للتو من غير المؤمنين آخر موقع لهم، إنها غرناطة الجميلة، زهرة جبال سييرا، التي أستُردت بعد قرون ومن جديد، إلى أيدي المؤمنين الحقيقيين. أما زوجها فكان يقلب شفتيه ساخراً كلما أرادت الحديث إليه عن أفكارها وعن شكوكها، وعن تهجير وتعذيب وقتل أولئك المعاندين، أو عند التحدث إليه عن همومها، أو عن فشلها في معرفة إرادة الله.

«لقد انتصرنا»، قال لها فرديناند، ومالاقا وألميريا والآن غرناطة أصبحت أيضاً لنا، ألا يعني لك هذا أننا أصبحنا أكثر غنى من قبل؟». لقد كان هذا هو الذي يرمي إليه منذ البداية، ففي هذا فقط كان يتركز اهتمامه، لذا كانت تتشكك أحياناً في خلود روحه، أما فرديناند فتابع مخاطبته لها قائلاً: «أليس هذا برهاناً كافياً لكِ على مشيئة الله، يا حمامتي الصغيرة الورعة ؟».

لم يقل ذلك بصوت مرتفع، بل قاله هامساً، ثم خر على ركبتيه مثلها.

ولكن من أجل أن تتحرر من شكوكها، ومن أجل الوصول إلى الحقيقة الناصعة، فيما يريده الله منها، لم يكن لديها سوى كاهنها.

«ليتقدس اسم العذراء مريم، والدة الإله»، همست إيزابيلا، «اغفري لي ذنوبي»، فغداً سيراقبون من فوق تلة الحمراء في الأعلى، أية أسطح في الـ ***خوديريا*** ستتصاعد من فوقها الأدخنة، وأي من تلك الأسطح ستظل السماء

فوقها زرقاء من دونها.

لقد جهدت سنوات طويلة من أجل أن تصبح ملكة، ولم يخطر ببالها قط حجم ما يترتب على هذا المنصب من أعباء.

«ارحميني، أرجوك أيتها العذراء».

-3-

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

ما يخص اختفاء كتاب إرشادها السياحي، كانت السيدة هيلبرت قد لاحظته في صالة الأودين، أي صالة السفراء والتي يسمونها بالإسبانية، *صالا دي لوس إمباخادوريس*، وذلك عندما أرادت أن توضح للمجموعة معنى افريز الجدار.

«لقد كان هنا في أعلى موجودات حقيبتي؟»، قالت السيدة هيلبرت وقد انحنت فوق الكيس الذي كانت تعلقه على كتفها طيلة الوقت، كيس مفتوح، وفي إسبانيا، فربما فكرت بالشائعات المتحيزة التي تتحدث عن لصوص الحقائب.

سُمعت خشخشة جامعة مفاتيح، ثم أخرجت على التوالي محفظة نظاراتها، ثم جزدان نقودها، وقارورة للتنشق برائحة النعناع، وكاد أن يختفي رأسها في عمق الكيس وهي في عملية بحثها تلك، «لا يمكن تصديق ذلك! أين تركته؟».

شاهد بوسطن، كيف دفع طوقان سيرغاي رافعاً بعد ذلك إبهام يديه الإثنتين عالياً في الهواء، ولكن إذا كانت السيدة هيلبرت قد جاءت إلى هنا أكثر من مئة مرة، فهي على معرفة بكل شيء هنا، لذا فما من طائل لفرحة الإثنين في هذا الوقت المبكر.

«روبرت؟ ألا تحمل واحداً معك؟».

هزّ متدرب اللغة الإسبانية الخجول رأسه نافياً.

تنهدت السيدة هيلبرت بأسف، «أوو كي، ليكن من دونه، عندما تلقون نظرة على الجدار، ماذا ترون فيه؟

تأوهت سيلفيا متذمرة، محاولة ببصقة على قمة سبابتها، إزالة أثر لطخة من البوظة عن تنورتها القصيرة. أما ييسم فكانت تضغط بإبهامها الأيمن بسرعة غير معقولة لكتابة رسالة قصيرة على هاتفها المحمول، متناسية الكلفة الباهظة للتراسل الدولي. وصبية أخرى من الصف العاشر كانت تهمس مع آخر من الصف الثاني عشر فيما كانت ترمي شعرها الأشقر إلى الخلف بيدها بين وقت وآخر.

«يعني؟ لا شيء؟ ألا ترون شيئاً؟»، سألت السيدة هيلبرت.

«يوجد ما يشبه النقش على الحجر»، قالت فتاة من الصف العاشر متطوعة بالإجابة، لم يقم أحد بالدوس على قدم زميله تهكماً أو الهتاف بكلمة برافو. فالجميع كان قد لاحظ على نبرة السيدة هيلبرت، بأن مزاجها قد هبط إلى ما تحت نقطة الصفر.

«رائع»، قالت السيدة هيلبرت، «شكراً لكِ، إلفيرا، هل من يوضح بدقة أكثر؟ ألم يستمع أحد منكم مؤخراً، عندما قدّم لكم أورخان مداخلته؟».

مدّ أورخان إصبعه، إلا أن السيدة هيلبرت لم تعد راضية عما يجري، «طوقان؟ قدير؟ أحمد؟».

«لماذا نحن بالذات؟ لماذا تعودين مرة أخرى لتتقصدينا، إيبي؟»، قال طوقان.

«ألست أنت من يذهب في عطلة نهاية الأسبوع إلى المدرسة القرآنية؟

أليس صحيحاً هذا الذي سمعته؟»، قالت السيدة هيلبرت، «هل تستطيع أن تقرأ لنا إذن ما هو الكلام المكتوب بالعربية على الجدار؟إنه كلام من القرآن؟ أنت إذن لا تستطيع؟».

«أووف!» قال طوقان

«***الله وحده هو الغالب***»، قال أورخان، وأشار إلى الإفريز المنقوش على الجدار، وتابع، العبارة تتكرر دائماً على الإفريز كله، ***لا غالب إلا الله***».

«تماماً»، قالت السيدة هيلبرت، «طوقان! من الأفضل لك أن تذهب للعب كرة القدم، إن كان لا يستقر شيئاً من دروس العربية في رأسك، «واستدارت للتو باتجاه الخارج نحو ***الباثيو***، من دون أن تنتظر، إن كان أحد سيتبعها أم لا.

«أووف!» ندد طوقان من جديد، وقد بدا، كما لو أن الأمر كان محرجاً له.

«هل لديها ما هو ضدنا؟»، سأل قدير، «لديها شيء ما ضدنا!».

«أخ، لا عليك، إنها ضد، من لا يركز انتباهه فقط»، قال سيرغاي، «إنها غاضبة، لأن هناك من سرق كتابها، لهذا السبب مزاجها معكر».

«لا يسرق أحد كتاباً من الحقيبة ويترك النقود فيها، يا رجل»، قال طوقان، «هذا أمر غير معقول، لقد نسيته في مكان ما، إنها تتقدم في السن وأصبحت تنسى».

البنات الثلاث من الصف التاسع وقفن أمام أحد الجدران وهنَّ يقمن بالتصوير، فصورة جماعية ربما ليست أمراً محرجاً.

على الأقل صورة بالهاتف المحمول، فكر بوسطن، لَمَ لم أتذكر ذلك عندما كنا قرب الزهور، ربما تكون الصور سيئة، ولكنها ستكون أفضل من

لا شيء.

«قفوا أمام الباب؟» قال بوسطن، سيرغاي أخذ يتمايل من خلف رأس قدير وهو يرفع إصبعين مفتوحين على شكل أذني أرنب، أما طوقان فوضع إبهاميه في فمه وشدهما باتجاه متعاكس نحو أذنيه، وحَوَلَ بعينيه.

ثم أخرج إصبعيه وصرخ: « هيا التقطها! أنا لا أستطيع التحمل أكثر وأنا على هذه الحالة».

ضحك بوسطن.

«صورة مخيفة»، قال لنفسه، إلا أنه أحس على نحو ما الآن، بأن هؤلاء هم جماعته.

الأندلس، نيسان /أبريل 1492

«يا حمامتي الصغيرة»، ناداها فرديناند، واتجه نحو الملكة من الخلف وأمسك عنقها بأصبعيه، أما إبهاماه فظلا يمسدان رقبتها بنعومة واحتراس إلى أن يقف زغب الشعر الناعم تحت المكان الذي كانتا تمسانه، ولكنه لم يشعر أنها تحسست أثر قبلته التي شمّ بها شعرها برفق.

لقد كان للتو عند واحدة أخرى، كانت تعلم بهذا دائماً، إلا أن ذلك لم يزعجها أبداً، طالما أنه يتصنع عدم حصول شيء من ذلك، أما هي، فكانت تتظاهر بعدم معرفتها، أو بأن ذلك لا يشكل أهمية لديها، فليمضِ في ذلك طالما أنه يستأنس بهذه اللعبة، ولكن فقط إن كان حريصاً على سرية علاقته وأن لا يجعلها موضع سخرية.

أما ما يتعلق بتواصل صمود حبهما، فقد كانت هي على يقين من ذلك، وكذلك هو أيضاً، فالرابطة بينهما كانت من القوة، بما لا يمكن فصمها،

إذ كانا يتقاسمان حلماً واحداً: إسبانيا، إنها إسبانيا موحدة لجميع الأقاليم، تنتهي إلى مملكة كاثوليكية، مملكة لمجد الرب.

«كما أسمع، فأنتِ لم تبعثي بهذا الدجال إلى الجحيم بعد؟»، سأل فرديناند.

«أنت تقصد ذلك *الجنوي*[1]»، أجابت إيزابيلا، بعد أن أبعدت يده عن رقبتها وبعد أن أدارتها لعدد من المرات في كل الإتجاهات.

«ألم نكن قد اتفقنا بأن نحاول معه؟»، قالت إيزابيلا.

جلس فرديناند على كرسي قبالتها، وكانت كرسياً من تلك التي بّدل المنجدون المغاربيون فرشها عقب الاحتلال، لقد أحبت ابتسامته دائماً، وهي ما زالت تحبها حتى عندما يتهكم في حديثه كما يفعل الآن.

«أنت تعلمين حق العلم، ومنذ البداية بأنني لم أكن سعيداً بذلك»، قال لها فرديناند، وبدت على نبرة صوته معالم الجد، إنها تحبه هكذا أكثر، ثم تابع، عندما منحنا هذا الـ (*كولون*) في شهر كانون الثاني /يناير بعض الأمل، ألم يكن هذا يا عزيزتي إيزابيلا بتأثيرسعادتنا بنشوة النصر، بعد احتلال الحصن الأخير للمغاربيين، الأمر الذي جعلنا ننتشي بنصرنا ونقتنع بمخططاته المجنونة ؟ على الرغم من قيام اللجنة بتقييمها مرتين، واعتبرتها أفكاراً متعذرة؟ أليست هي اللجنة التي أقمتها أنت يا حمامتي الصغيرة إيزابيلا، وأنت نفسك أردت الالتزام بها؟».

هزت إيزبيلا رأسها، وكانت تسأل نفسها مراراً، في أحيان كثيرة بعد ذلك، لماذا لم تقو حتى الآن على قطع مفاوضتها مع هذا الـ (*كولون*). إنه ثرثار. كما تمت البرهنة منذ أمد بعيد، على أن حكاياته التي كان يرويها عن

---

(1) جنوي: نسبة إلى جنوه، والمقصود به هنا هو كريستوف كولومبوس (المترجم)

استعداداته للسفر، كانت مختلقة وكاذبة، ولكن مع ذلك كان يوجد فيه أمر ما، لا تعرف كنهه....

«لا تنس أنه هو وعدنا بجلب كل ثروات ***كاتاييس*** وروائع ***سيبانغوس***». ردت عليه إيزابيلا، وهي تعلم منذ ثلاثة وعشرين عاماً ما كان يستأثر به فكر زوجها، «ألست أنت من يشتكي دائماً، من أنَّ الذهب الذي لدينا لا يكفي لتحقيق خططنا؟ فلو أمكنه اكتشاف الطريق إلى الهند».

«إن الطريق إلى الهند لن نوجده نحن»، أجابها فرديناند بغضب، «إننا نعرفه من زمن بعيد، وتجارنا يسلكونه منذ قرون، الطريق إلى الهند يبدأ من البحر الأبيض المتوسط».

«أنت تنسى السلطان العثماني»، ردت إيزابيلا، «أنت تنسى أنَّ الزمن قد تغير، إن الأمر يزداد صعوبة، فالانتقال يزداد تعقيداً عبر أراضي السلطنة التركية، سيما وأن مملكتهم تزداد اتساعاً».

نهض فرديناند واقفاً، «إذن علينا أن نكون هناك..!»، هتف قائلاً، ثم أخذ يمشي جيئة وذهاباً، «استمعي إلي، إيزابيلا! إنني لا أصدق كولون أبداً، لقد برهن العاملون في حقل الرياضيات في مملكتنا، أنَّ عليه الإبحار لمدة ثلاث سنوات، ثلاث سنوات على الأقل، من أجل اكتشاف الطريق الذي يقترحه للذهاب إلى الهند، إن حساباته كلها خطأ مطلق! فالهند الكبرى لا يمكن وصول الناس أحياء إليها، إن هم أبحروا من جهة الغرب، فبيننا من هنا، وبين الهند يمتد المحيط الواسع الذي لا حدود له، وفي الطريق إليها من هنا سيصاب المبحرون بالجوع، وسيموتون بداء الحفر، بعد أن يصابوا بالعطش أولاً، عليك أن تعي هذا كله!».

هزت إيزابيلا برأسها، «لقد فكرت فقط بأن ما يلزم لذلك ليس له كلفة

كبيرة، إنها فقط مليونا *مارفيديس*، أي 5000 قطعة من الذهب لتجهيز سفنه، فإن نحن خسرناها، فليكن ذلك، ولكن إن كان هو على صواب، فرديناند، فتصور أنت معي حجم الذهب، وفكر معي بأولئك الناس من غير المؤمنين الذين من واجبنا إنقاذهم في تلك البلدان التي تقع في ما وراء المحيط، فرديناند، أليس جلب كل أولئك إلى حظيرة الإيمان والتحول بهم إلى معتقدنا هو ما *يلزمنا به* واجبنا المقدس؟».

«هذا ما نستطيعه أيضاً، عندما نسلك الطريق إلى الهند من الشرق، إن كانت نفوس الناس تعنيك إلى هذا الحد»، أجابها فرديناند، بعد أن أعياه صبره. من الشرق أو من الغرب، ما هو الفرق في ذلك. ما يمكنه أن يقنعني من كل هذا هو كنوز تلك البلدان، وفقط كنوزها، وهذا ما يمكن الحصول عليه من دون قتال مع المسلمين في الشرق بعد احتلاله، ولكن هل ينبغي لهذا أن يكون الآن يا حمامتي الصغيرة؟ ألن نحصل على أي حال في وقت قريب على ذهب لن تأكله النيران؟».

نظرت إليه إيزابيلا، ربما لا تود أن تفهم ما يرمي إليه.

«عندما تنقضي المهلة»، قال لها فرديناند، «عندما يغادر البلاد أخيراً كل اليهود المتوارين في غرناطة، ويسلموننا مقتنياتهم، يا زوجتي العزيزة، فستتمكن حينذاك من ملء هذه القاعة إلى أعلاها بالقطع الذهبية، وحدسي يقول لي إننا ربما سننفذ بحق المغاربيين بعد ذلك المصير ذاته كما كان الحال مع اليهود، ولن نحتاج في هذه الحال يا حمامتي الصغيرة لكنوز الصين واليابان..

«لم أوافق على هذا بعد، ولا أريد أن أتعامل معهم بكل هذه الفظاظة»، همست إيزابيلا، «أنا لا أريد ذهبهم، بل أريد أرواحهم ونفوسهم».

ابتسم فرديناند، «سيكون من الأصعب عليك الفوز بها، وأخشى أنه سيتحتم عليكِ تفضيل ذهبهم».

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

بالرغم من فقدان كتاب الإرشاد السياحي فقد استغرق وجودهم على التل ما يقارب الساعتين، ثم منحتهم السيدة هيلبرت وقتاً حراً حتى موعد العشاء.

«وإن رغبتم تناولوا بعض الطعام خلال ذلك!» نادت عليهم، إلا أن أحداً لم يكن قد أصغى لما قالته.

«برغر[1]؟» سأل سيرغاي، وخلال ذلك انضمت إليه فتاتان من الصف التاسع.

«بيغ ماك؟ ليس بعيداً عن الفندق».

«ألهذا جئت أنا إلى إسبانيا، كي أفترس البرغر هنا؟»، قال قدير، إلا أنه مضى بالطبع مع الآخرين، أما بوسطن فكان موقفه في الوسط، ولسبب ما شعر، إنه بكل بساطة يتمتع بمزاج طيب.

كان طابور الإنتظار أمام المطعم لا نهاية له، وفور أن فرغت إحدى الموائد، جلست عليها الفتاتان لحجزها، «بالنسبة لي سلطة فقط!» نادت سيلفيا عبر الصالة، «هل سمعتموني؟ ومعها هذه الصلصة ذات اللون الزهري!».

قام بوسطن بثلاث نقلات لجلب الأكل إلى الطاولة، وثلاث كراسيَ كانت غير كافية لستة أشخاص، ولكن سيلفيا وييسم التمتا على بعضهما، وفصل الشيء نفسه كل من سيرغاي وطوقان أيضاً، أما بوسطن فلم يبال

(1) المقصود هنا تناول ساندويش (الهامبرغ (المترجم).

بالجلوس فظل واقفاً أثناء تناول طعامه، وكانت هذه ميزة عند أكل سندويش الهامبرغر.

«إنه طيب كما هو عندنا»، قالت سيلفيا وهي تلعق رؤوس أصابعها، بعد أن وضعت برشاقة آخر ورقة خس في فمها، ثم نبشت في كركبة موجودات حقيبتها اللماعة المطرزة، وقالت: «هاكم هذا».

لم تكن قد بحثت في حقيبتها عن منديل تمسح به يديها، فهذا سيكون أمراً خارقاً لعادتها، ولكنها وفي وسط كل ما كان على الطاولة من صوان وشوك بلاستيكية ومغلفات صغيرة ملحومة محتوية على الكاتشاب تتناثر حولها مناديل المائدة الورقية، ألقت سيلفيا بكتاب الإرشاد السياحي.

«هل جننتِ ؟» قال طوقان وهو يحدّق بها، «من أين لك هذا؟».

ابتسمت سيلفيا وسحبت في هذه الأثناء مرآة مطوية من حقيبتها وبدأت من ثم في إعادة تأطير الكحل حول عينيها.

«لا يمكنك أن تعتقد بجد، أني سأجلس اليوم مساء في غرفتي وأقرأ الدليل السياحي، فيما أنتم كلكم تمرحون في الطرقات، هل أنا غبية؟»، قالت سيلفيا.

«هذه سرقة! يا ناس!»، قال قدير، بوسطن لم يستطع الحكم، فيما إن كان في قول قدير إعجاب أم هو شعور بالصدمة، «لقد قمت بسرقته منها!»، تابع قدير هذه المرة بنبرة ساخطة.

أمالت سيلفيا برأسها قليلاً، ومسحت بأحد أصابعها ما حول عينيها ثم قالت، «فلتعده أنت إذن إليها!، إن كنت شاباً ودوداً بالفعل، ها هو ملقى الآن هنا».

«هل أنا غبي؟» قال قدير لائماً، فالتفت إليهم في هذه الأثناء بعض

السائحين.

«إذا أنتم أرجعتموه إليها، فستسألكم من أين جئتم به!»، قال طوقان، «لقد طق عقلك، حقيقة».

«يسم؟» ناداها سيرغاي، «هل تعيدينه أنتِ؟ بالنسبة لك، لن تظن السيدة هيلبرت في حياتها بأنك سرقته منها، قولي لها، أنك وجدته ملقى على الأرض هنا في القلعة، لقد سقط من حقيبتها، وأنت لم تدري بأنها فقدته سوى الآن فقط».

ضربت يسم على جبهتها، ثم قالت متملصة: «لا».

تنهد طوقان وقال: «من يأتي معي إلى البازار؟».

عندما هبّ الجميع وتوجهوا للذهاب خارجاً، ألقى بوسطن بالدليل السياحي داخل كيس ظهره، من دون أي تفكير بأخذه من قبل، بل كان قد فكر بالأساس بأخذ أحد أغلفة الكاتشاب فقط، إذ رأى أنه من الخسارة تركها على المائدة من غير مبرر، وإن كان عند أخذه للدليل لم يكن قد قرر بعد، كيف سيعيده إلى السيدة هيلبرت، ربما يضعه سراً في غرفتها عندما لا تكون موجودة فيها، أو قد يضعه في المكان الذي تجلس فيه على المائدة في قاعة الإفطار، أو حتى في أي مكان على المائدة.

الأندلس، نيسان/أبريل 1492

«ألا ينبغي أن يحسب هذا عاراً؟» غمغم الجندي، كانت ندبة حديثة العهد، تخط وجهه بالعرض، وهي ما زالت حمراء، وقد تحتاج لوقت طويل كي يبهت لونها، وربما يدوم ذلك لسنوات، بل قد تظل علامة فارقة على وجهه إلى الأبد.

لم يكن صوته واضحاً بتأثير الخمر، وكان الجنود قد خيموا في العتمة، وسط الفناء، أمام صالا دي لوس إمباخادوريس، كما لوكان قد بقي شيء هناك يستحق الحراسة، فالهدوء كان قد ساد منذ زمن طويل، ومع ذلك وقف الحراس أمام كل بوابة، من دون أن يكون تسليحهم الآن كاملاً، كما كان حالهم عندما استولوا على الحمراء من قبل بالرماح والسيوف والحراب، بعد أن انسحب منها آخر أمير مع قواته؛ إلى حيث كان الملكان الكاثوليكيان قد وعداه بأن يقيم إمارة له في براري جبال *البخاراس*، كتعبير عن الاستخفاف به، وقد كان هذا آخر أمير للحكام المغاربيين من أسرة *البوعبديل*، حيث أبعد لتلك الإمارة، وبوعد يقضي بعدم خلقه لأية متاعب جديدة فيما بعد.

«وإن كان هذا يعجب صاحبة الجلالة؟»، قال جندي آخر، كان هذا الأخير قد قام بلف فوطة وقام بتبريد قدميه في حوض النوفرة، وسط الفناء، «ليس من أحد يحق له الإدعاء بأن الملكة ليست راسخة في إيمانها، إن كانت هي نفسها تتسامح بما يجري في قصرها».

كانت الملكة قد ذهبت منذ وقت طويل إلى حرملك القصر كي تستريح، «عار!»، صرخ الجندي ذو الندبة بصوت متلجلج من جديد، «*ولا غالب إلا الله*»، آية قرآنية كتبت ألف مرة على جدران قصورنا الملكية، أمن أجل هذا قمنا بطرد غير الكفار من هنا؟».

«كأنك صاحٍ، وقادر على العدّ حتى الألف؟»، قال له جندي ثالث، ثم انقض على إناء الخمر، وهتف» في صحة ملكتنا! في صحة ملكنا!في صحة إسبانيا الموحدة متحررة من المسلمين واليهود!».

تردد الجندي الثاني بقول أي شيء آخر.

«ما بك، باولو؟ ألا تريد؟».

تناول الجندي الثاني إناء الخمر وهتف، «في صحة إسبانيا المتحدة» وأخذ جرعة من الإناء، ثم أعاد قدميه إلى حوض النوفرة من جديد.

نهض الجندي صاحب الندبة بصعوبة وأخذ يردد مولولاً وهو يترنح مع رمحه، «*ولا غالب إلا الله، ولا غالب إلا الله*». وأخذ يمشي مترنحاً في صالة السفراء ويقول: «وماذا سأروي إلى الكاهن في خلوتي معه على كرسي الإعتراف في المرة القادمة؟ هل أقول له إنني قمت بحراسة آية ملحدة ؟ هل أقول له بأنني قمت بحراسة آية من القرآن؟ وإنني».

«لا تفعل!»، صرخ به بابلو، «لا تفعل!» صرخ به ثانية، إلا أن الجندي كان قد مضى بالضرب على الإفريز الذي كتب عليه بالخط العربي الكوفي، مكسراً بلاط الخزف الذي يحمل تلك الكتابة كمن فقد صوابه، في حين استمر بابلو بالمناداة عليه «لا تفعل، لا تفعل».

إلا أن بلاطة من الخزف كانت قد سقطت على الأرض.

والآن قفز الجندي الثالث واقفاً، فأمسك بالجندي الهائج من الخلف، وصاح به:

«هل تبرأت من كل ما هو مقدس؟»، زمجر صائحاً به، «أنظر لما فعلته! ماذا ستقول الملكة بأمر كهذا عندما ستكتشف ما خرّبته أنت هنا؟».

حاول الجندي ذو الندبة التخلص من قبضة زميله، متابعاً صراخه، «ينبغي أن تُنزع جميعها من هنا، جميعها ينبغي أن تُنزع من هنا»، كان من السهل إيقافه لكثرة ما شربه من الخمر، لقد أصبح في حال يصعب عليه الوقوف على قدميه، ولكن، عندما انحنى من أجل التقاط بلاطة الخزف وتخبئتها في حزامه كتعبير عن انتصاره، كاد يسقط أرضاً.

«ما الذي يحصل هنا؟»، سأل القائد عبر البوابة بجانب فناء دي لاس

أراياناس التي جاء منها الضجيج، كان القائد بكامل سلاحه كما هي عادته، حيث يده اليمنى تمسك على الدوام بمقبض سيفه.

«يبدو أن هذا الرفيق قد تناول جرعة أكثر مما ينبغي، سيدي القائد» قال الجندي الثالث بصوت فيه نبرة متزلفة، وكان يرغب في أداء التحية لقائده. إلا أن الجندي ذا الندبة كان يريد التملص من يدي زميله، لذا كان بحاجة إلى يديه الإثنتين، «كنا نريد إعادته إلى المقر، ولكنكم وكما ترون، فهو يرفس بقدميه ورجليه».

سرح القائد ببصره عبر الفناء. كان كل شيء ساكناً.

«لا تتعلق المسألة أنه بضوضائه هذه قد يوقظ جلالتها»، قال القائد، «فأنتم تعلمون أنني متساهل في تعاملي معكم، إذ كنتم قد قاتلتم غير المؤمنين بضراوة، كما أنكم عانيتم كثيراً، ولكن عندما تستسلمون للخمر إبان فترة حراستكم».

كان القائد على دراية بالطبع أن احتساء الخمر يتم في كل مكان، إذ كيف سيتحمل الجنود الأيام والأسابيع والشهور إذن، بعيداً عن الزوجة والطفل، وبعيداً عن القرية وعن الآباء والأمهات والأصدقاء، وفي كل يوم يقفون للحراسة، دون أن يتسنى لهم في أوقات فراغهم سوى المقامرة بلعب النرد سراً، كما يعلم بأن هذه اللعبة ممنوعة لأنها من عمل الشيطان، لذا كان عليه بالطبع أن يتصنع عدم سماعه أو معرفته بذلك، من أجل أن يتمكن بين وقت وآخر أن يقدم نموذجا لتطبيق النظام يحتذى به عند الضرورة، وسأل نفسه، إن كانت اللحظة المناسبة قد حانت الآن من أجل إفهامهم ذلك.

«سآخذه إلى المقر، سيدي القائد»، قال الجندي الثالث، بعد أن أحاط المخمور بذراعيه، «إنني أتعهد بأن لا يحدث هذا ثانية».

هذا أفضل، فكر القائد في نفسه، وهو ما يعرفه جماعتي أيضاً.

جاء بابلو حافي القدمين وحيا القائد، ثم أمسك بزميله من الجانب الآخر. فإن اكتشف القائد تهاوي بلاطة الخزف من حزام زميله المترنح، فما من أحد يعلم مقدار العقوبة التي قد يوقعها به.

-4-

«مرة أخرى خطاب من هذا الجنوي [1]؟»، سأل فرديناند، وبصق بزرة تمر مجفف من فمه نحو الباحة، كان رذاذ الماء المندفع من النوافير يلتمع تحت شمس الظهيرة عاكساً كل ألوان قوس قزح.

هزّت إزابيلا رأسها إيجاباً، وأعادت الرسالة المطوية إلى الخادم، «إنه لا يكل بإلحاحه» قالت موجهة كلامها إلى فرديناند، ثم تابعت»، هذا المهاجر لا يكف عن طلب استقباله، مرة واثنتين وثلاثاً، وكأنه ليس لدينا قضايا أخرى غير هنده [2] المزعجة، هذا عدا عن طلباته التي تجاوزت حدودها».

أصابت بزرة التمر التالية أحد أسود النوفرة على رأسه؛ فضحك فرديناند، «والآن يا حمامتي الصغيرة، دعيه يتحرق غيظاً، فأنت الملكة». هذه المرة كانت بصقته لبزرة التمر قد أخطأت مسارها فسقطت في ماء حوض النوفرة، ثم تابع كلامه، «وأنتِ من يقرر، وليس هو، هذا المهاجر، لم يعجبني سلوكه منذ البداية».

ثم أشار للخادم كي يحضر له طبقاً آخر من التمر المجفف.

«أوليس من خبر عن الأمير؟»، سأل فرديناند. «عندما كنت أنظر إليك خلال قراءة الخطاب، ظننت للحظة، أنه ربما كان الخطاب منه!

(1) نسبة إلى مدينة جنوة الإيطالية (المترجم)

(2)أي ليس له سوى الحديث عن بلاد الهند والوصول إليها وكأنها قضيته الأولى (المترجم).

كيف حال يوهانّا؟».

«إنها ابنتك أيضاً!» قالت إيزابيلا، إلا أن فرديناند أزاح تلميحها المُتَّهِم جانباً، فالأب لا يكون بالضرورة مؤتمناً على أسرار ابنته، بل يكفي، أن يشغل باله بزواج مناسب لها.

«هل ما زالت مصرة على موقفها ؟» سأل فلرديناند، «لقد أصبحت في الثالثة عشرة من العمر، وعليها أن تدرك، أن مصلحة المملكة ينبغي أن تؤخذ بالاعتبار، فإن لم تفهم ذلك، فلندعها الآن».

نهضت إيزابيلا وجلست بجانبه، تناولت حبة تمر من الصحن وقضمتها بحذر، ثم داعبت ساعده.

«ليس دائماً يجمع القدر اثنين بسعادة معاً، كما فعل معنا»، ومالت مقتربة أكثر من زوجها، واستشعرت توثب عضلات ذراعه، ربما يحسن الآن الانصات إلى حديثه عن آخر محظياته؟ إلا أنه كان يحفظ لها على الدوام مكاناً كافياً لديه.

«ستتعلم يوهانّا كيف تحبه، لأنها يجب أن تحبه»، قالت إيزابيلا ضاحكة وابتعدت عنه قليلاً على نحو تلقائي، «إنها ابنتنا، ونريد أن نأمل بأن يرينا فيليب وجهه قريباً».

كانت بذور حبات التمر تسبح أولاً في حوض النوفرة ثم لا تلبث أن تستقر في القاع، وفور مغادرة كل من الملك والملكة الباحة معاً، قام أحد الخدم بانتشال البذور الغارقة.

«لم يكن من السهولة بمكان توحيد هذا العرش»، قال فرديناند، «ونأمل أن تتم المحافظة عليه وحمايته من قبل الأجيال اللاحقة».

غرناطة، نيسان /أبريل، في الوقت الحاضر

كان تزاحم الزوار شديداً في القيصرية.

مظلات، قناديل، أغلفة طراريح مطرزة بخيوط لماعة، فوط هندية مطبّعة مصنوعة من القطن، إكسسوارات للزينة. كان الزقاق الضيق قد تم ملء جانبيه من اليسار واليمين بالسلال والأطباق المليئة بالسلع التي وضعت على الأرض أمام واجهات المحلات، مما جعل الزقاق أكثر ضيقاً. السجاجيد منشورة فوق الرؤوس على كوابل النور، مشدودة على نحو عرضي مع الزقاق، إطارات للمرايا مصبوبة من المعدن تم تعليقها على جدار السور، ولافتة كتبت بخط اليد تقول (بازار الشرق)، وبين كل هذه الأشياء عُلقت أعلام ألمانيا وبريطانيا، على دعامة الباب العليا لصيقة تبين نوع بطاقات الإئتمان المقبولة لتسديد قيمة المشتريات.

«يجنن!»، قالت سيلفيا بتعجب «بيسي، انظري الأقراط!».

«حلو!»، صرخت بيسم، وهي تقلّب بين يديها دباً مصنوعاً من القماش المخملي، «هذا سآخذه إلى أختي الصغيرة!».

«نسوان!»، علّق طوقان، وهو يدير مقلتيه بسخرية.

«لماذا لا يعجبك المكان هنا؟»، سأل سيرغاي، «المفروض أنك تشعر وكأنك في بلدك، إن هذا يشبه ما هو في تركيا، أليس كذلك؟».

«هل طق عقلك؟» قال قدير، «هل أنت أهبل؟».

«اترك البنات يتابعن تبضعهن»، قال طوقان، «دعنا نجلس خارجاً في هذه الساحة التي تحمل آسماً غريباً، لنشرب هناك *السيرفيتز* !».

«*بيب رامبلا*»، قال بوسطن، ولكنه أسف مع نفسه لما قاله، وتمنى لو أنه

عض لسانه، قبل النطق بذلك.

«تماماً، هذا هو الإسم الأهبل المكتوب على الساحة»، قال طوقان، «ولكن شرب *السيرفيتزا* الإسبانية هو نوع من التعرف على أهل البلد أيضاً، ألا ترغب هيلبرت أن نقوم دائماً بلعب دور الناس المحليين، فلو قمت بتقديم عرض في الفصل، كنت سأطرح سؤالاً: «هل السيرفيتزا الإسبانية أفضل من البيرة الألمانية؟»».

ضحك سيرغاي وقال: «دعنا من ذلك».

تراجع بوسطن خطوة إلى الوراء قليلاً، كان يريد من جهة، أن يلفت انتباههم، فيلتفت أحدهم إليه ليقول: «إيي، صغَيّرْ، ما بك؟ ألن تأتي معنا؟»؛ ولكنه في الوقت ذاته كان يريد الإنسحاب من دون أن يحس به أحد، فهو لا يريد شرب البيرة، وهو لم يذق طعمها أبداً.

«إيي، صغَيّرْ، شو الحكاية؟»، قال طوقان.

أحمَّر وجه بوسطن، «أريد أن ألقي نظرة ثانية، عما يجب أن آخذه لأمي»، أجاب ثم تابع: «سيكون عيد ميلادها عما قريب».

لم يكن ما قاله صحيحاً، ولكن هل يمكن أن يجلب بكل بساطة لأمه شيئاً من مثل هذه الأشياء العادية الموجودة هنا؟ لو تعلق الأمر بأخته الصغيرة، فقد يكون هذا ممكناً، أما بالنسبة لأمه؟ إلا أنه لم يستطع أن يكون واثقاً من قراره.

كان طوقان قد استدار للخلف، من دون أن يعلق بأية كلمة، ولوح بيده مودعاً، ولكن كان بإمكانهم سؤاله، فربما يتمكن مساء من شرب البيرة معهم.

مصابيح عربية متميزة بعلو خمسة أمتار فوق الشارع، منازل الدور

الأول، لها نوافذ حديدها مقوس على شكل حدوة حصان، ومنحوتات بالأرابيسك من الحجر الرملي الأحمر تزين الواجهات البيضاء، وقلة من السواح فقط، يلقون بالتفاتة إلى الأعلى، فالبازار بالنسبة لهم، فيه ما يكفي من جمال، إلا أن بوسطن أحسّ من خلال هذا المشهد بسعادة غامرة لا يمكن تصورها.

بالطبع لم يكن كل ذلك حقيقيا مثلما بني بالأصل، وكانت ميريام قد ذكرت عندما تحدثت عن المدينة القديمة في كلمتها أثناء الدورة التحضيرية لهذه الرحلة، أنَّ البازار كان قد احترق قبل مئة وخمسين عاماً، ولكنه مع ذلك بدا رائعاً، على النحو الذي تمت إعادة بنائه فيه من جديد، وربما ستعلق على ذلك أمه عندما يعود للمنزل، بالقول، إن كل ذلك لا ذوق فيه، وهو لن يعارض رأيها حينئذ بالطبع، أما هو، فقد أثار كل هذا إعجابه، وشعر بأنه كالمخمور لفرط سعادته، وكما لو كان قد تناول بعضاً من ***السيرفيتزا*** الإسبانية، ولكنه لن يخبرها بالطبع بكل ذلك.

في نهاية الزقاق تظهر فجأة بوابة مزدوجة، بوابة هائلة في علوها منقوشة بالأرابيسك على شكل حدوة فرس تعلو البوابة الأولى، المنخفضة والبسيطة تمثل المدخل الثاني، وفوقها نافذتان، إنه ***الخان القديم***. وهو خان حقيقي، إنه حقيقي تماماً. إنه ***الفندق***. وهو قديم وعتيق، وقد احتفظ بقدمه إلى الآن، إنه المكان الذي كان يستريح فيه التجار، عندما كانوا يأتون إلى غرناطة من أجل تجارتهم، فهنا كانت حيواناتهم تشرب الماء، وهنا كانوا أيضاً يؤدون فريضة الصلاة الأولى عند الفجر.

حار بوسطن أولاً إلى أين سيتوجه، إلا انه قرر أخيراً ألا يدخل الآن، لقد قرر التوجه للشراء أولاً.

توقف أمام إحدى البسطات، بعض الأمهات يأخذن الأمر ببساطة: سيان ما يجلبه المرء معه لهن، فهن يسعدن به، وأمهات يصعب الأمر معهن، إذ لا يعرف أي واحد من البشر، ما يمكن أن يعجب امرأة في الأربعين من عمرها.

أدار بوسطن المنصة الدوارة لدى البائع التي علقت عليها الحلي، قد تكون كبيرة السن على مثل هذا القرط الطويل، أو قد لا يعجبها لون الأحجار التي عليه، ستقبله، وستحتضنه بين ذراعيها، وستنظر إلى القرط بإعجاب ثم ستقول له: «شكراً، شكراً لك، بوسطن، إنها جميلة!»، ولكن لن يراها ترتديه بعد ذلك أبداً.

لذا فدفع النقود في هذه الحالة لا طائل منه.

والثياب فيها مجازفة مشابهة، إذ لا يمكنه رؤية أمه تسير في الشارع وهي ترتدي تي شيرت مطبوع عليه بالإنكليزية«They went to Granada and all I got this lousy T-shirt»، وإهداءها كلاماً هزلياً مشابهاً آخر هو أيضاً لا يمكن أن يقدم عليه، أما القناديل والطراريح والسجاجيد فكلُّها غالية، وستجدها على أي حال مبتذلة.

إلا أنه وقبل أن يستدير خارجاً وقعت عينه على علبة الكرتون التي تحتوي على قطع البلاط الخزفي: عليها رسومات باللون الرمادي والأزرق، أغصان ناحلة مورقة متداخلة مع بعضها البعض؛ أزهار وسعف نخيل، وأشكال هندسية معقدة إلى ما لا نهاية، ولكنها مع ذلك تبدو واضحة في زخرفتها وهي غير ثقيلة الوزن، ربما قد تعجبها هذه، هذه هي التي تريدها بالتأكيد، تماماً، هذه هي، وهي ليست ثقيلة.

تناول إحدى البلاطات بين يديه، ونظر إلى سعرها، إن اشترى أربعاً منها

فستستخدمها أمه كصحون تحت الكؤوس، لقد تم تبطين وجهها السفلي بقماش لبادي رقيق جرى لصقه، وسيترتب على إقدامه على شرائها، اعتذاره عن شرب الـ *سيرفيتزا*، فهدية عيد الميلاد كانت غالية على نحو جنوني.

انتقى بوسطن القطعة الأجمل ووضعها على حدة، ثم تابع البحث عن قطع أخرى، كانت القطع متشابهة ولكن باختلافات قليلة فيما بينها، ولكنه سينتقي الأجمل من بينها.

علبة الكرتون المجاورة للأولى، انتبه إليها، بعد أن كان قد انتقى كل ما سيأخذه، كانت علبة الكرتون شبه فارغة، قطعة واحدة بقيت فيها، وليس من عجب في إهمالها من دون اهتمام أحد بها، كانت الرسوم التي عليها شاحبة بسبب الغبار المتراكم عليها، وهي ليست بلاطة كاملة بالمعنى المفترض، فكر بوسطن لنفسه، إنها أشبه بتلك التي كانت تحمل الزخرفة العربية التي رآها فوق في الحمراء، أو هنا فوق النوافذ القوسية.

انحنى إلى أدنى قدر ممكن في عمق علبة الكرتون ونفخ فيها، فارتفع عمود من الغبار للأعلى وعاد ليستقر في عمق علبة الكرتون من جديد، من سيشتري مثل هذه.

ومع هذا ولسبب ما، ثمة ما يدعو للأسف، إذ لو كانت مكتملة، لكانت هذه البلاطة ربما ذات قيمة خاصة، إن الزخارف التي على سطحها الأمامي تبدو مثل رسوم أحرف عربية، فإن كانت حقيقية، فإن أمه ستسعد بها أكثر من تلك البلاطات الجديدة التي انتقاها، أما إن كانت مقلدة، فإنها ستعتبرها مبتذلة. فهل يستطيع أحد أن يحكم، ما إن كانت من هذه أم من تلك؟

انقضّ بوسطن على علبة الكرتون.

الأندلس، نيسان /أبريل 1492

«يا غزالتي»، نادتها آمّي بتوسل، ثم ركعت أمام الديوان وبدأت بتدليك قدمي الأميرة، «إنهضي يا ضوء قمري!».

«إنك تتحدثين كما يتحدث المغاربيون»، قالت يوهانّا بنبرة غير ودّية وسحبت قدميها نحو ذقنها، غطت آمّي ضيقها، بإسدال تنورة الأميرة الحريرية الطويلة حتى أسفل قدميها.

«إنك ستقابلينه» قالت لها آمّي، لقد قرر والداك أن تتزوجيه، ستكون رابطة زواج رائعة، وفي منتهى الحكمة! فأنت ستتزوجينه، وشقيقك سيتزوج أخته، لا يمكن أن تكون الرابطة بين أسرتيكما وبين قشتاله وآراغون، ومع هابسبورغ في بورغند وفي فيينا أوثق مما ستكون عليه بعد الآن، فما الآتي الذي يمكن أن تخشاه أسرتكم فيما بعد».

«أنا لا أخشى أحداً في جميع الأحوال»، قالت يوهانّا، «أنا لا أخشى سوى هذا الأمير! قولي لي آمّي! هل أمرك أحد آنذاك بمن ينبغي عليك أن تتزوجيه؟ كوني صريحة معي!».

عبّرت آمّي عن محبتها ليوهانّا بملامسة خدها، إلا أن يوهاننا استدارت منفلتة من تحت يدها نحو الجدار، فتابعت آمّي موجهة كلامها إلى يوهانّا أنا لست بأميرة يا ضوء قمري، ولا يتعلق بي أمر أن يعم السلام بين البلدان، ولكن هذا الأمر يتعلق بك وبأخيك».

«على يوهانّا إذن أن تتزوج من الهابسبورغي!» قالت الأميرة موجهة كلامها للجدار، «لأنه سيكون في وقت ما فيما بعد ملكاً، فليتركوني وشأني. فأنا ما زلت في الثالثة عشرة من عمري، وما زال أمامي الكثير من الوقت».

«إنه وسيم جداً، هذا المدعو فيليب»، قالت آمّي مداعبة، «يقولون إن

شعره أشقر يميل للحمرة، وعينيه زرقاوان، ويكبُرُكِ بعام واحد فقط».

«إن هذا هو الأقل مما أنتظره!» قالت يوهانّا، استدارت نحو آمّي وحدقت بسخط في وجهها.

«إن الشعر الأشقر سيسقط عندما سيتقدم في العمر، والعينان الزرقاوان ستصبحان معكرتين، فماذا سيتبقى لي في النهاية؟ من الأفضل لي أن أدخل الدير».

«أخ، كلا يا حمامتي الصغيرة، يا غزالتي!»، خاطبتها آمّي يائسة، «لن يكون الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة!»، قالت.

«ينبغي لهذا أن يسعد أمي»، قالت يوهانّا بعناد، «وماذا لو ذهبت للدير!»، قالت يوهانّا، «إنها تركع على ركبتيها دون توقف طيلة النهار، وليس من أحد ورع في تقواه في نظرها، بما فيه الكفاية، إذهبي إليها وأخبريها بأنني لن أتزوج هذا الهابسبورغي[1]».

«آخ، ياصغيرتي يوهانّا، يا محبوبتي!»، خاطبتها آمّي.

«لا تكوني متصلبة في موقفك هكذا! فهو ليس هنا بعد، ولربما تحبينه بعد ذلك بشدة مثلما تحبين قطعة الخبز الحلوة المعجونة باللوز».

حدقت بها يوهانّا بنظرة ساخطة، ثم قالت «آمل أن يهاجمه اللصوص في طريقه إلى هنا، بل أرجو أن يطعنه قطاع الطرق ويسرقوا منه ماله، ويقطعوا رأسه»، أرجو أن يموت بكل الوسائل، كي لا يستطيع والدي أن يطلب مني مرة أخرى أن أكون زوجة له».

«آخ، يا قمري»، همست آمّي، «يا قمري المسكين!».

---

(1) المقصود من آل هابسبورغ الملكية. (المترجم)

غرناطه، نيسان/ أبريل، في الوقت الحاضر

جلس مانويل كورازون في القسم الخلفي من دكانه وهو يراقب الصبي اليافع.

كان الطقس رائعاً طوالَ النهار تقريبا. اندفع السائحون في الأزقة، بالرغم من أن الوقت ما زال مبكراً لوقت السياحة الحقيقي، فعليه أن يطلب طراريح جلوس، وأيضاً حُلياً من تايوان، فهذه تجد إقبالاً عليها كما يبدو، في هذا الموسم المبكر من السنة، إحدى السائحات لوثت زوجاً من الأحذية الحريرة المعقوفة الرأس بسبب قطرة سائلة سقطت من ذيل خرطوم البوظة الذي تأكله، رافضة إثر ذلك شراءه، فإن كان الزقاق بهذا الضيق، بحيث لا يستطيع الناس العبور إلا بصعوبة، فالمرأة تجد نفسها في هذه الحالة غير مذنبة.

لقد شتمها مانويل، لا بل صرخ في وجهها، لا يستطيع المرء منع السائحين من تناول البوظة والمرطبات خلال مجيئهم إلى السوق، كما لا يمكن منع الأطفال من أن يمسوا تلك السلع الحساسة بأصابعهم الدبقة، وبالطبع فإن الخسائر المترتبة على ذلك قد تم حسابها بضمن الأسعارمن قبل.

لقد طال مكوث ذلك الصبي لوهلة غير قصيرة، إنه واحد من أولئك الصبية الهادئين الخجولين، إنه بالتأكيد أكبر سناً من الصورة التي يبدو عليها، وهو بالتأكيد أيضاً ليس من أولئك الذين يؤذون أو يخبئون إحدى السلع سراً لديهم، ثم يختفون في الزحام.

تقدم مانويل خطوة للأمام نحوه، كان الصبي قد أمسك ببلاطات الخزف، وقد انتقى منها ما دلّ على أن ليس لديه الكثير من النقود، ربما يمنحه مانويل بعض التخفيض، لكن من المضحك بالأصل مقدار الثمن الذي يطلبه لقاءها.

تقدم مانويل خطوة أخرى نحو الخارج، أينحني الصبي الآن حقاً فوق علبة الكرتون؟

فتح مانويل فمه، يريد التكلم إليه.

لكنه توقف، أكان هذا ذنبه؟ وما أدراه، ربما كانت هذه مشيئة الله.

استدار من جديد وعاد ليختفي في عمق متجره، نظر إلى الجدارالخلفي وعدّ حتى المئة.

وعلى نحو من الحذر، ذهب لخارج متجره مرة أخرى، كانت البلاطات الأربع ما زالت موجودة.

أما البلاطة التي كانت وحدَها في علبة الكرتون فقد اختفت.

وقد اختفى الصبي معها أيضاً.

-5-

الأندلس، نيسان /أبريل 1492

إن أول ما أحس به بوسطن، هو الحرارة، ثم لاحظ بعد ذلك أن بلاطة الخزف التي كانت بين يديه قد اختفت، هل تركها تسقط منه؟ ولكنه لم يسمع صوت ارتطامها، لقد أصبح الضوء فجأة أكثرسطوعاً.

تلفّت بوسطن حوله، هل تم إطفاء قناديل الإنارة؟ لماذا؟

لم يكن الحال هكذا، وهو أمر يدعو للتفكير، بين ما كان يستوعبه ويدركه من قبل وبين ما لم يعد يستوعبه من بعد، لم يستغرق الزمن سوى جزء من الثانية، بين لحظة ما كان من قبل وبين لحظة ما بعد.

لقد اختفى الزقاق، وهو ما زال منحنياً كما كان منحنياً من قبل فوق علبة الكرتون أمام المتجر في البازار، ولكنه الآن فوق طريق مفروش بالرمل الأبيض، يتجه صعوداً بين أشجار الصنوبر والسرو، وهو عريض بما فيه الكفاية، كي يسمح للشمس بأن تنفذ إليه.

الأمر الثاني الذي أحسه هو شعوره بالغثيان، كما لو أنه على وشك الإقياء، في حين أن الأفكار كانت تدور في رأسه كالدوامة، فمشاعره، وكل شيء حوله يدور مختلطاً عليه.

لا، لا، لا! فكر بوسطن، وتشبث بهذه الكلمة بثبات، فهي أول كلمة ومضت في ذهنه فأمسك بها، لا، لا، لا! وشعر بأن تردادها يساعده، لقد

كانت هذه الكلمات في الحقيقة مثل قشة ظل يتمسك بها، لا، لا، لا. وقد كانت هذه فكرة، تمسك بها، لأنه أراد أن يفكر. كان كل شيء في ذهنه يدور ويتشابك، على نحو عشوائي، ولا يستطيع هو استخلاص شيء من كل ذلك، سوى البلبلة والفوضى.

لا، لا، لا، كان يسير مترنحاً على جانب الطريق من تحت الأشجار ويردد على الدوام باحتداد، لا، لا، لا.

ثم استلقى على سجادة من إبر شجر الصنوبر، فيما كانت الشمس ترشح من خلال الأغصان المتناثرة من فوقه، تنفس بسرعة وبقوة، كان قلبه يدق، وكأن كل دقة منه تريد أن تسبق التي قبلها، لا، لا، لا. وأيضاً، شمس، شمس، شمس، إبر صنوبر.

إبر صنوبر، فكر بوسطن ملياً، إهدأ، قال لنفسه، إهدأ، إبر صنوبر، هذه غابة.

شعر من جديد بالغثيان، وفي الوقت نفسه شعر بأن قلبه أخذ يدق أبطأ، صنوبر، هذه غابة.

أفرغ ما في جوفه، كاد أن يختنق، كان مستلقياً على ظهره، لقد أَصبح تنفسه أكثر هدوءً. هذه غابة.

أجبر نفسه، على التجوال ببصره في ما حوله، قمم متوهجة، رائحة الصنوبر، وهي تشبه رائحة الصيف، تحسن حاله، فكر بوسطن لنفسه، إنني أرى كل شيء وأفهمه، ليس مرة أخرى هذا الدوار في الرأس، إن كل شيء على ما يرام، هذه غابة، إنني مستلقٍ على الأرض، أستطيع رؤية وفهم كل شيء، ليس مرة أخرى هذا الدوار في الرأس.

تنفس ببطء، هذه غابة، ولكنني قبل قليل كنت في الزقاق.

لا، لا، لا. تماسك، شمس، شمس، شمس.

لم يأت الدوار مرة أخرى. قلبه ما زال ينبض، تنفسه متلاحق ولكن ببطء، إلا أن الدوار لم يرجع إليه ثانية، هذه غابة، وهو يدرك أنها غابة، وطالما أنه يدرك أين هو، وطلما أنه يشعر بوجود رأسه معه، كما لو كان بمقدوره أن يفكر، فإن كل شيء على ما يرام.

أغمض بوسطن عينيه، أخذ شهيقاً عميقاً، الأرض لا تهتز من تحت ظهره، والرائحة ما زالت مثل رائحة الصيف، فعندما سيفتح عينيه، يود أن يبقى مستلقياً على الدوام في هذه الغابة من الصنوبر.

ومن مكان ما من البعيد كان يسمع جلبة، كما لو كان يتم قرع معدن على معدن آخر، صوت، كان نهيق حمار يأتي من بعيد.

ترك عينيه مغمضتين، وسمح لأفكاره أن تسرح كما تشاء، الدوار لم يعد إليه ثانية. وهو يستوعب ما كان في هذه الجلبة من تميز.

ليس من ضجيج لمحركات، فكر بوسطن، وكان في الوقت ذاته مستغرباً، وسعيداً أيضاً بأنه يستطيع استيعاب ما يدور حوله وبأنه يدرك ذلك في ذهنه، وهو ما يعني أنه اكتشف عودة عقله للعمل من جديد، فكم ينبغي أن يكون عمق هذه الغابة كي لا يتمكن من سماع ضجيج لمحرك. ومع ذلك تطفو في الجو سحابة من الضجيج، أصوات، أخذ ورد من الضجيج غير المألوف.

حسناً، إنه يستطيع التفكير الآن، هذا جيد، فلو عاد هو نفسه كما كان، ما كان لكل هذا الأمر المروع أن يحدث.

فتح بوسطن عينيه، وكانت الشمس ما زالت تطل عبر أغصان الصنوبر.

غرناطة في نيسان/أبريل، في الوقت الحاضر

لا يبدو أن ذلك ينطوي على أهمية، كان يعدّ دائماً حتى المئة، كم من مرة كان الزبائن يختفون، عندما يتأخر هو بالخروج من داخل متجره، فليس كل من يعاين السلعة، لوهلة ما قبل أن يرجعها إلى مكانها، ينبغي أن يقدم على الشراء إثر ذلك.

ولكن هذا الأبله الصغير، أخذ بلاطة الخزف معه ومضى، فكر مانويل، وكأنه كان يحاكم نفسه، ربما كان ينبغي أن يكون حرصه أكثر، لقد بدا الصغير غير مؤذٍ، ولكن ها هو يتبين أنه لم يكن سوى لص.

تناول علبة الكرتون، فمزّقها من حوافها أولاً، ثم طواها وجعلها على نحو منبسط، ثم نفض الغبار عن يديه ومسحهما بساقي بنطاله.

لا يستطيع المرء أحياناً، الحكم مسبقاً، لقد بدا مسالماً، وها هو يكتشف الآن أنه لا يعدو أن يكون سوى لص، ولو كان المرء يمعن فكره جيداً، كان سيصل إلى الحقيقة، وإلى ما كان سيفعله ذلك الصبي بمثل هذه البلاطة الخزفية القديمة.

أرته سيدة ذات وجه لا ينم عن سعادة فوطة قماشية وسألته عن سعرها، وأعادتها من ثم مغتاظة إلى مكانها.

كم من مرة عليه أن يتذكر هذه الأفكار، حتى يثق بنفسه؟

ربما كان عليه نهره، أو ربما كان عليه تحذير ذلك الفتى.

ولماذا تتبادر لخاطره الآن تلك الخرافة القديمة، فالفتى ليس إلا مجرد لص.

الأندلس، نيسان / أبريل 1492

انتظر بوسطن.

لم يسأل نفسه، إن كان سيجد نفسه فجأة في الزقاق الذي كان فيه من جديد؟ وبأنه قد يستيقظ؟ وبأنه سيقول إنَّ ذلك لم يكن سوى حلم مضى؟

كانت معدته تتلوى من الجوع، ولكن مع كل هذه الأفكار التي كانت تصاحبه، لم يكن الأكل وارداً بالنسبة إليه، لقد شعر بالغثيان من جديد، كل ما مضى كان حلماً.

هل تنشق في حلمه رائحة إبر الصنوبر؟ لم يعد يذكر شيئاً فهل يشم المرء في حلمه؟ هل يمكن للمرء أن تراوده الأفكار في حلمه؟

أن يفكر نعم، قال بوسطن لنفسه، وأن يسأل نفسه أيضاً فهذا ممكن أيضاً، سيان إن كان المرء نائماً أم يقظاً، تذكَّر الآن ذلك الحلم القديم المريع، الذي حلم فيه أنّ سيارة الكابريو لحقت به، والتي كانت للصدفة، يقودها أستاذ الرياضة الذي كان يلحق به في باحة المدرسة، ودائماً ضمن دائرة، اقتربت سيارة الكابريو منه، ثم اقتربت أكثر، وأمام صالة الرياضة وقف نصف تلاميذ المدرسة وهم يهللون، فيما كان هو يجري من أجل إنقاذ حياته، وهو يفكر طيلة ذلك الوقت، إنه مجرد حلم، إنه مجرد حلم! ولكنه لم يستطع أن يصدق نفسه، إلا أن الخوف لم يكن حلماً، وسيارة الكابريو اقتربت منه أكثر، ثم استيقظ بعد ذلك، وفي الحمام ملأ كأس غسيل أسنانه إلى أعلاه وعاد به، وظل طويلاً من دون أن يتمكن من النوم من جديد.

ولكنه لم يشعر بالشيء نفسه هذه المرة، قال بوسطن لنفسه، «فأنا لم أركض، ولا أحد لحق بي، إنه شعور بأن كل شيء عادي، كما ينبغي أن تكون الحياة، طالما أن قلبي ينبض من جديد، كما كان ينبض دائماً، عادي،

فقط هذا أمر غير طبيعي، أمر ما خطأ، ولكن ما هو، عليّ أن أبقى رابط الجأش، لا ينبغي أن أفقد يقظة ذهني، هذا هو الأهم الآن».

كان الناس يسيرون صعوداً على المنحدر، كان يسمعهم جيداً، حتى عندما يكونون في الأسفل بعيدين عنه، ثم تدحرج متكوراً حول نفسه نحو الأسفل، كما لو أن الناس لا يرونه، إن هو لم ينظر إليهم، كان يسمع أصواتهم، وأحياناً ضحكاتهم، لقد حان وقت المغيب.

ولكن إن لم يكن هذا حلماً، فما عساه يكون إذن؟

إنه *التخاطر* [1]، قال بوسطن لنفسه، هذا احتمال على سبيل المثال، لقد شاهد فيلماً في التلفزيون يتحدث عن ذلك، إن التخاطر يمكن أن يكون واقعاً في يوم من الأيام، كما قال أحد الفيزيائيين، إنه أمريكي تماماً كما والده، إنه التخاطر، وهو واثق من ذلك، وهو غير ما يعرضون في أفلام الخيال العلمي، بل من الممكن أن يتحقق في الواقع، وليس في مستقبل بعيد، أي عندما يتم استكمال توفير الشروط الفيزيائية لذلك.

لقد أطفأ آنذاك التلفزيون، يمكن أن يكون ما حصل له إذن واحدة من حالات التخاطر، فهل كان هو أول واحد من البشر، ممن تحرك بين الأزمنة؟ وهل تقدم العلم لمرحلة أبعد مما يمكن إعلانه للرأي العام؟

هراء، قال بوسطن لنفسه، لتبقَ منطقياً، فلا بد أن تتوفر مقدمة تقنية لحدوث ذلك، فلا يمكن للإنسان أن يتحول عبر الزمن من دون أية وسائل

(1) أي التحرك والإنتقال بين الأزمنة، وهي فكرة عرضتها بعض أفلام الخيال العلمي ومؤداها بالمفهوم المبسط يدور حول إمكانية أن ينتقل الإنسان من زمن إلى آخر. وحول هذه الفكرة تدور أحداث هذه الرواية حيث قامت الكاتبة باستخدام هذه الفكرة لتوظيفها من أجل استعادة أحداث تاريخية تتناول الأشهر القليلة التي تلت خروج العرب من الأندلس وتسليم غرناطة. (المترجم)

لفعل ذلك، قد يكون ما حصل حلماً، ولكن، ليس تخاطراً أيضاً، للأسف.

هل هو الجنون؟ هل أصابته نوبة من الجنون؟ ولكن لماذا؟ لقد تصور حالة الجنون على نحو آخر، ولو كان الآن في حالة جنون، لكان حاله غير ما تصوره عن حالة المجانين، من السخف أن يفكر هكذا.

حسناً الآن، فكر بوسطن، أنا لست معتوهاً، أشعر بنفسي كما أنا دائماً، العالم وحده هو الذي أصيب بالجنون دفعة واحدة.

وإن كان ما أحسسته ليس حلماً، وليس تخاطراً، وليس خَبَلاً، فما هو إذن.

يوجد تفسير منطقي، وهذا ما ينبغي أن يوجد دائماً، وما عليّ سوى الإبقاء على هدوئي وأعيد التأمل، فلو علمت قبل كل شيء ما الذي حصل لي، فيمكنني حينئذٍ أن أعرف ما عليّ فعله، وسيكون كل شيء على ما يرام.

فوق الذرى كان يسطع القمر، كان مدوراً وكبيراً، وبدا مثل حبة من البرتقال، وأيضاً هذه الغابة التي تمتد إلى الجنوب، لقد كان في غرناطة، داخل أحد الأزقة، والآن أصبح في إحدى الغابات الإسبانية، ربما كانت هذه حقيقة، وهو ما يستدل عليه من أنه رأى شجر الصنوبر، ولم يشعر بالبرد، مع أن الغروب كان قد حل. وبالنسبة إليه، بقي فقط أن يعرف كيف انتقل من الزقاق إلى الغابة وكيف وجد نفسه يمشي على ذلك الطريق، ولكنه طمأن نفسه، لكون هذا الطريق لا يمكن أن يكون قد أحدث منذ وقت بعيد.

أسند بوسطن ظهره إلى جذع شجرة من الصنوبر، كان انفعاله هذه المرة قريباً من التفاؤل والرضا، لقد اقترب من الحل.

فعلى سبيل المثال، من الممكن أن يكون فقد وعيه، أو أن أحدهم قد نقله من الزقاق في السوق إلى الغابة، السؤال هو: لماذا؟ لم يجد ضرورة لأن يجيب، هذا توضيح منطقي، وهذا يلائمه. أليس الدوار الذي شعر به في رأسه هو بالضبط مثل ذلك الذي أحس به بعد أن انتهى مفعول البنج إثر العملية التي أجراها للزائدة الدودية قبل سنتين؟ كل شيء أصبح واضحاً، لقد فقد وعيه بسبب الزحام الذي كان في الزقاق الذي في السوق، وأحد ما جلبه إلى هنا في الغابة.

ولَم حدث له مثل هذا الذعر إذن، المفروض عادة أن يتوفر توضيح منطقي دائماً، لكل شيء. لو أنه أمعن الفكر منذ البداية لكان توصل إلى هذه النتيجة في وقت مبكر، كان عليه أن يشعر السيدة هيلبرت عن حاله على الفور ومن كل بد، فقد تكون قلقة على حاله، وربما أعلمت الشرطة عنه، والأكثر قلقاً وخشية عليه، هي أمه.

ألن تموت من الجزع جراء ذلك؟ ووجد أن عليه إعلامها بأن كل شيء على ما يرام بالنسبة له، وعليه فعل ذلك الآن وفوراً.

تناول بوسطن جهاز الهاتف المحمول من كيس ظهره، لم تعد أصابعه ترتجف ، كان كل شيء على ما يرام.

أضاءت شاشة العرض، فور ضغطه على ملمس إقفال الجهاز للمرة الثانية، ولاحظ للحال أن طاقة الشحن في الجهاز ما زالت شبه كاملة، وكم كان جيداً أنه قام بشحنه في الليلة السابقة.

كتب الرسالة التي أراد إرسالها وهي كما يلي: «كل شيء OK، لا تقلقي»، ثم ضغط على ملمس الإرسال.

لا توجد شبكة، كتبت شاشة العرض.

«اللعنة!»، تمتم بوسطن، لا يمكن أن يكون البعد عن المدينة شاسعاً هكذا. عليه التهيؤ إذن للعودة سريعاً.

عندما كان يتمشى بين الأشجار التي كانت قبل الطريق، وفي لحظة سريعة سرح فيها بنظره إلى البعيد، استشعر قدر الجمال الذي من حوله، إنه سكون سحري.

سحري، قال بوسطن لنفسه ساخراً، ما علينا.

فكر ملياً في الاتجاه الذي ينبغي عليه سلوكه على الطريق، هل يتجه نحو الأعلى أم نحو الأسفل، وهو يأمل أن خاطفه لم يأخذه ليضعه هنا بعيداً جداً عن المدينة التالية، و تمنى أن لا يتطلب الأمر منه، وخاصة الآن، السير لساعات طويلة، سيما وأنه لا يتمكن من الآتصال بالشبكة.

تناول هاتفه المحمول من جديد وأطفأه، وسمع صوت موسيقى الإغلاق القصيرة، وانطفأت شاشة العرض وأصبحت سوداء، فهو لا يريد أن يبدد شحن جهازه.

-6-

تطلعت إيزابيلا إلى السماء! لم تظهر النجوم بعد.

ودعها فرديناند ومضى، يمكنها أن تتخيل، الوجهة التي ذهب إليها، مثل أمامها الرسل والمبعوثون ناقلين إليها الأخبار، والاستشارات والالتماسات؛ وتحدثت إلى قائد حرس المقر في القلعة، الذي ترى أنه إنسان ذكي؛ توركيمادا بعث إليها للتأكيد على حديث الأمس، وليذكرها بما يتعلق بمساء اليوم، كان وقت بعد الظهر قد انقضى، ومن فوق الأسطح أطل القمر، كان كبيراً وبدا مثل برتقالة.

كم هو بديع كل هذا، فكرت لنفسها، ثم ارتمت على كنبة، كان قد أحضرها أحد الخدم إليها من الداخل إلى الباحة، ومن أجل حمدك، أيها الرب الإله، سأعمل بكل ما أملكه من قوة، لتنصير كل من لا يؤمنون، من أجل تمجيد آسمك، وعلى ذلك أقسم بكل ما هو مقدس لدي.

«إيزابيلا؟»، ناداها صوت أليف لها، من هو هذا الذي سمح له الحرس بالقدوم إليها في مثل هذه الساعة؟

«إنني أرى أنك لم تخلدي للنوم بعد، ياطفلتي، ومن أين لك ذلك، وانت تحمّلين روحك ما تحملينها من الهموم، هل أنا على صواب؟».

«رئيس الأساقفة»، قالت إيزابيلا، وكان يكفي للحارس الذي كان يقف هناك من أجل اصطحاب الضيوف إلى الخارج، أن يتلقى بإشارة صغيرة من

صاحبة الجلالة، كي ينسحب بخطوة صامتة إلى العتمة تحت الأقواس، أما الصوت الذي تحدثت به الملكة لرئيس الأساقفة فقد كان مفعماً بالابتهاج لمقدمه.

لقد تحدثت إلى كبير المفتشين، قال الضيف، «إيزابيلا، يا طفلتي – اسمحوا لي، صاحبة الجلالة، أن أناديكم بذلك، حتى وإن لم أعد الكاهن الذي تقدمون له اعترافاتكم الكنسية، لقد ظننت أنك قد تحتاجين إلى معونتي».

تلكأت إيزابيلا قليلاً. ***تالافيرا***، ثم فكرت في نفسها، كم من مرة جلست أمامه في العتمة على كرسي الاعتراف، أتحدث إليه بصراحة محمية بسرالاعتراف، فأقول ما لم أقله حتى لزوجي، وربما كان من الأخير لي أن لا أعينه رئيساً لأساقفة هذه المدينة، حتى وإن لم يكن يوجد بالتأكيد من هو أذكى وأجدر منه لملءِ هذا المنصب، إنني أفتقده، فليس أحد من البشر يمكن أن يكون أكثر أهمية للملكة من أب روحي يستمع لاعترافاتها.

«تالافيرا»، قالت إيزابيلا، ضاحكة، «تفضلوا بالجلوس بجانبي، أنتم على حق، فكبير المفتشين كان رجاني، بأن أضع مرسوم اليهود قيد التنفيذ، بعد أن رآني مترددة، ولكنني أدركت أخيراً، بأن عليّ تنفيذ، ما كان قد طلبه مني، فالأمر يتعلق بخير المملكة، وبنفوس غير المؤمنين».

«مهلاً، مهلاً»، قال تالافيرا، «أنت لم تطلبي مني معرفة رأيي، يا طفلتي، لذا يمكنك اعتبار ما سأقوله وكأنه لم يكن، إن ترددك كان أكثر ملاءمة لك، إن كبير المفتشين هو بالتأكيد رجل نزيه، وهو قام بما يعتقد أنه واجبه على أحسن وجه، ولكن هل هو قديس، يستطيع الإدعاء بأنه الوحيد الذي يعلم ما هي إرادة الله؟».

تريثت إيزابيلا، في إعطاء جوابها، فالكل يعلم أن العلاقة بين تالافيرا

وتوركيمادا، نادراً ما كانت على مايرام.

«أنا لم أكن أبداً من الذين يُقوون طي الكتمان مسألة أنني في كثيرٍ من الحالات لم أتفق مع كبير المفتشين»، قال تالافيرا، «إن مرسوم طرد اليهود الذي قمت أنت بتوقيعه في آخر شهرآذار / مارس، هو تماماً ما كان يقوله توركيمادا، و هو لم يولد من الروح المسيحية، وأنت تعرفين هذا، طفلتي إيزابيلا».

هو ليس مرسوماً من أجل طرد اليهود، قالت إيزابيلا، هل كان عليها ربما، أن لا تسمح له بمثل هذا المجال الواسع من الحرية؟ وايضاً رئيس الأساقفة ينبغي ان يعلم أين هي حدوده عند تعامله مع الملكة، «إنه مرسوم من أجل كسب نفوسهم! لا أطلب أكثر، من أن يتحولوا إلى معتقدنا المسيحي الحقيقي، وأنت، كرئيس للأساقفة، ستكون إلى جانب قناعتي وقناعة كل المؤمنين الحقيقيين، وفقط بمثل هذا الأسلوب، وليس بأي بأسلوب آخر سواه، يمكننا أن نجعل منهم مؤمنين حقيقيين، فهذا هو كل ما نريده أيها الموقر!».

«أفهم ذلك»، قال تالافيرا وهو يداعب ذقنه، «أنا أفهم ذلك، ولكن لا أعلم إن لم تكن السماء ستصبح أكثر سعادة إن تحول فرد واحد طواعية، على أن يتحول آلاف من الناس الذين يطلب منهم نبذ معتقداتهم اليهودية بالإكراه، ويعلنوا على الملأ إيمانهم، ما الذي ترينه أنت بذلك؟ هل يمكن إرغام البشر على الايمان، إيزابيلا؟ أنا أسالك، هل يمكن إرغام البشر على الايمان؟».

أمعنت إيزابيلا النظر إليه وقالت، «يتحدث البعض، أنك تتناقش علناً في المدينة مع رجال الدين المغاربيين، فهل هذا صحيح؟ ويتحدثون بأنك طلبت ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية، من أجل أن يتمكن المغاربيون من قراءته،

فهل حدث هذا حقاً؟

هزّ تالافيرا رأسه موافقاً، «أنا أؤمن بقوة الكلمة»، قال تالافيرا، «عندما يقرؤون، سيفهمون ويستوعبون ما يقرؤونه. فإن لم يتم ذلك، فحسناً. ولا أظن أن إلهنا السماوي، من التعصب، بحيث لا يقبل كل إنسان في ملكوته ممن يرفعون صلاتهم إليه، ألا يفعل المغاربة هذا، إيزابيلا؟ ثم ألا يفعل اليهود ذلك أَيضاً؟ ألا نجل جميعنا الإله نفسه؟ وإن كانوا ربما لا يؤمنون بالفداء الذي قدمه السيد المسيح، فهل لهذا وحده ينبغي لعنهم، لأنهم فقط لم يفهموا عطية الله هذه، ولأنهم لم يبدوا استعدادهم لقبول هذا؟

أدارت إيزابيلا له ظهرها، «لقد أرادني الله أن أفعل هذا»، غمغمت إيزابيلا. كانت لا تعلم لماذا كلما تحدثت إلى تالافيرا، يبدو كل شيء لها مختلفاً، فليس من المعقول أن اثنين من خدام الله يختلفان كلياً حول إرادة الرب، «إن واجبي هو تنصير هذه البلاد».

«هذا حق، يا ابنتي»، قال تالافيرا، «هذا حق». ثم تنهد وتابع قائلاً «ولكنني أعود من جديد لسؤالك للمرة الثانية: هل يمكن إجبار إنسان على الإيمان؟».

صمتت إيزابيلا، قمة المكر، فكرت في نفسها، كان توركيمادا سيقول عن ذلك، قمة المكر.

«ماذا؟»، قال تالافيرا.

عدّلت إيزابيلا من جلستها واستدارت نحوه، «نحن لا نجبر أَحداً، أنت تعرف المرسوم، ليس من يهودي سيجبر على نبذ دينه، وفقط ذلك الذي يود العيش في غرناطة، نريد منه أن يعلن إيمانه بمعتقدنا، ومن لا يريد، يمكنه حتى شهر تموز /يوليو، مغادرة بلداتنا الإسبانية بكل حرية».

«ومنازلهم ومقتنياتهم التي سيتركونها»، قال تالافيرا، «إلى أي تاج ستنتقل ملكيتها؟»، وكما لو كانت كلماته تنطوي على إهانة، عمل على أن يخفض صوته لحده الأدنى.

«يمكنهم إن شاؤوا حمل منازلهم بثقلها على ظهورهم ويحملونها معهم!»، قالت إيزابيلا ساخرة، ولكنها تابعت، بكلام أكثر جدية، «من المسموح لهم بيعها».

«ولكن من غير المسموح لهم أخذ الذهب والفضة والحلي وأية مقتنيات أخرى ذات قيمة معهم لخارج البلاد»، قال تالافيرا ودائماً بالصوت الخفيض نفسه. «وهكذا يكون عليهم ترك حصيلة مبيعاتهم التي يمتلكونها إلى التاج، أليس الأمر كذلك؟».

نظرت إيزابيلا إلى ركبتيها، لقد كان الأبَ الذي يستمع إلى اعترافاتها، ولكن برغم ذلك ما من حق يملكه ليتحدث إليها على على هذا النحو.

«ماذا يفيدهم إذن إن هم باعوا منازلهم؟»، سأل تالافيرا، «بمقدورهم ترك البلاد، وليس معهم شيء أكثر من الذي يرتدونه على أجسادهم، فكيف سيتيسر لهم بدء حياة جديدة على أرض أخرى؟ أوضحي لي ذلك، صاحبة الجلالة؟ ومع ذلك تدّعون، بأن أحداً لا يجبرهم على نبذ دينهم؟ وأن يصبحوا بعد ذلك كونفرسوس، فأي خيار تركتم لهم بعد هذا؟».

بهذا الكلام نفسه كانت هي أيضاً قد تحدثت من قبل إلى توركيمادا، وقد كان فرديناند حاضراً، عندما جاءت مجموعة من اليهود الغرناطيين تحت قيادة الموقر، أبرافانيل، المولج بجباية الضرائب الملكية على الأملاك الخاصة بهم التي جنوها في الحمراء، وعرضوا دفع مبلغ ثلاثين ألف دوقية من الذهب، مقابل موافقتهم على قانون صارم لمعاملة اليهود، إن سمح لهم باستمرار

العيش في المدينة، ومتابعة ممارستهم لمعتقداتهم، مع تعهدهم بأن لا يغادروا الحي اليهودي ليلاً، واستعدادهم حتى لحمل البقعة الصفراء على ملابسهم، إن سمح لهم فقط بالبقاء، ألم تكن غرناطة وطناً لهم؟ ألم يعيشوا مع المغاربيين المسلمين مئات السنين هنا بسلام؟

«كيف يمكن الارتضاء بثلاثين ألف دوقية، إن كنتم ستبقون على كامل ما تملكونه؟»، قال توركيمادا وقتها، وقد لمحت وميضاً في عيني زوجها آنذاك، «هل يقبل الرب، أن يحيا اليهود أغنياء في بلادهم، بعد أن قاموا بصلب سيدنا؟».

«إن كانوا سيصبحون مسيحيين، فيمكنهم البقاء»، قالت إيزابيلا، محاولة أن تعطي صوتها نبرة الحزم اللازمة، «وأن يحتفظوا أيضاً بكل أملاكهم».

«وتسمين هذا حرية»، قال تالافيرا، «وبغض النظر، وحتى لو أصبحوا *كونفرسوس* فإنهم لن يشعروا بالأمان حتى ليوم واحد، فمن سيصدق أن من أصبح *كونفرسوس* أو موريسكوس، بأن اعترافه بكنيستنا الحقيقية الواحدة، سيكون صادقاً في ذلك؟ ألم تثبت محاكم التفتيش يومياً في كل مكان في البلاد أن التحول إلى المعتقد المسيحي بالنسبة لليهود كما للمغاربيين، إنما تعني لصاحبها تلقائياً إنزال عقوبة الإعدام؟ ألن تجري الوشاية بهم من قبل جيران أو أقرباء أو أخوة روحيين، من أجل البرهنة أنهم في السر ما زالوا أوفياء لمعتقداتهم السابقة قبل تحولهم؟ وأن هذه التهمة لا تعني بالنسبة لهم سوى الموت المحتم في المحرقة، حتى ولو لم تتوفر الأدلة لذلك؟ وحتى فقط لأن جاراً حسوداً، دفعه جشعه للوشاية بجاره من أجل حيازة ما يملك، أو لأن».

«كفى»، قالت إيزابيلا، كانت قد نهضت وأخذت تمشي ذهاباً وإياباً.

كان الماء يتدفق من أفواه الأسود، «آمل أنك لا تريد القول أيها الموقر، أن بشراً يتم حرقهم في مملكتي ممن لا يستحقون ذلك؟ أنتم على دراية، بما قاله كبير المفتشين: إن هم سخروا من الله، فالتكفير عن خطيئتهم لا يمحوه سوى الموت بالنار، ففي ذلك يكمن أملهم الوحيد لإنقاذ روحهم! إننا ننقذهم بذلك من اللعنة الأبدية! إنهم يحترقون هنا لبرهة قصيرة فقط - ولكن كم من الوقت سيحترقون بنار جهنم، ألا نعطيهم نحن في تنفيذ العقاب (***أوتودافيه***) جراء معصيتهم فرصة للتكفير عنها في هذا العالم؟».

«أخ، يا ابنتي»، قال تالافيرا تعباً، «أنتم تحكمون بلاداً واسعة، صاحبة الجلالة، وأنا أعرفكم جيدا منذ زمن بعيد، وهو ما يجعلني على قناعة بأنكم تعملون ما يمليه عليكم ضميركم، والأهم في الأمر هو أن لا تستسلموا. إيزابيلا! عودوا إلى داخلكم، اسجدوا على ركبتيكم واطلبوا من الله أن ينيركم، وتذكروا دائماً أن إلهنا ليس إلهاً فظاً عديم القلب، وكذلك آبنه أيضاً، فهو الذي مات من أجل الذين لا يؤمنون به».

هزت إيزابيلا برأسها وصمتت، كان بوسعها أن تستبقيه، ليكون حاضراً، عندما يحضر كبير المفتشين بعد أن سمحت له ليأتي بعد قليل، كي يبرهن على كذب وخداع ***الكونفرسوس***، ولكنها أدركت أن تالافيرا سيهدم بعد ذلك كل تلك البراهين، وهي تحتاج للوضوح، فإن تركت رئيس الأساقفة يتابع وعظه لها، فلن يكون بمقدور ضميرها أن يسمح لها باتخاذ أي قرار، مع أن الضرورة تقتضي منها اتخاذه.

انتظر تالافيرا، ثم تنهد.

«تريدونني أن أغادر»، قال لها، «هل يحرك قلبكم، ما كنت قد قلته لكم، سأصلي من أجل أن يبصركم الله الطريق، وليس بالضرورة أن تحدث

المعجزة الآن، فبالنسبة إلى لله فهو سوف يفكر على نحو مختلف».

أثنت إيزابيلا ركبتيها، كما اعتادت أن تفعل، وابتسم تالافيرا، «كما أرى، لقد بدأتِ، بإزالة الآيات القرآنية عن جدران القصر؟»، قال ذلك وهو يكاد يلفظ كلماته بنبرة متمتمة، «***ولا غالب إلا الله***؟ أنا لا أرى في هذه الآية ما يمكن أن يكون غير لائق. أبلغي كبير المفتشين تحياتي الودية، لا يمكن أن يكون له اعتراض إن كانت جدرانكم تشير بأن ***الله وحده هو المنتصر***، حتى وإن قال القرآن بذلك».

«نحن لا نعلم من أزال بلاطة الخزف من هنا»، قالت إيزابيلا، باذلةً جهدها للإبقاء على رصانة صوتها كما هو، «وفور أن نعثر عليها، ستتم إعادتها إلى مكانها، والجاني سينال قصاصه».

«يا له من لحن رائع»، همس الفتى، فيما كان يتجه نحو بوسطن سائراً بين جذوع الأشجار بحذر، «أنت تصفر ألحاناً أعذب من زقزقة العصافير!» في العتمة كانت الرؤية مغبشة، وكانت غيمة قد حجبت ضوء القمر، «السلام عليكم، لم تكن هناك ضرورة لإرسالك ألم يبلغكم ***سانتآنخيل*** ذلك؟».

«كيف؟»، قال بوسطن، ومن صوته أدرك بوسطن أن الفتى لا يمكن أن يكون أكبر عمراً منه، وأيضاً من حيث طوله، وهو ما طمأنه، ومع ذلك شعر بأن بعض الآضطراب عاد ليتملكه، فكيف أمكنه فهم الفتى بمثل هذه السهولة؟ وكيف تسنى له التحدث بالإسبانية، كما لوأنه لم يتحدث بلغة غيرها؟

«لقد شرح لي سانتآنخيل الطريق»، همس الفتى، وسحب بوسطن عميقاً إلى ما بين الأشجار، «لا أحتاج إلى دليل، فهذا لم يكن ضرورياً»، قال الفتى ذلك وأعطى إلى بوسطن إشارة مفادها الطلب إليه كي يجلس على الأرض.

«*والله!* لماذا تنكرت بهذا الشكل من الثياب؟ هل ظننت بأنهم سيتعاملون معك مثل آكلي لحم الخنزير؟» ثم ضحك.

لم يكن ما يرغم بوسطن على الاعتذار عن ملابسه، صحيح إن بنطال الجينز ليس من ماركة مشهورة، وأيضاً قميص الـ (تي شيرت)؛ ولكن أن تكون الثياب غريبة كمثل التي يرتديها هذا الفتى، فهو ما لا يمكن أن يتوقعه أحد منه، حتى وإن كانت العتمة قد ضيعت معالم ألوانها.

«أولاً نريد أن نعلم، ما المقدار الذي سيدفعه»، همس الفتى من جديد. «فالسلاح هو الأهم، إن كنا نريد لمقاومتنا أن تنجح، إن آكلي لحم الخنزير لديهم مدافع. وهي عطية لنا جميعاً، شكراً لله».

هزّ بوسطن برأسه، من دون أن يفكر، فالفتى يضع على رأسه عمامة، تجعله أكبر سناً ويرتدي ثوباً أبيضَ فضفاضاً يتوهج في الظلام، لقد بدا وكأنه ذاهب إلى كرنفال، فلا أحد في مثل سنه يمكن أن يرتدي مثل هذه الملابس حتى في هذه المناسبة.

«لم تعد ضرورة لذهابك»، همس الفتى، «سانتآنخيل هو في حالة قلق شديد بشأنكم، الكل ينظر إليه، كما تعلم، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل، من دون أن يودي بنفسه إلى المخاطر؟ *يا الله!*».

وليس من كاميرا في مكان ما، إن هذا غير ممكن.

«كم هو المبلغ الذي تستطيع جماعتك دفعه؟»، همس الفتى من جديد. «يقول القبطان، عندما يكون هناك ما يكفي من البضائع الأخرى على ظهر السفينة، كي لا يتم لفت النظر من قبل أحد، سيكون بوسعه شحن مركب شراعي وربما اثنين وحتى ثلاثة، مع أن المسيحيين، وفقاً لما سمعته، غير مستعدين لدفع الكثير لكم، فسانتآنخيل يقول إنهم يشترون المنازل بأثمان

زهيدة، وهم يدفعون لشراء المتاجر ليس النصف بل وليس الثلث مما تساويه قيمتها فقط، فأين هي إذن رحمتهم، وهو يقول، إنهم يسمون ذلك شراء، ولكن في الحقيقة هي سرقة، إنهم يريحون ضمائرهم على الأقل بما يدفعونه، معتقدين بالطبع، أنَّ هذا القليل الذي يدفعونه، ينبغي أيضاً إعادة استرداده، لأن كل الذهب ينبغي تركه أيضاً، إن سعادتي لا توصف لأنهم يخدعون أنفسهم، فليلحق الموت والخراب بهؤلاء الذين يأكلون لحم الخنزير، وأرجو من الله معاقبتهم!».

ليس هذا بفيلم، مهما كان ما يبدو عليه الأمر في الظاهر بأنه كذلك، فعمّا يتحدث هذا الفتى؟ولمن ينتمي؟

«هل تظن، أنَّ جماعتك على استعداد، لأن يدفعوا إلى القبطان، نصف ما كان سينقله لهم عبر البحر؟»، همس الفتى، «إنه يتوقع مثل هذا المبلغ لقاء المخاطر التي سيتحملها عندما يقدم مساعدته، للتحايل على المرسوم المتعلق باليهود! فشكركم لوحده لا يفيدنا، ولا نستطيع به لوحده شراء السلاح، أما إن كان بالإمكان الاعتماد على إلهكم، فهذا ما لا أعلمه، على الرغم مما قاله ***سانتآنخيل*** بأنكم سترفعون في كنسكم الصلوات لنا.

لو إنه يغيب الآن عن الوعي، فلربما قد يعود إلى إلى نفسه في القيصيرية من جديد، وربما أمكنه التحول في الآتجاهين، أحس بوسطن من جديد بالغثيان.

«علينا الاستعجال»، قال الفتى، فلا ينبغي لأحد أن يراني هنا في ***خوديريا***! يا ألله، كيف تغير كل شيء!».

يمكن قول ذلك، فكر بوسطن لنفسه،س إنما مئة بالمئة لا يعني أحدنا الأمر نفسه.

نظر إلى السماء، لقد بدل القمر مكانه وأصبح أصغر، ونوره أصبح أكثر شحوباً.

كان الأمر سيان، بالنسبة لما سيفعله الآن، طالما أنه يعايش مثل هذه الأحداث، فيا لحظه الطيب، أنه وجد ذلك الفتى، والغريب أنه كان بانتظاره، وإن كان لم يعلم من هو ذاك الذي اختلط على الفتى بأنه استشبه به، ولكن سيكتشف ذلك فيما بعد.

«إذن، إلى ***رياليخو***»، همس الفتى.

هزّ بوسطن رأسه بارتياح، وماذا سيفعل الفتى هناك: يمكنه الذهاب من ***رياليخو*** إلى ***الهوستال*** بكل سهولة، فمن حسن الحظ أنهم مرّوا في الحي اليهودي وتفرجوا عليه خلال الجولة الاستطلاعية يوم أمس.

«من الأفضل أن يكون صوتنا منخفضاً»، همس الفتى من جديد، «ينبغي علينا الحذر. وكما قال النبي، اعقل وتوكل، أي ثق بالله ولكن أوثق ربط ناقتك قبل ذلك».

هل في هذه الأيام توجد جمال أيضا، فكر بوسطن لنفسه، حسناً، هذا أمر رائع، فتدريجياً، وإلى جانب الفزع الذي شعر به، فقد اكتشف بأن فضوله قد أصبح أعظم.

-7-

كان السكون يعم الشارع، وكانت العتمة مغرقة في السواد، بحيث وجد بوسطن نفسه متعلقاً بقوة بالرداء الأبيض للفتى، كي لا يدعه يغيب عن عينيه. وكان بالطبع قد قال عندما كان في القيصرية قبل ذلك، معبّراً عن مدى إعجابه بإعادة بناء كل شيء، وكأنه ما زال قديماً، ومغاربياً؛ إنّهُ لن يعبأ بما قد يدّعيه الأهل فيما بعد، بأنه ليس سوى شكل من الذوق المتدني الذي لا قيمة له.

ولكن هل ينبغي المضي بالمضايقة بعيداً إلى هذا الحد مع السائحين؟ فلا حتى مصباح نور واحد يضيء الشارع، ولا حتى أي بشر يمكن العثور عليهم، ويكاد المرء يعتقد أن لا مصابيح للنور هنا على الإطلاق في هذا الجزء من المدينة القديمة، بحيث يشعر المرء بالرهبة، فكل شيء بني هنا، بدا حقيقياً، مما جعل بوسطن يصاب بالدوار.

ولاحظ في هذا المجال أيضاً، تلك الغرابة في ألبسة الفتيان! ولكن كم هو صعب هذا الحال بالنسبة للناس الذين يعيشون هنا، وكم هو غريب وغير مألوف أيضاً: عدم وجود نوافذ مضاءة وأبداً، أبداً لا يخرج من أي نافذة ذلك الوهج المتذبذب الذي يصدر عن أجهزة التلفزة، فهل لا توجد كهرباء هنا؟ فهل تخفض أجور المنازل بسبب هذه الحال، لمن يلجؤون للعيش في هذه المنطقة؟ ألم تكن هذه المساكن مأهولة في وقت ما؟

«من هنا؟»، سأل الفتى هامساً وهو ينظر إلى بوسطن متسائلاً، «ألم نقترب من وجهتنا بعد؟».

لا سيارات، ليس من سيارة واحدة في هذا الطريق، بالطبع هي طرقات ضيقة جداً، ولكن على الأقل كان يمكن أن يلحظ المرء دراجة نارية أو زحافة بعجلات، ولا يرى المرء في أضعف الحالات، حتى دراجة عادية، لقد كان قليل الانتباه بعد ظهر الأمس، فلم يلحظ أياً من كل تلك الأشياء.

ولشدة جمال المكان، فكر بوسطن، إنه على القادم إلى هنا دفع رسم للدخول إليه، كانت السكينة راسخة تحيط بالمكان وتحصنه من جوانبه كافة، ما كاد أن يشعره وكأن وقع السكينة كان يطن في أذنيه، فقال لنفسه، إنه كان على السيدة هيلبرت أن تحذرنا من شدة ما ينتظرنا من مثل هذه الروعة.

«ها هو هنا»، همس الفتى. قرع الباب بقفا عقدة أصابع يده بإيقاع مميز على بوابة خشبية، كائنة في عمق سور أقيمت البوابة عليه، قرعة أولى، ثم ثانية، ثم انتظار.

لم يكن المكان هو الأفضل لإقامة غرف للخزن، قال بوسطن لنفسه، ألم يتحدث الفتى عن غرف للخزن؟ فكيف يمكن لسيارات شاحنة أن تسير من هنا نهاراً، كما لا يمكن نقل السلع على الأقدام ذهاباً وإياباً في هذا الزقاق الضيق.

فتح شق في البوابة، وظهرت امرأة صغيرة السن تحمل في يدها قنديلاً زيتياً وترتدي لباساً أسود من تلك التي عرفت في الأزمنة القديمة، مثل تلك التي لدى مرافقه.

«السيد ينتظركم»، قالت المرأة بهمس، ثم أشارت لهم للدخول وسارت أمامهما.

انتظرت إيزابيلا.

الرجل كبير السن كان يتنفس من خلفها بصعوبة، وكانت هي تحاول ثنيه عن غايته، «هل ينبغي أن يكون بالذات برج الـ (توري دي لا فيلا) ؟»، قالت له متضرعة: «هل لا بد أن يكون بالذات أعلى برج في حمرائي؟ أنتم تودونني بالتأكيد أن أرى شيئاً معيناً».

ولكنه قاطعها من دون التحدث بأية كلمة: مكتفياً بنظرة آمرة فقط.

وأخيراً وقفت مستندة إلى المتراس وهي ترتجف، فهنا في الأعلى كان نسيم المساء بارداً، كان بوسعها أن ترسل خلف أحد خدمها للأسفل من أجل أن يأتي إليها بشال من هناك، ولكنها لم تفعل، كان هناك كرسيان قد أعدّا من قبل، سبق أن جلبهما الخدم قبل ذلك للأعلى.

«نعم»، قال كبير المفتشين وخطا نحو مصطبة السطح، كان تنفسه يزداد صعوبة، فخشيت هي لذلك على قلبه.

جلس أخيراً، فحاول أحد الموظفين مساعدته ممسكاً بساعديه، إلا أنه سحبهما بعيداً بدافع غير إرادي.

«والآن، ترون جلالتكم»، قال ذلك فور أن هدأ تنفسه.

تركت إيزابيلا عينيها تسرحان فوق المشهد من الأعلى، كانت مولهة بالنظر من أعلى البرج الذي هنا، أثناء النهار: فتحتها أسطحة منازل المدينة، التي أصبحت الآن مدينتها، فكادت تشعر بالدوار، ومن وراء المدينة، السهول الخصبة الواسعة للفيغا. وهذه كلها أصبحت لي بقدرته تعالى.

أما الآن فيعم الظلام فقط؛ ومن تحت، ذرى الأشجار التي تلتمع من فوق المرتفع كأخيلة سوداء تحت ضوء القمر، توجد أزقة ومنازل مرصوفة بنسق بديع. إنها غرناطة، غافية هناك في نومها.

«المدينة نائمة»، غمغمت إيزابيلا.

«ليس في هذا الوقت، صاحبة الجلالة»، قال توركيمادا بصرامة، لقد ازداد تنفسه هدوءً. «انظروا بدقة إلى هناك، لهذا صعدنا إلى هذا البرج هنا، انظروا بدقة إلى هناك».

تحتهم إلى اليسار، عتمة وهدوء، إنها رياليخو، وبعد ذلك إلى اليمين، ألبايثين، حيث يصعد من هناك ضجيج ضعيف، ومن الأزقة التي فيها تنبعث اضواء شاحبة.

«أترين؟»، سأل توركيمادا، كان يضرب الأرض بعصاه، ذات المقبض الفضي، بضربات سريعة، يسمع صوت ضرباتها على الأرض الحجرية قويا: توك، توك، توك، بوتيرة متوالية فاقدة للصبر.

«ليس جميعهم نائمين»، قالت إيزابيلا بنبرة غير واثقة، ما علاقة ذلك بهم، وماذا ينتظر منها؟» يبدو أنهم يحتفلون في بعض مناطق ألبايثين».

هزّ كبير المفتشين برأسه، وقال لها، «إنه يوم جمعة، وهويوم عطلة لدى المسلمين». وسنقول قريباً لهؤلاء أيضاً، إنَّ الله خلق العالم وارتاح في اليوم السابع وليس في اليوم الخامس، قال ذلك وخنفر زافراً بغيظ، «ولكن ما زال الوقت مبكراً لذلك الآن ويمكن الانتظار، وستبقون بمعونة الله، على تنفيذ تطبيق الاتفاقية التي عقدتموها من أجل تسهيل تسليم المدينة من قبل المغاربيين لأجلٍ قادم سينتهي في وقت ما، ولا أظن أنكم ستمانعون في أن يمارسوا معتقداتهم، فهؤلاء لا يشكلون الآن هدفاً، فليس من أجل المسلمين سهلت أنا طريق الوصول إلى الأهداف الكبيرة.

«أيها الموقر؟»، قالت إيزابيلا متسائلة. ومن أزقة البايثين سمعت صوت عزف على العود، وفي مكان ما كان هناك من يغني ويصفق، وحتى

الضحك كان يقتحم عليها مكانها حيث هي في الأعلى، فما الذي يدفع هؤلاء المغاربيين للمرح في مدينتهم المهزومة.

رأس العصا المدبب من أسفلها ما زال يطرق على الأرضية الحجرية حيث هم يقفون.

«أنت تقول، ليس من أجل المغاربيين جئنا اليوم إلى هنا؟»، قالت إيزابيلا، لم تستطع تركه ينتظر طويلاً. كانت تعلم عمن كانوا يتحدثون، «وتقول أيها الموقر، بأن الأمر يتعلق بالمرسوم المتعلق باليهود، وبأن يهود الكونفرسوس الذين تحولوا للمسيحية يكذبون ويحتالون، لأنهم يذهبون يوم الأحد إلى القداديس الكنسية، كما يأمرهم به المرسوم ولكنهم في بيوتهم يتابعون سراً تمسكهم بتعاليمهم اليهودية الكافرة، ولهذا، ينبغي علينا تخليص أرواحهم، ولذا نقوم نحن بالقبض عليهم وحرقهم، من أجل شفاء نفوسهم».

توقفت العصا عن الطرق، «وماذا في هذا؟»، ردّ عليها كبير المفتشين، كان صوته واهياً بسبب العمر. فكيف لهذا الصوت أن يحتفظ بكل هذه الخشونة.

سرحت إيزابيلا بنظرها من فوق أسطح مدينتها. وتساءلت، لماذا تركت تالافيرا يذهب؟ولكن حتى رئيس الأساقفة لا يمكنه أن ينكر ما رأيناه يجري هناك في الأسفل من تحتنا.

«هل تلاحظين أية حركة في الخوديريا»، سأل كبير المفتشين، نهض من على كرسيه، فقفز أحد الخدم قبله، خطا توركيمادا باتجاه الترس واستند على الحجارة المدببة، «هل ترون أثراً لدخان ينطلق من فوق أسطحة رياليخو؟» قال توركيمادا، أما هي فردت عليه مغمغمة: «ولكنه وقت المساء».

«وهل المساء ليس في ألبايثين أيضاً؟»، قال كبير المفتشين، «هل المساء هو

نهار بالنسبة للمغاربيين؟ ألم نر ضوء القناديل مولعاً في بيوتهم؟ بل، ألم نر حتى الدخان يصعد أيضاً من هناك عندما لا تحجبه غيمة عابرة؟».

هزت إيزابيلا برأسها.

«أريد أن أسمع ذلك **منكم**»، قال توركيمادا، واستدار بوجهه نحوها، لقد بدا صوته مغضباً، إذ لا أحد يمكنه نكران ما يجري تحت، هناك في البعيد.

«إن اليهود يحتفلون في اليوم الذي يسبق يوم السبت»، همست إيزابيلا. «إنه يوم راحتهم. لا يجوز لهم أن يقوموا بأي عمل، ولا أن يوقدوا ناراً، بل هم يذهبون إلى كنيسهم».

«ولكن بالتأكيد، ليس إلى الكنيس لدينا هنا في غرناطه»، صرخ كبير المفتشين مقاطعاً ومستنكراً تشكيكها، فقفز أحد الخدم نحوه لنجدته، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى مكانه.

«والأب يبارك أولاده، وهم يتناولون عشاء يوم السبت، إنهم ينشدون»، قال كبير المفتشين.

«اعتدلت إيزابيلا وتوجهت إليه متسائلة: «إنهم ينشدون! أيها الموقر»، رددت باستغراب وتساؤل، «ولكن، الصمت يعم في *ريالي*خو، هل تسمعون شيئاً! إذن فهم لا يحتفلون، ولا خداع هنا، وعلينا قبول توبتهم».

خنفر كبير المفتشين من جديد زافراً بغيظ، «إنني أتعجب منكم، صاحبة الجلالة، فأنتم لم تترددوا يوماً في إرسال الناس إلى المعركة، فلماذا تتحيرون فجأة هنا في هذه الحالة، عندما يتعلق الأمر بجريمة قتل لربنا؟ فأنتم ترون بأم عيونكم أنه حتى عند تعميد هؤلاء ***الكونفرسوس*** يظلون دائماً ***مارونوس***، إنهم خنازير، ويهود متعصبون، يخدعونكم أمام عيونكم، ومع هذا تريدون

تجميل صورتهم؟».

صمتت إيزابيلا.

«ألا يكفيكم، ما يجري هناك في الأسفل؟»، سأل كبير المفتشين، هل تريدون غداً أثناء النهار أن تصعدوا إلى هنا من جديد لتروا، ما تأكدتم هذا المساء منه؟ وهل تريدون أخيراً أن تكونوا على استعداد لأن تسلموا بما تأكدتم من رؤيته بعينيكم؟».

ليتني لم أر، فكرت إيزابيلا لنفسها، فما لم تَرَهُ العين لا يمكنه أن يكدّر القلب، ولكنني صعدت معه إلى هنا، وأرسلت تالافيرا إلى منزله، «لا أريد أن يموت أحد الآن»، قالت لكبير المفتشين. «هل تسمعني؟ إن المرسوم المتعلق باليهود سيتم تطبيقه، والقانون يعطي لليهود مهلة حتى شهر تموز/يوليو، وبعد ذلك عليهم أن يكونوا مسيحيين».

«وهل ينطبق هذا على أولئك الذين هم من مواطنيكم من الذين يدّعون بأنهم نبذوا كفرهم منذ زمن طويل؟»، سأل توركيمادا، أنا أريدكم فقط أن تدركوا كم هم مخادعون، سنبعث بإخوتنا المؤمنين إلى ***ريايخو***، وعليهم ألاّ يعتقدوا، بأننا لا نعلم بما يخبئونه عنّا».

أحنت إيزابيلا ركبتيها.

كان الممر طويلاً وضيقاً ومعتماً، وقبل ولوج الغرفة الكبيرة الواقعة في آخر المر، قرعت المرأة الشابة الباب بطرقات خافتة.

«تفضلوا» قال صوت ذكوري من الداخل، كانت النظرة التي استقبل بها صاحب المكان لكل من بوسطن ورفيقه ذات وقع مرحب مريح، ولكن كانت نظرته تشوبها علامات التساؤل في الوقت نفسه.

«***شالوم***» قال الرجل محيياً، كان يلبس معطفاً طويلاً أسودا، جعله يبدو

مثل رجل دين، إلا أن الرجل استدرك قائلاً: «لا، لقد تملكتني العادة القديمة في توجيه تحيتي، لنقل، حياكم الله، لقد كنت على يقين بأنكم أنتم القادمون، «قال الرجل ما قاله وهو يبتسم، ثم تابع»، هل لي أن أكون أكثر تحققاً منكما؟»».

ويبدو أن الفتى صاحب العمامة قد فهم للحال ما رمى إليه الرجل، فأجابه بالقول»، أعلم بأنكم التاجر إسحاق، إنني أدعى طارق، وأنا أحييكم بعبارة السلام عليكم، فهذه التحية ما زال مسموحاً بها هنا في غرناطه، وفهمكم يكفي لما أرمي إليه، والسيد الذي بعث بي إلى هنا، لم يحمّلني خطاباً مكتوباً ليكون برهاناً عمّن أكون.

من الواضح أن الغرفة المعتمة كانت هي المخزن، فعلى الرفوف كانت قد وضعت السلال ومستوعبات خشنة المظهر مصنوعة من الخزف الخشن، من أحجام مختلفة، موضوعة في قماش ومحزومة على شكل صرر، وأكياس من الجوت مرصوفة فوق بعضها البعض مستندة إلى الجدار، وإضافة إلى ذلك كله، توجد في وسط غرفة الخزن طاولة طعام مستطيلة، تم دفع عدد من الكراسي إزاءها في عجالة وعلى غير انتظام، ولكن لا أثر لأية صحون عليها، ما عدا فضلات من الخبز المنفرط، والمنثور فوق كل مكان من الطاولة، .بما يوحي أن هناك من تناول الطعام هنا قبل وقت غير بعيد، كما يوجد على الطاولة شمعدانان فضيان متواضعان، كل واحد منهما على طرف من المائدة، وكل منهما معد لشمعتين احترقتا حتى منتصفهما، وقد تم اطفاؤهما للتو، ففتيلتاهما ما زال ينبعث منهما الدخان، وفي المنتصف، وعلى الغطاء الكتاني الأبيض السميك، توجد بقية من قطعة خبز، بدت وكأنها مجدولة، وفتى صغير كان الوحيد الذي دخل إلى الغرفة ليكون إلى جانب الرجل

المضيف الذي بقي فيها بعد تناول العشاء. كان عمر الفتى يقارب عمر بوسطن ورفيقه، الذي علم بوسطن الآن وهنا فقط أنّه يدعى طارق.

الرجل ذو الرداء الأسود ما زال يبتسم، «توقُّع شيء مكتوب لا ينتظره أحد في مثل هذه الأيام في غرناطة. وسيكون في هذا الطلب فظاظة مني، ولكن مع ذلك، المطلوب هو أن يكون هناك برهان، بأنك أنت نفسك، هو الشخص الذي تدعي أنك هو».

«سأتلو عليكم المقطع الذي ينبغي عليّ ذكره لكم»، قال الفتى ذلك ثم تنحنح وقال: «يا ألله ماذا ستقول والدتي، لو تمكنت من رؤيتي أتلو ذلك»، توقف قليلاً وبدا مرتبكاً. ولكنه تابع، «حسناً، ينبغي أن أقول لكم كبرهان على التعريف بصدق شخصيتي: ***الحمد لك الآن، ولك كل الحمد أنت يا الله، / إلهنا وملك الكل أنت***، الى آخر ذلك»، هذا هو، ما كان عليّ إعادة تلاوته لكم كبرهان على صدق شخصيتي».

ابتسم الرجل وقال: «هذا هو تماماً ما تم الاتفاق عليه، ولكن يبدو أن الأمر كان صعباً، كما تبين لي، أيها المغاربي؟ أما وأنه اختار الجزء الثاني، من كلمات التعريف، التي نقولها نحن اليهود– عفواً، التي يقولها اليهود – في المساء الذي يسبق بدء يوم السبت فإن اختياره لها كان مستغرباً على أي حال، ذلك أن من أرسلك أيضاً يعلم جيداً أيضاً، أنَّ أسرتي وأنا لم نعد يهوداً منذ زمن بعيد، فنحن من التبعية الصالحة لصاحبة الجلالة الكاثوليكية ونحن مسيحيون ملتزمون، ولكننا نتذكر جيداً بالطبع تلك المأثورات السابقة».

للحظة واحدة، اعتقد بوسطن أنه لحظ على وجه الفتى الذي تلا ذلك الكلام، مسحة من التهكم «*وحتى سانتآنخيل هو أيضاً، كما تعرفون أنتم، وكل العالم، هو الأكثرورعاً* بمسيحيته *من كل المسيحيين، والله*»، *قال الفتى*

هذا وطأطأ رأسه، وقد تكون طفت على وجهه ربما تلك الابتسامة نفسها. ثم تابع قائلاً، وهو ما زال أمين خزانة العائلة المالكة في آراغون، «وفوق ذلك كله، فهو من أرسلني من أجل نقل هذه الرسالة لكم، لإبلاغكم بأن القبطان يعرض خدمته على أولئك الذين لهم معتقدكم نفسه – أقصد معتقدكم السابق نفسه – ممن ليسوا على اقتناع بأن يدخلوا في معتقد الملك والملكة الموقرين، وأنهم مجبرون لهذا السبب على مغادرة البلاد، والقبطان على استعداد، لأن ينقل سراً على سفينته، كل ما يخص ممتلكات اليهود المخبأة بين التوابل وأقمشة الحرير الموجودة في مخازنكم، فور أن تقلع سفنه من مالاقا إلى القسطنطينية، وهكذا يكون بمقدور– أولئك الذين لهم نفسه معتقدكم – أقصد معتقدكم السابق نفسه – ممن ليسوا على اقتناع بقبول معتقد الملك والملكة الموقرين، والذين عليهم ترك البلاد، بحيث يستعيدون في أول مناسبة يصلون فيها إلى المكان الذي يختارونه لهم على البحر الأبيض المتوسط، على الأقل بعضاً من ذلك الذي كانوا يرغبون بأخذه معهم إلى هناك، مما لم يكن ليسمح الملك والملكة الموقران به، مهما بلغت الحكمة لديهما».

«وكم يطلب من أجل ذلك؟»، سأل الرجل ذو الرداء الأسود، «إن المبلغ جاهز للدفع، وكما سمعت فإن الذهب المطلوب لا يقصد به إغناء متلقيه، وإنما هو من أجل قضاء حاجة فقط – ودعني أسمي الأمر هكذا»، قال الرجل كلامه ذاك وتنهد، ثم تابع: «أرجو أن يوفقكم الله في ما تحلمون به، أيها المغاربي، ولربما هو ما أحلم به أنا أيضاً، وإن كنت أنفيه على الدوام».

في هذه اللحظة سُمِعَ ضجيج صاخب في الخارج قادم من المدخل الخارجي، «باسم محكمة التفتيش المقدسة»، صرخ صوت أجش: «افتحوا الباب، وإلا حطمناه!».

إلا أن الضيوف غير المرغوب بهم لم يتركوا وقتاً لفتحه، إذ انفتحت درفة الباب عن ستة رجال اقتحموا الغرفة، وهم يرتدون حللاً جلدية بتنانير ذات ذؤابات متأرجحة، حاملين رماحهم في أيديهم.

-8-

كونهم كانوا سكارى، لاحظه بوسطن ليس من الطريقة التي كانوا يتحدثون بها فقط، فما إن اقتحم ستتهم الباب، حتى امتلأت الغرفة بتلك الرائحة الثقيلة من الخمر الرخيص من نوع الفوزل، الذي كان يعرفه من السوبر ماركت، عندما كان ينتظر أحياناً في الصف الطويل أمام صندوق تسديد قيمة المشتريات، والرائحة التي يشمها من أنفاس أولئك الرجال والنساء المصطبغة وجوههم الضاحكة باللون الأحمر، والذين كان شراؤهم يقتصر في الغالب على تلك الزجاجة.

«حسناً!»، قال الجندي، الذي كان أول المقتحمين لداخل الغرفة، كان وجهه يحمل ندبة طويلة حديثة العهد تقطعه بالعرض، ربما كان هو الذي دفع الباب لفتحه عنوة، وربما كان هو قائد المجموعة في هذه المهمة، إن كان لهذه المجموعة قائد حقاً، وهو ما لم يمكن لبوسطن التحقق منه، إذ كان يرتعش من الخوف، في حين انزوى طارق في زاوية خلفية من الغرفة.

أما الرجل ذو الرداء الأسود فقد بقي محافظاً على هدوئه، «حياكم الله»، قال لهم، وهو يتوجه نحوهم، «ألا يليق بالمسيحي الحقيقي إلقاء التحية، قبل أن يدخل منزلاً على غير موعد؟ وماذا يعني أن تغيروا داخلين على هذه الشاكلة، من دون أن تنتظروا إذناً مني؟ أما ما يتعلق بالباب، فآمل أن يكون من بينكم من هو نجارٌ ليقوم بإصلاحه، وإلا فإنني سأقوم بإبلاغ قائدكم».

رأى بوسطن الجندي الذي لديه ندبة على وجهه يترنح قليلاً، لذا تمسك بطرف المائدة.

«لكن، لا تصرخ هكذا، أيها اليهودي»، قال الجندي، «إن قائدنا هو الذي أرسلنا إلى هنا!»، ثم نظر إلى رجاله مشيراً إلى المائدة وكأنه اكتشف أمراً خطيراً، «هاكم البرهان!»، صرخ عالياً وانقض على الشمعدان، إلا أن دخان الفتيل كان قد توقف منذ وقت بعيد، وبقيت بضع قطرات فقط من الشمع عالقة على غطاء المائدة الأبيض، ولكن شمعة سقطت من مكانها وتدحرجت على أرض الغرفة.

تحول صاحب الدار نحوهم بالقول: «وماذا سيقول قائدك عندما يسمع بأنك قد احتسيت الخمر مع رفاقك خلال نوبة حراستكم، وماذا تظن أنه سيقول، مخمورون مغفلون؟»، ثم انتزع الشمعدان من بين يدي الجندي، وقال موجهاً الكلام له: «ولا تقل ثانية إنني يهودي، وإلا حطمت هذا فوق جمجمتك!».

«أوه، أوه، أوه!» صاح الجندي متزعم المجموعة، وهو يدير بعينيه، «علينا إذن أن نصاب بالهلع! ما قولكم أيها الرجال؟ هل رأيتم في حياتكم مثل هذا اليهودي الفظ؟».

استغرق الآخرون في الضحك.

«يا رجل!»، نادى صاحب الدار! وشاهد بوسطن كيف أن الفتى يتراجع وظهره للخلف إلى أن أسنده إلى الجدار، وكان لافتاً أن رداءه بدا منتفخاً من جهة الأمام وأزراره كانت مشدودة في عراويها، أما قطعة الخبز المجدولة فقد اختفت من على المائدة.

«والآن اهدأ أيها اليهودي، الذي يدعي أنه غير يهودي»، قال الجندي

متزعم المجموعة، «قل لي! لماذا لا يخرج دخان مِنْ مدخنتكم؟ ولما لا توقدون ناراً في منزلكم؟».

«هل تشعر بالبرد؟»سأل الرجل ذو الرداء الأسود ورفع أحد حاجبه، «هل تريد أن آمر لك بإحضار منقل من الفحم؟».

ضرب الجندي بقبضته على المائدة بقوة، أما بقية رفاقه فشدوا على الأسلحة التي بين أيديهم، «الجم لسانك عن هذه الثرثرة!» ردّ الجندي، بنبرة كانت قد ازدادت حدة، كما لو أن الغيظ قد أفاقه من خمره، «إلى المطبخ؟».

«هل يوجد أمر في غرناطة الجديدة يجبر الناس على الطبخ ليلاً؟»، أجابه صاحب الدار، رافضاً الاستجابة برقة، «إذن اعذرني، فإن وجد، فهو غير معروف بالنسبة لي».

قفز أحد الجنود للأمام حاملاً سيفاً بيده، «هل أقبض عليه؟» سأل أولاً، ثم تابع «علينا أن نقود هذا *المارّانو* إلى محكمة التفتيش!».

هزّ الجندي متزعم المجموعة برأسه رافضاً طلب رفيقه.

«سنُبقي على وضع منزلك في بالنا، أيها اليهودي، فهذه المرة أحببنا أن نريك، أنه ليس بمقدورك استغباؤنا، ولكن في المرة القادمة لن يتم تحطيم باب دارك فقط».

ضحك بقية الجنود.

«اشكر ملكتك المتسامحة الرحومة، التي رغبت بغض النظر هذه المرة أيضا عن شعبكم، فمن يدري ماذا سيجلب هذا التسامح معكم، أيها المارّانو!»، تابع الجندي كلامه، ثم أشار بعد ذلك لمرافقيه بأَن يصحبوه باتجاه الخارج،

نظر بوسطن إلى الجميع من حوله، كان صمت مميت قد عمّ الغرفة.

وعندما استدار بوسطن نحو صاحب الدار مرة ثانية، رآه يرتعش، والفتى الذي كان يسند الجدار صامتاً طيلة الوقت قد انكفأ على نفسه، وفيما كان الصبي يريد الجلوس على الأرض، سقطت من تحت سترته قطعة الخبز المجدولة وتحطمت على بلاط أرضية الغرفة.

تقدم الرجل خطوة نحوه، «سالومون!»، قال هامساً، «ولدي!».

إلا أن بوسطن رأى وهو في حالة من الذهول، كيف أن دمعة كانت تسيل على خدّ الرجل.

ولسبب ما، تذكّر الجندي الذي يحمل ندبة على وجهه، ما الذي ذكره به؟ وما هو الشيء الذي استدعى تذكره مع أنه لم يلتقِهِ من قبل؟

تناول الفتى قطعة الخبز التي سقطت على الأرض بكل حرص وعناية، ثم نهض واقفاً وناولها لأبيه.

«لم تتبعني دائماً كل هذا الوقت؟» قال طارق بغضب، كان قد أَسند ظهره إلى جدار مطلي بالأبيض. وأمامه، كانت نهاية الزقاق تنفتح على ساحة ما، وكان صوت تدفق ماء النوفرة يصل إلى مسامعه حتى هنا، «اذهب إلى بيتك! لقد انتهت مهمتك! وكما لاحظت أنت بنفسك، لم تكن من حاجة لك في أية لحظة، ألم أجد الطريق بمفردي؟».

تحت ردائه كانت تخشخش القطع النقدية الموجودة في الكيس الجلدي، وكان الرجل ذو الرداء الأسود قد أعطاه إياه بعد أن تناوله من مخبئه في الجدار، كان الكيس يبدو ثقيلاً، وقد فهم بوسطن أنّ طارق لم يرغب بأخذه، وما عدا ذلك فهو لم يفهم شيئاً.

«لا أعلم إلى اين!»، تمتم لنفسه.

«لا أعلم إلى اين!»، قال طارق مردداً ما قاله بوسطن باستخفاف، «اذهب

إلى حيث جئت، أيها اليهودي، عد إلى هناك! تماماً كما سأفعل أنا».

حدق بوسطن فيه قليلاً، فالخوف من الجندي في منزل اليهودي، كان قد أنساه للحظة، الخوف الآخر. فحتى لا يوجد طريق من رياليخو، يؤدي إلى الهوستال، وليس له تصور كيف يمكن أن يكون، فحتى الشوارع المعروفة، لم تكن معروفة كما لو أنه لا يوجد مكان يتطابق مع الواقع.

«هل يمكنني أن أسألك عن شيء قبل ذلك؟ سأل بوسطن هامساً».

«هل يمكنني أن أسألك عن شيء قبل ذلك؟ كرر طارق السؤال نفسه وقد غضّن ملامح وجهه، كان يتثاءب، إلا أنه على الأقل لم يتفوه بكلمة لا.

«إنني في الحقيقة لا أعلم كيف أقول»، تمتم بوسطن، فلو أنه أوضح لمرافقه ما حصل له، فسيعتبره هذا فاقد العقل، ولكنه تابع «أنا لا أعلم تماماً أين نحن الآن في حقيقة الأمر؟».

كان طارق قد تثاءب للمرة الثانية، ولكنه حدّق في بوسطن هذه المرة وقال»، في إشبيلية؟" قال ذلك ورفع أحد حاجبيه كما لو كان يمعن التفكير في مسألة صعبة، «همم، همم، همم هذه لا. في قرطبة؟همم، همم، همم، وهذه أيضاً لا. ربما في مالاقا؟ همم، همم، همم. وهذه بالتأكيد ليست هي، هل يمكننا أن نحاول مع غرناطه؟ أم أنك تعتبر هذه من جنائن الفردوس السبع؟».

«لا»، قال بوسطن، وهو على وشك أن تنتابه نوبة غضب، هذا حسن، «مسألة أننا الآن في غرناطة، فهذا أمر أعرفه بنفسي، ولكنني أقصد على نحو ما أكثر من ذلك، «لكنه تردد من جديد، لم يكن يرغب في قول سؤاله بالكلام، لا بل كان لا يرغب أن يفكر بما كان يريد أن يسأله، «متى كنّا هنا بالتحديد؟».

نظر إليه طارق، وبدا كأنه أوشك أن يفقد صبره، فأجابه: «***الآن***، ليس بالأمس، وليس في الغد. على أي حال أنا واثق من ذلك. الآن نحن هنا، في غرناطة، في ألبايثين، وبعد قليل سأذهب كي أنام في ***الفندق***[1]، إن كان هذا يلائمك؟»، قال طارق ذلك وانحنى ساخراً.

إنه يتعامل معي في كل الأحوال كما لو أنني فاقد العقل، فكر بوسطن في نفسه، وهو ما سأفعله. «ولكن متى هو الآن؟» سأل في عجالة، «أنا أعلم في أي يوم من الأسبوع نحن، وهو يوم الجمعة، أكثر من ذلك لا أعلم»، ثم أخذ ينبش بداخل كيس الظهر باحثاً عن هاتفه المحمول، فعليه سأقرأ بالتأكيد ما الساعة والتاريخ كما هما في بلدي.

إنه يحتاج إلى يقين، أياً كانت العواقب التي سيبذلها ليتحقق من يقينه صادمة، «في أي شهر نحن؟ وفي أية سنة؟» وحالما ضغط على ملمس في هاتفه المحمول، أضاءت شاشة العرض للحظة، إلا أن نغمة فتح الجهاز على تلك الوضعية كان وقعها غريباً في ذلك الزقاق المعتم.

«***الله أكبر!***»، هتف طارق بصوت عالٍ، ثم سقط ساجداً على ركبتيه، «إحمني يا رب!».

غرناطة، نيسان/ إبريل، في الوقت الحاضر

فيما كانوا في طريق عودتهم إلى ***الهوستال***، وانتباههم، لعدم وجود بوسطن معهم، شعروا للوهلة الأولى بشيء من الإحساس بالذنب.

«يا رجل!»، قال طوقان، «أين ذهب هذا الصغير من جديد؟».

وبالطبع لم يحتسوا ***السيرفيثا*** الإسبانية، من جهة لأن الوقت مازال نهاراً،

(1) ورد اسم الفندق– Funduq، هكذا في النص الأصلي المترجم عنه، (المترجم)

وبالطبع لن يشربوها علناً أمام الجميع، وقبل كل شيء، قال قدير إنَّ والده سيعاقبه بالضرب المبرح، إن تمت إعادته إلى أهله بسبب تعاطيه للمشروبات الروحية.

«وحيثما يكون هناك تعاطٍ للمشروبات الكحولية، فهو يرى ذلك قذراً»، قال طوقان، «فالأتراك لا يشربون الخمر، أوكي؟ إن ديننا يحرم ذلك».

«الأتراك لا يشربون الخمر!!! ها ها»، ردّ عليه سيرغاي، إلا أن كل واحد منهم كان مدركاً بأنه قد رضي بابتداع مبرر يرتاح إليه، كي يكتفي بشرب الكولا، وهي لم تكن إسبانية ولا ألمانية، بل أمريكية، وهكذا، لم يكن من بينهم أي زبون محلي من شاربي السيرفيثا، إن هم بقوا جالسين في ساحة بيب رامبلا، فاتحين أرجلهم المتقاطعة، تحت مظلة كبيرة، يراقبون دخول وخروج السائحين المتزاحمين عند مدخل القيصرية.

لم يفتقدوا بوسطن في جلستهم تلك، إلا أنهم استغربوا، أنه حتى في وقت متأخر من بعد الظهر، لم يظهر في *الهوستال*، ولاحظوا اختفاء كيس ظهره بموديله القديم من على سريره، وبالطبع، افتقاد غيابه هو نفسه أيضاً.

«هل علينا إخبار هيلبرت للحال بشأنه؟»، سأل قدير، «إذ ربما يكون قد حصل له مكروه؟».

نقر طوقان على جبهته مستهزئاً، ثم قال «بكل بساطة، هذا الصغير، محب للمغامرات فقط! أنت لم تكن تظن أنه يمكن أن يقدم على هذا، أليس كذلك؟».

«لا وشاية!» قال سيرغاي، وهو يمط العلكة فكل واحد من المجموعة كان يعلم أنه مدخن، إلا أن طوقان قال له محذراً، إنَّهُ إن استشعر أحد ما أنَّ الغرفة فيها أثر رائحة للتدخين، فستحصل بعض المشاكل، «وإلا، فسيقع

الغضب عليه وحده».

وهكذا تركوا الأمر على هذه الحال.

ولكن عندما حلّ موعد العشاء، وظل مكان بوسطن فارغاً، جاءت السيدة هيلبرت بالطبع لسؤالهم.

«أين بوسطن؟ ألم يكن برفقتكم أنتم الثلاثة عندما خرجتم معاً؟».

هزّ طوقان برأسه، «لقد قال إنّهُ تعب، وتركناه الآن غارقاً في نومه، فلم نشأ إيقاظه».

القت السيدة هيلبرت بنظرة مريبة بعض الشيء، ثم تابعت «وما عدا ذلك، فهل كل شيء على ما يرام؟ التعب يعني التعب، وليس المرض؟ أم أنه اشتاق للعودة؟».

نقر سيرغاي بإصبعه على جبهته، المدرسون لا يحبون مثل هذه الحركة، ولكن سيرغاي وجد فعل مثل ذلك ضرورياً في هذه اللحظة، «ولكن، ليس بوسطن!»، قال ذلك واندفع بصدره للتأكيد إلى الأمام.

ابتسمت السيدة هيلبرت، ولكن بقي لديها بعض القلق، في كيف يمكنها أن تحرص على رعاية هذا الصغير، إلا أن كل شي سار على أفضل مما توقعته هي نفسها.

«ولكن إن لم يحضر على الفطور يوم الغد» قالت السيدة هيلبرت، «فعليّ في هذه الحالة أن أفكر بإعادة النظر».

لذا أسرعوا بجعل غطاء سرير بوسطن محدباً على امتداده، قبل أن يحضر متدرب اللغة الإسبانية الخجول لتفقدهم في جولته المسائية على غرف الفتيان، ليقول لهم ليلة سعيدة، وبالطبع ليتأكد إن كان كل واحد قد رقد في سريره.

«بست»، همس طوقان، «قليلاً من الهدوء، إيه، الصغير نائم!».

«آهه!»، قال المتدرب، وصفق الباب ببعض الضَجيج، وكأنه استراح لأن كل شيء في هذه الغرفة على ما يرام أيضاً.

جلسوا الآن على أسرتهم، وقد تم فتح النافذة لأقصى مدى، إن سيرغاي لم يستطع النوم قبل تدخين سيجارة نومه.

«وإن كان قد حصل له شيء ما؟»، همس قدير، «وفي حال عودته، كيف سيدخل إلى هنا؟».

«ألا تعلم ما هو حجم الغضب الذي سيناله، إن حضر الآن!» قال طوقان. «وعلى كل حال سيحتاج إلى عذر مقنع، أخ، مستحيل، لا، لا يمكن الوشاية به، «ثم استدار نحو سيرغاي، «أعطني نفساً! إن لم يعد صباح الغد، فعندئذٍ».

استقام قدير منحنيا بعيداً للخلف لدرجة أنه صدم رأسه بالجدار من خلفه، «ماذا تظن ما سيحصل، وما هو حجم الغضب الذي سيناله»، قال هامساً.

سحق سيرغاي سيجارته في حوض المغسلة. ثم قال: «بل وقبل ذلك، قل ماذا سيصيبنا نحن أيضاً؟».

الأندلس، 1492

لم يفكر بوسطن من قبل كيف يمكنه أن يوضح لشخص آخر ما هو الهاتف المحمول، إن كان هذا الآخر لم ير الهاتف في حياته، ولماذا ينبغي أن يوضح ذلك، إن كل واحد يعرف ما هو الهاتف، وكل واحد يعرف ما هو المحمول، فلماذا إذن أصيب الفتى بالرعب.

لأن الحقيقة كانت، هي ما يخشاه بوسطن، بعد أن رأى تلك العتمة في

شوارع رياليخو، وبعد أن رأى تلك العمامة، وأولئك الجنود، وبعدما عاش تلك المواجهة في منزل ذلك اليهودي، وهو يكاد الآن لا يحتاج لإجابة تقريباً على سؤاله.

ضرب طارق الهاتف المحمول مبعداً إياه من أمام عينيه، كما لو كان يريد رمي نفسه عليه.

«إنه ليس سوى هاتفي المحمول!»، كان بوسطن قد قال لطارق، رافعاً موبايله المحمول أمام وجهه كي يهّدئ من روعه، إلا أنه كان قد أضاء في وضعية العرض، فصرخ طارق مصعوقاً بصوت هائل، ما أفضى لأن تنفتح نافذة موجودة في أعلى الجدار.

«إنه وقت الراحة من أجل النوم»، صرخ صوت ذكوري مغضب من النافذة، «ألا يستطيع المرء النوم هانئاً بسلام في غرناطة، منذ أن جاء أكلة لحم الخنزير الملعونون ليجلسوا فوقنا هناك في الحمراء؟».

وعندما أغلقت النافذة من جديد، كان بوسطن قد لوح بصمت إلى طارق في الساحة.

كانت نوافير الماء تصفق، وعلى المرتفع فوقهم، كان يشمخ القصر بصمت، تغمره أشعة ضوء القمر.

«إنه مجرد هاتف محمول!» همس بوسطن، فيما كانت أصابع يده الطيارة تبحث عن الصورة التي التقطها في الظهيرة لكل من طوقان وقدير وسيرغاي، وفيها كان قدير يضع إصبعيه على هيئة أذني أرنب، فيما طوقان كان قد فتح شدقه بإصبعيه إلى آخر مدى. وفي الخلفية بدت بلاطات خزف ***أثوليخو*** في الحمراء، «أنظر هنا! هذه فوق، هناك!» قال بوسطن ذلك، وهو يشير إلى الحمراء في الأعلى، «هذه كانت من قبل! قبل أن يحط بي المصير إلى هنا!

واللعنة هي أنني لا أعلم على الإطلاق لا كيف ولا لماذا أنا هنا!».

حدق طارق في الصورة. «من الذي سمح لهم بالدخول إلى القلعة؟» قال هامساً.

«إن معلمتنا هي من كانت قد حجزت من بلادنا للدخول إليها، على الإنترنيت»، قال بوسطن، ثم اطفأ الجهاز، «إنه مجرد هاتف محمول! هذا ما أحاول قوله لك كل الوقت!».

ثم عاد ليوضح له.

إلا أن طارق لا يعرف الهاتف، ضحك طارق، عندما حاول بوسطن أن يشرح له، كيف أن المرء يمكن أن يتحدث به مع الآخر حيثما كان في كل العالم، ثم تحول بنظره إلى الهاتف المحمول، أخيراً صمت وهو في حالة من الآضطراب.

«أنا أعلم بالطبع، أنه لا يوجد انتقال عبر الزمن، قال بوسطن مترجياً، «ولا أريد أن توجد! ولا أنت تعتقد بذلك بالتأكيد! ولكنه التوضيح الوحيد الذي يحضرني الآن، وهو ما أظنه معقولاً – مع أنه غير منطقي أيضاً – هي أن... الخلاصة، قل لي بكل بساطة، ما هو الشهر الذي أنتم فيه هنا الآن؟ وأية سنة؟».

هزّ طارق برأسه، فأيقن بوسطن بأن اللحظة الراهنة قد تكون مخيفة بالنسبة لسواه، أكثر مما هي بالنسبة له، فهو كان لديه الوقت على الأقل، كي يعتاد على التفكير.

«إن أكلة لحم الخنزير يسمونه نيسان /أبريل»، قال طارق، «و 1492هو العام كما يحسبونه هم، و891 كما نحسبه نحن، هل تريد أن تسمع وفق ما نحسب نحن أم هم؟».

كان بوسطن هو من كان مضطراً الآن، للجلوس على حافة النوفرة،

«هل أنت على يقين بأنه العام 1492؟» همس بوسطن.

«هو هكذا وفقاً لحسابهم»، قال طارق، «لماذا؟ وكيف تسميه أنت؟».

هزّ بوسطن برأسه، «لقد هويت عائداً إلى الماضي!»، همس، ثم تابع، «يا إلهي!».

تأمله طارق جيداً، كان واضحاً أنه لا يصدق ما يسمعه، «لماذا الماضي؟»، قال طارق، «الآن هو الآن، ألم أقل لك هذا قبل قليل ؟».

«الآن هو الآن دائماً»، تمتم بوسطن، «ولكن عندما يكون الآن متبايناً».

أغمض طارق كلتا عينيه بشدة، كان ماء النوفرة يتدفق، وفي الطرف الآخر من الساحة، كان قد نهق حمار أثناء نومه في اصطبله.

«أريد أن أشرح لك، من أجل أن أصدق أنا نفسي»، قال بوسطن، «فهذا الهاتف المحمول، الذي تراه لدي هنا، وربما ثيابي التي أرتديها أيضاً، ومظاريف الكاتشاب هذه، هي كلها لا تعرفها أنت».

أومأ طارق برأسه، ثم نظر إلى الهاتف المحمول في يد بوسطن، والذي ظل معتماً وساكناً، وابتعد قليلاً عنه، وبدا واضحاً بأن الكاتشاب لم يكن هو الذي أثار اهتمامه.

«أنا لا أعلم، كيف أتيتُ إلى هنا»، قال بوسطن، «ولا أعلم حتى لماذا أنا هنا، وأنا ما زلت آمل بأن كل هذا الذي يجري، لا يعدو كونه حلماً فحسب، أرجو أن تفهم ما أقصده، ولكن في واقع الأمر أنا لا أعيش في هذا الزمن، أنا أعيش في ما بعد خمسمائة سنة قادمة، بل ربما أكثر من ذلك، وأنا هنا في الحقيقة في عداد رحلة إسبانية».

«رحلة إسبانية؟»، سأل طارق.

وفيما كان بوسطن يشرح، شعر أنه نظراً لهول ما حدث له، أصبح إدراكه لما يدور حوله أكثر وعياً، بل ازداد أكثر فأكثر، واستشعر في الوقت ذاته بالاطمئنان، حيث يجلس طارق بجانبه ويصغي لما يقوله، وأن كل واحد منهما يرى الزمن الذي هو فيه معتاد بالنسبة له، تماماً كما يرى هو العالم على النحو المعتاد بالنسبة له، فيه أبنية عالية وسيارات وأجهزة تلفزة، حتى وإن كان طارق قد ضحك عندما حدثه كيف جاءت مجموعة اللغة الإسبانية بالطائرة إلى إسبانيا.

«طائر يطير بالبشر؟»قال طارق، «والله! أريد أن أصدقك، لكن ما تقوله يشبه ادعاء الفأرة بأن الأسد طلب يدها لتكون امرأته».

«هذا مؤكد»، قال بوسطن متوسلاً تصديقه، «حقيقة! يا إلهي، كل ذلك هو حقيقة، كل ما ذكرته لك حقيقة! ولكن هذا الذي لديكم هنا الآن...»، ثم صمت.

هزّ طارق برأسه، «لقد ظننت أنهم أرسلوك بعد ظهرهذا اليوم من ***الخوديريا*** لتاتي إليّ كي تدلني على طريق الوصول إلى إسحاق»، قال طارق، «يا لهذه الأوقات».

«الكلام لك الآن»، قال بوسطن، ولاحظ كيف كان صوته يرتعش وهو يتكلم، «وطالما أنني موجود هنا الآن»، وأرغم نفسه على استبعاد أي خوف يمكن أن يقترب منه، «ومع أنني لا أعلم كيف جئت إلى هنا، وبالطبع لا أعلم كيف سأعود»، إلا أنني على الأقل مدرك لكل ما جرى هنا من قبل، «ثم نظر إلى طارق بشيء من الاستعطاف متابعاً، «ما يتعلق بالجنود، وما يتعلق بالذهب، وأيضاً ما يتعلق بالخبز».

توقف طارق عن التثاؤب منذ وقت بعيد، إلا أنه كان يلتفت حوله،

كما لو كان يود أن يكون متأكداً من أنَّ لا أحد يسترق السمع إليه، ثم بدأ بالحديث.

-9-

جلست يوهانّا على حافة النافذة تنظر عبرها إلى الوادي، ومع أن شمس الصباح كانت قد أطلت للتو إلى ما فوق الأفق بقليل، إلا أنها لم تعد تستطيع النوم.

على المرء أن يمنع أولئك المؤذنين من الدعوة للصلاة في مثل هذه الأوقات المبكرة عبر المآذن في أنحاء المدينة كلها هناك في الأسفل، قالت لنفسها، إن الصوت مرتفع على نحو فظيع، وهو يوقظ الجميع، فما جدواه بالنسبة لنا نحن غير المسلمين؟ إنه أمر مغيظ.

أريد العودة إلى قرطبة، فقرطبة هي لنا منذ أمد بعيد، أما هنا، فكل شيء يبدو مختلفاً مثل أي بلاد غريبة. أنا لا أريد التنقل، مرة إلى هذا القصر، وأخرى إلى غيره، الآن في قرطبة وغداً في اشبيليا وبعد غد في غرناطة، وبعدئذٍ في مكان آخر، في الشمال ربما في مدينة برشلونة الباردة، وكل ذلك فقط، لأن مملكتنا واسعة إلى كل هذا المدى، إنني آسفة حقاً، أن أكون أميرة. كانت تهزّ بقدميها فوق حافة النافذة، تاركة عقبيها يقومان بالقرع على السور وفق إيقاع منتظم، لو استيقظت آمّي الآن ورأتني على هذه الحال، لسقطت من فورها ميتة على الأرض، «يا ضوء قمري! يا غزالتي! ستسقطين من النافذة!».

انحنت للأمام، إلى أن أصيبت بالدوار، وللحظة ما، ظنت، أنه لم يكن قد

بقي لها سوى شعرة رفيعة واحدة، حتى تهوي من مكانها. كان شعورها رهيباً، ورائعاً في الوقت ذاته، فأعادت الانثناء للخلف من جديد، إلى أبعد مدى أمكن فيه لقلبها، من عودته كي يخفق بهدوؤ أكثر.

«وماذا إن أنا سقطت؟» قالت لنفسها معزية، «من هي تلك التي سيزوجونها إلى ذلك الجميل من أسرة هابسبورغ؟ قد تكون ماريا؟ إنها غبية، غبية، غبية، ومع هذا فلا يتعلق الأمر بكونها ما زالت طفلة في العاشرة من عمرها، فلقد كنت أنا أذكى منها عندما كنت في العاشرة. إلا أنها مع ذلك جريئة! إنها جريئة لحد الملل! فهل لذلك الأشقر، أن يحظى ربما بماريا بالفعل!».

انحنت من جديد نحو الأمام، لتنال نسمة هواء، ثم أخذت تتنفس بسرعة.

«أم ربما كاثرينا؟ إنها ما زالت طفلة، وتبكي للحال إن لم يأت الأمر على مزاجها، وحتى أمنا بوقارها الملكي، غير قادرة على تحمّلها، أنا أعلم ذلك، من طبيعة نظرتها إلى كاثرينا، فليأخذ إذن كاثرينا، ولنرتح بذلك منها!».

قهقهت ضاحكة.

«يا ضوء قمري»، صرخت آمّي، كان مدهشاً أن يعلم المرء دائماً ما يمكن أن تقوله آمّي بدقة. «يا غزالتي الصغيرة! ستسقطين من النافذة!».

ضحكت يوهانّا وتابعت قرع الحجر بعقبيها.

«إذن أمسكي بي جيداً!»، ردت عليها، من دون أن تلتفت إليها، «وإلا سقطت في الوادي! أنا لا أريد الزواج من هذا الهابسبورغي، لا، أبداً!».

تشبث ساعد آمّي بها بقوة وثبات، فهي كانت امرأة لينة الطباع، مكورة الجسد، ومحبة.

«ستتزوجينه يا حمامتي الصغيرة»، قالت لها آمّي، بصوت ذي نبرة حزينة، الأمر الذي جعل يوهانّا تشعر بالخجل، بأنها ربما قد تكون أصابتها بالفزع، «فلأنك أنت أميرة، ولأنه هو أمير، لذلك لا مجال للسؤال هنا».

عندما صحا بوسطن، أبقى على عينيه مغمضتين لبرهة من الوقت.

إن فتحت عيني الآن، فكر لنفسه، سأجد نفسي من جديد مستلقياً في سريري في *الهوستال* الذي يصر وينوح مع كل حركة مني، فوقي في السرير ينام سيرغاي، وفي الجهة المقابلة ينام طوقان وقدير، وأنا أحدثهم عن الحلم الذي رأيته، أو ربما من الأفضل أن لا افعل، إذ بالكاد بدؤوا يتعاملون معي على نحو طبيعي بعض الشيء.

ولكنه كان مدركاً أنه حتى ذلك الفراش الذي في ذلك *الهوستال* الرخيص، لم يكن على مثل ذلك التصلب والقسوة اللذين أحس بهما من تحت ظهره على الأرض، حيث يرقد الآن. فالخنفرة والخربشة، أشارتا إلى أن الحيوانات قد صحت من نومها، حمير وجمال وبغال، كانت موجودة في الخارج على محيط *الفندق*[1]، كما كانت هناك بضعة أزواج من الأحصنة.

وقبل أن يحدثه عن سقوط غرناطة، وعن الشكوك التي تراود المغاربيين بشأن الإطاحة بهم، وعن خشية اليهود من مطاردتهم، كان طارق قد جاء معه في الليلة السابقة إلى هنا.

«إنه خلف سوق الحرير مباشرة عند باب الرملة»، قال له طارق، «وعلى كل حال لا بد لك أن تنام في مكان ما»، تابع طارق كلامه متوجهاً إلى بوسطن.

---

(1) المقصود بالفندق هنا، الخان. حيث يمكن للمسافرين النوم وإيواء حيواناتهم في الوقت ذاته (المترجم)

فتح بوسطن عينيه بحذر.

كانت الشمس ما زالت في بداية شروقها، إلا أن أشعتها الأولى كانت قد ارتمت من فوق الباحة الداخلية التي تكاد تكون مربعة الشكل، غامرة بضوئها النوفرة وسط الباحة، التي تجمّع حولها ناس يلبسون جلاليب بيضاء، وتحت الأقواس المبنية بالآجر، والتي تحيط بالباحة من كل جوانبها وداخل الأروقة التي توجد فوقها، كان قد رقد في الليلة التي انقضت المسافرون، الذين جاؤوا قاصدين غرناطة، من أجل القيام بتجارتهم، وهم يمشون الآن في الباحة مسرعين بانشغال واضح.

إنني واعٍ لكل ذلك بالفعل، قال بوسطن لنفسه، لا تضطرب، عليك ألا تضطرب، لقد وعيت ما جرى حقاً. هذا هو الخان الذي رأيته بالأمس ببوابتيه المقوستين، عندما مررت بالقيصرية من دون أن أدخله، والشمس تدخل إلى هنا في الباحة بشيء من الحذر، وهذا هو العام 1492، والإمكانية الوحيدة من أجل استيعاب كل شيء والثبات عليها، من دون أن أصاب بالجنون، هي أن أتظاهر بأن كل شيء، لا يعدو كونه رحلة سفر عادية.

لقد سافرت إلى بحر الشمال.

وسافرت إلى مايوركا.

وأنت، بوسطن؟

ها قد سافرت أنا إلى العام 1492.

والمكان الذي بجانبه، حيث بات طارق بالأمس، كان قد خلا، إلا أن بوسطن، ولا يعلم لماذا، كان على يقين قاطع، بأن الفتى سيعود ثانية.

ولكن كيف سافرت؟ ولماذا حصل هذا؟ في لحظة كنت في القيصرية، وكل شيء كان طبيعياً وعادياً، وبعد ذلك أنا هنا.

تناول كيس ظهره على مهل، وتناول منه كتاب الدليل السياحي الذي يخص السيدة هيلبرت، لا بد أن يكون فيه شيئاً عن تاريخ غرناطة، لم يلتفت إليه أحد، ولم يفتقد هو أيضاً أحداً، إنه سائح بين سائحين.

في كانون الثاني /يناير 1492، كما تحدث إليه طارق في الليلة السابقة بصوت هامس، بأنه– «ومنذ أقل من مئة يوم!»– قام آخر أمير مغاربي هو محمد أبو عبد الله، الذي يسميه الإسبان بوعبديل، بتسليم مفتاح مدينته غرناطة إلى ملك وملكة إسبانيا فرديناند وإيزابيلا من دون قتال، بعد توقيع معاهدة استسلام إثر مفاوضات جرت من أجل ذلك، تسمح للمغاربيين من مملكة غرناطة، أن يتابعوا حياتهم كما كانت حتى الآن، أن يمارسوا الحياة التي كانوا يمارسونها حتى الآن، في لباسهم، وغذائهم، وعلى الاحتفال بأعيادهم وممارسة طقوس ديانتهم، من دون أن يمنعهم أحد من ذلك، وأن يتم بالمثل الإبقاء على غرناطة بعد احتلالها من قبل الملوك الكاثوليك، مدينة مسلمة مغاربية، تماماً كما كانت قبل مئات السنين.

«ولكننا، و منذ البداية لم نثق بهم»، قال طارق هامساً، «لقد احتل أكلة لحم الخنزير في النهاية أراضي مملكتنا كلها على شبه الجزيرة».

«أكلة لحم الخنزير؟» سأله بوسطن، ولكن بعد خطوات إلى جانبهم، كان قد تأوه رجل بصوت مرتفع خلال نومه.

«المسيحيون»، أجابه طارق، بنبرة كان وقعها كمن كاد على وشك البصاق.

وللحظة قصيرة، فكر بوسطن، إن كان عليه إخباره، بأنه قد تلقى قبل وقت قصير درساً دينيا حول أول ***مناولة***[1]. لكنه قرر أخيراً أن ذلك لم يكن

(1) تناول ما يعرف بخبز القربانة الذي يرمز إلى المشاركة بآلام المسيح لدى صلب جسده، من أجل

مهماً له في بلده، فلماذا ينبغي أن يكون له دور مهم الآن.

«نحن نعرف منذ زمن بعيد كيف أنهم ينقضّون على من يخسر الحرب معهم، يا ألله! ولم يرد بالطبع شيء بخصوص اليهود ضمن المعاهدة»، قال طارق، «ومنذ زمن بعيد كانوا يحاولون طرد اليهود من كل مكان في إسبانيا؛ فمن لم يتعمّد كمسيحي، يحكم عليه بالحرق، ومن يتعمّد يتم حرقه أيضاً، لأنهم لا يثقون بأنه قد آمن في قلبه بمعموديته المسيحية، فما هو هذا الدين الذي لا يجعلهم يثقون، بأن أحداً يمكن أن يتحول بحق إلى اعتناق دينهم!».

كل هذه الأحاديث حول الدين، دفعت بوسطن للتأمل، من هو ذاك الذي يعنيه شيء من هذه الأمور.

«والآن، يعملون على حرقهم هنا، أي حرق اليهود»، قال طارق، «أي حرقهم هنا في غرناطة وإلا عليهم ترك المدينة. ليس لديهم الكثير من الوقت، كل ما لديهم من الذهب وما يملكونه من كل شيء سيكون من نصيب الملكة الإسبانية».

أشار بوسطن إلى الكيس الجلدي، الذي كان يرقد في حضن طارق في الفندق وسأل: «وهذا الذي هنا؟».

ضحك طارق. «ألم تفهم بعد؟ سيغادر اليهود غرناطة، وسيهربون بالآلاف من كل أنحاء إسبانيا، من دون أن يأخذوا معهم شيئاً باستثناء الثياب التي على أجسادهم، ويمنع عليهم أخذ شيء معهم، وإلا فعقوبتهم الموت».

خلاص البشرية من الخطيئة وفقاً لتعليم الكنسية المذكورة، هو طقس كنسي يبدأ بسن معينة للراغبين بعضوية الكنيسة، ويتم ذلك بعد تلقي درس ديني يعطى من قبل الكنيسة للفتيان الذين سيبلغون ذللك العمر (غالباً 14 أو 16 عاماً). ويمكن اعتبار هذه الدروس تأهيلاً لعضوية تلك الكنيسة. (المترجم)

حدق بوسطن به طويلاً، هذه سرقة.

«فلم لا يكون بمقدورهم أن يعطونا، نحن المغاربيين، من ذهبهم الآن، طالما أن هذا ممكن في هذا الوقت إن كنا سنبقى نحن هنا؟»، سأل طارق، «فمن أجل هذا، قرر قبطان مغاربي شجاع، القيام بأمر محظور عقوبته الموت أيضاً، وهو نقل بعض مما يملكونه بالسر إلى خارج البلاد، إنه يعرّض نفسه للخطر من أجلهم، وستنتظره المحرقة إن اكتشف امره، فلماذا لا يدفعون بعض المال؟».

هزّ بوسطن رأسه، «وأنتم المغاربيون، تريدون شراء السلاح مقابل هذا الذهب، وتريدون البدء بالمقاومة، أليس كذلك ؟ ومن ثم طرد الإسبان».

«نحن الإسبان»، هتف طارق، نحن المسلمون، نحن الإسبان، مثلما هو حال السفارديم بالنسبة ليهود إسبانيا، ومثلما هو حال أكلة لحم الخنزير بالنسبة للمسيحيين الإسبان، هل ينبغي أن يكون هناك نوع واحد من الإسبان؟ ألا يوجد في هذا البلد مكان إلا لدين واحد؟ ألم تكن سبعمائة عام من حكم المغاربيين حقبة لتعايش الأديان الثلاثة؟».

«أنا أيضاً أجد ذلك أمراً غريباً»، قال بوسطن ذلك، ولم يرد أن ينفعل طارق على تلك الشاكلة.

إلا أن ذلك لا يمكن مقارنته من حيث غرابته بمثل حقيقة أن أوجد أنا فجأة هنا، يا إلهي، لقد انتقلت عبر الزمن.

«سبعمائة سنة بطولها»، هتف طارق، «عشنا جميعنا هنا معاً بسلام! هل أبعدنا نحن المغاربيين، اليهود من هنا؟هل طلبنا من المسيحيين أن يبجلوا نبينا؟».

«لا علم لي بهذا»، غمغم بوسطن.

بدا طارق في هذه اللحظة صاحياً، إلى حد رجاه بوسطن إن كان يمكنه أن يستمر في حديثه حتى الصباح.

«كان دفع الضريبة واجباً عليهم»تحدث طارق متابعاً، لكنه صمت مذعوراً، عندما سمع على مبعدة خطوات منهم رجلاً تقلّب في نومه. وما لبث أن تابع قائلاً: «ولكن هل حرقناهم؟ ألا لعنة الله على أكلة لحم الخنزير!».

هزّ بوسطن برأسه، هذا يعني أن طارق كان قد حمل رسالة إلى إسحاق اليهودي، بأن القبطان على استعداد لنقل الممتلكات اليهودية إلى القسطنطينية لتكون في أمان، وهو ما فهمه بوسطن، وأن طارق قبض الدفعة الأولى من أجل شراء السلاح، لإعادة تحرير غرناطة من قبضة الملكة المسيحية، كل ذلك لم يكن من الصعب على بوسطن فهمه.

ولكن ما صعب عليه إدراكه، هو إن كان كل ما سمعه، كان يجب أن يحدث حقاً، الطرد، الموت بالمحرقة وأكثر من ذلك، أن يكون هو نفسه في قلب كل هذه الأحداث.

«وأنت، هل تعتقد أنهم سيتركوننا نستمر نحن المغاربيين في العيش طويلاً هنا بهدوء؟»، قال طارق هامساً، «فعندما سيطردون اليهود الآن من هنا، إن هم استولوا على كل مقتنياتهم: هل تظن، أنهم سيدعوننا بسلام؟ فنحن المسلمين سنكون هدفاً لخطوتهم التالية، ومن الواضح أن عيونهم مفتوحة على أملاكنا نحن المغاربيين، وسيقولون: اطردوا المغاربيين! وهيا للاستيلاء على ذهبهم!».

«ولكنك قلت إنّه توجد معاهدة واتفاق»، غمغم بوسطن، ولكنه أدرك للتو كم بدا وقع ما قاله ذلك بليداً، إذ ماذا ستفعل معاهدة في هذه الحالة، إن

كان البعض يبعث آخرين إلى المحرقة، فقط من أجل دينهم.

«لن تنقذنا سوى المقاومة»، أجاب طارق، فيما كانت صورة القمر قد انعكست على سطح ماء النوفرة.

وهذه هي السنة التي جئت إليها في انتقالي عبر الزمن، فكر بوسطن لنفسه، وهو يراقب شمس الصباح. إنه إذن عام 1492.

راح يقلّب في الدليل السياحي بكل هدوء، كي لا يلفت انتباه أحد إليه.

وقبل أن ينظر إلى العنوان، خطر بباله من جديد، أن يسأل نفسه، لماذا يستذكر هذا التاريخ وكأنه معروف له من قبل؟

فعن احتلال غرناطة، لم تكن لديه أية فكرة.

في هذا العام اكتشف كولومبوس أمريكا.

-10-

وإلى حين عودة طارق، ظل بوسطن يقرأ في الدليل السياحي، لم يعثر فيه على الكثير من التفاصيل، إلا أن ما قرأه فيه عن تاريخ غرناطة، ساعده أكثر لفهم ما كان قد شرحه له طارق، على أي حال، استولى الملوك المسيحيون على غرناطة في كانون الثاني /يناير عام 1492. وفي 31 آذار /مارس وقعوا قانوناً يقول، بأن على يهود المدينة إما أن يقبلوا المعمودية المسيحية، أو أن يرحلوا عن البلاد من دون أن يأخذوا معهم أي شيء من مقتنياتهم، عشرات الآلاف، كما يقول الدليل السياحي، ركبوا سفناً أخذتهم إلى شمال أفريقيا، وإلى القسطنطينية، كانت الطرق الإسبانية مليئة بحشود الهاربين من اليهود البائسين. وبعد بضع سنوات فقط، أي في العام 1499، حدث للمغاربيين الشيء ذاته، كان طارق على صواب إذن، فالمغاربيون أيضاً تم طردهم من وطنهم، وتم إعدامهم، وهدم حماماتهم، وحرق مكتباتهم.

ولكن لم يحدث هذا بعد! فكر بوسطن لنفسه، ربما تنجح مقاومتهم! تابع تصفح الدليل السياحي، إلا أن الحديث عن نصر للمغاربيين، أو عن حدوث مقاومة من قبلهم، هو ما لم يعثر عليه في الدليل.

من يعلم، ما إن كان من الممكن، أن يحدث تغيير ما! ولكنه مع مثل هذه الأفكار بدأ يشعر بالدوار، هل يمكن للمرء أن يغير مسيرة التاريخ لاحقاً بعد وقوعها؟ أي جعله يتراجع، عما كان قد حدث فعلاً؟

إنه هراء. فمن سيعتقد بذلك.

ولكن من سيصدق، ما قد حدث له للتو؟ أي أن يتحول حاضره الراهن، فيصبح ذلك الحاضر فجأة وفي رمشة عين، مسقبلاً بعيداً، وأن يسافر في الزمن رجوعاً إلى خمسمائة سنة للوراء، من دون أن يعلم لماذا؟ ومنذ متى بدأ الزمن يسمح بالنفاذ عبره بيسر على هذا النحو؟

ولماذا هو من سافر وانتقل عبر الزمن؟

إنه أمر يكاد لا يحتمل، ذلك الذي حدث؛ ولكن ليس من الممكن معرفة، لماذا كان ذلك هو الأكثر ترويعاً له.

«لقد استيقظت أخيراً!»، خاطبه طارق من الخلف، ثم ألقى بحزمة من القماش نحوه على الأرض، «خذ! لا أظن أنه سيكون جيداً أن تستمر بارتداء هذا اللباس الغريب، عندما ستواصل تجوالك في غرناطة!».

جلس بوسطن، ثم فتح حزمة القماش الملفوفة، فوجدها تحتوي على رداء كالذي يلبسه طارق، وكل الذين من حوله في الباحة.

«شكراً»، قال بوسطن هامساً.

هزّ طارق كتفيه، «لم أوقظك لصلاة الفجر»، قال له، «فقد كنت مستغرقاً بعمق في نومك، مثلما ينام من هو غير مؤمن في هذا الوقت، فليس من أحد أتباع النبي يستطيع النوم عند صلاة الفجر! فإما أنك يهودي بالفعل، أو أنك من أكلة لحم الخنزير».

«كلا!» قال بوسطن بسرعة.

«لقد فكرت بكل ما شرحته لي ليلة أمس، ولا أستطيع أن أصدق، أقسم لك بالله وبكل أنبيائه! ولكن إن كنت تخدعني، فماذا تعني إذن بحكاية هذه الآلة الغريبة؟» ثم أمعن نظره في بوسطن، «لا تدع أحداً يرى هذا الصندوق

الصغير، الذي يظهر الصور ويصدر الموسيقى، هذا الذي يشبه بيضة سوداء مقسومة لفصين»، قال طارق هامساً بإلحاح، «وما هي فائدته الملحة في مثل حالتك، نصيحتي لك: تخلص منه!».

«ماهو؟ هاتفي المحمول؟ لماذا عليّ فعل ذلك؟» سأل بوسطن.

«وماذا إن اكتشفه أحد من رجال محكمة التفتيش؟» قال له طارق. «يا الله! سيقولون، إنه آلة شيطانية! وسيقولون عنك إنك متحالف مع الشيطان! ولا تتحدث إلى أحد بما حدثتني أنت عنه! ولا إلى أي مخلوق! هل تسمع؟».

«ولكن هذه هي الحقيقة!» قال بوسطن، «وأنت أيضاً كنت قد صدقتني!».

ضحك طارق، «لقد أزمعت أن لا أعيد التفكير بأمر لا يمكنني أن أفهمه أبداً»، قال طارق، «ولكن بالنسبة إلى توركيمادا، فهذا كله يمثل إثباتاً، وإن هم عثروا عليه معك، فسيحرقونك».

ثم أبلغه بقوله: «سأغادرك الآن، فأنت تعلم ما ينبغي علي إتمامه».

وأنا؟ فكر بوسطن، ثم تلمس الهاتف المحمول في كيس ظهره، إن لم يعد لديه هذا، فكيف سيتصل بالمنزل، وكيف سأتصل بالشرطة وبالسيدة هيلبرت، من أجل طلب المعونة التي قد أحتاجها؟

على كل حال، لا يوجد اتصال بالشبكة اللاسلكية في الزمن الماضي، من يعلم.

إنه أمر مضحك، إذ لا يوجد هنا حتى تيار كهربائي.

من يعلم، سأفكر مستقبلاً بالأمر.

«ما تنوي فعله، هو شأن خطير أيضاً»، قال بوسطن، «إن هم أمسكوا بك؟ سيأخذونك إلى السجن أو ربما سيرسلونك لتحرق!».

هزّ طارق بكتفيه، وسأل: «وهل يخشى الغريق من البلل؟ ليس من شيء أسوأ من القهر».

«في هذه السنة تم اكتشاف أمريكا أيضاً»، قال بوسطن لنفسه، إنها أمريكا، حيث ما زال يعيش والده، وسأل نفسه لماذا يستعيد لذاكرته ذلك الآن؟ وما فائدته من ذلك؟

ضحك طارق. «من تم اكتشافه؟»، سأل ثم تابع: «هل هي فتاة جميلة؟ أم هي من التوابل غير المعروفة؟ أم هي نبتة عطرية؟ إن أمرك عجيب أيها الغريب! انتبه إلى نفسك».

«خذني معك!» قال بوسطن وقفز واقفاً، أدخل الرداء الذي جلبه له طارق من رأسه، فبدا تماماً كأي عربي.

لوح طارق له بيديه وقال: «أنت تعرف الآن أكثر مما ينبغي، فإن جئت معي، فإنك ستضع نفسك في خطر كبير».

نظر بوسطن إليه بتضرع، فلم يكن يريد لهذا الفتى أن يذهب ويتركه لوحده، صحيح أنه كان قد تعرف إليه للتو، إلا أنه كان الوحيد، الذي وثق به في هذا العالم الغريب.

«لا أشعر بالخوف»، قال بوسطن.

ضحك طارق، «يمكن أن تموت، خذ الآن كيسك وامض».

«ليس لدي خوف منه أيضاً»، قال بوسطن، وانتبه مرتعباً، إن الموت أمر حقيقي، فهل يمكن أن يموت في زمن لم يولد بالأساس فيه، وحتى لو حدث هذا، فعندما تصيبه إحدى النبال، أو يخترق صدره سيف ما، فهل يعني هذا أنه لن يكون بمستطاعه أن يفيق من هذا الموت وأن يجد طريقه للذهاب إلى حياته الحقيقية من جديد؟ أم هل ربما، هذا هو المسلك الذي عليه المرور به،

إن شاء العودة إلى أهله: أي العودة من خلال الموت؟

كان طارق يهز رأسه نافد الصبر، «لاحاجة لي بك» قال له، «وداعاً. ليحفظك الله»، واستدار من ثم وسار بخطوات واسعة باتجاه البوابة.

شيعه بوسطن بنظراته، لا، فكر في نفسِهِ، لا، لا تتركني وحيداً!

«طارق»، نادى عليه بوسطن، «ارجع!»، إلا أن طارقاً مضى في طريقه، وكأنه لم يسمع شيئاً، واختفى في متاهة فوضى الزقاق الضيق.

أما بوسطن فأحس بحرقة حزن في حلقه.

«ولكنني لا أريد أن أبكي، حتى وإن أصبحت هنا لوحدي»، قال لنفسه «سيان ما سيحدث لي، فهذه ليست حياتي».

ليس على الغريق أن يخشى من البلل.

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

لا يمكن التستر أكثر من ذلك.

«ما زال لم يحضر بعد!»، قال قدير وقد جلس على سريره، كان جوّ غرفتهم حاراً مع أن الوقت كان ما زال مبكراً في الصباح، «أمر مقرف! ماذا سنفعل الآن؟».

فرك سيرغاي عينيه ثم تدلى على نحو خطير من سريره في الأعلى لمسافة بعيدة نحو الأسفل، كان السرير الذي تحته فارغاً.

«علينا الآن إخبار هيلبرت»، قال سيرغاي، «اللعنة، سيكون هناك الكثير من الاستياء والغضب».

تثاءب طوقان، ثم قال، «بكل بساطة، لن نقول شيئاً، سننتظر، هكذا بكل بساطة».

نقر قدير على جبينه ساخراً، «وإن كان قد حدث له مكروه؟»، قال لهم، «وماذا لو كان قد حصل له حادث؟ أو ماذا لو كان قد اعتدى عليه أحد ما؟».

«الأمر الآن سواء»، قال طوقان، الذي كان قد ترك قدميه تتأرجحان من خارج سريره، «لا أستبعد ما قلته، أقول هذا بجد، وأنت تعلم؟ إنها المتاعب فقط، هي ما نالنا مع هذا الصغير، هذا حقيقي».

أومأ سيرغاي برأسه، ثم قال، «وماذا سنقول بشأن الأمس؟ وبعدم قول الحقيقة لها»، سأل سيرغاي.

«ستصرخ قليلاً»، قال قدير، «دعها تفعل ذلك، إن كانت تستمتع به، ولكن لا بد من أن نبلغها بالأمر».

تركوا لأنفسهم وقتاً كافياً، كي يغتسلوا ويرتدوا ملابسهم ويسرّحوا شعرهم.

ثم قرعوا على باب السيدة هيلبرت ليبلغوها بأن بوسطن اختفى منذ بعد ظهر يوم أمس.

الأندلس، نيسان /أبريل 1492

عندما أصبحت الشمس أكثر ارتفاعاً في السماء، كان الفندق قد خلا من زبائنه. أما بوسطن فقد ذهب إلى زاوية تحت الأروقة، كان يود الذهاب إلى منهل الماء كي ينال ما يروي عطشه بعد أن أحس شيئاً فشيئاً مع مضي الوقت بذلك، ولكن خشي قبل أن يفعل، أن يتكلم أحد ما معه، فماذا عساه يجيب لو سأله أحدهم من أين جاء؟ وما يبغيه في غرناطة؟ ربما يجعل منه هذا البرنس الأبيض الطويل مغاربياً، مغاربياً أشقر بعينين زرقاوين، ومع هذا، فقد وجد

أنه أفضل، وهكذا استمر راقداً متظاهراً بأنه ما زال نائماً.

استدار نحو الجدار، فالضجيج من حوله سيكون هكذا أقل.

عندما أمسكت يد ما بكتفه، لم يستغرب ذلك، إذ ظن أن صاحب الفندق يريد منه أن يغادر الخان، وإلا فعليه أن يدفع عن ليلة أخرى، كان ينتظر ذلك، ولكنه لم يكن صاحب الخان ذلك الذي وقف من خلفه.

«لا»، همس بوسطن.

لقد جلس جندي القرفصاء من فوق رأسه، ومن خلفه كان اثنان آخران. وثلاثتهم كانوا يتبسمون له، لم يكن الجنود أنفسهم أولئك الذين رآهم في رياليخو في الليلة السابقة، إلا أن ألبستهم كانت نفسها، وكذلك كانت سيوفهم. وفي هذا الزمن، الذي يتم فيه رمي الناس للمحرقة، فقط لأنهم يعبدون الله الحقيقي ولكن بطريقة مختلفة، فليس مستغرباً أن يكونوا قد أرسلوا في طلبه، وها هم أتباع محاكم التفتيش ينقضون عليه.

ولكن الجنود استمروا في ابتسامهم.

«صاحب السمو»، قال الجندي، الذي كان يقف في المقدمة، والذي كان قد ربت على كتف بوسطن. «أعذرونا، إن كنا قد أيقظناكم! فالشمس قد أصبحت عالية في السماء! وما تبقى لكم من الطريق، نود مرافقتكم خلاله، إن جلالة الملكة بانتظاركم».

حدق بوسطن بوجه الجندي، وسأل نفسه إن كان في هذه النبرة ما يوحي بالموت أو بالمحرقة؟ إن نبرة هذا الكلام توحي بأكثر من الجنون، مع هذا الذي يحدث له حتى الآن، في هذه البلاد العجيبة.

اعتدل في جلسته، لم لا، قل بوسطن لنفسه، لا علم لي بما يتحدثون عنه، إلا أنهم يتحدثون على الأقل بمودة واضحة، لقد اختفى طارق، الإنسان الوحيد

الذي أعرفه هنا، كما تنقصني النقود لمبيت ليلة أخرى هنا، فلا بد إذن من الذهاب إلى مكان ما، حتى وإن كنت لا أعرف الآن إلى أين، ولماذا.

ردّ على الجنود بابتسامة أيضاً، وقال «صباح الخير»، ثم نهض واقفاً.

-11-

كانت الحمراء تبدو كما كانت في اليوم الذي سبقه، لكنها الآن، ومع عدم وجود سائحين يتزاحمون في الباحات وفوق الساحات، تبدو فارغة على نحو لافت، إلا أن حفرة بشعة كانت تشوه الجدار المزين في صالة دي لوس إمباسادوريس.

«الملكة تنتظركم في باحة الأسود»، قال له جندي كان يخطو نحوه بخطوات منتظمة، قبل مسافة قصيرة من بوابة ***بويرتا دي لا يوستيسا*** على الجبل في الأعلى، بعد أن انحنى أمام بوسطن.

كما أن باحة الأسود بدت أيضا كما كانت عليه بالأمس، وقد غاب فقط الحاجز الذي على شكل حبل، والذي كان قد وضع هناك ليحد من دخول السائحين إلى قلب الباحة، والذي يوجه حركتهم نحو نوافير المياه. وهناك في الباحة، وبالقرب من ذؤابات الماء المتدفقة من أفواه الأسود، كانت سيدة بفستان وقبعة حريريين، تقف بجانب ديوان من ذلك الذي لم يكن لبوسطن أن يتصور رؤيته سوى في غرف الجلوس، وعندما خطا الجنود في أول الباحة، جلست السيدة على الديوان.

«عزيزي، أيها الفتى» قالت السيدة، كانت نظرتها متفحصة، بل أقرب لاعتبارها تقييمية غير متناسبة مع كلماتها الودية، «لَكَمْ انتظرنا حضورك!»، ثم ابتسمت وهبت واقفة، فجرت إحدى الخادمات ومدت إليها يدها

لمساعدتها. «وأرى، أنك أنت أيضاً تنكرت بثياب أخرى خلال سفرك، تماماً كما فعل قبل سنين عديدة زوجي الحبيب، عند سفره قادما إليّ».

ابتسمت، ودبّت فيها الحيوية فجأة، «لقد تنكر في ملابس سائس حمير»، قالت لبوسطن، «لقد تنكر فرديناند بملابس سائس حمير آنذاك، عابراً بلادنا الإسبانية الواسعة، كي لا يكتشف أمره أحد أو يوقعه في كمين! نعم، عندما تعرفت إليه لأول مرة كان قد تنكر كسائس حمير، وللحقيقة، يا بني، فذلك لم يقلل من حبي له».

ثم صفّقت بيديها منادية، «أخبري يوهانّا، أن الهابسبورغي قد وصل»، قالت الملكة ذلك، من دون أن تلتفت للخادمة، ومع ذلك فقد خرجت هذه للحال وهي تحني رأسها متراجعة وظهرها للخلف.

«لقد جاءنا أحد المسافرين بالخبر صباح اليوم، إذ قال إن صبياً أشقر بدا كمن يرغب أن لا يتعرف عليه أحد، قد بات سراً في الفندق مع مرافقه ليلة أمس»، قالت الملكة ذلك، ثم بدأت في تفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه، كما لو كان بغلاً، تفكر ربما في شرائه، أو ربما لا، ثم تابعت، «وإن المرافق قد انصرف بعد صلاة الفجر لدى المسلمين»، وبإصبعين من يدها رفعت جبين بوسطن للأعلى، «وستحكي لنا بالتأكيد فيما بعد عمّا دعاك لهذه الاستراحة الليلية، وعن سبب تأخرك اليوم في الفندق، الأمر الذي دفعنا لأن نبعث في طلبك، أنت أقصر مما توقعت، ولكن ما زال أمامك الوقت لتتجاوز ذلك».

هزّ بوسطن برأسه.

أصبح الأمر سيان بالنسبة له، إذ لم يفهم شيئاً.

لقد سافرت إلى بحر الشمال.

وسافرت إلى مايوركا

وأنا مسافر الآن في العام 1492، لأحتفظ بالهدوء، بكامل الهدوء، لقد سافرت إلى الحمراء، وقد سافرت باعتباري أميراً، فما هو الأمر العجيب الذي يمكن أن يحدث أكثر من ذلك، وأحس كيف أن ركبتيه أخذتا تتخليان عنه، ومع ذلك، ليس أعجب من السفر عبر الزمن.

«تنكرت على هيئة مغاربي!»، قالت الملكة، وأشارت إلى برنسه، هل حقيقة هي إيزابيلا التي قرأ عنها في الدليل السياحي؟» إنها لفكرة ذكية أن تتنكر في مثل هذا الزمن المليء بالأخطار من أجل السلامة، من يدري، ما يمكن أن يفعله المغاربيون، لو علموا أثناء مجيئك إلى هنا، بأنك غير من كنت. علينا حمايتك منهم، *فيليب*، اعلم أنك كلما فهمت الأمر مبكراً، كلما كنت واثقاً وآمنا عند العيش هنا، علينا هنا حماية أنفسنا من الجميع تقريباً، وستتعلم هذا في ما بعد، علينا حماية أنفسنا من المسلمين ومن اليهود، من *الكونفرسوس* ومن *الموريسكوس*. كل هذا، لا تعرفه أنت في مملكتكم الهادئة في الشمال يا أميري الصغير»، ثم تنهدت وقالت: «ألا تريد أن تقبل يدي؟».

هزّ بوسطن رأسه باضطراب، فهو لم ير من يفعل ذلك، حتى في أفلام التلفزة، إنه لا يعلم، كيف يتم تقبيل اليد أو كيف ينبغي الحديث إلى ملكة، فكيف له بالتالي الحديث إلى ملكة من العام 1492.

اندفع نحو إيزابيلا وتناول يدها اليمنى ورفعها إلى فمه، إلا أنه أحس بأن بشرتها باردة وجافة.

غضنت الملكة وجهها، «برابرة من الشمال!»، غمغمت لنفسها ونفضت يدها كما لو كانت تبعد حشرة عنها، «أخيراً جاءت ابنتي أيضاً، «يوهانّا، ها هو خطيبك هنا».

غرناطة، نيسان/أبريل، في الوقت الحاضر

مقدرة السيدة هيلبرت على التحدث بمثل تلك اللغة الإسبانية الجيدة، عرفها الفتيان، عندما تكلمت هاتفياً مع الشرطة، وبعد ذلك مع المشافي، طيلة الوقت وحتى إلى ما يقارب ظهيرة اليوم.

«لا شيء»، قالت، عندما نظر إليها متدرب اللغة الإسبانية الخجول بارتياع، من دون أي سؤال، «ربما ينبغي أن أسعد من أجل ذلك، فربما يكون بكل بساطة تاه عن طريقه ولم يجرؤ على سؤال أحد، أو ربما تعرف إلى أحد ما وذهب معه، مع أن هذا ليس من عادته، «ثم تنهدت بعد ذلك وتابعت»، «لن نخبر أمه في الوقت الراهن، فقد تموت من الخوف، بل وربما ستتوضح الأمور فيما بعد، فلو عاد للمنزل، فإن أمه كانت ستخبرنا على اي حال فيما لو حدث ذلك».

تطلع طوقان إلى سيرغاي، فهز سيرغاي برأسه، متأسفاً لمثل ذلك القدر من سذاجة السيدة هيلبرت، في ان تنتظر مثل تلك المهاتفة.

الأندلس، 1492

«كانت الفتاة أطول منه بما يعادل رأسها، وكما الملكة، كانت هي أيضاً، تلبس رداء لماعاً متصلباً يلف جسدها، كما كانت تنورتها مثلما هو حال لباسها الداخلي تلمع عليها مطرزات فضية، إلا أنها ومع تلك الأبهة، كانت تحمل على وجهها سحنة متمردة غاضبة، لم ير بوسطن مثلها على وجه فتاة من قبل.

«يوهانّا»، قالت الملكة وتقدمت خطوة نحوها، «انظري، كما كان والدك قد جاء إليّ، تماماً، ها قد أتى خطيبك من البعيد، من موطنه في

بورغوند، جاء إليك متنكراً كي يطلب يدك من أبيك! ولكنه لم يأت كسائس حمير مثلما فعل الملك فرديناند، بل باعتباره مغاربياً، وبالنسبة لأمير مسيحي في هذه البلاد، فإن التنكر على هذا النحو هو الأذكى بالتأكيد! أعطه يدك ليصافحها، يوهانّا، وقومي بالترحيب به!».

إنه خطيبك.

إلا أن الفتاة لم تتقدم خطوة واحدة، وكانت سيدة بدينة بلباس بسيط، تقف من ورائها، وهي تهمس في أذنها، ثم ما لبثت أن رفعت كتفيها معتذرة.

«إنها مرتبكة، صاحبة الجلالة»، قالت السيدة البدينة بتوسل، ورأى بوسطن كيف كانت تحاول دفع الفتاة خفية باتجاهه، «لقد جاء الأمر مفاجئاً، وهي لم تتوقع قدوم سموه في هذا اليوم كما خمّنت حمامتي الصغيرة!» وكانت قد قامت خلال ذلك بانحناءة خفيفة بركبتيها باتجاه بوسطن وابتسمت له قليلاً.

«نحن نحسب لقدومه منذ أيام، آمّي»، قالت الملكة بنبرة قاطعة، «يوهانّا، أنتظر منك، أن تقومي بالترحيب بضيفنا على النحو اللائق!».

رمت الفتاة نحوه بنظرة مليئة بالكراهية، «ألم تقل لكم آمّي، بأنني أريد الذهاب إلى الدير؟ أعط الأمير ماريا! أو كاثرينا النائحة!» ثم التفتت نحو بوسطن، «تبدو قصيراً جداً»، ثم أغمضت عينيها وشدت عليهما، «قصيراً جداً جداً بالنسبة لصبي يزيد بعام عما أنا فيه، إنك مثل قزم! أنا لا أريد زوجاً أقصر مني، إن شقيقتي قصيرات مثلك، خذ لك واحدة منهن».

أرخى بوسطن نظره نحو الأرض، لقد سافرتَ إلى العام 1492، فابق هادئاً، لتبقَ في غاية الهدوء، لا يمكن أن يكون هونفسه، من كانت قد تحدثت إليه، ولا يمكن أن تكون عنته بكلامها، لا، ليس هو من عنته: الأمير،

الهابسبورغي، الخطيب.

ضمتها آمّي إليها وهمست في أذنها شيئاً، إلا أن الفتاة نفضت نفسها مبعدة إياها عنها، «لقد تحملت مشقة هذا السفر من دون طائل»، قالت لبوسطن، وقامت بحركة من يدها، كما لو أنها تكش ذبابة بعيداً عنها. «لا توجد هنا زوجة لك، اسأل آمّي! لقد ندم حتى الآن كل من حاول إجباري على فعل ما لا أريد».

خطت إيزابيلا نحوها بسرعة وصفعتها على خدها، «إنني آمرك...» صرخت بها.

دخل في هذه الأثناء أحد السعاة إلى الباحة وحنى ركبتيه إلى أقصى مداهما وهو يتراجع.

فأصدرت الملكة زفرة عميقة، ثم أومأت نحوه، «وماذا يريد هذا؟» سألت، وقد بدا كما لو أنها ستقطع رأسه فيما لو كان الخبر الذي جاء به لن يكون سارّاً.

رفع الساعي رأسه على مهل، «لقد أرسلني الجنوي[1] السنيور كريستوبال كولون»، قال لها، ثم تابع، «وهو يود إخباركم بأنه يرغب بالحضور إليكم إلى هنا في الحمراء، ويود إخباركم... »، كانت عيناه تتحركان في كل صوب من الباحة بقلق هنا وهناك، وأدرك بوسطن، أن حامل الرسالة الشفهية، بالكاد يقوى على نقل ما ينبغي عليه قوله للملكة. «إنه يود أن يخبركم بأنه ينتظر منكم جواباً واضحاً، وإلا فإنه سيتقدم بعرضه إلى ملك الفرنجة أو لذاك الذي في لندن والذي بسط سلطانه في الشمال، حيث تحدث إليه أخوه بهذا الشأن».

(1) الجنوي–: نسبة إلى ميناء جنوه الإيطالي، وهو كيرستوف كولومبوس. (المترجم)

«الجنوي ذو الرأس البليد!»، قالت الملكة، «كيف يتجرأ على هذا! يأتي من غير أن نرسل في طلبه! سننظر إن كنا سنجد الوقت لاستقباله! فلدينا بحق الإله شؤونٌ أخرى لننجزها!»، ثم ألقت بنظرة إلى ابنتها.

ابتعد الرسول، براحة واضحة، بعد الانحناء وهو يتراجع، لقد كان في حالة من العجلة من أمره، مما جعله يتعثر، إلا أن الملكة كانت قد صرفت النظر عنه منذ وهلة بعيدة، كانت تتنقل بنظرها بين بوسطن ويوهانّا.

«وأنتما الإثنان»، قالت بنبرة محنقة، «سأعطيكما الآن فرصة لتتعرفا إلى بعضكما في هدوء، إذ يبدو لي ذلك ضرورياً، ثم صفقت بيديها، فانسحب جميع الخدم والحرس الذين كانوا قد تجمعوا في الظل تحت الأروقة، ثم أشارت إلى آمّي، كي تلحق بها. وتابعت، «وعندما أعود من جديد، ستكونان قد تفاهمتما معاً، هذا ما أنتظره منكما، وهو ما ينتظره الملك، وما ينتظره المصير الذي نتمناه، وأسرتانا في كل من قشتالة، وآراغون، وبورغوند، وهابسبورغ!»، قالت للاثنين، فيما كان بوسطن يفكر في الوقت ذاته في نفسه وهو في حالة من الاضطراب، ما إن كانت الملكة تعتقد بحق، أن المرء يمكن أن يأمرفي هذه المسألة، حتى وإن كانت الملكة نفسها هي من يأمر بذلك.

-12-

أمعنت يوهانّا النظر بالفتى على نحو عدائي.

كان شديد الشقرة، وأقل احمراراً مما حدثوها، وكانت عيناه أقرب إلى اللون الرمادي من أن تكونا زرقاوين، فالفنان الذي رسم الصورة الصغيرة التي عرضوها عليها متباهين، جعل وجهه أكثر جمالاً مما هو في الحقيقة؛إلا أن هذا كان أمراً مألوفاً، وهي نفسها عندما تنظر إلى اللوحة التي تم رسمها لها في ميلادها الثاني عشر، كانت تتعجب أيضاً للجمال الخارق الذي كانت تبدو عليه، والذي، إن أرادت مصارحة نفسها، لم تكتشفه في أي من المرايا التي لديها.

لماذا تفاجأت إذن؟ والأمير من جهته ينبغي أن يكون تفاجأ أيضاً، إلا أنه لم يتنازل بنطق كلمة واحدة.

«أنت بشع»، قالت له يوهانّا، من دون أن تتقدم نحوه خطوة واحدة، هو يزيدها بسنة واحدة، وهو الصبي، فإن كان يريدها أن تكون امرأته حقاً، ولا بد أنه يريد ذلك بالفعل، وإلا، لماذا سار كل تلك المسافة من بورغوند إلى غرناطة من أجلها؟، فعليه هو في هذه الحالة إذن أن يتقرب منها، أو أن يحتضنها، وربما حتى أن يحاول تقبيلها إن سنحت له الفرصة، حدقت به يوهانّا، عليه أن يتجاسر! أوه، عليه أن يتجاسر! ستخمشه وتعضه وستركله وتضربه، وسيهرب منها وسيذهب إلى أمها ليشكوها عندها، أو ليشكوها

لدى أبيها، وقد يسألهما، ما إن كان بوسعه أخذ ماريا الجريئة بدلاً منها. ليفعل ذلك، فلن تكون بحاجة للذهاب إلى الدير في هذه الحالة.

«وأنت قزم أيضا»، قالت له يوهانّا، «لقد قالوا لي، إنك ستكون بطلاً، ويمكن أن تكون، إلا أن سائر الناس في بورغوند ينبغي أن يكونوا بقبح بومة في الليل، إن كنت تُحسب هناك، في عداد الفتيان الجميلين».

كان الفتى قد أطرق رأسه للأرض، ومازال حتى هذه اللحظة لم يحرك ساكناً.

«وأيضاً، أنا أرى بوضوح أنك خواف»، هتفت نحوه، وهي تود أن تخمشه وتعضه وتركله وتضربه، ولكن، كيف سيتاح لها فعل ذلك، إن لم يقترب هو منها، ويعطيها مبرراً لتفعل ما أرادت؟» وأنت أخرس أيضاً! أم أنك أطرش كذلك؟».

كان الفتى يهز برأسه فحسب، وكانت هذه إشارة أنه ما زالت فيه حياة، «أخ، السيد الفتى فهم ما قلته!»، هتفت يوهانّا، «السيد الفتى يتحدث لغتنا! ولكن لماذا لا تحرك ساكناً، أيها الأبله؟ هل تخشى على نفسك من الفتاة التي ستكون عروساً لك؟».

تقدمت نحوه خطوة، لم ترد أن تذهب إليه، هذا لا ينبغي أن يتم، لكنها قامت بتطويقه عند كتفيه.

ولكن، وقبل أن تتمكن من أن تصرخ في وجهه وأن تمسك برأسه وتشده للأعلى من شعره، كي يرفع أخيراً نظره إليها، وتتمكن بعد ذلك من خمشه وعضه وركله وضربه، كانت قد سقطت دمعة عند قدميه على حصى الباحة الأبيض.

وكانت يوهانّا على دراية بأن المرء ينبغي أن يكون قد بكى قبل ذلك

طويلاً، قبل أن تصبح الدموع ثقيلة، لتطفح من عينيه وتسقط على الأرض.

غرناطة، نيسان /أبريل، في الوقت الحاضر

مثلما كان الحال بالأمس، كان تزاحم السائحين شديداً في القيصرية.

«والآن؟»، سأل قدير.

«الآن، سنسأل كل متجر»، أجاب طوقان، وتناول هاتفه المحمول. «ولكن ويلي، لم أتمكن من شحنه ليلاً».

تنقل على هاتفه المحمول من صورة لأخرى، بين الصور التي التقطها، «هيا تفضل، إنها ليست ممتازة، ولكن لا بأس بها، تلك التي التقطتها لقدير في الطائرة».

انكب سيرغاي وقدير فوق الهاتف المحمول، كانت الصورة التي على الشاشة مأخوذة من زاوية غير ملائمة، ولكنها تظهر قدير وهو يبتسم متجهماً، ومن ورائه يجلس بوسطن في نصف انحناءة، وعلى وجهه مسحة خجولة، كمن كان يعلم أنه ليس هو المقصود في هذه اللقطة.

«تستطيع الآن التدرب على اللغة الإسبانية!، قال طوقان ولكم سيرغاي في جنبه، «هيا، هيا، أعتقد أنك نلت اثنين فيها أليس كذلك؟»».

«هولا، سنيور» قال سيرغاي وهو يتنحنح.

ذهبوا من متجر لآخر، ليس لكل بائع الوقت للإنصات لهم، ولم يكونوا جميعهم ودودين معهم، ولكن معظمهم كان على استعداد لإلقاء نظرة على شاشة الهاتف المحمول، أقله النظر إلى الصورة التي على الشاشة.

لقد داروا تقريباً على معظم المتاجر التي كانت في القيصرية، وقبل أن يفقدوا بالتدريج كامل أَملهم، قرب بسطة كان معظم ما كان عليها هو من

السلع النحاسية، حيث هزّ بائع شاب كان قد وقف بجانبها رأسه بالإيجاب، قائلاً. «نعم، أعرفه جيداً!».

وحتى إن لم تجلب محاولتهم أية نتيجة، فقد كانوا منذهلين لمدى ما فهموه من اللغة الإسبانية، كما عرفوا حجم القدر الذي لا يعرفونه أيضاً منها، «لقد كان بالأمس هنا، أليس كذلك؟ وهو توقف أمام متجر جاري لساعات طويلة، وأمسك كل شيء بين يديه، وأظن، أنه لم يكن لديه الكثير من النقود، لقد أعاد ما انتقاه مرات عديدة، كلما نظر إلى سعر القطعة التي اختارها..» أطلق البائع صفرة قصيرة من فمه، ثم نادى: «مانويل، زبائن يريدونك».

إلا ان الجار لم يتذكر أبداً، «هذا الفتى؟»، سأل البائع، «هذا، لم أرَهُ أبداً».

«بالأمس ؟» سأل قدير، و كلمة الأمس لوحدها بالإسبانية كانت الأسهل له، من قول جملة كاملة.

إلا ان الرجل هزّ برأسه نافياً، «لم أره، يؤسفني أن أقول لكم ذلك».

عند بسطة الجار التي أمام متجره، كانت سيدة صغيرة السن قد دفعت لقاء طفاية سجاير اشترتها وانصرفت، فجاء البائع إثر ذلك إليهم، وقال، «بالطبع كان الفتى عندك، مانويل»، فما كان من طوقان إلا أن استل هاتفه المحمول، «أمعن النظر إليه جيداً». فعاد الجار يخاطب مانويل قائلاً: «لقد تفرج على قاعدة الكؤوس التي لديك، هذا ما أنا متأكد منه، أما إن كان قد اشتراها»، وهزّ كتفيه، فهو ما لا أعرفه، إذ جاءني رجل سمين مع كلب، ترك لعابه يزرب على بضاعتي جميعها»، ثم ضحك.

«صحون كؤوس»، سأل البائع وهو يحك جبينه، كما يفعل الناس في الأفلام من أجل أن يظهروا أنفسهم، إلى أي حدّ هم يمعنون التفكير، «كلا،

لا أتذكر، يؤسفني ذلك، *لو سيانتو موتشو*[1]».

«حسناً، الأمر سيان» قال طوقان، على أي حال شكراً لكم، إن تذكرتم شيئاً حول ذلك، يمكنكم أن تبلغوا الشرطة به».

«الشرطة؟»، قال البائع الشاب صاحب منصة البضائع المجاورة، إلا أن أسرة جاءت تقلب في سلاله، وفيما كان يركز نظره عليها، ظل يتابع كلامه، ثم سأل: «ماذا فعل الفتى؟».

«لقد اختفى»، قال قدير، «لقد اختفى منذ ظهر يوم أمس، هنا في القيصرية».

الأندلس، 1492

كان قد تبع الجنود إلى الحمراء، لأنهم كانوا ودودين معه، ولأنه لم يكن يعلم إلى أَين يقودونه، وبدل المحرقة، تنتظره الآن أميرة، ينبغي أن تصبح زوجة له، وهي تبدو أنها لا تود بأقل من هذا، الأمر الذي جعل بوسطن لا يستطيع القول أيّاً من الحالين هو الأسوأ.

«أنت بشع!»، قالت له، «أنت قزم!».

أحس بوسطن من جديد بحرقة الدموع في حلقه، وبأن دموعه تكاد تفيض من عينيه.

«أنت جبان!» قالت له، «وأنت أخرس ايضاً!».

أريد العودة إلى أهلي.

لا تبكِ يا بني.

أريد العودة، العودة، العودة.

---

(1) لو سيانتو موتشو – تعني آسف بالإسبانية.

«لماذا لا تحرك ساكناً، أيها المغفل؟»، قالت له، «لا تبكِ يا بني، الفتيان لا يبكون، «أتخشى الفتاة التي ستصبح زوجتك؟»».

الفتيان لا يبكون.

«أرى أنك تبكي!»، قالت له الفتاة. لقد تبخر الغضب كله من صوتها، وبدلاً من ذلك سمع اندهاشها، واستخفافها، «أنت تبكي، أيها القزم!»».

هزّ بوسطن رأسه، وأنسابت الدموع على وجهه، ولم يعد يقوى أكثر على شرق الدموع من حلقه.

أمسكت به الفتاة من كتفيه وقادته سريعاً عبر الأروقة نحو قاعة فائقة الروعة، وعبر دموعه التي كانت تملأ عينيه رأى بوسطن تلك الحليمات التي تزين سقف القاعة، كما رأى قطع الأثوليخوس الخزفية التي تغطي الجدران. وقد تذكر، الملل الذي عانوا منه عندما جاؤوا إلى هنا متدافعين، أما ما كانت السيدة هيلبرت قد تحدثت به عنها، فهو لم يعد يتذكر شيئاً منه.

ولكن إن كانت القاعة التي رآها يوم أمس، هي هذه القاعة نفسها، فلا بد أن يكون شيءٌ ما قد تغير فيها، كان بداخلها كنبات، وطاولة عليها طبق نحاسي وعلى هذا الطبق إبريق ماء.

ارتعش بدن بوسطن، وقد شاهد بالطبع كل شيء مغبشاً من خلال دموعه، «لكن لا تتعجل»، قال لنفسه، إلا ان الرسوم التي كانت على الجدار جعلته يتذكر. فهي تشبه تلك الرسوم التي كانت على بلاطة الخزف التي فكر بشرائها لأمه، ألم تحمل تلك البلاطة الرسوم نفسها؟ ولكنها تزين القاعة هنا بالآلاف من مثيلتها، إنها هنا بالآلاف على مدار القاعة.

ربما أحسّ بوسطن، كيف بدأ قلبه يخفق بسرعة أكثر فأكثر، ربما، ربما اقتربت من حل اللغز أكثر من خلال فهم العلاقة بين البلاطة التي كانت

في القيصرية، وبين البلاطات التي هنا في الحمراء، لا بد من وجود رابطة مشتركة بينهما.

أجلسته الفتاة على إحدى الكنبات، وللحظة ما كان هو قد نسيها.

«هكذا»، قالت له بينما كانت قد وقفت أمامه، وكأنها على وشك أن تضربه، «والآن هدّئ من روعك، فلا يمكنك أن تكون جاداً باعتقادك، في أنني أقبل أن أتزوج رجلاً، يبكي مثل طفل.!» ثم هزته، وقالت له، «جفف أنفك وتوقف عن النحيب، لا أريد أن يثرثر أحد هنا في القلعة عن عريسي».

ما زال بوسطن يشهق بدموعه، توجد علاقة، لا ينبغي لي ان أخبرها من أنا. لقد حذّرني طارق من قبل، لا ينبغي إعلامها من أين أتيت إلى هنا.

«لماذا لا تتكلم!»، قالت له الأميرة: «جبان!».

ربما كان لأول مرة هذا هو المكان الأكثر أمناً للبقاء هنا في القلعة، كضيف على الملكة، هنا حيث تشبه جميع البلاطات الخزفية تلك التي كانت في القيصرية، هنا حيث يواصل التظاهر بأنه الأمير القادم من الشمال، والذي يقولون إنّه يشبهه.

ولنرَ من ثم ما سيحدث، فكر بوسطن في نفسه، وأخذ لأول مرة شهيقاً عميقاً، والآن، خطوة إثر خطوة، فإن كان من حل، فينبغي البحث عنه هنا، وفوق ذلك كله لا أريد أن أحرق، لقد حذرني طارق.

«إنني تعب»، همس لها، «فطوال ذلك السفر لم أنم سوى القليل من الوقت».

«سفر؟»هتفت يوهانّا، هل جئت إلى هنا بالعربة مثل امرأة؟ ألم تمتطِ جواداً».

حدّق فيها بوسطن للحظات، وتساءل في نفسه، كيف أمكنه أن يقع في مثل هذا الخطأ، عليّ التحسب فيما بعد كي لا أفصح عن نفسي.

«بالطبع جئت ممتطياً الجواد، وما قلته كان كلاماً عابراً فقط».

أمعنت يوهانّا النظر إليه جانباً، وقالت له: «إن أميراً يبكي بمثل هذه السرعة، لأنه امتطى جواده لأيام عدة، قد يناسب بقاؤه في بورغوند الهادئة.. أما لدينا هنا في الأندلس فطبعاً».

في هذه اللحظة جاءت وصيفتها آمّي من خلال الستارة، فنظرت إلى الإثنين نظرة غير واثقة، «والآن يا حمامتي الصغيرة؟»موجهة سؤالها إلى يوهانّا، «هل أنت أفضل حالاً؟».

زفرت يوهانّا مغتاظة وقالت: «انظري بنفسك إليه!».

انتفضت آمّي قليلاً، وقالت «سيصطلح حاله، سيصطلح حاله!» إلا أن رنّة صوتها لم تكن تنم عن الثقة بما تقول، وهو ما يعني أنها وجدته حالة ميؤوساً منها أيضاً، ثم تحدثت لهما: «إن الملكة تقول، إنَّ الجنوي قد وصل. وإنّها تريدكم أنتم أيضاً أن تستمعوا لما سيقوله، قبل أن تعطي هي كلمتها الأخيرة».

ثم ابتسمت لبوسطن وقالت: «لا بد أنكما ستتفاهمان معاً، سيدي الفتى!» قالت ذلك هامسة: «وستكونون سعداء لأنكم التقيتم بالأميرة».

«عن ماذا تتحدثين»، قالت يوهانّا.

فابتسم بوسطن إلى آمّي.

كل شيء بهدوء، خطوة وراء خطوة.

-13-

عادت إيزابيلا لتسند ظهرها إلى الكنبة من جديد، وكانت تود لو أن زوجها كان يجلس بجانبها كي يعبر عن اهتمامه بالمحادثة التي ستتم، إلا أنه بدلاً من ذلك وقف وراءها منحنياً على المسند الخلفي للكنبة، فيما كانت تصغي لأصابعه التي ينقر بها، على غلاف الكنبة الحريري، نافذَ الصبر.

إلا أنه على الأقل، أحضر بصحبته سانتآنخيل أمين خزانة بلاطه، التي تقدر بملايين المارافيديس، وإن كانت تلك لا تعني لها شيئاً، ولكن كان حضوره بالنسبة لها أمرا صائباً، ذلك أنه رجل ضليع بالأمور المالية وعلى خبرة بها. كما يتشجع المرء في الاعتماد عليه بمسائل أخرى أيضاً، وأراحها أن يكون حاضراً عند مباحثاتها مع الجنوي كي يقدم النصائح الملائمة، فالجنوي يغيظها بتبجحه منذ سنين، وهي ترغب، في أن تحسم الأمر معه وأن يسود الوضوح في آخر المطاف، إلا أنها لم تجرؤ على تحمل عبء اتخاذ القرار النهائي وحدها.

وبطرفِ عينيها، شاهدت حضور يوهانّا أيضاً ومعها الفتى الهابسبورغي، كان قصيراً ونحيلاً، الأمر الذي يجعلها تتفهم تردد ابنتها، فلكم كان فرديناند جذاباً عندما التقته آنذاك، فلم يزعجها، حتى ما رواه الناس، من أنه وهو في السابعة عشرة من عمره كانت له عشيقات هنا وهناك، أو كان له أيضاً ربما طفل في مكان ما؛ فلقد كان رجلاً، يمكن للمرأة أن تفخر به.

«دعوا الجنوي يدخل الآن!»، قالت الملكة.

ولكن، ما بين يوهانّا وخطيبها، لم يتغير شيء، خلال الدقائق التي تركتهما بها معاً وحدهما، هذا ما لا حظته إيزابيلا بلمحة واحدة، ولماذا ينبغي أن يتغير شيء ما، سألت إيزابيلا نفسها متنهدة.

لقد كانت يوهانّا الأكثر حدة وعناداً في طبعها من بين أطفالها، وهو ما اكتشفته فيها من جديد، ولكم يبدو الأمر متعباً معها، فعند كل أمر تطلبه منها، تجد أنه ينبغي إجبارها على تنفيذه، بدلاً من أن تتصرف معها مثلما تفعل مع بقية أولادها الأربعة، الذين يطيعونها من دون أن تحسب حساباً لأي تردد منهم.

«صاحبة الجلالة!» ناداها أحد الأصوات.

ورأت للوهلة الأولى، أن الجنوي ما زال يرتدي هذا المعطف البالي، كان عنيداً في إصراره، وكان مستعداً للانتظار من أجل تحقيق أحلامه، وحتى لأن يتضور جوعاً من أجل تحقيق تلك الأحلام، وهو ما كان يعجبها فيه، ولكن في الوقت ذاته، كانت ترافقه تلك الوقاحة على الدوام.

«لقد دعوتم نفسكم لهذه المقابلة، سنيور كولون»، قالت له إيزابيلا، فيما كان الضيف يجثو بتواضع أمامها وهو يقبل يدها.

نهض واقفاً، «وكما أرى، فأنتم ترون الأمر من الأهمية بمكان، بحيث أنكم دعوتم قرينكم، بل ليس هو وحده فقط»، قال ذلك وانحنى قليلاً. موارياً في تواضعه تلك الوقاحة في كلامه من جديد.

لم تلتفت إيزابيلا لكلامه، فقالت له: «أنتم تعلمون، أنَّ لجنتنا الملكية، في ما يتعلق بخطتكم بالوصول إلى الهند بحراً عن طريق الغرب، كانت قد رفضتها قبل سنتين باعتبارها ملاحة غير ممكنة التحقيق، ومع ذلك، فقد

طالبتكم قبل أسابيع بإمكانية إعادة النظر من جديد للتدقيق بما يجعلكم واثقين من نجاح خطتكم».

لم يكن الجنوي يبذل أي جهد للتفكير في ما يتحدث به، أشارت له إيزابيلا إلى كنبة للجلوس، كما لاحظت تلك الابتسامة الخفيفة على زاوية فمه، كانت تتمنى أن تصرفه، للأبد هذه المرة، إلا أنها فضلت أن تكون حذرة. فمن العبث رفض خطة لرجل، فقط لأن رجلاً آخر يراه مثيراً للاشمئزاز.

«الآن»، قال كولون وقد كتّف ساعديه أمام صدره، «إن أول شيء ينبغي علينا فهمه، هو أن الأرض كروية»، ثم نظر إلى من حوله بترقب متلهف، كانت يوهانّا تتثاءب.

«يوهانّا» نادتها الملكة منبهة.

«القول بأن الأرض كروية، هو أمر يعرفه كل طفل في بلداننا المسيحية، سنيور»، قال سانتآنخيل وآنحنى قليلاً باتجاه الملكة، «إن البابا بيوس الثاني نفسه كان قد أبلغ جميع المؤمنين بقوله: ***Mundi formam omnes fere consentium rotundam esse***، ***ما يعني أن الجميع متفقون على أن شكل الأرض كروي***[1]».

إن أولئك الكونفرسوس، يريدون أن يبرهنوا دائماً، كم هم ملمون بكل شيء يتعلق بكنيستنا المقدسة، فكرت إيزابيلا في نفسها، ولكن، كم كان هذا مفيداً في هذه المناسبة.

أصبحت نبرة الجنوي أكثر حدة، «كان من الحكمة تركي أتحدث حتى النهاية»تابع الجنوي قائلاً، وقد انكبّ للأمام وهو في جلوسه على الكنبة، «إنها كرة– واصغوا لي الآن – مغطاة بستة أجزاء من اليابسة وجزء واحد من

(1) النص الأجنبي هو باللغة اللاتينية (المترجم)

الماء. وهو ما يعني لكل عاقل، صاحبة الجلالة، أن المسافة بين ساحلكم وبلاد سيبانغو وكاتهاي في مملكة الخان الأكبر الحافلة بالأسرار، لا يمكنها أن تكون بالمسافة البعيدة، إن تم الإقلاع باتجاه الغرب، وهو ما يعني في الواقع أن ذلك في متناول اليد: ثم ألا تعيش هناك في الهند تلك الحيوانات نفسها التي انتصر بواسطتها القرطاجيون على روما، تلك الأفيال ذات الجلود السميكة والآذان الضخمة، وخراطيمها الثعبانية؟ ثم أليسوا يعيشون معنا، مباشرة على الضفة الأخرى من المضيق في أفريقيا؟ ألا يفترض هذا بالتالي أن هناك جواراً غير بعيد بين هذه البلدان؟ وبالنسبة للفيلة، ومع أنها قوية ومثابرة، فمن غير المحتمل أن تكون، سبحت لشهور من بلد إلى آخر، وأرجو عفو جلالتكم، فهذا افتراض لا يمكن قبوله».

دائماً أفياله، فكرت إيزابيلا في نفسها. «إن لجنتي كانت بالمقابل، قد انتهت إلى أن الهند، تبعد شهوراً، وربما سنوات، للوصول إليها عن طريق الغرب، وأنكم ستصابون في طريقكم إلى هناك بداء الحفر، وستجوعون وتعطشون. وهذه القناعة تخص كل العلماء الذين سألناهم، والتي كان ملك البرتغال قد انشغل بها قبل سنوات، من أجل التحقق من احتمالات نجاح المشروع الخاص بكم، ولكن يبدو أنكم الوحيدون، سنيور كولون، الذي يثق بإمكانية السفر إلى الهند عن طريق الغرب».

«أوه، كلا، لست الوحيد»، هتف الجنوي، ثم نهض من كرسيه، وأخذ يخطو ذهابا وإياباً بخطوات واسعة، كما لو أنه لم يعد يطيق الجلوس على كرسيه. «كيف يمكن لجلالتكم بالذات، وأنتم الذين قضيتم على من لا يؤمنون في غرناطة، وتسعون بمشاطرة محكمة التفتيش المقدسة، لأن يكون المؤمنون المباركون هم وحدهم الذين ينبغي أن يسود سلطانهم أخيراً في كل

مكان من بلادكم، فكيف أمكنكم أنتم بالذات إذن، أن تجعلوا من الكلمة العليا لما يقوله هؤلاء العلماء، أعلى شأناً من الكتاب المقدس؟ وماذا يعلمنا النبي عزرا؟» ثم فتح ذراعيه وأمال رأسه إلى الوراء على رقبته في تجلٍ، وأخذ يرتعش.

إنه مخبول، قالت الملكة لنفسها في هلع، إنه مخبول لأقصى حد.

«ألم يقل في الكتاب الرابع من سفر عزرا [1]: ***إنّه في اليوم الخامس وعلى السُبع الذي كانت تغمره المياه، قلت ليكن الماء، وقلت لتخلق الحيوانات والطيور والسمك؟و السُبع*** جرى تقسيمه إلى ستة أجزاء لليابسة، وجزء واحد للماء»، وأخذ يشهق بصعوبة، ومن خلفه فتحت يوهانّا ذراعيها مقلدة إياه، وهي تدير عينيها في محجريهما.

«يوهانّا»، قالت لها الملكة.

«ستة أجزاء لليابسة، وجزء واحد للماء!»، هتف كولون من جديد واندفع نحوها، «ثم ألم يقل لنا النبي أشعياء».

«***إن الجزائر تنتظرني والسفن في البحر في المقدمة، لتأتي ببنيك من بعيد، وفضتهم وذهبهم معهم***». أعاد سانتآنخيل ترداد المقتبس من ذاكرته، ثم تابع كلامه، «إنه من سفر أشعياء[2]، الإصحاح 60 والآية 9. وهذا ما ذكرتموه للجنة، سنيور، واللجنة لم تفهم من ذلك النص ما أردتم البرهنة عليه، إن أفضل علماء الرياضيات في البلاد لم يكونوا مع فكرة، أن هذا المقتبس ذو صلة ودلالة

(1) عاد المترجم إلى سفر عزرا في المكان المذكور اعلاه فلم يعثر على هذا النص.

(2) عمل المترجم على نقل الترجمة من المرجع المذكور في لغته العربية من **الكتاب المقدس**، مراعياً ترجمة المقتبس كما ورد في النص الألماني الذي اختصر جزءاً من تلك الآية، فالمرجع كما ذكر أعلاه جاء وفقاً لنسخة الكتاب المقدس العربية، المطبوع بمطبعة عنتر، والصادر عن دار الكتاب المقدس في القاهرة، مصر، العام 1969 ص 1065

على تفسير ما رغبتم أنتم، أن تبرهنوا عليه وتفسروه».

لم يبدُ على الجنوي أنه سمع ما قيل له، «أنظروا، إن طرف العالم البعيد قريب منّا!»، هتف قائلاً «أليس الأولى بنا، وبما يفرضه علينا واجبنا بالتالي، كما ترون جلالتكم، أن نعمل بقدر ما نستطيع وقبل كل شيء، على زيادة أتباع المسيحية؟ وحتى أولئك الموجودين بعيداً في سيبانغو وفي كاتاي[1] في الهند! وأنا، أنا بالذات، هو من اختاره الرب لهذه المهمة، صاحبة الجلالة، إنني أعلم ذلك، وأنا أتلمسه، فهذا الطريق».

إنه مخبول، فكرت إيزابيلا في نفسها، فما يقوم به هو تجديف على الله وهو ما كان قد قاله من قبل الحكيم تالافيرا، عندما كان يمسك برئاسة اللجنة.

«دعونا من كل هذا!» قالت الملكة بصرامة.

انكفأ كولون على نفسه، وعاد إلى كنبته.

«المعذرة»، غمغم قائلاً، «ولكن عندما يتعلق الأمر بنشر الايمان».

مسحت إيزابيلا كلامه بإشارة جانبية من يدها.

«دعنا نفترض لوهلة ما، أنك أقنعتني، سنيور كولون»، وجهت كلامها إليه. «دعنا نفترض حدوث ذلك لمرة واحدة، فكيف ينبغي أن تجري الأمور برأيكم بعد ذلك؟».

انتصب الجنوي فجأة إثر هذا السؤال، إلا أنه ظل يرتعش، وعندما بدأ يتكلم، بدا صوته قوياً وراسخاً، فسحب من حزامه لفافة تمّ إحكام ربطها بشريط حريري، «علينا إذن على أي حال التحدث عن شروطي أولاً، كما كنت قد طرحتها على مقامكم من قبل»، قال ذلك وقد بدأ يحل الشريط، «إن حربكم مع المغاربيين التهمت الكثير من الذهب، أما أنا فسأقوم باكتشاف

(1) كاتاي وسيبانغا هما الصين واليابان، وقد أشير لهما قبل ذلك في الهوامش، (المترجم)

بلاد جديدة لكم، ستعيد لكم ثراءكم! ومن أجل ذلك، صاحبة الجلالة، أطلب الحصول على نصيبي العادل».

«إنه يطلب»، قال فرديناند، وقد رفع حاجبيه، «سنحقق ثروتنا من مصدر آخر!».

إلا أن كولون لم يلتفت إليه مرة واحدة، «لا يمكن لأحد أن يجد لكم الطريق إلى الهند سواي، صاحبة الجلالة، فأنا وحدي هو المختار لذلك! ولهذا أطالب»، وبدأ يقرأ ما هو مكتوب بخط دقيق من الرقّ الذي بين يديه. «الحصول على لقب (دون) الشرفي، لي ولكل من يأتي بعدي من ذريتي؛ الحصول على مرتبة أدميرال اسطولكم البحري، حاملاً كل الحقوق التي ينالها الأدميرال الأعلى؛ الحق في الحصول على الحصة العاشرة من كل عائدات البلاد الجديدة، والحق بشراكتي في الثُمْن من كل تجارة تتم هناك».

«ألا يريد ربما أيضاً أن يطلب الحصول على شرف أن يكون ملكاً على قشتالة وآراغون؟»، سأل فرديناند في نبرة ساخرة، «ويد ابنتي، ولعل من الأفضل أخذنا نحن الأربعة؟ وأيضاً الحمراء وكل القصور فوقها كتحلية؟ سنيور؟».

إلا أن كولون يبدو أنه لم يلحظ مرة واحدة مقاطعاته، فتابع حديثه، كمن لم يصغ لشيء مما قيل، «السلطة القانونية على جميع الأراضي الجديدة؛ولقب نائب الملك والحاكم العام على كل الأراضي التي سأكتشفها، وكذلك الحق في أن اختار بنفسي كل الموظفين وتعيينهم، وأخيراً الحق في أن تكون كل الثروة والموارد المالية قابلة للتوريث إلى أولادي».

«آمين»، قال فرديناند.

ضحكت يوهانّا.

«وليس من شيء آخر تطلبونه أيضاً، سنيور»، سأل الملك «أهذا كل شيء؟».

أعاد الجنوي لفّ الرقّ وربطه بالشريط الحريري، ثم رفعه باتجاه الملكة، «بقي عليكم فقط وضع خاتمكم عليها، صاحبة الجلالة»، قال لها ذلك ثم ردف، «وكل ثروات كاتاييس ستكون لكم».

«ليأخذ نفسه وينصرف، واعمل على أن يتوارى للحال من هنا»، قال فرديناند مشيراً لأحد الخدم، «وإلا فقدت السيطرة على نفسي، مع هذا اللسان الطويل!».

«صاحبة الجلالة!» ناداها كولون، ورمى نفسه ساجداً أمام إيزابيلا على ركبتيه، «من أجل والدة الإله وكل القديسين».

«أتصرون على مطالبكم؟»، سألت الملكة. «وأنتم لستم على استعداد لأن ترضوا بأقل من ذلك؟».

«لقد اختارني الرب!» هتف كولون بنبرة حادة، «أنتم تقفون في وجه إرادة الرب! وقد حدد لي الرب في منامي بوضوح كم مقدار نصيبي لقاء ما سأبذله من عناء».

«هيا خارجاً» قال فرديناند، «هيا خارجاً، ولا تحاول أبداً أن تنبس من جديد بكلمة».

«صاحبة الجلالة!»، هتف كولون.

أمسك به الخادم من كتفيه وسحبه إلى الباب، وظلت نداءاته تسمع من الخارج.

«لقد أسعدني قراركم، صاحبة الجلالة» قال سانتآنخيل، وانحنى نحوها. كنتم ستصبحون أضحوكة أمام العالم، إنه متهور، هذا الكولون، إنه مخبول».

«وهذا ما يبدو لي أيضاً»، قالت إيزابيلا وتنهدت بارتياح، لقد كان القرار مرضياً، وقد تمت خسارة سيبانغوس وكاتاييس إلى الأبد، ولكنها لن تعود للتفكير من جديد، بشأن الموافقة على رحلة ذلك الحالم الخيالي الغريب. «والآن سنرى ما قد حضّره الطباخ لنا، فقدومك، فيليب، من بورغوند، ينبغي الاحتفال به».

وبالنسبة ليوهانّا، فكرت الملكة في نفسها، «سأريها أيضاً، من هي الملكة هنا».

-14-

لن يتم اكتشاف أمريكا، وكاد بوسطن يغرق بالضحك، فهل يمكن أن يذهب التاريخ منذ الآن في منحى آخر، في خضم أحداثه ؟ أليس من الممكن أن يكون طارق ومن معه من المغاربيين قد أفلحوا في مقاومتهم أيضاً؟ وكم هو غريب كل هذا الذي حصل؟ إن لهذا علاقة ببلاطة الخزف، ويكاد يكون متأكداً من هذا. يجب أن يكون لبلاطة الخزف صلة بذلك.

«فيليب فون بورغوند! اجلس بجانب ابنتي، قالت الملكة، ولكن قبّل أولاً خاتم كبير مفتشي محكمة التفتيش! إنه لشرف كبير لنا، أيها الموقر، أنك رغبت بمشاركتنا مأدبة التكريم هذه».

«لقد أخذتم بنصيحتي، كما سمعت؟ قال الرجل الذي نادته الملكة بالموقر، ثم انحنى بوسطن على يده وقبل خاتمه، إلا أن الرجل لم يلق بالاً إليه.

هل ألقيتم نظرة مدققة على رياليخو؟

الرجل ذو الوجه الجاد، والذي كان قد تجادل مع كولومبوس، ارتعدت أوصاله.

أما الملكة، فقد هزّت برأسها نافية، «في ما بعد!»، قالت له، «فيليب، مكانك هو بجانب عروسك، تحدث إليها خلال المأدبة! فيوهانّا تحب الأحاديث الذكية، أليس كذلك، يا حمامتي الصغيرة؟».

«لست جائعة!»، قالت يوهانّا.

إلا أن الملكة، كانت ما زالت في جو ما دار من حديث مع الجنوي، فقالت، وهي تنتظرمساندة زوجها، فيما ستقوله، «من يشعرني بالشفقة فقط، تلك النفوس الشقية التي توجد على الجانب الآخر من البحر، والذين لن يقدر لنا تنصيرهم! إنه واجب أستشعره، فهو مسؤوليتي!».

انحنى فرديناند فوق رأسها وتنشق بأنفاسه قبعتها طابعاً عليها قبلة مازحة.

«إن الرب الذي جعل البحر واسعاً، على نحو لا نستطيع عبوره، سيقبل معذرتنا إن لم نفلح في ذلك». قال فرديناند.

الرجل الذي كان قبل ذلك قد اقتبس من أقوال النبي أشعياء، ابتسم مُجهداً. ثم قال: «من الواضح، صاحبة الجلالة، أن خطة هذا المخبول اعتمدت على حسابات خاطئة كلياً، فإن أعطيتموهم المراكب الشراعية، فإنكم ستدفعون به وبالرجال الذين معه إلى التهلكة، وعلى امتداد الكرة الأرضية تسود وحدة الرأي بين البحاثة من لندن إلى لشبونه، فيما يتعلق ببعد المسافة بين سواحلنا وسواحل الهند، فهذه الطريق تحتاج لأشهر من أجل اجتيازها، إن لم يكن سنوات، وهو ما لن يُبقي أحداً منهم على قيد الحياة».

«هو كذلك»، قال فرديناند.

قدم أحد الخدم نبيذاً للجميع، كان النبيذ حامضاً، ومع ذلك، تناول منه بوسطن جرعة كبيرة دفعة واحدة، فلم يُغنِهُ ذلك إلا قليلاً في إطفاء عطشه.

«ما من أحد يختلف بشأن ما جاء في الكتاب المقدس»، قال الرجل من جديد، «ولكن، هل علينا فهمه كما أراده الجنوي؟ سبع الكرة الأرضية فقط مغطى بالماء، أي هراء هذا! فعلماؤنا يعلمون أن الأمر على النقيض من ذلك، أي سُبع مساحة الكرة الأرضية هي لليابسة وستة أسباعها للماء، تصوّري،

صاحبة الجلالة، كم ينبغي أن تكون الهند بعيدة من هنا في هذه الحالة! وكم أن بلوغها يُضحي مستحيلاً تماماً!».

ما زال طعم النبيذ حامضاً، وما زال بوسطن يستشعر العطش؛ولكنه، أصبح أكثر هدوءً، لا بل أصبح أكثر ابتهاجاً، وقد ناوله الخادم كأساً ثانية،

«ولكن في حال أنه ربما»، قال بوسطن، وبهلع أحسّ أنه قد تورط في الجدال الدائر، ولكنه لم يبال، وفجأة شعر بأنه يزداد خفة، إنني الأمير، إنني الأمير! إلا أن لسانه أصبح بحالة غريبة، وكذلك شفتيه أيضاً، إنها ما زالت تنصاع إليه، ولكن ليست كما هو معتاد، «ولكن ماذا لو ظهر وجود شيء آخر بين أوروبا والهند؟ كوجود بلد آخر؟».

ضحكت الملكة، «يبهجني أنك استيقظت، أيها الأمير فيليب»، قالت له، «بلد آخر! في الغرب بيننا وبين الهند؟ يا لها من فكرة!».

لاحظ بوسطن أن يوهانّا ترمقه بنظراتها، فتناول جرعة أخرى.

«إن مثل هذا الهراء لم يشأ حتى الجنوي ادعاءه!»، قال فرديناند وهو يشرب نخب بوسطن، «فمن أجل الوصول لمثل هذه الفكرة»، قال فرديناند ضاحكاً، «ينبغي أن يكون أصل المرء من بورغوند!».

كبير المفتشين في محكمة التفتيش كان يأكل بهدوء وعلى وتيرة واحدة، ولكنه كان يصغي لما يدور من أحاديث.

«لا يمكن أن توجد بلاد أخرى بين إسبانيا والهند، أيها الأمير فيليب»، قالت الملكة، «نحن هنا في الجنوب كنا قد انشغلنا بهذه المسألة لسنوات طويلة مضت، وأنا أسألك على هذا الأساس: من حيث إنَّ الأرض موجودة منذ آلاف عديدة من السنين، ومنذ ذلك الوقت يتنقل الناس الذين عليها من ساحل لساحل آخر، فكيف يمكن أن توجد أرض لم يتم اكتشافها حتى الآن

بعد؟ أما كان ينبغي للعديد من رحالتنا، أن يصادفها منذ أمد بعيد، أقلهم الرحالة الكبير ماركو بولو؟».

«الفايكينغ» غمغم بوسطن، وقد شعر أن شفتيه أصبحتا مثل بالونين منفوخين يتقابلان معاً من اتجاه متعاكس، ثم ضحك، بل ضحك كثيراً على نحو غير معتاد، إنها شفاه مثل البالون.

«بماذا يغمغم الصبي؟» سألت إيزابيلا.

وضحك فرديناند أيضاً، «إنه الكثير من النبيذ» قال لها، «والرحلة الطويلة، بل وربما تناول القليل من الطعام - هل يمكن أن يكون السبب، هو أنك أيها الأمير الصغير فيليب، قد منحت النبيذ قوة فائقة جداً، ليتحدث؟»).

قهقه بوسطن ضاحكاً: «كثير الحموضة، إنه حامض جداً!».

هزت إيزابيلا برأسها، «يبدو لي أنكم تشربون الحليب فقط في بورغند مع وجبات الطعام»، قالت الملكة، «والآن أيها الأمير، سنؤجل احتفال ترحيبنا، فمكانك هو السرير في هذا الوقت، واعذرني لذلك»، ثم صفقت الملكة بيديها.

«السرير» قال بوسطن وهو يضحك، «السرير!» إن هذا سيكون الأكثر دعابة، من أي وقت مضى، كل شيء يبدو مثل دعابة، فلماذا لم يدرك الأمر من قبل.

«إنه ثمل»، قالت يوهانّا، وابتعدت عنه قليلاً، اقترب اثنان من الخدم وأمسكوا به بحرص من اليمين واليسار.

«تصبح على خير، أمير فون بورغوند»، قال فرديناند مبتسماً، «سأكون متشوقاً بما ستفاجئنا به يوم غد، سانتآنخيل، هل تودون».

شيء ما يتحرك بداخل بوسطن، شيء ما يغوص بداخله ولكنه لا يريد

أن يخرج للسطح، كانت أفكاره مثل نثرة تطفو على الماء، تبرق بلون جديد لكنها لا تلبث أن تختفي بعد قليل، إلا أن طعام الغذاء ظل باقياً معه في معدته.

سانتآنخيل، هذه هي الكلمة. لم تكن الكلمة غير مألوفة، سانتآنخيل.

ثم استذكر شيئاً، ولكن في هذا العالم العجيب، العالم العجيب جداً، الذي يدور ويتقلب وينكمش، ثم ينتفخ، فلم تبدو هذه الكلمة مهمة له، لأنها لم تكن مهمة أبداً، سأنتآنخيل. ألم يكن هو الاسم الذي ذكره طارق بالأمس؟ ***فحتى سانتآنخيل هو أيضاً، كما تعرفون أنتم، وكل العالم، هو الأكثر ورعاً بمسيحيته من كل المسيحيين.*** وهو الذي كان مشاركاً في المؤامرة، إنه ذلك الذي يريد مساعدة اليهود من أجل إنقاذ جزء من الثروة التي يملكونها.

إنني ثمل.

ثم استدار، ذلك الرجل، قصير القامة، الذي كان يعرف الكثيرعن الله القدوس، هو سانتآنخيل، ماذا يعني هذا كله، كان كل شيء يختلط أمام ناظري بوسطن.

إنني ثمل حقاً.

ثم نظر إلى كيس الظهر الملقى على الأرض تحت كرسيه، وبذراع واحدة منه، تراءى له معها أيضاً وكأنها ذراع تخص غيره، ألقى بالكيس باسترخاء، مثبتا إياه على كتفه.

حزمه الخدم بأذرعهم من جديد، أما شعور بوسطن بالإقياء فكان يصعد ويهبط، من رأسه إلى معدته ثم إلى رأسه، والعالم من حوله أخذ يدور بسرعة اكثر، وبدا له إما أن قدميه لم تعودا تمسان الأرض فعلياً، أو أن الأرض قد تحولت إلى كتلة واهية رخوة.

«تصبحون على خير» غمغم بوسطن، من دون أن يفهم هو نفسه ما تحدّث به.

أما وقد وضعه الخدم على سريره، فهو لم يعد يذكر ذلك، وعندما حاولوا نزع كيس الظهر من بين يديه، تمسك به بقوة، مما دفعهم للضحك.

«فليَغْفُ إذن مع لعبته»، قال أحد الخدم، «يا للأميرة البائسة!».

لم يردّ الخادم الآخر على ما قاله زميله.

حاولت يوهانّا معرفة ما إن كان الجميع قد رأوا أيضاً ما حصل، أصبح الجو على المائدة أكثر مرحاً، قام والدها بتدوير عينيه مقلداً الجنوي، ورمى بكأس للنبيذ من على المائدة فيما كان يفتح ذراعيه، فضحكت أمها، وحتى سانتآنخيل، الذي يظل معتصماً بوقاره دائماً، جاملها بابتهاجها أيضاً.

عند ذهاب الهابسبورغي، سقط شيء من كيس ظهره القبيح، الذي حرص على التعلق به دائماً، كمن يحمي سراً كبيراً فيه، كان ملقىً على الأرض بجانب كرسيه.

وضعت يوهانّا رجلها عليه في الحال، في البداية نظرت من حولها، فلم تجد أحداً يراقبها. فانحنت عليه للأسفل.

كان وسادة صغيرة، متطاولة بيضاء، لا يكاد يزيد طولها عن الإبهام إلا قليلاً، والمادة المصنوعة منها كانت تلمع كأنها من الحرير، وتبدو تماماً كما لو أن أحداً ما أمكنه تحويل زجاج من البندقية إلى قماش، إلا أنها عندما لمستها بإصبعها أحست بأن الطبقة العليا منها تغور تحت ضغطه وتعود لمكانها عندما ترفع اصبعها عنه، والكتابة التي على سطحها كانت دقيقة جداً، «كاتشاب دي تومات[1]». وهي كلمات لم تسمع بها من قبل. كما لا تبدو أنها مشتقة

---

(1) Ketchup de tomate، وهو يعني كاتشاب البندورة (الطماطم) (المترجم).

من لغة المغاربيين، وليس من لغة البورغوند، وما تحتها، كان مكتوباً بقشتالية غريبة، بما لم تشاهده من قبل، ولم يكن لها معنى.

وبحركة سريعة، خبأت يوهانّا الوسادة في فتحة صدر فستانها، وأحست ببرودتها في البدء بين ثدييها، ثم لم تعد تشعر بوجودها تقريباً.

نظرت إلى البوابة التي اختفى الهابسبورغي وراءها، فيليب فون بورغوند، الذي لقبوه بالجميل، ولم تعلم، لماذا، وجدت أن لديه سراً ما يحمله معه، ووجدت نفسها فجأة، متأكدة من ذلك.

هذا إذا كان هو نفسه فيليب بالمطلق.

كانت يوهانّا تبتسم لمن حولها، كما كانت تصغي بأذن واحدة، لتكون قادرة على الإجابة إن هي سئلت.

هذا إذا كان هو نفسه فيليب بالمطلق.

أخذ قلبها يدق بسرعة أكثر، فربما هذا الصبي، لم يكن على الإطلاق ذلك الغبي الساذج الذي يحاول أن يظهر به، وهذا الذي يدعى فيليب فون بورغوند، كائناً من يكون، يخبّئ سراً معه، وهو سرٌ ينتظر منها المستقبل اكتشافه.

تنفس سالومون بصعوبة، لم يكن معتاداً على الجري، إلا أن الأمر أصبح بالنسبة له الآن، سيان، إن كان قد اعتاد أم لم يعتد عليه.

لقد أصبح الآن في ألبايثين، وشكراً لله أنه تجاوز رياليخو، ولكنه ليس في مأمن بعد، ولكن على الأقل، لا تتجول هنا دوريات الجنود ليلاً ونهاراً.

لقد تم إغلاق بوابات المدينة بعد غروب الشمس، ومن غير المجدي على أي حال، مغادرة المدينة ليلاً، ولكن أن يظل في الشارع، هو أيضاً بدوره أمر لا يستطيعه، وعلى الأرجح سيكون الخان هو الأكثر أمناً له، طالما أن جنود

الحرس الملكي الذين يجوبون بدورياتهم المكان، ليسوا هم أنفسهم الذين أحرقوا المنزل.

قرع باب الفندق، إن ضيق المكان وشدة الزحام تواريانه هنا.

وعندما أرخى الظلام سدوله، وصمتت بالتدريج جدالات الناس، ساد الهدوء أكثر، وقد كان على يقين دائم، بأن أباه يخدع نفسه، فلا يستطيع المرء أن يذهب إلى قداس الكنيسة يوم الأحد، وأن يحتفل سراً بيوم السبت، فليس من أحد آمن في غرناطة الجديدة هذه، فكيف أمكن لوالده أن يعتقد، أنهم وبعد تلك الزيارة للجنود يوم أول أمس، يمكنهم أن ينعموا بهدوئهم.

تنهد سالومون، لقد فرّ هارباً، فور أن سمع، كيف حطموا بسيوفهم درفة تلك البوابة البائسة، أما اشتعال النار فقد رآه من الزقاق الجانبي، وكمطارد، لم يسمح لعينيه أن تتابعا النظر، لقد اتقد اللهب عالياً، مما جعله ينتقل إلى المنازل المجاورة ولتبدأ هذه بالإحتراق أيضاً، أما ما حصل لأبيه، فهو لا يعلم شيئاً، فقد اكتفى هو بالهرب فحسب.

عصر وجهه بيديه وانخرط بالبكاء.

انحنى عليه سقاء ماء وناداه: «ماء؟ ماء».

سالومون هزّ رأسه بشدة رافضاً، إلا أن سقّاء الماء استمر في دعوته مائلاً بجرته الفخارية الثقيلة من فوقه، تلك الجرة التي يخرج منها ميزاب بمجرى ضيق له فوهة، يمكن أن يسيل الماء خلالها من الأعلى إلى فم الشارب من دون أن يمسّ الشارب الجرة بشفتيه.

«لا أستطيع أن أدفع لك!»، قال له سالومون، محاولاً إخفاء دموعه، كل واحد يمكن أن يكون مخبراً، لا يوجد مكان يمكن للمرء أن يكون فيه آمناً، والبراهين ليست ضرورية في هذه الحالة، فكل اتهام يفي بالحاجة.

«اشرب إذن، إن كنت عطشاً!»، قال له السقاء «لقد كسبت اليوم ما يكفيني».

وفجأة تولد لدى سالومون ذلك الشعور، بأنه قد يموت إن هو لم يتناول جرعة ماء، فاندار إلى الجرة وأخذ يشرب بلهفة، وعندما ردّ الجرة إلى السقاء، أحس أنه سيجهش بالبكاء من جديد.

نظر إليه الرجل بإعياء، وغمغم قائلاً «وأنت أيضاً، إن في غرناطة الكثير من الدموع، وستغرق المدينة في دموعها، إن لم تأت عليها ألسنة النيران».

غرناطة، نيسان /أبريل، في الوقت الحاضر

عندما حلّت ظلمة المساء على القيصرية، حمل مانويل كاراثون سلله من موضعها في الخارج إلى الداخل، وجرّ للأسفل العارضة الدوارة لباب متجره.

«أترغب بتناول جرعة صغيرة أخرى، مانويل؟»، ناداه جاره. هناك حانات لا ترتادها أقدام السائحين أبداً.

هزّ مانويل برأسه ومضى في الجهة الأخرى، لم يكن السوق مواتياً له بعد ظهر هذا اليوم، فإحدى النراجيل الكبيرة، التي لم يستطع بيعها منذ سنوات، إما لأن سعرها كان يرعب السائحين، أو ربما أيضاً بسبب قلقهم في كيفية حملها معهم في طريق العودة إلى بلدانهم، هذه النارجيلة اختفت فجأة من مكانها، ومن وقتها وجد نفسه مجبراً، أن لا يدع الزبائن بعيداً عن عينيه، أقله كلما تزاحموا حول بسطته، ولكن كان من الصعب عليه المحافظة على تماسك أفكاره.

لقد اختفى الفتى.

جلس السائحون تحت حبال أضواء الكهرباء الملونة في ساحة بيب رامبلا يتناولون مشروبهم من السانغاريا بأكواب كبيرة، ملأها صاحب الحانة بنبيذ حامض المذاق، أضاف له فاكهة ليمكن احتساؤه، بعد أن أصبحت تلك الفاكهة بالغة النضج ولم يعد من الممكن أكلها، كانت سمرة الشمس قد كست بشرة الناس هناك؛ وكانت النسوة قد زينّ وجوههن بمطريات براقة، والرجال كانوا يضَعون القبعات، كانوا يضحكون ويتسامرون ويتبادولون شرب أنخاب أجمل أوقات العام.

كان هناك مكان فارغ على إحدى الموائد.

«*سي بو إيده*[1]؟»، سأل مانويل، لكنه كان قد جلس، حتى قبل أن ينتظر الإجابة.

لقد ابتسم له الثنائي الذي كان يجلس إلى المائدة، وهذا مألوف لديه، فعندما يكون بمفرده، يحشر نفسه بين السائحين، وكلهم كانوا ودودين، ولكن ليس من أحد تحدث إليه، لقد كان مثل المكسب الإضافي، الذي يمكن التحدث عنه عند العودة إلى المنزل.

«وبعد ذلك، جلس إلى مائدتنا إسباني حقيقي، تصورا، واحدٌ صامتٌ، ولكنه شرب نخبنا».

أوصى مانويل على دورق من النبيذ، «أنت تعلم، أي نبيذ، روبرتو!» قال للنادل، وقد ابتسم هذا، فحتى وإن لم ينل منه الإكرامية، فإنه سيحضر لهذا الزبون النبيذ الذي في الرف الخلفي، فالذي هناك مخصص للأصدقاء فقط،

إن دورقاً واحداً من النبيذ، ليس بالشيء الكثير، والثنائي غادر الآن، وفي حانة أخرى كانوا قد أطفؤوا الأنوار.

(1) سي بو إيده؟–تعني بالإسبانية حرفياً (أمن الممكن؟) أو (هل تسمحون؟)

«واحد آخر من النبيذ»، قال مانويل.

ومن حوله ظل آخر الزبائن جالسين تحت الأضواء الملونة.

لقد اختفى. منذ ظهر أمس. ومنذ أن كان هنا في القيصرية.

لقد كان الفتى لصاً، مثلما هو حال السائح الذي سرق النارجيلة هذا اليوم.

لقد تفرج على قاعدة الكؤوس لديك، هذا ما أنا متأكد منه تماماً!

أومأ مانويل للنادل بيده، المطعم بدأ يفرغ، وأطفئت حبال الأضواء،

«نبيذ آخر»، قال للنادل.

وضع النادل الدورق على الطاولة، «هل أجلس إليك، مانويل؟» سأل النادل.

هزّ مانويل رأسه.

بقي الفتى لساعات طويلة أمام بسطة متجره، وأمسك كل شيء بين يديه

إن فتياناً في مثل هذا العمر يسرقون مثلما تفعل الغربان، فالفتيان الذين في هذه السن لا ينبغي الوثوق بهم.

لقد اختفى.

والحكايات القديمة، تبقى حكايات قديمة، وليس من أحد يصدقها بعد الآن، خرافة.

لقد اختفى.

إلا أن دورق النبيذ الثالث لم ينقذه أيضاً.

-15-

الأندلس، 1492

عندما صحا بوسطن، أحسّ بثقل رأسه، وأنه يكاد بصعوبة يقوى على رفعه، كما كانت الغرفة تدور أمام ناظريه، و أنّ لديه شعورا بالإقياء.

«سيدي الفتى»، همس صوت الخادم بجانبه، وأدرك أن هذا يعني بأنه لم يستيقظ من نفسه، لماذا لم يدعوه يكمل نومه، «لقد تأخر الوقت! لم أنجح في إيقاظكم على موعد القداس، سأحضر لكم كوباً من الشاي من أجل ألم رأسكم».

باحتراس شديد جداً أدار بوسطن رأسه، فنجانٌ من الشاي يتصاعد البخار منه كان يقترب من فمه، وتم رفع رأسه، وقد أحرق الشاي شفتيه.

سأقودكم إلى *الحمام*»، قال الخادم ودفعه لشرب جرعة أخرى، «إلى *الحمام*. جرعة أخرى فقط، سيدي الفتى، إنها مفيدة إن كان المرء قد تناول النبيذ، «لم يكن لدى بوسطن الطاقة على الرفض، أو أن يضرب اليد الممدوة بالفنجان بعيداً عنه.

«وبعد ذلك *حمام* مغاربي حار»، همس له الخادم، «هنا عالياً في الحمراء ما زالت لدينا كل الحمامات، أما هناك في المدينة بالأسفل، فقد بدؤوا بهدمها، لأن كبير مفتشي محكمة التفتيش قال إنها خطيئة، أن يتمرغ المغاربيون بأجسادهم العارية في الماء، إنها شهوة، فبهجة الرب بنظافة الروح الطاهرة

تفوق ألف مرة بهجته بالجسد النقي، جرعة أخرى!».

داخل بوسطن شعور بأن الغرفة أخذت تميل للهدوء، ظل يترنح، ولكن ربما ليس بالقدر الكبير.

«ولكن هنا في الأعلى فقد احتفظنا بها!» تابع الخادم حديثه، «أما حماماتهم!، فالملكة تحب الاستحمام، وروحها هي الأطهر في جميع البلاد الإسبانية، وهو ما لا يمكن أن ينازع فيه حتى كبير مفتشي محكمة التفتيش، وماذا يمكن أن يرغب الرب أفضل من أن يبعث روحها الطاهرة في جسدها النقي؟» ثم وضع من جديد الفنجان على شفتي بوسطن، «يكفي هذا، سيدي الفتى، سأرافقكم إلى الحمام».

وقبل أن يدع ذراعي الخادمين تمسكان به، انقض بوسطن على كيس ظهره يبحث فيه، لقد كان ما زال في مكانه، وعندما فتحه بحذر، وجد أن كل شيء سليم على حاله.

جلس بابلو على الأرض الرملية في فيء السور، فالآن وفي شهر نيسان / أبريل يمكن لشمس الظهيرة أن تكون أيضاً لاذعة بحرارتها.

تناول جرعة ماء من قربته الجلدية، وحتى بهذا، كان قد فكر المغاربيون: أن يوجد ماء كاف في كل مكان، وهو ما أحبه في هذه المدينة.

تنهد بابلو، هناك الكثير مما أحبته في مدنهم، فكر في نفسِهِ، ولكن، بسسسسست! لا ينبغي التفكير عالياً، فستكون المحرقة بالإنتظار على الفور.

وعندما سمع وقع خطوات، قفز للحال، فالملكة لم توزع مواقع حراسها في كل مكان على هذا التل، من أجل أن يشربوا الماء ويتفيؤوا في الظهيرة.

لقد كان هو في عداد من لازموا الصبي عندما جيء به إلى القلعة في اليوم

قبل السابق، والذي قالوا إنه فيليب فون بورغوند، كما قالوا بأن عليه أن يتزوج الأميرة الثانية الأكبرعمراً، فابتهج بابلو، لأنه وفر على نفسه الغضب في أن يكون هو نفسه مجبراً على زواج كهذا، فهو لديه فتاته في قريته، وهو يأمل أن تنتظره أيضاً..

لقد آنحنى الخادم للصبي وهو يمر من أمامه، وقد بدا متعباً وشاحباً. وكثيراً ما خبر بابلو في بعض الليالي، حالات تناول فيها رفاقه المشروبات الروحية، وفي صباح اليوم التالي كانت تبدو وجوههم منهكة، ولكن الهم والخوف البادي على وجه الصبي لم يكن بالتأكيد جراء الدوار الذي يعانيه في جمجمته.

إنه ثري، فكر بابلو في نفسه. وسيصبح أكثر ثراء من خلال هذا الزواج، ولكن لن يرغب أحد أن يكون مكانه ويبادله دوره.

ترنح الأمير، فأسرع الخادم للإمساك بذراعه، إن الطريق إلى الخينيراليفي موجود معظمه تقريباً في الظل، فهذا كان قد صممه المغاربيون بذكاء أيضاً.

كما إن الكثير مما فعلوه لم يكن خاطئاً، فكر بابلو لنفسه، حتى وإن كنت بالطبع لن أتحدث به لأي إنسان، بل ربما فقط لفتاتي، ولكن ليس قبل أن تصبح زوجتي، هذا الماء الكثير، وهذا الظل وتلك المدرجات التي تنبت فوقها الفواكه والخضار، أبنيتهم الرائعة، حماماتهم، مكتباتهم، والعلم والمعرفة التي منحوها للعالم كله.

واليهود، فكر بابلو، فاعترته رعشة جزع جراء الشرود الذي ذهبت إليه أفكاره، من دون أن يمنعها من ذلك، فبماذا أساء لنا اليهود، وهل طلب إلينا الطبيب اليهودي في قريتنا مرة أن نعتنق الدين الموسوي؟ في كل مكان من البلاد ينتشر أطباء يهود، وعلماء، ومستشارون، وحتى الملوك والأمراء،

فلماذا ينبغي أن يغادروا بلادنا فجأة؟

أو أن يتم حرقهم، فهذا ما لا يمكن أن يرغب به الله.

ولكنه ما لبث أن دعا أفكاره للتعقل، فحول هذه الأمور، قال في نفسه، أنت لا تفقه شيئاً، بابلو، وعليك أن تعي جيداً، أنَّ السادة الكبار أذكى من فلاح قادم من الأرياف، فهم يعلمون أكثر منك، ما هو الأفضل من أجل إسبانيا.

الأمير الفتى، ينبغي أن يحضر الآن إلى الخينيراليفي، كان الهواء يتوهج من شدة القيظ، فعاد بابلو للجلوس من جديد في الظل.

مع ذلك كانت القربة الجلدية قد فرغت من الماء.

لم يكن بوسطن واثقاً، ما إن كانت الملكة تبدو الآن أكثر غيظاً مما كانت عليه يوم أمس، كانت تجلس على كرسي مضفور وهي تحدب على ما تحيكه بخيوط ذهبية، وكانت تجلس قبالتها ابنتها، وآمّي إلى جانبها، من دون أن تبدو أنها سعيدة، وفي قفص، من أغصان الصفصاف كان عصفور كناري يغرد ألحانه لأبعد مدى مع شمس الظهيرة.

بعد أن أنهى حمامه قاده الخادم إلى الأعلى إلى حيث الخينيراليفي، وكان رأسه ما زال يدور، وما زالت تراوده الحاجة للإقياء، ما أشعره أنه لن يقوى على تناول الطعام أبداً؛ ولكن على الأقل لم تعد الأرض تميد تحت قدميه، وتوقف العالم من حوله عن أن ينكمش ثم ليعود فينتفخ من جديد.

لقد كنت بالأمس ثملاً، فكر بوسطن لنفسه، ياإلهي، لكم كنت ثملاً، لقد كنت في غاية العطش، ولكن قبل أن يشعرني النبيذ بالإنتشاء، لم أكن لأتجرأ على شيء.

«والآن، أمير بورغوند» قالت الملكة، ثم ناولت ما كانت تحيكه إلى

ابنتها، «هاكِ، إنه الآن كما ينبغي أن يكون، حيكي بقطبة أصغر».

لم تجب يوهانّا بشيء، وتركت ما يتم حياكته في حجرها من دون أن تلقي بالاً له.

«اجلس معنا» قالت الملكة، لقد افتقدناك في الكنيسة! ربما كانت الرحلة الطويلة هي ما جعلك تعباً على ذلك النحو يوم أمس، مما لم يمكنك من تحّمل النبيذ؟وأريد ألا آمل، بأنك ستعتاد الإقبال منذ الآن، على شرب الكثير من الخمر، أيها الأمير فيليب!».

هزّ بوسطن رأسه، و غمغم قائلاً «كما أنني لم آكل إلا قليلاً خلال رحلتي».

نظرت إليه الملكة متفحصة.

لم تبد يوهانّا مزاجاً للحياكة، وآمّي كانت تنظر إليه بترقب كبير.

«لماذا أمضيت الليلة قبل الماضية في الفندق؟ ولماذا لم تحضر إلى هنا، في الحمراء، مباشرة؟ ولماذا قمت بهذه الرحلة من دون مرافق، طيلة الطريق، قادماً من الشمال إلى هنا، حتى تسلمنا التقرير من الفندق بحقيقة تفيد، بأن صبياً لوحده فقط كان معك هناك متنكراً في ثياب مغاربي؟ فأين هو هذا الصبي الآن؟ ولماذا صرفته؟

أخذ بوسطن شهيقاً عميقاً، فمن خلف الملكة كان يمتد وادي فيغا العريض لغرناطة، وعلى كتف التل من فوق الوادي وغير بعيد من أسفل الخينيراليفي، كانت تلتمع أسطح الحمراء تحت أشعة نور الظهيرة، كما كانت ذؤابات الماء تنبجس من نوافيرها، وكان العصفور يواصل تغريده أيضاً.

«أنا»، همس بوسطن، «لقد صرفتهم لبيوتهم، لأنهم أزعجوني.

وقد أرسلني والدي من بورغوند من دون مرافقة، كي لا أثير الإنتباه

نساؤهم خابرْنَهُمْ على أجهزة الهاتف المحمول قائلات إن عليهم العودة للمنزل لأن طعام العشاء قد أصبح جاهزاً، كلا».

«لقد تمت مهاجمتنا أثناء الطريق»، همس بوسطن، بعدها اختفى المرافقون، وهذا الصبي فقط، بقي وحده معي، وقد قال لي، إن الأفضل أن يتخفى كلانا كمغاربيين ، فبذلك لا نكون ملفتين للنظر .

«هو من قال؟»، سألت الأميرة، «ألم يكن من الأفضل بالنسبة لك، أن تكون أنت من قدّم هذا الاقتراح؟ ألست أنت الأمير؟».

هزّ بوسطن كتفيه كمن لاحول له ولا قوة، «قد أكون أنا من فعل»، قال لها، «إنني لا أعلم بالتحديد، من اقترح ذلك»، ثم طوى كيس ظهره: وتحت قماشه تحسس هاتفه المحمول، وكتاب الدليل السياحي، وحافظة العملة المعدنية.

«إن توضيحك يذهلني» قالت الملكة، «والآن، أنت هنا. وفرديناند كانت أيضاً قد هاجمته عصابات اللصوص عندما قدم في طريقه إليّ، هذا يحصل، وأنا أصدقك، أيها الأمير الصغير».

ابتسمت الملكة، ولكن الأميرة، ماذا بشأن الأميرة، فكر بوسطن لنفسه. إنها تنظر إليه بشك، بل بشك كبير، فماذا ينبغي عليّ فعله، كي أقنعها هي الأخرى.

في هذه اللحظة قدم إلى الباحة، خادم قام بانحناءة شديدة.

«صاحبة الجلالة»، قال لها، ملقياً نظرة ذاهلة إلى بوسطن، قبل أن ينحني نحو الملكة. «أرجو المعذرة، لإزعاجكم، ولكن أمراً ما، أمراً ما غير معهود قد حصل».

«ليس من شأنك أن تقرر من لدنك ما هو الأمر غير المعهود!» قالت الملكة،

كانت نبرة كلامها قاطعة، «واجبك فقط، نقل الخبر فحسب».

هز الخادم رأسه بجزع، فأرخى نظره إلى الأرض.

«المعذرة، صاحبة الجلالة»، ردّ الخادم، «ولكن، حضر فارس للتو إلى هنا في الحمراء، ينقل رسالة إليكم من بورغوند، وهو يبلغكم، بأن الأمير فيليب قد مرض، لذا فإنه لن يقوى على السفر مطلقاً، ووالده يرجوكم تفهم ضرورة أن يتم تأجيل الخطوبة».

-16-

اختار طارق لنفسه أن يسير في الدرب الذي يؤدي للجنوب من ريو خينيل، وهو الطريق نفسه الذي كان قد سلكه الأمير راكباً من قبل، فالدرب الذي يمر عبر الخانق يسمح له بالتحرك على نحو أكثر أمناً، كما أن الثلج يكون قد ذاب في مثل هذا الوقت؛ إلا أن الطريق لا يمكن اجتيازها إلا بالاستعانة بدابة، والوقت قصير.

الحصان الأسود الذي أعطاه إياه مجهول من خلف بوابة المدينة، كان أسرع من أي حصان امتطاه من قبل، لم يتوقف بأية استراحة، وعندما حل المساء كان على وشك أن يصل إلى لانخارون، فمن هنا وما بعد، يمكنه الشعور بالاطمئنان أكثر، فالبُوخاراس كانت أرضاً مغاربية ، وهي آخر منطقة تراجعوا إليها، تم تركها للأمير من قبل ملوك أكلة لحم الخنزير كإمارة، في لفتة خجولة من العفو والمصالحة، إنها إمارة من الجبال الجرداء، والمنحدرات والدروب الوعرة والضيقة، الشديدة في مسالكها، جرى منحها له، لتكون نهاية مسيرة انسحابه مع جيشه.

ومع ذلك، فانطلاقاً من هنا سنستعيد وطننا، فكر طارق لنفسه، عندما التفت من تلك الأعالي يعيد فيها لآخر مرة إلقاء نظرة على المدينة، قبل أن يتغلغل في طريقه بين الجبال، يمكنني أن أقول لأبي عبد الله، بأنه أصبح لدينا الآن ما يكفي من الذهب، سأعطيه الكيس المليء بالمارافيديس، التي تمثل

الدفعة الأولى، سأحدثه عن الرجال الموجودين في كل مكان، الذين ينتظرون فقط، لأجله ومعه، كي يواجهوا الملوك الكاثوليك، ورجال محاكم التفتيش، باسم الله وباسم كل الأنبياء: سنستعيد مملكة غرناطة لتكون لنا من طريفة في الغرب إلى ألميريا في الشرق، ومن مالاقا على الساحل حتى الجبال فيما وراء غرناطة عند أقدام سييرا.

في الشمال من خلفة، يتمدد الفيغا، كما تنبسط هناك بساتين الحمضيات والزيتون؛ التي بدت كسهل تم ترقيطه بفرشاة من الألوان، كما تظهر أيضاً البساتين الواسعة للعزبات المنتشرة هناك، ولسعف النخيل التي ترتفع فوق الأسطح، ومن ورائها جميعاً، هناك بعيداً في الأفق، كانت المدينة[1].

زمّ طارق عينيه، كانت غمامة تحجب الرؤية، وكان من الممكن أن يخطئ في تقديره، ولكنه كان فعلاً على يقين، أن الغمامة كانت دخاناً يتصاعد من حريق كبير.

همز حصانه، وقبل أن تحترق غرناطه كلها، كان عليه أن يقنع الأمير، فأبو عبدالله لا ينبغي له أن يسمح بما يحصل في مدينته، وطارق كان على ثقة، فالطفل وحده يمكنه أن يقبل التصديق، بأن هذه ليست سوى البداية.

مص لسانه، سيبيت في لانخارون، وسيطلع الأمير غداً بأنه لا يتوفر عدد كافٍ من الرجال فقط، بل وكذلك ما يكفي من القطع الذهبية أيضاً من أجل السلاح الذي ينتظره، لطرد أولئك الملوك من غرناطة.

بقيت الملكة صامتةً، حتى قدوم الفارس القادم من بورغوند إلى الخينيراليفي، ولكنها كانت قد حدجت بوسطن بنظرتها، التي لا يمكن تأويلها، أما الأميرة فقد ابتسمت لأول مرة.

---

(1) المقصود هنا مدينة غرناطة (المترجم).

حاول بوسطن الحديث للملكة في إحدى المرات، إلا أنها كانت قد رفعت يدها مشيرة له كي يصمت.

«صاحبة الجلالة...!»، رجاها بوسطن، قبل أن يكتم نفسه عن الكلام.

فماذا كان سيقول لها؟

يؤسفني، لقد كان هذا مجرد التباس، ففي حقيقة الأمر أنا لست سوى مسافر إليكم لوهلة قصيرة من القرن 21.

لن تصدقه الملكة، أما الأميرة فمن المفروغ منه أن لا تصدقه إطلاقاً.

سيمسكون بكيس ظهره، عندما لن يتمكن من تقديم تبرير مقنع لهم، يوضح من يكون هو في الحقيقة، وسيفتشون في كيس ظهره عن دليل قد يجدونه فيه.

«***لا تدع أحداً يرى تلك العلبة الصغيرة، أو تُري أحداً الصور، أو تجعل الموسيقى تصدر عنه***»! قال له طارق. «***يا ألله! سيقولون إنها آلة شيطانية! وسيقولون إنك حليف إبليس!***».

وماذا سيظنون بعد ذلك أيضاً؟ كانت الأميرة تراقبه، وبالطبع هي فرحة لما يحصل، فكر بوسطن، فهي لن تكون مجبرة على الزواج منه، ولن تتردد لحظة واحدة، في إرسالي للمحرقة، إن كانت الأمور ستسير في هذا الاتجاه،

وبالنسبة إلى توركيمادا فكل هذه براهين، فإن اكتشفوا ذلك الصندوق الصغير معك، فسيتم حرقك.

«هذا هو الرسول!»، قالت الملكة.

بدا الرجل الذي وطئت قدمه الباحة الآن، وكأنه غير قادر أكثر على الوقوف على قدميه، ويبدو أنه كان يركب حصانه نهاراً وليلاً إلى أن وصل إلى هنا، كان شعره معفراً بالعرق والتراب، ووجهه كان مرهقاً،

وعيناه تبرقان.

ركع أمام الملكة على ركبتيه.

«المعذرة، صاحبة الجلالة، لأنني أقف أمامكم على هذه الحال... «قال مغمغماً.

«إلا أن خادمكم».

ابتسمت له الملكة برقة، «إن خادمي كان قد أعلمني من أين أنت قادم»، قالت الملكة، أما عصفور الكناري فلم يكن يكف عن التغريد، «انهض واجلس بجانبي، لا بد أنك منهك القوى».

انحنى الرسول على نحو غير معهود.

«والآن، بودي أن أسمع منك مباشرة، ما جعلك تحضر إلينا في مثل هذه العجلة، »، قالت الملكة، «ولماذا أرسلك سيدك القيصر مكسيميليان إلينا؟».

أصبح تنفس الرسول في هذه الأثناء أكثر هدوءً.

«لقد انتظر القيصر طويلاً»، قال الرسول، «إذ كان لديه الأمل حتى آخر لحظة، بأن يتعافى ابنه، ويتمكن من عقد الخطوبة، كما تم الاتفاق بين بلاطيكما. ولكن الأطباء... »، ثم توقف هنيهة.

«وماذا بعد؟»، سألت الملكة.

«إلا أن الحرارة عادت للآرتفاع»، قال الرسول، «وأصبح أميرنا الجميل في حالة من الإنهاك المضنية فوق وسادته، وأسنانه أخذت تصطك مع بعضها، وأخذ يرتجف، مع أن مرضه جعله مثل جمر من النار المتقد! وأصبح الأطباء عاجزين عن فعل أي شيء، وخلال الحمى التي أصيب بها كان يهذي بأمور لا معنى لها، وبلغ الأمر أنهم استدعوا كاهناً لمناولته القربانة المقدسة الأخيرة».

«إنها غرابة مفرطة لأقصى الحدود»، قالت الأميرة بمودة. وأبقت على ابتسامتها، التي لم يرها بوسطن تبتسم بمثلها من قبل.

وفكر بوسطن متفاجئاً، بأنه ربما يمكن للمرء حتى أن يميل إليها.

«ليست هذه هي الغرابة المفرطة، صاحبة السمو»، قال الرسول ذلك وانحنى باتجاهها، «شدة الغرابة بالنسبة لمرضه ليست شيئاً يذكر! فالأمير امتطى حصانه في صباح اليوم الباكر أثناء المطر والعاصفة، وفي المساء فقط قفل عائداً، يرتعش مقروراً من البرد! على الرغم من أن طبيبه كان قد أخبره مسبقاً، أنه سيدفع غالياً لقاء تهوره ولا مبالاته بالنسبة لمرضه والحمى التي أصابته».

«إن أميراً لا يهاب العواصف هو في غاية الروعة، بل هو مدعاة للسعادة، فذلك المتهالك الضعيف، هو ما لا يمكنني أن أتمناه لابنتي»، قالت الملكة، وهي ترمي بالتفاتة سريعة نحو بوسطن.

زمّت يوهانّا عينيها الاثنتين، «لم أقصد ***بالغرابة***، أيها الرسول، ما يتعلق بمرض خطيبي، فالغرابة أقصد بها أكثر من هذا بكثير، وهو أن الأمير.. «ثم نظرت مباشرة لأول مرة في عيني بوسطن، وتابعت»، ... مقيم معنا منذ يوم أمس».

بدت على الرسول علامات الذهول.

«هذا أمر مستحيل»، هتف قائلاً، «هذا غير معقول! فسموه كان قد تعافى عندما تركت بورغوند، إلى حد أعطانا أطباؤه الأمل بشفائه العاجل تماماً، إن لم يعمد الأمير إلى مغادرة مضجعه مرة ثانية قبل الأوان! وهو ما دفع والده لتكليفي بمهمة القدوم إليكم، لنقل أسفه الشديد إليكم، وأنه فور تعافي الأمير بشكل كامل، سيحضر إليكم هنا في غرناطة لطلب يد ابنتكم.

فالأمير، وحتى مع كل الحمى المتجمرة التي كان يعاني منها»، ونظر إلى يوهانّا باستعطاف، «فإن أنفاسه المتنهدة كانت لكم، أيتها الأميرة».

أطلقت يوهانّا ضحكة ساخرة، «وهو ما تقتضيه الأصول»، قالت ذلك وأحنت رأسها قليلا.

هي لا تريده أيضاً، فكر بوسطن لنفسه مشدوهاً، هي لا تريدني، كما لا تريد الأمير الحقيقي في جميع الأحوال أيضاً، ولكنه أمر لا يدعو للعجب في الواقع.

«والآن، أيها الصبي»، قالت الملكة، مشيرة إليه، بعد أن كانت سمعت، ما ينبغي سماعه، «ماذا تقول بذلك؟».

كان بوسطن مدركاً أنه لا يوجد توضيح يمكن أن يقنع الملكة ويجعلها راضية، ولكن ليس بوسعه أن يستسلم أيضاً.

«محتال، صاحبة الجلالة، إنه محتال»، قال بوسطن ذلك مشيراً إلى رسول بورغوند، لقد حاول أن تبدو رنة كلامه مغضبة، يا لهذا الآفتراء. «من قال إنَّ هذا الرسول مرسل حقيقة من ملك بورغوند؟ هل يوجد برهان على ذلك؟ إن من لديه ما يثبت ذلك، عليه أن يقدمه!».

لقد اندهش هو نفسه لوقاحته، فيا للذكاء، إذ كاد على وشك أن يصدق نفسه.

«يا للفكرة الذكية!»، قالت الأميرة بدورها وزمّت شفتيها، «دعنا نطرح السؤال الآن بكيفية أخرى، هل لديك أيها الصبي، البراهين التي تثبت أنك أنت الهابسبورغي؟ قالت له ذلك وهي تشير إلى كيس ظهره، «ربما يوجد هنا السبب في أنك لم تتخلَّ لحظة و احدة عن التعلق بالكيس المقزز مرة واحدة، منذ أن وطئت قدماك الحمراء؟ أيوجد بداخله ما لا يمكن تصوره من

الهدايا الملكية التي ستقدمها محتفياً بي؟ أم هل بداخله ختم بورغوند؟ دعنا نرى ما تحمل لنا بداخله! وبذا يمكن الحكم، مَنْ مِنْكُما يقول الحقيقة: هل يقولها رسول القيصر، أم أنت».

هزت الملكة برأسها، فيما كانت آمّي تنظر بلهفة كبيرة.

دفع بوسطن بالكنبة التي يجلس عليها، وفرّ راكضاً من المكان.

-17-

أن يكون قد غرق في غفوة من النوم، هو ما لم يشعر به بابلو إلا مع تصاعد الهياج، الذي واكب سماعه للضوضاء التي كانت تدور فوقه مع الهرولة والصراخ، التسامح، مع من ينام أثناء الحراسة غير وارد.

نظر إلى فوق إلى حيث الخينيراليفي، التي دخل إليها قبل وقت قصير خادم مع الصبي، الذي قيل عنه، بأنه أمير بورغوند؛ تلاه بعد ذلك خادم آخر مع رسول القيصر.

كانت الخطوات تقترب نحوه أكثر، وكان يرتفع وقعها على حصى الطريق، وترتفع معها أصوات صارخة، وعلى مبعدة خمسين خطوة من مخرج عطفة على الطريق، ظهر فجأة الأمير الفتى بعينين واسعتين، كان يجري بسرعة، بحيث كانت الحصى تنزلق من تحت قدميه، كان يعدو كما لو أن الشيطان نفسه قد علق على عقبيه ويلحق به، كان يجري ومعه ذلك الكيس الغريب المعلق على كتفه، وعلى وجهه يحمل اليأس والرعب.

كان بابلو مدركاً لواجبه، ومن حسن الحظ أنه استيقظ في الوقت المناسب، لذا قفز من مكانه إلى عرض الطريق، رافعاً سيفه.

ومن وراء الصبي سمع الأصوات ترتفع أكثر، ولكنه لم يلتفت للكلمات الصارخة.

أوقفوه!

أمسكوا به!

اقبضوا على الصبي!

سينال مكافأة، وربما سيُسمح له بالعودة مبكراً لمنزله، فكم ستندهش فتاته، عندما سيقف فجأة أمامها.

«أمسكوا به»، وقد فهم الآن معنى النداءات التي كانت تصرخ من خلف الصبي.

لقد أصبح الفتى أمامه الآن، كان قد رفع رأسه عالياً، ويبدو أنه قد انتبه الآن فقط، بأن عائقاً يقف في طريقه، فربما كان انتباهه منصرفاً قبل ذلك وحتى الآن، إلى الجلبة التي كانت من خلفه فقط، وكان همه، أن يفلت من أولئك الذين يطاردونه، ولكن فجأة، جاءه الخطر الآن من الأمام.

لقد كان بابلو جندياً، وكان قد قتل رجالاً في المعارك، كما كان يعرف معنى تلك النظرة التي كان الصبي ينظر إليه فيها، إنه ذلك الفزع غير المحدود، الذي كانت تغذيه معرفته بأنها هي النهاية، وبأنه لم يعد له من مفر بعد الآن. كما لم يكن في نظرة عينيه أي أمل، سوى نداء واحد فقط هو طلب الرحمة في إتاحة الهرب.

لقد قتل بابلو رجالاً، ممن كانوا قد نظروا إليه هكذا في اللحظة الأخيرة من حياتهم؛ رجالاً ممن كانوا قد رفعوا سيوفهم في وجهه، إلا أن هذا الصبي لم يكن يحمل سيفاً.

«أرجوك!»، همس الصبي، ورأى بابلو أنه، كاد يستنفد طاقته، وأنّه على وشك أن ينهار قبل أن تجتاز قدماه مرتفعات الحمراء، وأن حارساً آخر قد يمسك به.

فليمسك به حارس آخر غيره.

انزاح بابلو خطوة صغيرة إلى جانب الطريق، وصرخ عالياً: «هاه، ستنال عقابك»، ولكنه رأى نظرة متعجبة غير معهودة في عيني الصبي.

لقد جرى الصبي مسرعاً، وفي الوقت الذي ألقى بابلو بنفسه على الأرض، كان الصبي قد اختفى.

«اوه، أوه، أوه» تأوه بابلو وأمسك بركبته، تجاوزه أحد الخدم، من دون أن يلتفت إليه، ثم ثانٍ، كانا يصرخان وينا ديان الحرس التالي الذي على الطريق، ليعترضه ويمسك به.

أسقط بابلو نفسه على الأرض كما لو كان يتألم. «أوه، أوه، أوه!»، وراح يتأوه من الألم، الخطوات التالية للوصول إلى الخنيراليفي ما زالت بعيدة، والتحرك ببطء سيكون أسهل له، عليه أن لا يكون عديم الحيطة، «رجلي، أوه، رجلي!».

حضرت الأميرة متأخرة لحظة قصيرة، واجتازته قادمة من الأعلى إلى الأسفل، ممسكة بتنورتها الحريرية، أليس من السخرية أن يظن بأنها كانت تبتسم.

أسند بابلو ظهره إلى شجرة وهو يمسك بركبته، فحتى لو لم يعد يسمع ضجيجاً من الأعلى، فلا يمكنه مع ذلك أن يكون مطمئناً، بأن أحداً لا يراقبه.

لماذا فعل ذلك؟

لم يكن الفتى يحمل سيفاً.

ستدفع ثمن ذلك، بابلو، هل إن فتى غريباً أغلى منك أنت نفسك؟

لم أفكر بالأمر، لم أفكر ولو لثانية واحدة أبداً، وربما انتظرت سنين طويلة من أجل هذه اللحظة.

أغمض عينيه، ماذا حصل لهذا العالم؟وأي زمن هذا؟ أيتها العذراء مريم، يا والدة الإله ارحميني.

تنفس بوسطن بصعوبة، ومن فوقه، من بين أعالي ذرى أشجار الصنوبر، كانت الشمس ترسم فوق وجهه أطيافاً جميلة من الضوء والدفء، وكان في تغريد عصفور يأتيه من بين الأغصان، ما يذكره بعصفور كناري الملكة الذي كان بداخل قفصه في الخينير اليفي، بتغريده الضعيف والمكتوم، كل شيء عاد إلى الحال الذي كان عليه قبل قدومه في وقت غير محدد من الآن، وفقط، خوفه الآن، هو غير ذاك الذي كان من قبل.

ولكنه لم يعد قادراً على الجري، وهو يريد أن يستريح هنا في الغابة لوهلة قصيرة فقط، في حين أن وقع الخطى والصخب ظلَّ يقتحم سمعه، أما هو فكان يسعى فقط ليأخذ قليلاً من الراحة.

«وماذا بعد؟».

«عليّ الإمعان في التفكير، فلا يجوز ارتكاب أي خطأ، ***فبالنسبة إلى توركيمادا، يصلح كل شيء ليكون برهاناً. يمكنني ترك كيسي هنا***».

«ولكن ماذا سيحصل، لو أنهم عثروا عليه فيما بعد أثناء بحثهم؟ فكل واحد في الحمراء يعلم من يخص هذا الكيس، ***فإن عثروا على علبتك، سيتم حرقك***».

أو أنه يستطيع التخلص من هاتفه المحمول، ولكن سيكون أيضاً موضع شبهة من حيث إنه هو مالك هذا الجهاز، ***سيقولون، إنه أداة شيطانية. وسيشكّون، بأنك في تحالف مع الشيطان***، ولكن، لا يمكنه الاستغناء عن هاتفه المحمول على أي حال، فمن الذي يستطيع أن يقول إنه لا توجد هناك إمكانية، سيان، أن تكون أية إمكانية.

فلاحقاً، هناك في الأسفل عند البوابة سيتم القبض عليّ. فإلى المدينة، لا يوجد طريق بديل آخر، ثم كيف سأتمكن في يوم ما عبور تلك البوابة.

ستحرق.

من فتحة طريق ضيق بين الأشجار، أخذ يسمع صرير عربة، تقرقع بعجلاتها من فوق حصى الطريق، يجرها حمار، وبجانب الحمار كان يسير رجلٌ متعبٌ يرتدي لباساً مغاربياً، أمسك بوسطن بكيس ظهره بقوة.

بقي البستانيون الذين كانوا يعملون فوق في الحمراء منذ أيام الأمير، هم أنفسهم، إذ لم يكن أحد قادر على العناية بالحدائق مثلهم، وليس من أحد مثل المغاربيين يعرف التعامل مع الماء والنوافير كما يفعلون هم، لم يكن لديه خيار، فقط بضع خطوات للوصول إلى الممر المؤدي إلى الطريق.

«أرجوك!»، همس بوسطن «أرجوك!».

تصنع الرجل عدم سماعه، كما تصنع حتى عدم رؤيته.

إلا أن الحمار أخذ يبطيء في سيره، إلى حد كادت معه العربة أن تقف في مكانها، وفقط، وبعدما تسلل بوسطن تحت الأغصان المقطوعة، وأشواك العليق، وبعض الدغيلات المزهرة، التي كانت فوق العربة حيث اختفى تحتها، عاد الحيوان الذي يجر العربة إلى سرعته السابقة.

إلى أن توقف تحت عند بوابة الخروج من القلعة حيث اعترض الحرس العربة هناك.

«ماذا لديك أيها المسلم؟»، سأل الحارس الشاب، أما زميله فظل جالساً على الأرض، حيث ما زال كوب اللعب بالنرد بين يديه، «هيه، خوان! انتظر إلى أن أعود إليك ، لعبك لا يحتسب إن لم أكن حاضراً وأرى بنفسي!» أمسك بكتف المغاربي وسأل: «ماذا تحمل معك من القلعة؟».

«ألا ترى؟»، قال المغاربي ذلك وهو يلمس الغصن الأعلى، «أغصان وأوراق شجر وأشواك عليق وحطب جاف من حدائق الحمراء! أم هل تظن أن حكمة جلالتها العظيمة تريدنا، أن نحرق هذه النفايات على تلتها التي فوق، وتحت عيون الناس هناك ؟ أم تظن أنهم يبغون تنشق دخان الخشب الرطب؟ يا ألله، يا لكم من بشر أنتم المسيحيون؟ ألا توجد حدائق في قصوركم؟ إنني أنقل حطباً جافاً إلى خارج القلعة، ولخارج المدينة، أيها الجندي، حيث ستحرق في المكان المخصص للحريق في الجهة الأخرى من أسوار المدينة».

كان الجندي الحارس نافد الصبر خلال حديثه مع الرجل المغاربي، إذ كان منصرفاً للنظر إلى رفيقه في معظم الوقت، «إنني أراك من هنا كيف تحرك النرد»، قال لرفيقه، «خوان، أيها المحتال، لا تظن أنني لا اراك!»، ثم استدار نحو المغاربي، «وأنت تتحدث إلي بمثل هذه النبرة!» قال الحارس للرجل المغاربي» ثم أخذ يرفع برأس سيفه بعض أشواك العليق من غير رغبة، وينكش بسيفه فروع الأغصان المحملة على العربة، حبس بوسطن أنفاسه، فبجانب ذراعه كان قد مرّ سيف الجندي وهو يعبر من خلال الأغصان. «والآن، يبدو أن كل شيء على مايرام، افسح له الطريق، أيها الرفيق!» ثم ألقى بنفسه على الأرض الرملية إلى جانب رفيقه الحارس الآخر، وانقض على كوب اللعب بالنرد، «هكذا، والآن يمكنك أن ترمي نردك، أيها المخادع!».

«هل فحصت كل شيء، كاماراد[1]؟» سأله الجندي الذي كان يقوم بإدارة عارضة الحاجز على بوابة القلعة، ورفعها للأعلى، «أنت تعلم أنَّ فتى أشقر قد هرب!».

(1) رفيق أو زميل في الجيش. (المترجم)

«هل يبدو على هذا المغاربي أنه يشبه فتىً أشقر؟» ردّ عليه الجندي الحارس وهو يرمي بالنرد من بين أصابعه، «والآن خوان، أنت تتعجب، أيها الوغد!».

أخذت العربة تهتز وهي تسير عبر البوابة، بعد أن تم إنزال الحاجز من خلفها، فالآن فقط، عاد قلب بوسطن لينبض من جديد، وليست إلا شوارع قليلة تالية بعد ذلك داخل المدينة، حتى أوقف المغاربي حماره.

«نعم، يا حماري الشجاع»، كان كلام المغاربي عالياً، بحيث خشي بوسطن أن يكون الحمار أراد أن يقوم بوثبة فيجر العربة معه، «وهكذا نكون قد خرجنا من بوابة قلعة الحمراء، فكم كان آكل لحم الخنزير غبياً، ليصدقني، بأن خارج المدينة يوجد مكان للحريق! عليّ أن أجد مكاناً أفرغ فيه هذا الحمل، حيث كنت مزمعاً حرقه في منزل الجنائني في *المدينة*[1] فإعادته إلى القلعة ثانية لم يعد أمراً مستطاعاً الآن».

أمسك بوسطن أنفاسه، إذ كان يدرك أن المغاربي كان يوجه الكلام إليه، ولكنه لا يريد مخاطبته مباشرة.

«سأترك عربتي للحظة»، قال هذه المرة بصوت مرتفع، مما دفع الحمار بسبب ما أصابه من هلع، لأن ينهق بصوت مرتفع، بدا مضحكاً *إهأ! إهأ!*، الأمر الذي دفع بعض الناس للالتفات إليه، «نعم، نعم، سأترك عربتي للحظة واحدة الآن».

استوعب بوسطن ما يرمي إليه كلام المغاربي، وبحرص ورفق شديدين، حتى أنه هو نفسه لم يكد يسمع تقصف الأغصان من حوله، تسلل من العربة.

---

(1) المدينة– Medina كما ورد في الأصل، هي مدينة مقامة ضمن نطاق قصر الحمراء مخصصة لتكون فيها أبنية الخدمات والمساكن التي يقيم فيها من يخدمون في القصر.

كانت ذراعاه مخدوشتين، وعلى وجهه خطوط واهية من دماء جافة، ولكن هو نفسه لم يشعر بأي ألم، زحف منحنياً إلى أول منعطف، إلا أنه وقبل أن يختفي في الزقاق التفت للوراء مرة أخيرة.

«شكراً»، همس بوسطن.

«كم هو جيد أن تعود إلى لياقتك من جديد، يا حيواني الطيب»، قال المغاربي ذلك وهو يخدش بنعومة جبين حماره، «والآن، علينا مواصلة سيرنا مرة أخرى».

«وماذا أيضاً؟»، سأل القائد.

كان بابلو قد وقف أمامه منكس الرأس، «ما كان ينبغي لما حدث معي أن يحدث» غمغم، كانت جدران غرفة الحراسة مطلية بالكلس الأبيض، وكانت البرودة منعشة.

«كيف؟»، سأل القائد، «انظر إليّ عندما تتكلم، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ صبي مجرد من السلاح فيما أنت تحمل سيفك؟».

«كان يحمل حجراً كبيراً بيده، سيدي القائد»، قال بابلو، لقد رمى به على ركبتي، لقد ظننت لأول وهلة أن عظمي قد تشظى، وقد ارتميت على الأرض، وفي هذه الأثناء كان قد مرّ من أمامي، لقد كان الألم هائلاً، سيدي القائد».

هزّ القائد برأسه مشككاً، «الركبة، هنا؟»، سأل القائد وهو يشير إلى ركبة بابلو اليسرى، التي كان هذا قد أمالها قليلاً، مستنداً في الوقت ذاته إلى عصا غليظة.

«هزّ بابلو رأسه، «نعم، سيدي القائد» أجاب بابلو، «إلا أنها لا تبدو الآن، بذلك السوء. لقد دهنها لي رفيقي بمرهم».

جسّ القائد الركبة بيده متأملاً. «ولكن كيف تهيأ لي، عندما جئت أنت إلى هنا، بأن الألم هو في الركبة اليمنى، يبدو أنني، كنت مخطئاً».

«إنها الركبة اليسرى، سيدي القائد!» قال بابلو، «إنها الساق اليسرى بالتأكيد!».

«يبدو لي أنه من الصعب أن يخطئ المرء في مثل هذه الأمور»، قال القائد وهو يحفر بناظريه في عيني بابلو، «قد يكون ما تقوله صحيحاً، ولكن في المرات القادمة على أي حال... »، وأشار بحركة مهددة، «فلن يعنيني اي عذر ولن يكون الأمر سيان، لقد كنت جندياً جيداً على الدوام، ولن أعاقبك على إهمالك».

نكّس بابلو رأسه.

«ولكن، يبدو لي أنك بركبتك المصابة، لن تكون مفيداً على النحو المطلوب منك كجندي في الوقت الراهن! يمكنك أن تحل محل حارس السجن، فهناك في الأسفل لن تحتاج للمشي، هناك الأبواب مغلقة، وفي السجن لا يطلب منك سوى أن تقف وتراقب، فلا أحد يحفر الجدران بأظافره»، ثم ضحك، «إنه المكان الملائم لمن هو معوق مثلك».

«شكراً لك، سيدي القائد»، رد بابلو، محاولاً الوقوف على ساق واحدة وهو يؤدي التحية، وعندما غادر الغرفة، ظل متنبهاً، كي يواصل العرج على ركبته الصحيحة.

-18-

أن يعود *للفندق*، فهذا ما لا يمكنه فعله، إذ من الممكن أن يتعرفوا إليه هناك، فإلى أين سيذهب إذن؟ ليس من أحد يعرفه في المدينة، ولكنه أصبح حراً.

أستند بوسطن إلى أحد الجدران، كان ذلك مثل أعجوبة، لقد أصبح حراً، وقد أعانه ثلاثة أشخاص على الفرار.

إن وجوده لدى المغاربيين في الوقت الراهن ليس أمراً مستغرباً، فكر بوسطن في نفسه، إن المغاربيين يكرهون الملكة، ومن هو عدو الملكة، فهو بالتالي صديقهم، وأن يكون المغاربي قد قام بتخبئتي فوق عربته، هو أمر يمكن إذن فهمه، إنه لم يفعل ذلك من أجلي، بل كان ذلك يمثل ثأره من المسيحيين.

ولكن ماذا بشأن الجندي على الجبل؟ ولماذا تنحى الجندي قافزا إلى جانب الطريق؟ ولماذا أتاح له إمكانية المرورعلى الطريق من أمامه آخذاً على نفسه تحمل خطر الملاحقة و نيل العقاب؟

وسلوك الأميرة كان الأكثر تميزاً من بين الجميع، فلماذا ساعدته الأميرة؟ لقد فعلت ذلك، فلولا الأميرة لما نجا.

أم أن ذلك كان محض صدفة؟ أو غباء؟ إلا أن الأميرة لم يبدُ عليها الغباء والرعونة، فلماذا وثبت إذن أمام قدمي الخادم، وللصدفة، في نفسها اللحظة التي كاد فيها الخادم أن يقبض على بوسطن؟ولماذا كانت تجري منزعجة

يميناً ويساراً عندما جرى الخادم الثاني فلم يتمكن هذا أيضاً من رؤية طريقه وتجاوزها إلا بصعوبة؟

فمن دون الأميرة لم يكن بمقدوره بكل الأحوال مغادرة الخينيراليفي، حتى وإن ظلت تصرخ بعد ذلك عالياً «أمسكوا به»، فلماذا تركته يفلت منها، إن كانت تعلم بوقت مبكر قبل ذلك، أنه ليس الأمير فيليب، الذي كانت تعتزم الزواج منه، وأن لا خطر منه؟

كانت سيدة محجبة قد تجاوزته، ممسكة بسلة في يد، وطفلاً باليد الأخرى. كان الطفل يبكي ويحجم عن المتابعة، فيما الأم توبخه، والبعض منهن لا يختلفن عما يراه من أمثالهن في بلده، فكر بوسطن في نفسه.

وطالما أنني لا أعلم كيف سأعود، عليّ أن أفكر جيداً كيف سأتمكن من الاختباء كي لا تصل إليّ الملكة، ولكن أين، فأنا لا أعرف أحداً هنا غير طارق، الذي اختفى.

كان يهودي عجوز محني الظهر بسالفين مضفورين يمر في الزقاق، بالطبع! إنه يعرف واحداً هنا، نعم إنه يعرف شخصاً في غرناطة، إلا أنه واحد يبحث عمن يحميه من الملكة كما هو حاله، ربما يستطيع اليهودي تخبئته.

كانت الأزقة متشابهة، يشبه كل واحد منها الآخر، «إلى رياليخو؟»، سأل بوسطن، فابتسم له العجوز، «إذ ربما ظن أنني يهودي مثله»، فكر بوسطن في نفسه. «فواحد من أكلة لحم الخنزير لن يدله على الطريق بمودة».

و في رياليخو سأل هناك عن إسحاق، لكنه لم يستوعب معنى الهلع الذي الذي كان يعلو وجوه الجميع لوهلة قصيرة، فور نطقه بالاسم؛ ومنذ دخوله الزقاق، كانت ما زالت تفوح منه رائحة الحريق.

«كلا!»، قال بوسطن لنفسه.

فحيث كان يوجد المنزل، وحيث قادته تلك الخادمة الشابة مع طارق عبر البوابة إلى الداخل، لم يبق الآن سوى أنقاض بقايا محترقة سوداء، عوارض متفحمة ترتفع في الهواء، ومن تحت الأسقف المتداعية لم تُبْقِ الحرارة سوى مسحوق ناعم من رماد الحجارة المتهشمة.

ما كان على اليهودي أن يتحدث مع الجنود بمثل تلك النبرة، فلماذا لم يتزلف لهم، كان ينبغي عليه أن يعلم أنَّ مثل هؤلاء الناس ينتقمون، بل هم ينتقمون دائماً.

خرجت سيدة شابة من أحد المنازل إلى الزقاق تريد تجاوزه منحدرة باتجاه الأسفل، إلا أن بوسطن سرعان ما توجه نحوها، ممسكاً بذراعها.

«هل هذا هو منزل إيزاك؟»، سأل بوسطن المرأة مع أنه كان يعلم ذلك من قبل.

«لقد كان منزل إسحاق»، أجابت المرأة، ولم يكن من حاجة بها لأن تنفض ذراعها للتخلص منه، لأنه كان قد تركه قبل ذلك، «والآن، فنحن نعلم، أنه ينتظرنا بالتأكيد، ما هددونا به، فهناك شائعات تقول».

ثم خرجت طفلة من باب المنزل نفسه وأخذت تنظر إلى بوسطن بفضول، إلا ان المرأة نهرتها بإشارة من يدها لتعود للمنزل..

«شائعات»، سأل بوسطن هامساً بصوت خفيض.

نظرت إليه المرأة بتأمل ثم قالت لبوسطن: «الآن، توجد شائعة واحدة تقول، إنَّ إسحاق أراد تخطي الحظر الذي قررته الملكة، بمنع اصطحاب الذهب والفضة إلى خارج البلاد، وبأنه لذلك».

وشبكت يديها أمام عينيها.

«ربما كانت تلك هي الحقيقة!»، همست المرأة، «وقد جاء الجنود قبل

ذلك لمنزله وقاموا بتفتيشه، قبل أن يقوموا بإحراقه، لقد أخرجوا أكياساً نقلوها لخارج الدار، لا أحد يعلم ما يوجد بداخلها!».

ثم أمعن بوسطن النظر إليها من جديد، وقد بدأت نبرة صوتها تتصلب، «لهذا فنحن هنا لن نخالف الأوامر الملكية، ولذا فإننا نحزم أمتعتنا»، قالت لبوسطن «حزم أمتعة! ولكن ماذا بقي للمرء من الأمتعة ليحزمها، إن كان لا يستطيع أخذ شيء معه؟سنغادر رياليخو، وسنغادر وطننا، جميعنا نحن الذين في هذا الزقاق، ولن نبقى لننتظر المصير الذي حَلَّ بكل من إيزاك وإبنه».

«ماذا حدث لهما؟»، سأل بوسطن. «وأين هما الآن؟».

«لقد أخذهما الجنود معهم»، قالت المرأة، «ما من أحد يعلم، إن كانا ما زالا على قيد الحياة أم لا، إننا نحزم أمتعتنا!»، قالت المرأة ذلك ثم اختفت في متاهة الزقاق.

خر بوسطن فوق ما تبقى من أحد الجدران، كانت رائحة الدخان تفوح من كل ما حوله.

لقد قام الجنود بإفراغ محتويات المخزن من السلع ثم أضرموا فيه النار، وعلى يهود غرناطة أن يبحثوا الآن عن موطن جديد لهم، من دون أن يكون بحوزتهم ما يملكونه من أجل البدء من جديد، ولكن ماذا سيعني كل هذا بالنسبة لمقاومة طارق؟ ومن أين سيحصل المغاربيون على الذهب اللازم لمقاومتهم؟

بالنسبة لبوسطن كان كل هذا غير ذي شأن، إنه لا يعرف الآن أحداً في غرناطة.

أدارت يوهانّا ظهرها إلى آمّي.

«دعيني لوحدي»، قالت لها من النافذة. «سأفعل ما أريد، وعدا عن

ذلك، فأنا لم أفعل شيئاً».

«لقد بدا الأمر يا غزالتي الصغيرة!» قالت آمّي، «وكما تعتقد أمك، أنك تركتِ ذلك المحتال يفلت عن سابق قصد! إنها منزعجة لأبعد حد، قد يكون مخبراً للمغاربيين، والآن لم نعد نعلم من يكون، ولماذا تسلل إلينا، فربما التحق منذ أمد بعيد بمن أرسلوه، سيان من يكونون، وأنه قد يكون وشى لهم بما قد اكتشفه، هذا هو ما تعتقده الملكة».

«إن الملكة تفترض الأسوأ!»، قالت يوهانّا التي كانت منثنية على النافذة، كانت فترة ما بعد الظهيرة تقترب من النهاية، والسماء بدأت تتلون، ثم تابعت يوهانّا كلامها: «وماذا لدى الصبي كي يبوح به؟ لقد كان طيلة الليل ثملاً!».

«قد يكون ذاك خديعة»، ردت عليها أَمّي، «انظري إلي جيداً، يا ضوء قمري! إنه يتحايل بالسكر كي يتمكن بسهولة من مغادرة غرفته! ومن أجل أن لا يكون الحرس متيقظاً بما فيه الكفاية! هذا ما تظنه أمك».

«أخ، هراء!»، قالت يوهانّا، ثم استدارت الآن نحو آمّي، «كان خائفاً وغبياً، كما كان ساذجاً! ثم إنه ما من مرة أرسل المغاربيون من هو عديم المهارة، وأبلَهَ كجاسوس مثل هذا».

«ولكن خطيبك يبدو مشابهاً له»، قالت آمّي، «ولهذا السبب جرى اختياره كجاسوس، فمن المعروف للجميع، أننا كنا بانتظار قدوم الأمير، ولم يكن إيجاد صبي شبيه أمراً سهلاً بالنسبة لهم، واحد مثله في قلب الحمراء، يتسلل بنفسه إلى أقرب دائرة للأسرة المالكة! هذا ما تظنه».

«... أمي»، قالت يوهانّا، وبداخل صدرها كانت تستشعر وجود تلك الوسادة الصغيرة البيضاء، ذات الأطراف الحادة.

أومأت آمّي بالإيجاب، «أما الآن، فالملكة تظن بأن المغاربيين قد خططوا لانتفاضة، فمن يعلم؟ فهي قد لا تكون آمنة عن قريب حتى هنا في القلعة».

«يمكنها أن تظن كما تشاء»، قالت يوهانّا، «ثم ما علاقتي بهذا؟ فخطيبي بعيد في بورغوند، وبالنسبة للآخر، كائناً من يكون، ليس لي ما أفعله معه».

«ولكن بدا الأمر، وكأنك... »، قالت لها آمّي من جديد.

«لا تكون الأشياء دائماً، كما تبدو ظاهراً... »، قالت يوهانّا، ثم تابعت، «لقد ظننت، أنك حصيفة وحكيمة، آمّي؟ والآن يكفي هذا!».

هزت آمّي كتفيها غير راضية وانسحبت، أما يوهانّا فعادت لتنحني من جديد فوق النافذة.

إنه يتجول هناك في مكان ما في الأسفل، لقد كان قصيراً ووجلاً، وهي تشكر العذراء، التي لا تكف أمها عن الركوع أمامها، أن ذلك الفتى لم يكن خطيبها، كان لديه سره الخاص به، ولكن، وبالقطع، ما من علاقة له بانتفاضة المغاربيين.

سحبت يوهانّا الوسادة البيضاء من مخبئها في فتحة صدرها وأخذت تتأملها، من أين يمكن أن تكون قد جلبت ؟ ومما تتكون؟ إن لدى الصبي سرّاً ما، ومن دون معرفة من أحد، وجدت نفسها في ارتباط ما معه، وبأنها جزء من ذلك السر الكبير، المجهول.

كانت متعبة جداً، من كونها أميرة، ولكن عليها أن تنتظر، ففي يوم من الأيام، ستكتشف، أين يكمن ذلك السر، ولكن حتى ذلك الحين، لن تخبر أحداً بما تعرفه.

لم تكن من فائدة ترجى للبقاء في رياليخو، فالخوديريا هي المنطقة الأخطر في هذه المدينة هذه الأيام، فإن كان بوسطن على أي حال لا يعرف مكاناً

يهرب إليه، فالأمر سيكون سياناً، بالنسبة للوجهة التي يمضي فيها كي يخفي نفسه؛ ولكن الأهم هو أن يغادر رياليخو.

سار في الأزقة، من دون هدف محدد، فمر بسوق الحرير في باب الرملة، ومن أجل أن يجعل لنفسه هدفاً ما، بحث عن الزقاق الذي تم عليه إقامة القيصرية في ما بعد، فتسكع بسوق الحذائين وأيضاً بالزقاق الذي تصنع فيه المناشف، الناس يتزاحمون ويتدافعون في كل مكان، يتساومون على البيع والشراء، ويتاجرون، مع أن اليوم يوم أحد، لكن هذا لا يعني للمغاربيين شيئاً، إذ إنّ يوم عطلتهم هو يوم آخر. فما هو ذاك اليوم؟ وهو لم يسأل طوقان، أو قدير أو الآخرين عن ذلك أبداً، وربما كان من المفيد له الآن، لو أنه كان يعرف أكثر عن مثل هذه الأمور.

«ولكن ليس المغاربيون هم الخطرين بالنسبة لي»، فكر بوسطن في نفسه. «من يبحث عني هما ملكا غرناطة، ففي كل ناحية من المدينة يتلطى لي حراسهم، هدفهم فتى أشقر بعينين رماديتين، يلبس رداء ملكياً أنيقاً، لا بد لي من ارتداء لباس آخر إن كنت أريد مغادرة المدينة، ولكن من أين لي دفع ثمن ما سأشتريه».

«وبغض النظر عن كل شيء، فهل عليّ حقاً مغادرة غرناطة؟ كل شيء بدأ من هنا مع تلك البلاطة الخزفية في القيصرية، حتى وإن كنت لا أستطيع القول، ما هي صلة الوصل بين كل ذلك، ولكن عليّ اكتشاف تلك الصلة، وبهذا فقط، قد أجد طريق العودة».

بدأت معدته تهرّ، فليس من أجل الملابس فقط ينقصه المال.

«ليس لك خيار، بوسطن، فالملكة اتخذت قرارها بحقك، فلو قُيض لمخبريها الإمساك بك، ماذا تظن سيحل بك».

ظل بوسطن واقفاً، ففي محيط إحدى الساحات، والتي منها يمكن للمرء أن يلقي نظرة فوق الحمراء، جلس على حجر أحد الأدراج الذي يقود إلى أسفل المدينة، بحث في كيس الظهر عن الدليل السياحي.

عليّ مغادرة المدينة، ولكن عليّ التفكير في البدء، ماذا سيحدث بعد ذلك.

إن الدليل السياحي لا يصلح لشيء، وقد أدرك هذا منذ اللحظة الأولى، لقد تغيرت المدينة، وكيف لا تتغير بعد مضي خمسمائة عام، ولكن توجد في الدليل تلك الصفحات التي تتحدث عن تاريخها، وهو يريد معرفة، ماذا سيحدث في ما بعد.

إن عام 1492 كان فصلاً من التاريخ قائماً بذاته، فقد تم فيه طرد اليهود، كانت المواكب البائسة من البشر، الذين رفضوا التحول عن دينهم، يغادرون البلاد بالآلاف من دون أن يحملوا معهم شيئاً غير ما يرتدونه على أجسادهم، لقد حدث ذلك على تلك الصورة فعلاً.

وفي عرض البحر انقض القراصنة على السفن التي تحمل النازحين، من أجل الحصول على الغنائم، ولا سيما على سفن الأغنياء من اليهود، وفي معرض غضبهم، عندما لم يعثروا على ما هو ثمين معهم، كانوا يبقرون بطونهم، للتنقيب في أمعائهم من أجل العثور على الذهب والفضة فيها، فهم لم يكونوا على استعداد لأن يصدقوا، أن النازحين لم يبحثوا عن فرصة أخرى ما، من أجل حمل جزء مما يملكونه معهم.

أغلق بوسطن كتاب الدليل السياحي ، لقد أحسّ بالغثيان ، هناك أمور لم يكن ينبغي أن تحدث، وما كان للحياة أن تسمح بحدوثها.

وفوق الحمراء اصطبغت سماء المساء باللون الأحمر.

وربما قد تتغير الأمور القادمة، فكتاب الدليل السياحي يدعي بأن أمريكا تم اكتشافها في هذا العام أيضاً؛ بل وكان هو نفسه شاهداً، كيف أن الملكة طردت كولومبوس.

هل يمكن أن تسير الأمور على نسق آخر، على غير ما تأتي عليه الكتب؟ولكن ما حدث قد حدث.

العام الآن هنا هو عام 1492، فكر بوسطن ملياً، فهو ما كان قد ولد بعد.

-19-

لقد تركه الأمير ينتظر.

جلس طارق في الساحة التي تقع بين البيوت البيضاء الصغيرة، التي كانت ملتصقة بالمنحدر، مثل عش السنونو، متراكبة فوق بعضها، ومتداخلة مع بعضها بعضاً، وكانت أسطحتها مغطاة بطبقة سميكة مأخوذة من التربة السوداء، كي تجعل داخل المنازل تحافظ على برودتها حتى في أيام الصيف القائظة، ففي غمار كل تلك الفوضى للأزقة المتداخلة فيما بينها، ما يجعل منها مكاناً، لا يوجد موضع في كل ***الأندلس*** أفضل منه ليتوارى المرء فيه.

إلا أن هذه المنطقة لا يمكن أن تكون مكاناً لحاكم، كما فكر طارق في نفسه، وفي كل الأحوال ليست مكاناً ***لأبي عبدالله***، أمير غرناطة! ينتقل إليه من قصور الحمراء إلى أكواخ هذه المنطقة الجبلية البائسة، أما أن يتم تسمية هذه المنطقة بإمارة! فلا يمكن لهذا إلا أن يكون أكثر إثارة للازدراء والاحتقار، فلماذا لم يترك له ملوك أكلة لحم الخنزير، على الأقل واحداً من قصوره في إحدى مدن مملكته السابقة؟ لأنهم يخشونه.

«إن النظرة من هنا لا تضاهى، ألا توافقني الرأي؟»، بهذه الكلمات ناداه صوت هادئ جاءه من الخلف، فيما كانت يد قد استلقت على كتفه لوهلة قصيرة.

التفت طارق للخلف مذعوراً، لم يكن قد قابل الأمير من قبل طيلة مدة

حياته في غرناطة، لقد شاهده عن بعد، ليس أكثر، أما حداثة سن الأمير، فهو أمر كان يعرفه، وعلى هذه المسألة بالذات كان قد بنى كل آماله وتوقعاته، شاب، مقتدر وذكي في المواجهة، أما أن يكون في مثل هذه السن الصغيرة فهو ما لم يكن يتوقعه.

«ولكنني أحببت النظرة من الحمراء»، قال الأمير وابتسم، «إلا أنني بقيت أسأل نفسي في بعض الأحيان: ألا تفوق النظرة من هنا، تلك من حيث امتدادها؟ فماذا كنت ستفضل أنت، أيها الصبي؟ هل ذلك الامتداد الواسع فوق مرتفعات ألويغا، أم كما هي النظرة من هنا، من وديان البوخاراس، إلى قمم السييرا، التي تغطيها الثلوج في الشتاء، وتكون قاحلة وبنية في فصل الصيف، وحمراء كالجمر عند شمس المساء.

تحسس طارق، حجم الغضب الذي بدأ يتملكه، فهو لم يأت إلى هنا كي يهذر بجمال الطبيعة، فليس هذا وقت الأحلام، «لقد جئتكم بأخبار طيبة، مولاي»، قال طارق وهو ينحني باتجاه الأمير، «لقد أحضرت لكم الذهب من أجل الجيش. «ثم أمسك بالكيس الجلدي، وتابع: «وهذه هي البداية فحسب! سنقوم بمساعدة اليهود كي ينقلوا ما بحوزتهم عن طريق البحر، وسيقومون هم بمكافأتنا بسخاء لقاء ذلك، فما يلزم من أجل حدادة وسبك الأسلحة من أموال أصبح متوفراً، أيها الأمير! والرجال متأهبون في غرناطة، وهم بانتظار أوامركم!».

لم يأبه الأمير، بتناول الكيس، «إنك تناديني بلقب لم يعد يحق لي»، قال لطارق، «لقد سمعت بمصير اليهود المروع، وأعترف بأنني مستغرب، فأنا لم أتوقع، أن يحدث ذلك بمثل هذه السرعة».

«مولاي»، قال طارق، ثم تابع: «الذهب!».

جلس أبو عبدالله على المتراس الذي يحد جانب الساحة المطل على الوادي. ومن تحت المكان الذي يقف فيه، وعلى سفح الجبل امتد المنحدر مع مدرجاته: بساتين الزيتون، بيارات البرتقال، وفي أحد الحقول دأب شابان على جمع الأحجار الكبيرة وتكديسها على أطراف الحقل.

«غرناطة برمتها تنتظر كلمتكم فقط»، هتف طارق، «غرناطة كلها تعقد أملها عليكم، مولاي! فعندما تكونون في مقدمة صفوفنا، فمن ذا الذي يستطيع أن يصدّ تقدمنا؟».

«لقد مرّت الآن ثلاثة أشهر منذ أن سُلمت المدينة إلى الملوك»، قال الأمير. وبهدوء شديد استدار نحو طارق، كمن يعاني من صعوبة التحول بعينيه عن الحديقة المسالمة الكائنة في الوادي، «فماذا تغير في هذه الأسابيع؟ هل تظن أن الملوك أصبحوا أكثر ضعفاً منذ ذلك الوقت؟ أم تظن، أنهم كانوا ضعفاء آنذاك في الشتاء؟ وأنني سلمتهم المدينة عن جبن ومن دون قتال، كما لو أنه كان بالإمكان حينئذٍ وقفهم؟».

ظل طارق صامتاً، فقد كان الأمر كذلك بالفعل، إذ هو ما كان الجميع في غرناطة يتكهنونه، وهو أيضاً ما كان المغاربيون يهمسون به في حي لبايثين: لقد جبن أبي عبدالله في الدفاع عن مملكته، وأنه كان يبحث عن هدوء باله، وبلاده كان أمرها سيان بالنسبة له.

«ليس من أحد تألم بسبب الهزيمة أكثر مني، أيها الصبي»، قال الأمير، «ولطالما حاولت ما كان بوسعي، ولكن كان لديهم السلاح، الذي لم يكن أبداً بمقدورنا... »، ثم صمت.

أحس طارق، بتنامي حنقه، ألم يخططوا، ويعدوا للمقاومة أصدقاؤه وهو، على مرأى ومسمع من الملوك، ألم يبذلوا من أجل ذلك الجهود من

اجل توفير الذهب وتأمين السلاح، وهذا كله مع معرفتهم الكاملة بالخطر والتوقي منه؟ من المؤكد أنهم كانوا على يقين بأن الأمير سيكون ممتناً لهم، بل وسيهلل لذلك، وبأنه لن يتردد أبداً حتى ليوم واحد.

«عندما بنوا مدينتهم عند أقدام جبل الحمراء، وأنشؤوا معسكر فرسانهم في سانت في، على نحو يشبه صليبهم: أدركت تماماً بأن أيام الحمراء القديمة قد أُفلت، ألم تروا أسلحتهم؟ فمنذ قرون كنا قد تحاربنا في تلك البلدان تحت راية الصليب وتحت راية الهلال، ولكننا كنا نحارب بشهامة، ورجلاً مقابل رجل، لقد تحاربنا بالسيوف والرماح، وتحت تغطية النبال، إلا أن الملوك، أيها الصبي»، آخذاً صوته بالعلو، «ولكن الملوك لديهم المدافع، التي يقصفون بها المغاربيين! ألم تروا مدافعهم؟».

نظر طارق إليه، بالطبع، المدافع.

«بماذا تريدون إذن مواجهتهم أبسيوفكم وخناجركم؟»، صاح الأمير، فبماذا يمكننا مواجهة هذا العدو الرهيب في الشتاء؟ ماذا تفيدنا القلاع الحصينة! ليال بطولها بقيت مستلقياً وأنا مستيقظ أفكر وأتبصر، أنظر إلى مخطط غرناطة: أين ستضرب كرات مدافعهم، وماذا ستدمر؟ وماذا يمكننا أن نحميه منها؟» ثم قفز واقفاً، وتابع: «وهل تريد سماع الجواب، أيها الصبي؟ لا شيء، لا يمكننا أن نحمي شيئاً أبداً! فقبل كل شيء كانوا سيدمرون سور المدينة، وسيتلو ذلك تسوية المنازل بالأرض بواسطة مدافعهم! وماذا تظن ما سيحدث إن صوبت واحدة من تلك الطلقات على البشر وأصابتهم؟».

أخذ يمشي جيئة وذهاباً، وأصبح تنفسه بطيئاً، «كأنني لم أحب وطني مثلكم، ولم أرد الدفاع عنه، وكأنني ذهبت للنجاة بنفسي فحسب!»، صرخ عالياً، «ولكن بأي ثمن، أيها الصبي، بأي ثمن؟ إن أرواح الآلاف

كانت ستزهق، وسيتم سحقهم بقذائفهم، وفي النهاية ستقع المدينة في أيديهم، وستتم إبادتنا نهائياً كمغاربيين!»، تنهد قليلاً، «أليس من الحكمة إذن، الاتفاق على شروط يتم بمقتضاها، أن يسمح لشعبي في العيش داخل غرناطة، وفقاً لما يريده القرآن منّا، والله؟».

«ولكننا نستطيع الآن نحن أيضاً شراء المدافع!»، صرخ طارق، مواصلاً عرض الكيس الجلدي المليء بالذهب عليه، «ولكننا حصلنا على الذهب! وسنكون عندها على قدم المساواة مع الملكة».

«إذن، أيعني هذا، أنه عليّ تصويب المدافع على مدينتي؟» سأل أبو عبدالله. «هل عليّ إذن في هذه الحالة أن أدمر غرناطتي؟ أن أشعل النار في منازلها، أن أسحق سكانها؟هل هذا هو ما تريده، أيها الصبي؟».

هزّ طارق رأسه معترضاً، «ولكننا كثيرون، ونحن على استعداد للقتال، يا مولاي!»صرخ طارق، «وسيكون لدينا الكثير من الذهب عمّا قريب، وينبغي بالتأكيد أن تكون هناك إمكانية!».

ابتسم الأمير، «الصبيان يتحدثون كالصبيان»، قال الأمير، «ولكن الرجل عليه أن يفاوض كرجل، ولا تتيح لنا الحياة حلولاً على الدوام، أيها الصبي، ومن أجل غرناطتي، ليس من حل آخر، إن لؤلؤة السييرا فقدت تألقها إلى الأبد».

«مولاي!»، هتف طارق، وكان يتمنى أن يعتقد أنّ الأمير قال ما قاله بدافع الجبن، إلا أنه أدرك، أنَّ الحقيقة كانت فقداناً كاملاً للأمل.

أمضى سالومون اليوم بطوله وسط المدينة، تجول في الحواري، وتسكع في الساحات، تنصت إلى أحاديث الناس، واسترق السمع من النوافذ. كان يحاول بكل السبل أن يعرف ما سيؤول إليه حاله، وإلى

أين ينبغي عليه أن يتوجه.

الكل يعيش في جلبة واضطراب، لقد أدرك هذا بسرعة، إلا أن الدوافع لم تكن واحدة، فلدى المغاربيين كان يعم سخط وغضب، يمشون في المدينة رافعي الرؤوس، ويظهرون في كل حركة وإيماءة منهم، وكأنهم مازالوا هم الأعلون المرموقون في المدينة، أما الجنود فكانوا يلقون إليه بنظرات مليئة بالاستخفاف، واستمر المغاربيون يتحدثون العربية ليس فقط فيما بينهم، مع أن الكل يعلم، بأن لغتهم القشتالية، كانت جيدة بمثل ما يتحدثها أي مسيحي، بل كانوا يسجدون للصلاة كلما ارتفع أذان من المآذن، كانوا وكأنهم في كل إيماءة وفي كل لفتة منهم يريدون أن يصرخوا عالياً بصمت ليقولوا إنها مدينتنا! إنها مدينتنا! وسيستحيل عليكم أن تحولوا مدينتنا إلى مدينة للصليب.

وبالمقابل فإن اليهود على النقيض من ذلك، كانوا يجرّون أقدامهم بتكاسل وكأنهم يمشون خلسة متسللين بظهور ملوية في ظل الأسوار، كمن يود التخفي عن الغير، وكانت النيران في رياليخو قد بينت لهم، ما ينتظرهم، وبأن أمامهم من الآن وصاعداً، أحد طريقين لا غير.

حاول سالومون، أن يتحدث إلى أولئك، الذين يعلم أنهم يكرسون مثل أبيه، يومي عطلة دينيين في الأسبوع؛ ولكنهم جميعاً كانوا إما في عجلة من أمرهم، أو أنهم لم يتعرفوا عليه، أو أنهم هددوه بأن يخبروا الجنود عنه.

«نحن مسيحيون!»، كان ***الكونفرسوس*** يصرخون في وجهه، «إننا نشكر الله الذي أرشدنا أخيراً إلى الطريق الصحيح! ونشكر السيدة العذراء، لأننا نبذنا أخيراً تعاليمنا الموسوية الباطلة، فماذا يمكننا أن نفعل لك أيها الغلام اليهودي؟ أيها ***المارانو***! أتريد أن تودي بنا إلى التهلكة؟ وهل تظن أننا نريد

الذهاب إلى المحرقة؟

واحد فقط تحدث إليه بعجلة، من وراء ستارة، في متجر بائع خضار مغاربي، «لماذا فعل والدك ذلك؟» همس متحدثاً وقد احتضن سالومون من كتفه، «ألم يدرك، أنه بفعلته تلك جعل من حياتنا هنا في غرناطة في الأسابيع الأخيرة حالة لا تطاق؟ وأن كل منزل يجري تفتيشه، وأنهم يشكّون بالجميع، وأنّه خالف التعليمات الملكية ؟وكيف له أن يظن أنَّ مخزنه لا يمكن لأحد اكتشافه؟ إن الخوف يعم الآن رياليخو! فالجنود في كل مكان! سالومون! فكر جيداً كيف يمكنك مغادرة غرناطة! فبالنسبة لك لن يغنيك التنصير! فمن المحال أن يصدقوا بأنك مؤمن في اعتناقك المسيحية، غادر المدينة على الفور، لأن مصيرنا سيكون مروعاً».

ولكن حتى الذين لم يتركوا معتقدهم، لم يتحدثوا إليه، فعند بوابة المدينة احتشدت جموع النازحين، كان الحراس المتضاحكون يفتشونهم بخشونة، فيما كان الأطفال يبكون، وعلى جانبي البوابة كانت مواكب لا نهاية لها تتحرك مثل ثعبان في طرقات الفيغا، وعبر كامل المملكة: باتجاه مالاقا، ونحو الميريا، وإلى جميع المرافئ الساحلية، «دعنا وشأننا، أيها الصبي»، كانوا يقولون له، «هل تظن أننا، نرغب بأن يرانا الجنود معك؟ وهل تريدنا أن ندعهم يظنون أننا نريد الدوس على القانون المتعلق باليهود مثلما فعل والدك؟ أم أنك تظن أننا نريد الذهاب إلى المحرقة؟

في الصباح أمل سالومون، أن تقوم إحدى العائلات بضمه إلى أولادها؛ وكان أمله معقوداً على واحدة من تلك الأسر التي كانت مثل أبيه، يتلون يوم الأحد قراءة أبانا الذي في السموات داخل الكنيسة، ويتلون الكيدّوش يوم السبت اليهودي.

أما في الظهيرة، فقد أمل أن يكون بصحبة من سيتركون بلادهم حباً بعدم التخلي عن معتقدهم.

ولكن في المساء تأكد أنه سيبقى وحيداً.

لم يتناول لقمة واحد طيلة اليوم، لقد كان جائعاً، وعندما أخذ الفلاحون يغادرون المدينة عائدين إلى منازلهم مع الأصيل عبر البوابة صحبة حميرهم، انتظر هو عند سور المدينة واستلقى ماداً يده مثل بقية الشحاذين الصامتين الذين لا يعد عددهم ولا يحصى، لقد نال ثمرة تين مجففة بالغة التجاعيد، لا يمكن لمخلوق أن يقدم على شرائها، كما نال حبات زيتون قاسية مثل بذورها، وقد أعطته إحدى القرويات قطعة من الخبز، وعندما حل الظلام، كان قد قرر أنَّهُ لن يستطيع البقاء في المدينة.

لقد أُغلقت البوابات الآن، ولكن سالومون فكر في نفسه، يوم غد، لا بد ان يفعل ذلك يوم غد.

إلا أنه في هذه اللحظة نفسها، رأى صبياً يتقدم إليه.

الأمر الأهم بالنسبة لبوسطن، كان تأمين غطاء لنفسه، كان اثنان من راكبي الأحصنة المغاربيين يقفان جنباً لجنب، عند الحافة الجانبية لسوق الحرير، يتحادثان معاً بتلك اللغة الغريبة، التي تأتي نبرتها من أعماق الحلق؛ وكان جندياً يراقبهما، ويدور متلصصا من حولهما؛ وهو ما جعل بوسطن يدرك بأن جنود الملكة يعيشون في حالة هلع مزمن هنا في غرناطة.

وقد أجبر سلوك الجوادين، أن يلجأ صاحبيهما إلى جعل ألجمتها بأقصر مدى ممكن، إذ كانا يدبكان، مضطربين ومهتاجين، لكن ما من أحد كان يعيرهما انتباهاً.

كان بوسطن موقناً أن الجندي لن يلحق بمن يسرق من مغاربي، وبسرعة

خاطفة انتزع من أحد الجوادين غطاءه؛ ثم جرى به هارباً.

لم يسبق لبوسطن أن سرق، إلا أنه كان بحاجة ماسة إلى الغطاء، إن كان غير قادر على شراء لباس آخر لنفسه، رمى بالغطاء على كتفيه وشد طرفيه على صدره، كان الغطاء يتدلى من على ظهره ليصل إلى ما فوق الركبتين، أما من الجهة الأمامية فكان قد غطى صدريته الحريرية، إلا أن رائحة عرق الحصان الصارخة كانت قد ملأت خشميه، الأمر الذي أجبره على العطاس، ولكنه، لم يعد الآن على الأقل، يشبه من النظرة الأولى، ذلك الصبي الذي يبحثون عنه.

واكتشف بوسطن من ثم وجود الصبي، فأخيراً وجد من يعرفه في غرناطة، فالصبي نجا إذن من الحريق، ولم يتمكنوا من القبض عليه؛ ذلك الصبي، الذي خبأ الخبز المجدول، والذي سقط مغمياً عليه، إنه صبي جبان مثله هو.

ومن هنا بدأت ملاحقة بوسطن للفتى، كان يأمل أن تقوده تلك الملاحقة للوصول إلى والده، إن كان هذا قد نجا أيضاً، طالما أن الإبن قد قيض له ذلك؛ ولكنه سرعان ما أدرك أن الفتى وحيد بدوره مثله، كما أدرك أن ذلك الفتى ليس بمقدوره تقديم العون له، إذ لا يوجد بالأساس من سيقدم العون للفتيان.

ومع ذلك فقد أحس بوسطن أنه قد تخفف قليلاً من همومه، فهذا الغلام مجبر أيضاً على الهرب من وجه الملكة؛ ولكنه على الأقل يعرف كيف يجول في غرناطة، وشعر بوسطن أن عليه أن يتقرب من الفتى.

وفقط، عندما أرخت الظلمة سدولها، تحدث بوسطن للفتى، «هيه»، همس بوسطن.

كان الفتى قد جلس القرفصاء استعدادا لينام بجانب سور المدينة؛ إلا أن أوصاله كانت ترتعد وهو يحدّق بمواجهة بوسطن، وقد ألصق ظهره بالجدار من خلفه، فبدا، وكأنه حيوان وقع في مصيدة.

«لا تقلق»، همس بوسطن، وتوجه نحوه ملقياً بنفسه على الأرض بجانبه، كانت التربة نفسها في هذا الوقت من المساء ما زالت ساخنة تحت تأثير شمس النهار، «ألم تعد تعرفني؟ ولكنني أعرف من أنت، سالمون! إنني سعيد بأنني وجدتك!»ثم ابتسم له، إلا أن الفتى كان يرتجف هلعاً، «وأنا أعلم ما حصل لمنزلكم».

«اسكت»، همس الفتى، وللحظة بدا كمن يود أن يقفز ليجري هارباً، «إبق صامتاً!».

نظر بوسطن إليه من جديد، «ينبغي أن أغادر غرناطة!»، همس بوجه الفتى، «أريد الذهاب من هنا بسرعة إن أمكن، ألا تريد أنت ذلك أيضاً؟ وإلا لماذا تنام هنا، على بعد خطوات من بوابة المدينة، إن كنت لا ترغب مثلي بالخروج غداً مع أول ضوء من النهار؟».

الآن فقط، سحب الفتى رأسه إلى ما بين كتفيه، ولكنه لم يجب.

«أدعى بوسطن!»، وفجأة أدرك بوسطن ما يقلق الفتى، فشد الغطاء الذي على كتفيه ليغطي صدريته الحريرية، وتابع قائلاً: «وأقسم لك بأن لا علاقة لي بهم، سيان ما يمكن أن أبدو عليه من خلال ملابسي».

إلا أن بريقاً كان قد لمع في عيني الفتى.

«إنني هارب منهم!»، همس بوسطن، «إنني مثلك تماماً! دعنا نهرب معاً! إن اثنين لن يشعرا بالوحدة، وأن نكون اثنين فسنصبح أقوى».

ولكن الفتى لم يجبه بكلمة.

«أنا لا أعرف كيف أتجول هنا!» همس بوسطن، «أتفهم هذا، سالومون؟ إنني غريب هنا في غرناطة! وأرجوك بحرارة، أن تساعدني!».

أخفض الفتى كتفيه بحذر، وبدا، كما لو أنه أخذ يمعن التفكير بالأمر.

«على أي حال، لا يمكنني في حالتي هذه أن أغير من الأمر شيئاً»، قال الفتى أخيراً بصوت خفيض، أما عيناه فكانتا تنزلقان متفحصتين شعر بوسطن الأشقر، ورداءه المصنوع من حرير ألميريا المفضض، وسرواله الحريري، وحذاءه الذي يحمل إبزيماً عليه، «الآن، أنت هنا أمامي، فإن شئت الوشاية بي، يمكنك أن تفعل ذلك».

«سأبرهن لك أنني لا أبغي خيانتك»، قال له بوسطن بصوت هامس. «أصغ إليّ جيداً! إن كنت أريد الوشاية بك، فلماذا ينبغي أن أنتظر حتى صباح الغد؟ ولماذا ينبغي أن أنتظر إلى أن تجتاز بوابة المدينة وتختفي هناك بعدها؟ أليس من المنطقي أن أشي بك الآن، والبوابات مغلقة، والمدينة لم تنم بعد؟ أي في الوقت الذي لاتستطيع فيه الإفلات؟ ثم أليس من الحذاقة أن أشي بك، منذ البداية، وقبل أن أتبادل معك كلمة واحدة؟ فإن كانت لدي الرغبة بتسليمك إلى جنود الملكة، فماذا يدعوني لأنتظر؟».

رفع الفتى كتفيه بحركة واهنة قائلاً: «أتظن أنني قادر على أن آخذ بيدك للهرب إلى مكان ما؟ أم تظن أنني أعرف مخبأً، فيه كنوز مخفية؟ أم أنني قد أقودك إلى مقتنيات اليهود الهاربين؟».

تمدد بوسطن على الأرض، ساحباً غطاء الحصان ليدثر به جسده، بحيث لم يعد يُرى حتى شعر رأسه. «أريد الآن أن أنام»، قال بوسطن، «ولديك الوقت الكافي في هذه الأثناء كي تهرب مني، إن كنت ما زلت تعتقد أنني أغدر بك».

لقد أحس، بمبلغ التعب الذي حل به فجأة، ونوم ليلة الأمس لا يمكن اعتباره نوماً، لقد كان نوماً بجمجمة تدمدم في سرير مثل الدوامة.

لم يتصور أبداً أن بوسعه النوم على تلك الشاكلة، جنود يلاحقونه في زمن هو غير زمنه، في بلد لا يعرفه، وليس لديه أية فكرة عمّا يمكنه أن يتوقع، وماذا سيحصل له في الأيام القادمة، ثم أغمض عينيه.

-20-

غادر الاثنان غرناطة، عندما نادى المؤذن، فقد انطلق الأذان آنذاك من عدد لا يحصى من المآذن المنتشرة في جميع أرجاء المدينة، لتوقظ كل الناس وكل من لم يكن ثقل النوم الشديد قد غلبه، سيان من كان، يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً، ففرش المغاربيون سجاجيد صلاتهم وبدؤوا بالسجود متوجهين في صلاتهم نحو الشرق حيث بدأت الشمس بإرسال أوائل خيوط ضوئها عبر الأفق، ووجهتم مكة كما تحتم ذلك تعاليم الرسول النبوية.

وفي حين اكتفى المسيحيون بسحب أغطيتهم من جديد إلى ذقونهم، متقلبين في نومهم على جانبهم الآخر، شاكرين المولى، أن ديانتهم لا تستوجب منهم أداء صلاتهم في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح؛ فقد ظلّ اليهود متمددين على أفرشتهم، بعد أن صحوا مرعوبين من نوم قلق، وهم يحدقون أبصارهم في سقف غرف نومهم، يملؤهم الخوف مما يمكن أن يجلبه لهم اليوم الآتي.

لم يهرب سالومون أثناء الليل، وقد لاحظ بوسطن ذلك فور استيقاظه. كان سالومون قد استلقى بجانبه، من دون غطاء، يرتجف من برد الصباح، إثر ليلة لم يذق فيها طعم النوم.

«ألا يفتحون البوابات في هذا الوقت؟»، همس بوسطن، كان نداء المؤذن قد توقف، «أيعني هذا أنك ستذهب معي؟» كان قد ألقى بكيس الظهر

قبل ذلك خلف واحدة من الصخور القريبة؛ فليس من جدوى لمواراته. فاكتشافه مسألة مفروغ منها، وليس بالإمكان منعه، ولكن أن يعمل على تأخير اكتشافهم له، هو ما ينبغي أن يحاوله.،إذ من العسير أن يهرب من المدينة مع كيس الظهر الذي يحمله على كتفه، ***هذه الأداة الشيطانية***.

هزّ سالومون كتفيه، لقد بدا، كما لو أنه ترك مصيره لمشيئة القدر، لقد فقد أسرته؛ واحترق منزله؛ وأمامه إما الغربة أو المحرقة، فلماذا لا يذهب إذن رفقة هذا الفتى الغريب؟.

كان حراس البوابة يتثاءبون نِعاساً، «اثنان من *المآرانو* في طريقهما إلى اسطبل الخنازير؟»، قال أحدهما محاولاً بواسطة سيفه رفع غطاء الجواد، الذي كان قد تدثر به بوسطن شاداً إياه بثبات على جسده «لك رائحة اليهود النتنة؟ أرني إذن الكنوز التي لديكم!»، قال الجندي.

كان بوسطن مدركاً بالطبع، أنه سيتم تفتيشهم، فما هي قيمة القانون الخاص باليهود، إن لم يتم التحقق جيداً من كل عابر، وهو لهذا السبب كان قد تخلى عن كيس الظهر الذي كان معه، وعن نقوده، وهاتفه المحمول، وعن كتاب الدليل السياحي، لقد حبس أنفاسه.

لم يقتض تفتيش ألبسة سالومون وقتاً طويلاً، وهو لا يحمل أية حقيبة معه على أي حال.

«يهودي صغير، مهذب»، قال الحارس الأول لسالومون، ثم وجه له لطمة، دفعت به خارج البوابة مترنحاً، «يمكنك الآن الخروج إلى العالم، لتجني خبز يومك بنفسك، أم أنك تخشى أن تؤذي يديك الناصعتين إن تقوما بمثل هذا العمل، مع أنهما لم تشعرا بالأذى عندما دقتا المسامير بجسد مخلصنا على الصليب.

أرجو، أن لا تحدث مشاجرة الآن، فكر بوسطن في نفسه مصدوماً ومتمنياً في الوقت ذاته، إلا أن سالومون، لم يبذل أي جهد يدافع به عن نفسه، بل ظل واقفاً فقط، وهو منكس الرأس.

«والآن أنت، أيها الخنزير اليهودي الصغير!»، قال الحارس من جديد، فقد تكون دعاباتهم أصحتهم على النحو الأكمل الآن، «ألا تريد، ***مارانو***، أن تخرخر لي كالخنازير؟ انخر لي مثلما يفعل إخوتك الخنازير، يا قتلة المسيح!».

سينزعون عنه الغطاء الذي يتدثر به، كي يبحثوا عن القطع النقدية المخبأة، أو عن القطع الذهبية، وعن الحلي، فهذه هي مهمتهم، وقد يكتشفون رداءه الحريري، وبأنه صبي أشقر الشعر بألبسة ملكية، وهكذا يتعرفون عليه.

«نخررر»، قلّد بوسطن بصوته خرخرة الخنازير، من خلال استنشاقه للهواء من فمه وأنفه في الوقت ذاته، مع ضغط راجف من خلف لسانه على حنكه، بما مكّنه من إصدار شخير وخرخرة، «نخررر!».

ربت الحارس على فخذه، «جيد»، صاح الجندي، «هذا جيد مارانو! ألست سعيداً بأن يتاح لك التحدث بلغة الخنازير التي هي لغتك؟».

انضم للجندي الأول جندي ثانٍ وشاركه الضحك، «أكثر!»، صاح الجندي، «قم بالمزيد من هذه الخرخرة، أيها الخنزير الصغير!»، ثم نزع الغطاء عن كتفيه.

أخذ بوسطن بالارتعاش، ولكنه ظل يخرخر، «نخررر! نخررر!» ربما هذه هي النهاية.

«هيا انظروا!» قال الجندي متفاجئاً، «صبي يهودي قميء في أجمل ثوب حريري! في حين أن أجمل ثوب احتفالي لإخوتي وأخواتي مصنوع

من القماش الكتاني الرخيص! أيمكن للسيد الرب إلهنا، أن يرضى بذلك؟»
وقد رغب أن ينزع عن بوسطن صدريته، إلا أن الحارس الآخر أوقفه عن فعل ذلك.

«لدينا تعليمات، بأن نجردهم من كل شيء يرتدونه فوق أجسامهم»، قال الجندي» ألم تسمع؟ إنهم بهذه الوسيلة يحاولون تجاوز قانون طرد اليهود، إلا أن الملكة كانت رحومة! إنهم يرتدون أغلى وشاح حريري، كما يلبسون خمسة أردية فوق بعضها البعض، آملين، أن يتمكنوا من بيعها في نهاية رحلتهم! فتطريزه بخيوط الفضة يمكن أن يجلب لك عشاء، *مارانو*، إن وصلت إلى صقلية أو إلى القسطنطينية، ليس أكثر من ذلك، هذا إن لم يتم ترحيلكم أيضاً من هناك!».

ومن الجانب المسطح من سيفه، لطم الجندي بوسطن على كتفه، «لقد خرخرت لنا مرة ثانية، وهذا جيد! والآن اخرج إلى العالم! ألن تكون رائحة غرناطة أفضل بمرات عديدة، من دون هذين الإثنين أيها الرفاق؟».

كان سالومون ينتظره على بعد بضع خطوات فقط، بعيداً عن البوابة، ولكنه الآن، قام بوضع ذراعيه على كتف بوسطن.

«لا ينبغي أن تبكي، بوسطن!»، همس سالمون، «لا تُبِحْ لهم، ما هم متعطشون له، إذلالنا! هو ما يرغبون فيه، لا تبك، بوسطن! لقد أفلتنا منهم!».

وبيدين مرتجفتين عقد بوسطن الغطاء على جسده من جديد.

إنهم لم يقصدونني، فأنا لست *مارانو*. فهم لم يعلموا فقط أنني مسيحي مثلهم.

إلا أنه لم يعد قادراً الآن على ضبط حشرجاته وتنهداته الباكية، أما الحراس،

فكانوا قد انشغلوا في هذه الأثناء بتفتيش نازح آخر.

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

استقصى مانويل في كل اتجاه، وحاول خلال استقصائه أن لا يبدو ملفتاً للنظر، ولكنه كان قد فقد الأمل، إذ لم يعد بإمكانه أن يتذكر، حتى كيف تبدو معالم الفتى، باستثناء شعره الأشقر.

«لماذا لا تذهب إلى الشرطة، إن كان قد سرقك؟»، سأله زملاؤه من أصحاب المتاجر التي حوله، «وهل ما سرقه ذو قيمة كبيرة؟ أهي المرة الأولى التي تتم فيها سرقتك؟ ولماذا تثير كل هذه الجلبة، مانويل؟».

ثم جاءت الشرطة من نفسها إلى القيصرية وسألوا عن الفتى، كان أصحاب المحال يهزون بأكتافهم علامة جهلهم، وبعضهم الآخر كان ينظر لمانويل ويرفع حاجبيه.

ومنذ زمن بعيد لم يعد يظن، أنه سيجد الفتى ثانية، فإن كان قد اختفى حقاً، كما تم الحديث عن ذلك في الحكايات القديمة، أفليس أقله، أن يكون أحد قد لمحه؟ فلا يمكن لبشر أن يختفي بين ثانية وأخرى، من دون أن يكون قد لاحظه أحد ما!

ولكنك أنت نفسك لم تلحظ ذلك، مانويل.

كنت قد أدرت له ظهري، لقد جبنت، وقد ظننت أنني لن أتحمل، مراقبة ما سيحصل، أما الآن، فأنا لا أتحمل، أن لا أعلم».

«مانويل!»، ناداه جار له من البسطة المجاورة، «ألا تصحو لنفسك! أنت تجري باحثاً في القيصرية كلها، لتسأل إن كان أحد رأى سارقك، في حين ترى العديد من السارقين أمام ناظريك، كل ساعة، قل لي مانويل،

إلى أين تسرح بأفكارك؟».

اختفى مانويل داخل حانوته، تناول جرعة من زجاجة أخذها من أحد الرفوف، إن ظلت الأمور تسير على هذا المنوال، فإنه سيغدو من الآن فصاعداً في سكر دائم، إلا أن ذلك قد يعطيه تبريراً، لماذا يتصرف بمثل هذه الحالة الغريبة، وعلى الأقل سيكف جاره، عن تكرار سؤاله عما يدفع بمانويل لأن ينظر إلى سائر السارقين بمثل هذه اللامبالاة.

باستثناء سارق واحد.

«مانويل!»، ناداه جاره، «جاءك زبون!».

كرع مانويل الجرعة الأخيرة، فجرت ساخنة في حلقه، وخف رأسه، إلا أنه لم يبدأ بالترنح بعد.

ليأخذ هؤلاء الناس القادمون من الشمال ما يحلو لهم، فمانويل كان مشغولاً بمعرفة أين أصبح الفتى.

الأندلس، 1492

تقدما سائرين على مهل في مشيتهما، سالومون بدا مجهداً لأقصى حد، إلا أنه كان قادراً على تحديد وجهة الطريق التي كان عليهما سلوكها.

«نحو الجنوب»، قال سالومون، ثم تعثر في مشيته من جديد، «من السهل الاهتداء مع شروق الشمس».

حاول بوسطن استعادة تذكر الخارطة، فسأل: «باتجاه البحر؟».

هزّ سالومون برأسه، كانت أسر بكاملها تجتازهم مشياً، أب مع أطفال على الكتف، وأم تحمل طفلاً على ذراعها، جدة متقدمة في السن تستند إلى عصا تم نزع ممسكها الفضي الذي صادره الجنود عند عبور بوابة المدينة؛

والجميع يتوجهون في طريقهم نحو البحر، إلى مالاقا، خارجين من هذه البلاد.

«سنمشي معهم فقط لمسافة قصيرة، ثم نتجه صاعدين نحو الجبال»، غمغم سالومون، وهو يكاد يغمض عينيه تعباً أثناء السير.

«إلى الجبال؟»، سأل بوسطن مصعوقاً، «وماذا سنفعل في الجبال؟».

كانت إحدى الأسر تجر عربة يد وراءها، يجلس من فوقها القرفصاء، رجل عجوز ومعه طفلان صغيران.

«ينبغي أن أستريح قليلاً»، غمغم سالومون، ولاحظ بوسطن أنه يكاد أن ينام أثناء المشي، «هناك تحت أشجار الزيتون، حيث تخف حرقة الشمس، وعندما أصحو من نومي يمكننا».

ثم انطرح ساقطاً على الأرض.

كانت الشجيرات تعطي ظلاً مرتعشاً، تلقيه على الأرض على هيئة طرحة من الدانتيل، ألقى بوسطن الغطاء على ظهر سالومون، وجلس من ثم بجانبه مستنداً إلى جذع شجرة، وما لبث أن أخذ تنفس سالومون بالانتظام، فربما يكون قد نسي الآن خوفه.

أما أنا فلن أنسى خوفي، قال بوسطن لنفسه، ففي كل مكان من البلاد يجري البحث عني، إنهم يبحثون عن فتى خدع الملكة، وأفلت من حراسها، فتى أشقر الشعر برداء حريري، وسيان أين أكون.

ثم جلس فجأة، كم كان تقديره غبياً! بالطبع سيتابعون البحث عنه، في كل مكان في البلاد، ولكن ليس الآن بالطبع! فكيف سيتيسر للملكة نقل الإبلاغ عنه؟ في مثل هذا الزمن لا يوجد هاتف عادي ولا هاتف محمول ولا إنترنيت! بل ولا حتى جهاز لاسلكي أو محطة إرسال برقيات بالمورس، فمن

يرغب في الإعلام عن أمر ما عليه إلا أن يبعث برسول يوصله.

«وهذه مسألة يمكنهم بالطبع تنظيمها» غمغم بوسطن لنفسه، «كل ما في الأمر أنهم سيكونون أسرع مني في هذه الحالة».

أما في المدينة، فمع حلول المساء أصبح كل واحد على علم، بأن الملكة تبحث عن صبي، وهو ما كان قد تأكد منه الجميع، وفي المدينة، كان بمقدورهم تتبع أثره، إلا أنه لم يكن من المعروف إلى أي مدى كانت قد وصلت إليه هذه الأخبار في الأرياف بالفعل.

سأكون آمناً إن كنت لاجئاً، فكر بوسطن لنفسه، لا بل قد أكون أكثر أمنا، كلاجئ يهودي يرتدي لباساً غالي الثمن، كي يبيعه في البلد الذي يقصده.

سرح بوسطن بنظره إلى ما فوق قمة شجرة الزيتون، كل شيء بدأ مع بلاطة خزف القيصرية، لقد اصبح الآن متأكداً من ذلك، فليس صدفة، أنه فجأة وجد نفسه في هذا الزمن، فور لمسه لقطعة الخزف الرائعة، وهو الآن هنا يطوف في كل مكان، حيث تقع عيناه على حروف الكتابة نفسها، المرصعة على مئات بلاطات الخزف التي تشبه بلاطته تلك، هناك علاقة بين بلاطة خزف البازار وبلاطات خزف الحمراء، حتى وإن كان قد أدرك هذه العلاقة الآن فقط.

تقلب سالومون أثناء نومه ثم تنهد، واستيقظ فجأة مذعوراً، «لقد حلمت» قال بصوت خفيض. ثم ما لبث ان أغمض عينيه.

تمنى لو أنه يعثر على بلاطة الخزف من جديد، أي بلاطة القيصرية، وتمنى لو أنه يعود للمسها من جديد، كما فعل ذلك في حياته الأخرى، فربما يكون هذا هو الطريق للعودة إلى تلك الحياة.

هذا هو المسار الوحيد، الذي بقي لي، فكر بوسطن بذلك، إنه الحل

الوحيد الذي يدور بخاطري الآن، لذلك يجب أن أجد بلاطة الخزف.

كان سالومون يتأوه خلال نومه، وفجأة أخذ يبتسم.

«تابع أحلامك، إن كان فيها راحة لك»، همس بوسطن، وانتبه باستغراب، إلى أنه هو نفسه كان يبتسم أيضاً وهو ينظر إلى سالمون.

ولكن، أين ينبغي عليه البحث عن بلاطة الخزف؟ فعندما وجد نفسه فجأة في غابة الصنوبر، كانت قد اختفت من بين يديه، فأين هي الآن؟ هل ظلت هناك في القيصرية؟ ففي هذه الحالة سيعني ذلك أن بحثه لا طائل منه، فالقيصرية، كانت في المستقبل، ومن أجل الوصول إلى هناك سيحتاج إلى البلاطة بالذات.

لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك! فكر بوسطن، فإن قادني الدرب عبر الزمن إلى الماضي، ينبغي أن تتوفر الإمكانية لإعادتي إلى المستقبل، ربما كان من الأفضل لي البقاء في غرناطة، فغرناطة مليئة بتلك البلاطات من الخزف، ومليئة بكتابات ذلك الخط، ولكنني لم أستطع البقاء في غرناطة، فما هو الأهم بالنسبة لي الآن: الهرب من الملكة، أم البحث عن بلاطة الخزف؟ فإن ألقوا القبض عليّ خلال بحثي ذاك، فسيتم إرسالي للمحرقة.

لقد كانت مغادرتي غرناطة، أمراً صائباً، ولم يكن من خيار آخر له، على الأقل ليس الآن.

تقلب سالومون من جديد أثناء نومه، إلا أن البسمة كانت قد اختفت عن محياه، ربت بوسطن بلطف على كتفه.

«ألا تظن أنه ينبغي علينا الآن مواصلة طريقنا؟» كانت أسر كثيرة تمر بهم متجاوزة إياهم على الطريق؛ أما كبار السن منهم، فكان ينبغي إما تركهم، أو حملهم، أو نقلهم على عربات يجرونها، ومع هؤلاء الناس، عليه الهرب،

إن كان يريد أن لا يكتشف أحد أمره.

«أعتقد أنني استعدت حالتي المعتادة من جديد»، قال سالومون وهو يفرك عينيه، «كل ما في الأمر أنه مضى وقت طويل لم أنم فيه»، لقد استراح الآن، وكان مندهشاً، كيف أن وقتاً قصيراً من النوم قد كفاه لأن يتحول إلى فتى آخر، «سنصعد إلى فوق نحو الجبال، حيث يوجد المقاومون، سنصعد إلى فوق، إلى البُوخاراس».

«إلى البُوخاراس؟»، همس بوسطن سائلاً، مع أنه ما من أحد يمكنه استراق السمع إليهم هناك، أما الظل المستلقي على التربة الحمراء فقد تبدل، إذ أصبح أصغر مساحة، وقد تجمع الآن بالقرب من جذع الشجرة، «من أين علمت بأن المقاومين قد تواروا في الجبال».

هزّ سالومون منكبيه، «لا أعلم»، أجاب، «لقد فكرت بهذا فقط، ففي البُوخاراس يعيش الآن الأمير، ألا ينبغي أن يكون هو قائدهم؟».

وافق بوسطن بإحناء رأسه ببطء، فهو لم يكن على يقين، ما هو الذي يفضله: أهي هذه البلاد التي يغادرها الآلاف، أم أن يلتحق بأولئك المقاتلين ضد الملكة، الذين لم يذكرهم التاريخ.

«ومع ذلك، من يعلم إن كنّا سنجد مكاناً لنا على إحدى السفن أم لا»، قال سالومون، وكانا في هذه الأثناء قد وصلا إلى الطريق، كان الغبار يتصاعد من تحت الأقدام التي لا حصر لها، ثم تابع: «أنظر إليهم! كم هو عدد السفن التي ينبغي أن تتواجد في المرفأ، من أجل نقل كل هؤلاء! وبماذا سندفع نحن أجور سفرنا؟».

ألقى بوسطن نظرة من حوله.

وهؤلاء هم فقط الناس الذين غادروا المدينة هذا الصباح، ولكن في

الميناء، ينتظر كثيرون غيرهم منذ زمن، وكانوا هم بدورهم قد فروا في الأيام السابقة. وصدرية حريرية واحدة لن تكفي لسفر اثنين بحراً.

وحتى لو تسلقت إحدى السفن، فكر بوسطن، وحتى لو سافرت بإحداها إلى القسطنطينية، أو إلى نابولي أو صقلية، فكيف سأتمكن من إيجاد بلاطة الخزف؟ لا بد من ترك غرناطة، لا خيار لي في هذا؛ ولكن سيكون من المستحسن أن لا يأخذني السفر بعيداً جداً.

«نحن صاعدان باتجاه البُوخاراس!»، قال بوسطن في نفسه.

ووجد بوسطن نفسه مضطراً للابتسام، فكم هي رائعة هذه الأحداث! كان طوقان وقدير سيحسدانه على هذه المغامرات التي يمر بها، وسيرغاي لن يصدق، أنه هو نفسه بوسطن، الذي عاشها، نعم، بوسطن مدلل أمه.

نحن صاعدان باتجاه البُوخاراس!» ليس عليه أن يقلق، فإن كان لم يولد بعد، فما عليه أن يخشى الموت إذن.

في الطريق كان قد وقف أطفال حفاة القدمين، بلباس بائس، ووجوه متسخة، راحوا يلوحون لهما بالأيدي، إن الأطفال لا يعون ما يحدث، قال بوسطن لنفسه، فهذا هو حالهم في كل مكان وزمان.

ليس لديه خشية من القتل، ولكن ربما لديه خشية من الموت، ولديه خشية من المحرقة، ولديه خشية بالتأكيد من التعذيب.

-21-

كانت الملكة تغدو جيئة وذهاباً في قاعة *المكسوار*.

«لم تغفُ لي عين طيلة الليل!» قالت الملكة.

استند فرديناند إلى أحد الأعمدة، «اشربي *الموكّا*[1]»، قال لها.

«في قصور المسلمين أعيش كما المسلمين، إن تناول الموكّا ينعش ذهنك!».

أومأت الملكة بيدها رافضة بغضب.

«هل تأملت بالأمر جيداً، فرديناند، من يمكن أن يكون ذلك الصبي؟»، سألته الملكة، «إنه لأمر محرج، منذ البداية وحتى اللحظة التي احتجزناه فيها لدينا»، ظلت خلال ذلك واقفة أمامه، ثم تابعت، «وفي ألبسة مغاربية!».

«إنه رداء يلبسه كل ثاني رجل في هذه المدينة كما تعلمين»، أجابها فرديناند. «اشربي الموكّا، يا حمامتي الصغيرة. هدئي من روعك!».

«وهو أشقر» صرخت الملكة، وبدأت بالتمشي من جديد، «إنه أشقر مثل الهابسبورغي! وتريد أن تقتنع، فرديناند، بأن كل هذا هو مجرد مصادفة؟».

هزّ فرديناند كتفيه، «مصادفة، أم ليست مصادفة»، أجابها، «فالذي أعرفه؟ هو أن لا تهتاجي على هذا النحو، إيزابيلا! فهذا سيكون سيئاً لبشرتك

(1) الموكا- Mokka نوع من القهوة المكثفة شبيهة بالقهوة العربية التي يسميها البعض القهوة التركية. (المترجم)

البيضاء الحليبية».

ضربته إيزابيلا بمروحتها، «من يحتاج لجاسوس في الحمراء؟ من يمكن أن يكون له مصلحة في أن يعرف كل ما يدور لدينا هنا؟ كل شيء! وعندما جاء إلينا كان يرتدي لباساً مغاربياً!».

«إن كان مخبراً للمغاربيين حقيقة»، قال الملك ذلك وقد جلس على كرسي، مسنده الخشبي مزين برسوم محفورة، ولكنه شديد التعامد، ثم تابع قائلاً: «ولكنهم لن يتمكنوا عن طريقه من معرفة الكثير! فلماذا أنت منزعجة إلى هذا الحدّ؟».

«لماذا احتاجوا لمخبر في هذا الوقت، فرديناند؟» سألت الملكة، ثم عادت من جديد لحركة الذهاب والإياب، عشرون متراً ذهاباً ومثلها إياباً، «لقد أمضيت الليل وأنا أفكر، إنهم يهيؤن لهجوم! أو لمقاومة! فكر بالأمر، فرديناند، المغاربيون يريدون استعادة مدينتهم!».

تنهد فرديناند، ثم قال: «بالطبع هم يريدون ذلك، ومن لا يريدُ ذلك، إن كانت مدينة مثل غرناطه لم تعد تخصه؟ ولكن، هل يقدرون على فعل ما يريدون؟ وكيف سيتصرفون لتحقيق هذا؟ أين سيتجمعون؟ومن أين سياتون بالمال اللازم لبناء جيشهم؟».

«اليهودي!»، قالت له إيزابيلا، «هل نسيت ما أدلى به الجنود حول مخزن رياليخو؟ أقول لك، فرديناند: لا بد من أن أحداً ما سينقل لهم كنوزهم خارج البلاد؛ فكم هو مقدار الذهب الذي عليهم دفعه لقاء ذلك؟» ثم حدقت النظر به وتابعت: «المغاربيون لديهم الذهب من أجل قتالهم من وقت بعيد، كن متأكداً من ذلك! أما بشأن قيادتهم»، قالت ذلك وابتسمت، «فلديهم هذا القائد أيضاً».

«ذلك الجبان؟ بو عبديل؟» لقد استمع لها، ولكنه لم يكن مقتنعاً، وهو يرى أنَّ إيزابيلا كانت على قدر من الذكاء أحياناً، بحسب اعتقاده، ولها أحياناً وجهة نظر أخرى؛ غالباً ما كانت تأتي صحيحة ومتوقعة، «بوعبديل» لا بد إنه سعيد، بأنه قد أصبح الآن في راحة بال!».

«أنت تدعوه جباناً»، أجابته إيزابيلا، «أنا أعتبره ذكياً، أليس من الصائب أن ننعت قائد المعركة بالذكاء، عندما يدرك متى ستكون خسارته لمعركته؟ ولكن من سيؤكد لنا الآن، أنه إن استعاد تجديد قوته، لن يبادر لشن معركة جديدة؟».

دخل أحد الخدم وانحنى أمامها قائلاً: «قائد الجند، صاحبة الجلالة»، هزت إيزابيلا رأسها، «دعه يدخل!».

ثم التفتت إلى زوجها من جديد وقالت: «سنقوم بإرسال القوات إلى البُوخاراس، لقد كان تسرعاً منّا، منح الأمير مقاطعة، يكون وحده مسيطراً عليها، أياً كان حجمها الصغير، فهناك في أعالي الجبال، يستطيع جمع الرجال من دون أن نلحظ نحن ذلك، كما يمكنه أن يجمع السلاح لديه هناك بالقدر الذي يريد، إلى أن يكتمل وقت استعداده للهجوم».

«هراء»، قال فرديناند، إلا أن نبرة صوته لم تعد واثقة.

«علينا وقفه، قبل أن يكمل استعداده!»، قالت إيزابيلا، «ينبغي خنق الخطط في شرنقتها! فإن انتظرنا طويلاً سيكون الوقت متأخراً!».

نظر فرديناند إليها غير مصدق، «لقد وقعنا معهم معاهدة!»، قال لها، «***باكتا سون سيرفاندا***! ألست أنت ذلك الإنسان الذي يصر دائماً، على التمسك بتنفيذ كل حرف؟».

انكمشت إيزابيلا على نفسها، «أعلم ذلك»، غمغمت قائلة، «أعلم! أنه

البيضاء الحليبية».

ضربته إيزابيلا بمروحتها، «من يحتاج لجاسوس في الحمراء؟ من يمكن أن يكون له مصلحة في أن يعرف كل ما يدور لدينا هنا؟ كل شيء! وعندما جاء إلينا كان يرتدي لباساً مغاربياً!».

«إن كان مخبراً للمغاربيين حقيقة»، قال الملك ذلك وقد جلس على كرسي، مسنده الخشبي مزين برسوم محفورة، ولكنه شديد التعامد، ثم تابع قائلاً: «ولكنهم لن يتمكنوا عن طريقه من معرفة الكثير! فلماذا أنت منزعجة إلى هذا الحدّ؟».

«لماذا احتاجوا لمخبر في هذا الوقت، فرديناند؟» سألت الملكة، ثم عادت من جديد لحركة الذهاب والإياب، عشرون متراً ذهاباً ومثلها إياباً، «لقد أمضيت الليل وأنا أفكر، إنهم يهيؤن لهجوم! أو لمقاومة! فكر بالأمر، فرديناند، المغاربيون يريدون استعادة مدينتهم!».

تنهد فرديناند، ثم قال: «بالطبع هم يريدون ذلك، ومن لا يريدُ ذلك، إن كانت مدينة مثل غرناطه لم تعد تخصه؟ ولكن، هل يقدرون على فعل ما يريدون؟ وكيف سيتصرفون لتحقيق هذا؟ أين سيتجمعون؟ومن أين سياتون بالمال اللازم لبناء جيشهم؟».

«اليهودي!»، قالت له إيزابيلا، «هل نسيت ما أدلى به الجنود حول مخزن رياليخو؟ أقول لك، فرديناند: لا بد من أن أحداً ما سينقل لهم كنوزهم خارج البلاد؛ فكم هو مقدار الذهب الذي عليهم دفعه لقاء ذلك؟» ثم حدقت النظر به وتابعت: «المغاربيون لديهم الذهب من أجل قتالهم من وقت بعيد، كن متأكداً من ذلك! أما بشأن قيادتهم»، قالت ذلك وابتسمت، «فلديهم هذا القائد أيضاً».

«ذلك الجبان؟ بو عبديل؟» لقد استمع لها، ولكنه لم يكن مقتنعاً، وهو يرى أنَّ إيزابيلا كانت على قدر من الذكاء أحياناً، بحسب اعتقاده، ولها أحياناً وجهة نظر أخرى؛ غالباً ما كانت تأتي صحيحة ومتوقعة، «بوعبديل» لا بد إنه سعيد، بأنه قد أصبح الآن في راحة بال!».

«أنت تدعوه جباناً»، أجابته إيزابيلا، «أنا أعتبره ذكياً، أليس من الصائب أن ننعت قائد المعركة بالذكاء، عندما يدرك متى ستكون خسارته لمعركته؟ ولكن من سيؤكد لنا الآن، أنه إن استعاد تجديد قوته، لن يبادر لشن معركة جديدة؟».

دخل أحد الخدم وانحنى أمامها قائلاً: «قائد الجند، صاحبة الجلالة»، هزت إيزابيلا رأسها، «دعه يدخل!».

ثم التفتت إلى زوجها من جديد وقالت: «سنقوم بإرسال القوات إلى البُوخاراس، لقد كان تسرعاً منّا، منح الأمير مقاطعة، يكون وحده مسيطراً عليها، أياً كان حجمها الصغير، فهناك في أعالي الجبال، يستطيع جمع الرجال من دون أن نلحظ نحن ذلك، كما يمكنه أن يجمع السلاح لديه هناك بالقدر الذي يريد، إلى أن يكتمل وقت استعداده للهجوم».

«هراء»، قال فرديناند، إلا أن نبرة صوته لم تعد واثقة.

«علينا وقفه، قبل أن يكمل استعداده!»، قالت إيزابيلا، «ينبغي خنق الخطط في شرنقتها! فإن انتظرنا طويلاً سيكون الوقت متأخراً!».

نظر فرديناند إليها غير مصدق، «لقد وقعنا معهم معاهدة!»، قال لها، «*باكتا سون سيرفاندا*! ألست أنت ذلك الإنسان الذي يصر دائماً، على التمسك بتنفيذ كل حرف؟».

انكمشت إيزابيلا على نفسها، «أعلم ذلك»، غمغمت قائلة، «أعلم! أنه

ما كان ينبغي علينا إعطاؤه تلك الإمارة، كان ينبغي إرساله إلى مراكش أو إلى فاس، على الجانب الآخر من البحر، إلى المغرب! أما الآن فيكمن الخطر داخل بلادنا».

نظرت لقائد الجند الذي كان قد وقف أمامها، وقد أحنى رأسه قائلاً لها: «بعثتم بطلبي، صاحبة الجلالة؟».

«لقد هيأت لكم مهمة في البّوخاراس»، قالت له إيزابيلا.

قبل لانخارون، غادر كل من بوسطن وسالومون قافلة النازحين، فالدرب ينحو الآن باتجاه المنحدرات: بين أشجار الصنوبر نمت حشائش الربيع. كان الحديث بين الإثنين نادراً، ولكن عندما وصلا في اليوم التالي أخيراً إلى أورغيفا، سأل سالومون أحد الفلاحين، من هنا وما بعد، يتجه الطريق متعرجاً صاعداً للأعلى نحو الجبال.

وعندما بدأ سالومون، بإلقاء نظرات جانبية خاطفة نحوه، وتحويل نظره عنه من ثم سريعاً باضطراب، وعندما التقت عيناهما بالصدفة معاً، أدرك بوسطن حينها، أنه سيسأله.

«ومن أين أنت؟ ولماذا أنت هارب؟ ومن تكون حقيقة وانت بمثل هذا اللباس الباهظ القيمة؟».

عندما كانا يسيران في السهل، وقد أخذا من ثم بالصعود نحو الجبال، كان بوسطن قد فكر، إلى أي مدى يمكن أن يتحدث فيه إلى سالومون، إنه هكذا، وهو في هذه الوضعية، بوسعه أن يفكر جيداً، ولا سيما عندما تكون وشوشة جريان ساقية الماء تتناغم دائماً الى جانبه، إن سالومون لن يشي به إلى رجال توركيمادا، لأنه يكره محكمة التفتيش على نحو فائق، كما إنه لن يصدق أبداً أن لبوسطن شراكة مع الشيطان، أما إبلاغه بالحقيقة، فقد أصبح

من الواضح لبوسطن أكثر فأكثر، أن سالومون لن يصدقه، وليس من واحد آخر سيفعل هذا.

ينبغي عليّ تصور كيف سيكون موقفي، إن روى أحدهم لي في بلادي مثل هذه الحكاية، فكر بوسطن، سأظن للتو، إما أنه أصيب بالجنون، أو أنه يكذب.

أما سالومون فسيظن أنه يكذب، وسيخيم جو من الشك بينهما منذ هذه اللحظة، وفي المستقبل، فأي مبرر يتحتم عليه قوله، كي لا يخبر به سالومون بالبلد الذي جاء منه، من دون أن يقول له الحقيقة؟ إن سالومون لن يثق به في ما بعد أبداً.

أو أنه سيعتقد أنَّ بوسطن مخبَّل أو معتوه، يتحدث عن أمور يتخيلها. فبرهانه، يوجد في كيس الظهر الذي تركه قرب سور المدينة، إلا أن من سيجد كيس الظهر، سيتعجب، وسيرتاع؛ ولكنه لن يعلم، أن السر الكبير الذي بداخله، إنما يخص ذلك الفتى الأشقر، الذي تبحث الملكة في كل المملكة عنه.

فلو كان ما زال بحوزته، فربما كان سيُري سالومون ما بداخله مثلما أراه لطارق منذ اليوم الأول، عندما كان لا يعلم سوى القليل عن هذا البلد وعن هذا الزمن الذي يوجد فيه، وربما كان سيروي لسالومون الحقيقة لو كان ما زال يملك البرهان. ولكن ليس في مثل هذه الحالة التي هو فيها الآن، فهو ما زال بحاجة لصديق.

«لقد جئت من الشمال، من فرنسا»، أجاب بوسطن، وبماذا سيرد إن سأله سالومون، لماذا؟ وماذا يبغي في غرناطه؟» وقد التقيت بطارق في الطريق، إنه ذلك الفتى المغاربي، الذي جئت برفقته إليكم ولكن في الفندق، رآني بعض

الرجال الذين خيل لهم خطأ، بأنني أميربورغوند، بسبب شعري الأشقر، ولأنه كان ينبغي أن يكون قد وصل في الوقت نفسه إلى الحمراء، وعلى هذا الأساس تم أخذي إلى القلعة».

«لماذا لم توضح لهم، انهم مخطئون؟»، سأل سالومون، الذي كان ما زال متشككاً حتى هذه اللحظة.

«كنت خائفاً»، قال بوسطن، «ألم تعان من الخوف؟ وماذا لو تعرَّف عليّ الآن أحد الجنود الذين شاهدوني من قبل في رياليخو! لقد فررت منهم أيضاً للحال آنذاك، عندما تيسر لي ذلك!».

هزّ سالومون برأسه مفكراً بالأمر، «قد يكون هذا حقيقة وقد يكون كذباً»، قال هذا وهو في حالة من الإعياء، «في هذه الأيام لم يعد أحد يثق بالآخر، ليس من شيء مؤكد في هذا الزمان. ولكن ما الذي يدعوك للكذب عليّ؟».

«يمكنك أن تصدقني سالومون!»، قال بوسطن، «إنهم يلاحقونني!».

أشار سالومون نحو المنازل البيضاء، التي كانت ملتصقة على المنحدر من فوقهم، كما لو أن يداً قد رشت كمشة كبيرة منها فعلقت على الصخور، «تلك هي»، قال سالومون.

فجأة قفز أمامهما رجلان بلباس مغاربي، خارجين من الدغل المحاذي للطريق يمينا ويساراً، وسدا عليهما الدرب، رافعين سيفيهما، ثم أمسكا بالصبيين، من دون توجيه أي سؤال لهما، أو عما أتى بهما إلى هنا.

«يا إلهي»، صرخ سالومون ونظر مبتسماً إلى بوسطن، «الآن سيأخذوننا إليه».

كان الفلاح يبحث عن الظل، فحتى قبل صلاة الفجر ومع زقزقة أول

عصفور في قريته، كان قد أخذ طريقه خارج القرية؛ فرش ملاءته على الأرض، عند أول ضوء التمع في الأفق، فأدى صلاته؛ ثم تابع سيره باتجاه المدينة، كانت المدينة بعيدة، إلا أن سلته التي كان يحملها على ظهره لم تكن ثقيلة، ليس لديه الكثير ليبيعه، ومن يعلم، كم سيطول الوقت الذي يتاح له فيه الذهاب إلى غرناطة بالأساس، إن كانت المدينة قد أصبحت على تلك الدرجة من الخطورة بالنسبة لمغاربي مثله.

كان كلما اقترب من سور المدينة أكثر، كلما امتلأت الشوارع بالناس أكثر، لقد سمع الكثيرون في قراهم، كما علم هو أيضاً، أنَّ على اليهود الهرب؛ ولكنه لم يعلم كم هو عددهم، أما مدينة الحمراء فكانت تشع بالحمرة أيضاً فوق السهول القريبة منها، وكلما جاء إلى هذه المدينة في الماضي، كان يتعجب من قدرة تلك الأيدي على ما كانت تبدعه فيها، أما الآن فترفرف على برج ***فيلاتورم*** راية تحمل الصليب، لكنه ما لبث أن حوّل نظره عنها.

كانت إحدى الأسر قادمة على الطريق في مواجهته، وكان الأب يهز طفلاً صغيراً، لم يكن راغباً في متابعة السير، ملقياً بنفسه على غبار الطريق؛ كان الطفل يصرخ ويرفس بقدميه باكياً، وكانت الأم تحمل طفلة على ذراعها، عيناها مغمضتان، ورأسها يستريح على كتف أمها.

كان يمكنهم بالطبع أن يتحولوا إلى دين أكلة لحم الخنزير، فكر الفلاح لنفسه، وكان بإمكانهم بالتالي أن يبقوا في غرناطة. ولكن، ***والله***، من يرغب أن يصبح آكلاً للحم الخنزير!

قدم الفلاح للطفل الباكي كمشة من التين اليابس، فتوقف الطفل عن البكاء ونظر إليه مبهوتاً، فابتسم أبوه، وهزّ الفلاح رأسه له بود.

لقد أوفى من جديد ما تطلبه صلاته منه: أي أن تحسن للفقراء وأن تؤدي

الصدقات، كان الفلاح مؤمناً مخلصاً لتعاليم الرسول، حتى وإن لم يقم بالحج، أو لم يزر مكة بعد، فهو فلاح فقير، كما أن حقوله تحتاج له على الدوام.

وصل إلى بوابة المدينة عند أذان الظهر، وهو يعرف طريقه من هنا إلى سوق الخضار حتى إن كان نائماً، ولكن قبل الوصول إلى هناك شعر أنه بحاجة لبعض الراحة.

كان قد وجد بقعة من الظل بجانب السور، اعتاد على الاستراحة فيها مرات عديدة من قبل، وإن يكن لأوقات قصيرة دائماً، قرر أن يستريح لدقائق ثم ينهض، فلا ينبغي له أن يعود ليلاً للمنزل بيدين فارغتين، بعد أن تزوج المرأة الثانية، التي ينتظر منها طفلاً، لقد زادت الأفواه التي عليه إطعامها.

القماش غير المألوف الذي رآه، لم ينتبه إليه سوى عندما همّ بالنهوض ليمضي في سبيله، وذلك عندما انحنى ليرفع سلته من جديد، فتراءى له القماش من خلف إحدى الصخور.

لم يكن الكيس كبيراً، ولاحظ الفلاح من اللحظة الأولى أنه قد جرى استخدامه لمدة طويلة، فالقماش مهترىء، والحمالات الجلدية تشوه لونها، إذ أصبحت قاسية في بعض الأماكن أو ان انتظام شكلها قد تشوه أيضاً، وقد فكر الفلاح في نفسه، في أنَّ الكيس يشبه سلة مثل التي يضعها هو على ظهره، ولكنها مصنوعة من قماش، ولكنه لم ير مثل هذا الكيس أبداً من قبل.

أما إبزيم غلقها فمصنوع من الخشب، يتم قفله بعد إدخاله من خلال عروة مصنوعة من الجلد، وفي داخل الكيس تلمس وجود شيء ثقيل.

حلّ الفلاح الزر الخشبي خارج عروته، ثم فتح الكيس وأخذ يبحث بداخله، وعندما أخرج يده مرة أخرى، توقف نبض قلبه.

-22-

«ما كنت أريد أن أصدق»، صرخ طارق، «كم كنت غبياً، كم كنت غبياً!».

يومان حتى الآن أمضاهما فوق، في الجبال، ودائماً كان يحاول أن يقنع الأمير؛ ولكن أبو عبدالله بقي راسخاً على موقفه، وتوجه بالكلام نحو طارق:

«لقد خضت من المعارك عدداً أكثر مما يمكن أن تعده أنت من سنوات عمرك»، قال الأمير مُجهَداً، «فمن منّا نحن الإثنين يعرف أكثر إذن، عمّا يمكن أن ينتظرنا، إن نحن تجرأنا على المقاومة؟».

«لقد كنت غبياً، أوه، لقد كنت غبياً!» صرخ طارق من جديد، «لقد تحدثت غرناطة كلها عن ذلك، فتحدث أكلة لحم الخنزير، بصوت عال ومتبجح، وهو أيضاً ما قاله المؤمنون من المسلمين وإن فعلوا ذلك سراً: إن الأمير الأخير لغرناطة كان جباناً! لقد ضحى بمدينته، وبملكه، من أجل راحة باله! لم أرغب حينها في تصديقهم، فسخروا مني وقالوا: ***برهن لنا على أنه يرغب حقاً في القتال، وسنكون نحن جاهزين لذلك!*** وبجهد كبير، تمكن أصدقائي الذين يثقون بكم مثلي، من العثور أخيراً في مالاقا على القبطان، الذي كان مستعداً، لتجاوز قانون طرد اليهود: والآن يمكنكم الحصول على وفرة من

الذهب من أجل كفاحنا، ولكنكم لا تريدون القتال! الأمير جبان!» وضرب بقبضته على السور المنخفض، وانكمش من ثم على نفسه، «أم أنكم ربما ترغبون في الحصول على الذهب بالطبع، ولكنكم تفضلون استخدامه، من أجل تشييد قصر جديد لكم هنا؟ وربما لهذا السبب، لا ترغبون».

«عن ماذا تتكلم أيها الصبي!»، قال الأمير، لقد احتجزوا ولدي أسيراً لديهم لسنوات طويلة قادمة، ومع ذلك لم أستسلم لهم كي أوقف القتال! ولكنني كنت أعرف دائماً: إن سقطت ألميرا، فستسقط غرناطة أيضاً، فهل تسمي الذكاء جبناً؟».

«مولاي»، ناداه طارق، «أرجوكم!»

«دعنا نلعب الشطرنج»، قال الأمير، «لندع الخادم يجلب لنا الرقعة القماشية. فقد صنع لي النجار أحجاراً جديدة».

«وماذا إن ربحت أنا؟» سأل طارق، «مولاي! سندع هذه اللعبة تقرر، فإن ربحتم أنتم، لن أواصل انا الإلحاح على طلبي، أما إن ربحت الجولة أنا، فستهبّوا عندها لمواجهة الملكة».

«لك أنت الأحجار البيضاء»، قال الأمير، «ولك القيام بالنقلة الأولى».

تلفت الفلاح قبل كل شيء حوله، يمنة ويسرى، وتأكد من أن أحداً لا يراقبه، ثم أخذ بتفحص لقيته.

أول شيء رآه كان كتاباً، والكتاب لوحده كان مخيفاً له بما فيه الكفاية، لم يكن من الجلد، وما كتب على ما يجمع بين دفتيه، لم يكن من الرقّ، كما لم يكن أيضاً من القماش، وألوان الصور بداخله كانت براقة وبدت الحمراء فيها غريبة، وما هو تحتها ملون وغير مفهوم، أما الكتابة فلا يعرفها، ولكنها كانت دقيقة ومتقنة، وهي ليست عربية، كالتي تعود على رؤيتها دائماً،

وبينها مرة أخرى صور بألوان زاهية لم يفهم الفلاح منها شيئاً، توقف قلبه. فأعاد الكتاب ثانية إلى الكيس.

الشيء الثاني كان محفظة صغيرة، كانت هذه المرة مصنوعة من الجلد، لم تكن مخيفة، ولكنها غير قابلة للفتح، ومغلقة تماماً من كل حوافيها، لا زر لها، وليس لها رباط، يمكن حزم المحفظة به لغلقها. هي ببساطة محفظة مغلقة، محفظة بإطار معدني رفيع من جهاتها الثلاثة، التي يتدلى منها مثلث معدني دقيق، وبداخله، تمكن الفلاح من خلال تلمس الجلد الخشن، أن يتحسس وجود قطع مسطحة تتزحلق على بعضها مثل قطع من النقد.

لقد أصبح انفعاله أكثر، فما وجده هنا، كان شيئاً لم يسمع بمثله من قبل، إنها أشياء من غير الممكن توضيحها، إنها أشياء غريبة، ثم سحب الشيء الثالث من الكيس.

كان بلون أسود، مثل بيضة مسطحة مصنوعة من مادة لمّاعة مميزة! إنه أصغر من راحة يده، وله مجرى، يمكن أن يتحرك جانب منه باتجاه ذروته، ثم يمكن زلق الجانب الآخر للعودة كما كان، وعندما أدخل ظفر إبهامه قسراً في المجرى، انفتحت البيضة المسطحة لشقين، في ناحية منها كانت ذات سطح عاكس مثل الزجاج؛ وفي الأخرى كانت تبرز نقاط عليها أرقام وحروف.

أطبق الفلاح البيضة، وكان إثر ذلك على يقين كامل: إن مثل هذه الأشياء ليست من هذا العالم الأرضي، فحتى أكلة لحم الخنزير لا يملكون مثل هذه الأدوات، والحال نفسُهُ هو حال اليهود، فما رآه، مصدره عالم آخر.

سجد الفلاح، وأحنى ظهره إلى أن لامس جبينه الأرض المغبرة، لقد رغب بمناجاة الله والنبي، ولكن ماذا كان يريد أن يسألهما في صلاته؟ كان يريد شكرهما لأنه لم ير نهايته، ولأنهما حفظا حياته، الله أكبر! فالصلاة هي

الشيء الصحيح الذي خطر له فعله، وهذا ما وجد أنه ينبغي عليه القيام به.

فلو لم يأت إليه الجندي في هذه اللحظة، لكان الفلاح أعاد الكيس إلى المكان نفسه الذي وجده مخبأ فيه، وحاول أن ينسى الكيس وما فيه، وفقط بعد أيام، ربما قد يسّر إلى زوجتيه بما رآه.

أما الآن فما من خيار، فقبل أن يتحدث الجندي إليه، مدّ الفلاح بيده التي تحمل الكيس نحو الجندي، «انظر ما الذي وجدته!» ناداه الفلاح، «الله أكبر! انظر لهذه الأشياء العجيبة التي وجدتها!».

إن ما كان يبدو من بعيد كقرية فقيرة تملؤها تلك الأكواخ الصغيرة، تتبدى عن قرب ذات سحر غريب أخاذ. لم يكن يوجد هناك قصر؛ فعلى فسحة مفتوحة على الوادي كان يقوم البناء الذي يخص الأمير، كان المنظر من هنا يبدو فائق الفتنة.

كان الحرفيون والعمال المهرة منتشرين في كل مكان منشغلين في تحويل المنطقة إلى مقر يصلح لإقامة أمير: الجدران يتم تغطيتها بالأثوليخوس، وعلى السلالم يقف الرسامون وهم يزينون الأسوار بكتابات بالخط الكوفي، وأمام المدخل يستلقي الأمير على سجادة، تتداخل أشكال تزيينات الأرابيسك التي عليها، مثل تلك التي في قصر الحمراء، أما هو فكان مستغرقا بالنظر في رقعة الشطرنج القماشية.

«لا تبدو الأمور جيدة بالنسبة لكم، مولاي!»، همس طارق، تاركاً يده تحوم فوق أحجار الشطرنج، «كش الملك، والآن، لا ادري كيف ستتمكن من الهرب».

«ينبغي الاعتصام بالصمت، عندما يلعب المرء مع الملوك، أيها الفتى»، قال له الأمير، وقد بدت عليه إمارات الجد، على نحو أكثر بكثير مما تقتضيه

خسارة لعبة شطرنج.

«طارق!» هتف بوسطن، أما الحارس الذي كان قد ربط يديه خلف ظهره، فكان قد أرخى قيده قليلاً لبعض الوقت، ثم ما لبث أن عاد لشد قيده أكثر، «إنني في غاية السعادة، إذ وجدتك هنا!».

ولكن لماذا ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟ سأل بوسطن نفسه، فلم يكن صديقاً له لسنوات طويلة، بل أنا لم أعرفه حتى ليوم كامل، ومع ذلك.

لم يكن صديقي، ولكنه آزرني، ينبغي أن يكون جزعاً بعد كل الذي حدثته به وأريته إياه؛ولكنه لم يش بي على الإطلاق، لا بل اشترى لي لباساً مغاربياً كي أتخفى به.

نظر طارق إليه، إلا أن معالم وجهه بدت غاضبة، ثم سأل: «من يجرؤ على إزعاج الأمير أثناء لعبه للشطرنج؟» ثم عمت الصدمة أوصاله، كانت أنظاره تتنقل بين بوسطن وسالومون، ربما أدرك في هذه اللحظة أن أمراً جللاً قد حدث، بحيث أن كل أمل لتحرير غرناطة قد جرى دفنه.

التفت الأمير إلى طارق، بعد أن ألقى بيده إلى جانب رقعة الشطرنج. وسأله هل تعرفهما؟».

هزّ طارق برأسه، فأعطى الأمير إشارة إلى الجندي، بدأ بعدها بوسطن بدعك مفصل يده، فمن كان من غير سلاح تم اقتياده هكذا، قال بوسطن لنفسه، فإن كان من يأتي من دون سلاح، ولن يكون خطراً عليهم يعامل هكذا، فماذا سيفعلون إن جاء مكاننا جنود الملكة المسلحين، زاحفين صعوداً نحو الجبل؟

بقي الجنديان واقفين وراء كتفي بوسطن وسالومون، واضعين يديهما على قبضتي سيفيهما.

«مولاي»، قال طارق، أما بوسطن فبدا مرتبكاً ومذهولاً، ثم تابع طارق قائلاً: «هذا سالومون. وقد كنا تحدثنا عن أبيه من قبل».

هزّ الأمير برأسه سالومون»، قال له، ثم تابع: «أرحب بكم عندنا هنا».

تقدم سالومون خطوة للأمام بحذر، إلا أنه لم يجسر على الجلوس.

«وهذا الذي هنا»، قال طارق ذلك ثم توقف قليلاً، وقد لاحظ بوسطن أثناء توقفه بأنه يبذل عناء واضحاً ليفهم ما تعنيه حلة الملابس الجديدة التي هو فيها الآن، «إنه صديق – لقد اعتقدت أنه كان صديقاً، أما وأنه يقف أمامنا الآن وهو بمثل هذه الملابس الحريرية...»، ثم نظر إلى بوسطن متشككاً.

«إنني أفهم معنى أن تكون مستغرباً، »، قال بوسطن، «إلا أن كل ما تراه هو مجرد التباس، لقد أخذوني إلى الحمراء، إثر ذهابك، لأنهم ظنوا أنني الأمير الذي كانوا ينتظرونه!».

«فيليب فون بورغوند»، قال الأمير ذلك مؤكداً، فيما عيناه كانتا سارحتين فوق رقعة الشطرنج القماشية، كان الوزير الأسود يقف لوحده مهدداً من الحصان والفيل الأبيضين في وقت واحد؛ ومن ورائهما كان يتربص في الوقت ذاته الوزير الأبيض، ثم تابع الأمير موجهاً كلامه إلى بوسطن: «ولكن لم تكن أنت من انتظروه؟ وهذا يعني أن الملوك يبغون توسيع حدود ممالكهم من خلال زواج أولادهم، أي أنهم يريدون جعل مملكتهم أكبر من خلال الزواج، وربما باستثناء طرفي الزواج فهذا في جميع الأحوال، أفضل لهم من الحرب»، أنهى الأمير كلامه، وهو يضحك لعبارته الأخيرة.

ثم تحول الأمير إلى الكلام الجاد متوجهاً إلى بوسطن، «أنت إذن لست هو؟ ينادونه بالهابسبورغري، وهو أشقر مثلك، وهو فتى في الرابعة عشرة من عمره – ولكنك لست هو؟».

هزّ بوسطن رأسه بالنفي، وردّ قائلاً: «لقد كان ذلك مجرد التباس! لذلك اضطررت للهرب، لقد اعتراني الخوف، هناك فوق، في الحمراء!» ثم فكر بالبرهان الذي يمكن أن يبرزه ليثبت أنه ليس هو أمير بورغوند، وأن لا صلة له بالملكة، فتوجه لطارق سائلاً: «طارق! أنت تتذكر بالقطع، ما أريته لك في غرناطة!».

امتقع لون طارق.

«أنت دفعتني»، قال بوسطن، «كي أخفي كيس الظهر وما فيه، وهذا ما فعلته؛ وأنت لا تعتقد بأن هذا المدعو فيليب فون بورغوند... ؟».

لم ينبس طارق بأية إجابة.

نقل الأمير نظراته المتسائلة بين الأول والثاني.

أخيراً، هزّ طارق برأسه، «كلا، كيف سيكون لديه مثل هذه...»، ثم تلكأ، فهو لم يشأ التحدث عن الكيس الذي ذكره بوسطن، «يمكننا تصديق روايته، إنه التباس»، قال طارق.

أحضرت إحدى الخادمات صينية من الفضة ووضعتها على الأرض بصمت، كان الشاي المصبوب في كؤوس صغيرة حاراً وحلواً.

تفحص الأمير بوسطن، وربما انتهى خلال ذلك إلى الإستنتاج أنَّ هذا الصبي، أياً كان اللباس الذي يرتديه، لا يسلك سلوك أمير قادم من بلاط ملكي، تناول الأمير كأساً وقدمه إلى سالومون، «وأنت؟»، سأله الأمير، «لماذا أتيت أنت أيضاً؟ هل بعث بك أبوك لنقل خبر ما لي؟ هل أحضرت لي ذهباً؟».

طيلة الأيام الثلاثة الماضية كان سالومون في تجوال متواصل، بوجه متيبس، نادر الكلام، لقد حمل هذه الحالة معه بالتأكيد من غرناطة، وبدا له

في البُوخاراس وكأنه نسي تلك الحالة، وكل ما حدث لأسرته، أما في هذه اللحظة فقد استعاد فجأة كل ذلك الماضي المؤلم.

ثم بدأ بالبكاء، «لقد أحرقوا منزلنا!»همس متحدثاً، «لقد احترق كل شيء! كما اصطحبوا والدي معهم».

«أحرقوه؟»، سأل طارق، ما الذي أحرقوه؟ وماذا عن المخزن؟».

لقد هيج بكاء سالومون أوصاله كلها لأبعد حد، فارتجفت يداه، واندلق الشاي من طرف كأسه.

أخذ بوسطن الكأس من يده بلطف، وقال: «لقد أحرقوا منزله!» وتعجب لجرأته، «وهو لا يعلم ما سيصنعون بأبيه! وأنت تسأل قبل كل شيء عن مصير المخزن؟».

إلا أن طارق بدا وكأنه لم يسمع ما قيل، وسأل: «هل احترق كل شيء؟ أم أنكم تمكنتم من إنقاذ جزء منه أعطيتموه لقبطان السفينة؟ تكلم، سالومون!».

هزّ سالومون رأسه، فهو لم يستطع أن ينبس بكلمة.

«طارق!»، ناداه الأمير، «هذا الصبي على صواب، فصديقك معني الآن بأمور أخرى».

«ولكن ليس نحن!»، صاح طارق، وقفز واقفاً، ارتمى الوزير الأسود على جنبه ثم تدحرج فوق رقعة الشطرنج القماشية، «إن لم ينجح اليهود الآن في نقل مقتنياتهم إلى خارج البلاد بمساعدتنا، لن يتم منحنا الذهب لقاء أجرنا، وإن لم يتوفر الذهب».

«فلن نتمكن من الإقدام على المقاومة»، قال الأمير، وألقى نظرة على رقعة الشطرنج، لقد خسر وزيره، ولا مجال لإنقاذه، «إن آلافاً، بل عشرات الآلاف

من الرجال الذين تتحدث عنهم على نحو متواصل، كيف سيمكن قيادتهم من دون سلاح؟ فمن دون ذهب لن يكون هناك سلاح، ومن دون سلاح لن يكون قتال، كنت على وشك إقناعي، بأن ذلك هو واجبي، «ابتسم ولملم رقعة الشطرنج القماشية، فاختلطت الأحجار فيما بينها، «ولكن الله حماني من حماقة فظيعة».

«مولاي»، صرخ طارق، «دعني أعود للمدينة! دعني أرى، إن كانت الأمور هي فعلاً هكذا، كما وصفها! دعني أتحدث إلى سانتآنخيل، إن كان يعرف مخرجاً آخر!».

«أمين خزانة الملك؟»، سأل الأمير ساخراً، «لماذا ينبغي على هذا بالذات مساعدتك للقيام بانتفاضة ضد سيده؟».

أخذ طارق يتمشى ذهاباً وإياباً. «إن سانتآنخيل لا يعلم شيئاً بشأن المقاومة، وكل ما يهمه هو إنقاذ إخوته من اليهود، فهو نفسه *كونفرسو*، مولاي! وهو يبغي مساعدتهم فقط. وسيحدد لي الجهة التي سيتم نقل مقتنياتهم إليها، قبل أن يقوم بنقلها من هناك إلى السفينة! فخطتنا ما زال بالإمكان تنفيذها!».

صفق الأمير بيديه، فحضر احد الخدم.

«خذ هذين الصبيين إلى الحمام» قال للخادم، «وأعطهما ألبسة نظيفة، ودعهما بعد ذلك يستريحون، ولا توقظهما عند الصلاة»، ثم أومأ برأسه إلى سالومون، «سيتحسن حالك حتى العشاء، فالنوم هو أعظم مخفف للألم».

-23-

ثلاثة جنود قاموا باقتياده، وكأنه مجرم.

«إلى كبيرالمفتشين!»، كانوا يصرخون، «هذا شيء ينبغي على كبير المفتشين فحصه!» طلبوا منه حمل الكيس، فأدرك بأن تكليفه بحمله كان لأنهم لم يرغبوا في لمس هذه الأداة الشيطانية.

«ولكنني لم أفعل أمراً ممنوعاً!»، صرخ الفلاح، «لقد وجدت الكيس فقط، وهو لا يخصني! فلولاي لم تكونوا لتجدوه!».

دفعه الجنود أمامهم من دون أن يردوا على صراخه، كان القصر يقوم في الساحة الكبرى التي تحت الحمراء، وهو يدعى كبير مفتشي محكمة التفتيش، الذي يخشاه الجميع، ولكنه كان يعيش حياة متواضعة مثل إنسان هجر الحياة ليعيش في خلوة عازلاً نفسه عن متع الدنيا.

كان وجهه حاد التقاسيم، ولا تسكن في عينيه أية آثار للابتسام، كما فكر الفلاح في نفسه، وخلف هاتين الشفتين لم يعد هناك مكان للضحك، كما أن آلاف منابع الفرح كانت قد جفت لدى هذا الرجل منذ أمد بعيد جداً.

وعلى خلاف الجنود، لم يظهر توركيمادا، كبير مفتشي محكمة التفتيش أية نأمة خوف، رشق إشارة الصليب على وجهه، ثم تناول بيديه الأشياء الثلاثة التي في الكيس ووضعها على طاولة سوداء ثقيلة مصنوعة من خشب الزيتون، ثم دقق في تلك الأشياء لمدة طويلة، فتح الكتاب، وقلّب صفحاته.

نظر ملياً في الصور، ومرر سبابته من فوق سطور الكتابة، ثم ثنى وطوى ذلك المجلد اللين اللماع.

أما تلك المحفظة الجلدية الصغيرة، التي لا يمكن فتحها، فقد نقلها بين يديه وقلبها بينهما، ثم رفعها إلى مستوى أذنه، ثم هزّ برأسه.

لكنه أمضى وقتاً طويلاً في معاينة البيضة، فتحها وأغلقها مراراً، ثم مرر أصابعه على النقاط البارزة، وفجأة أضاء الزجاج متوهجاً، ورن نغم لمدة قصيرة، كما أضاءت منطقة خلف النقاط البارزة بضوء يشبه الجمر.

«يا ألله!»، صرخ الفلاح.

ترك كبير المفتشين البيضة تسقط على الأرض من بين يديه، وتراجع خطوة إلى الوراء، ثم بعد لحظة أخرى، أضاء الزجاج من جديد، وخمد الضوء، واختفى أيضاً وهج النور من وراء النقاط البارزة.

«أين وجدته؟» سأل توركيمادا، كان صوته أجشاً.

انحنى له الفلاح.

«وجدته مخبأ خلف إحدى الصخور، أيها الموقر»، أجابه الفلاح، «كان مخبأ من جهة الجانب الداخلي لسور المدينة، وقد سلمته للحال إلى جنديكم، إنه أداة شيطانية، أيها الموقر، إن شيئاً مثل هذا الشيء، لا أريده!».

نظر إليه كبير مفتشي محكمة التفتيش بتأمل، وقال للفلاح: «إنني على وشك أن أكون مستعداً لتصديقك، أيها المغاربي»، ثم تناول البيضة من جديد باحتراس بين يديه، لقد بدا وكأن الزمن قد توقف في الغرفة، فقد حبس الجنديان أنفاسهما، ومنذ الآن فصاعداً، سيشيع الخبر عن مقدار الشجاعة التي يتحلى بها كبير المفتشين، إنه لا يعرف الخوف، حتى في مواجهة أداة من صنع الشيطان، «يبدو لي وكأنني رأيت هذا الكيس في وقت ما؛ ولكن

ليس بحوزتك».

اقترب أحد الجنود للأمام قليلاً وانحنى، كي يرى، كيف يعاود كبير المفتشين للمرة الثانية تمرير أصابعه فوق النقاط البارزة، ولوهلة قصيرة عاد الزجاج ليضيء، ثم ليرن بنغم خافت، ثم عادت البيضة إلى الصمت.

لامس كبير المفتشين الكيس، «لقد رأيت هذا الكيس من قبل»، غمغم من جديد، «وسأحزر فيما بعد، أين كان ذلك».

أعطى الجندي إشارة، وقال: «أطلق سراح المغاربي، لقد روع بما يكفي، ولا يعدو دوره أنه عثر على أداة الشيطان فحسب، ويبدو لي، أنه ليس من قبيل الصدفة، أن الشيطان وجد طريقه عبر من لا يؤمن ليومئ إلينا بألغازه، وليس عبر مسيحي مؤمن، يمكن للمغاربي أن ينصرف».

ركع المغاربي على ركبتيه وقال: «أشكرك أيها الموقر، أرجو أن يحفظكم الله».

«أنا لا أحتاج بالتأكيد لدعائك أيها المغاربي»، قال له كبير المفتشين، ثم التفت إليه قائلاً: «انتبه لتعرف كيف تذهب من هنا بأسرع وقت تستطيعه، قبل أن أعيد النظر بما قلته».

خرج المغاربي جارياً من الحجرة، أما وجه كبير المفتشين، فبدا مرهقاً لشدة إجهاد نفسه بمراجعة ذاكرته.

إلا أن الأمر كان سيان بالنسبة للفلاح، وما سيحصل لتوركيمادا، فبالنسبة له، لم يكن الوقت متأخراً بعد للذهاب إلى سوق الخضار، وهو حرّ الآن. وكان يعلم أن عليه أن لا يخبر أحداً بلقيته، وبأن كل ما يرغبه الآن هو بيع تينه المجفف، ليعود بعد ذلك ليلاً إلى منزله، فربما يبحث في المستقبل عن سوق خضار آخر يعرض فيه ما يرغب في بيعه.

كان العشاء يتم في البُوخاراس بما يشبه الصمت تقريباً، فسالمون ما زال يعاني سيل دموعه؛ وطارق، الذي كان قد عرف بوسطن جيداً، كان يمعن التفكير بالكيفية التي سيقنع بها الأمير.

لم يكن طعم الأكل مألوفاً، إنه لحم خروف، تم تتبيله بتوابل حارة وبالفلفل الأحمر والثوم، وبجانبه الرز، وصرر من رقائق العجين، كانت حشوتها الرطبة تحرق الحلق، السلطة وحدها، كانت تذكره بمثل ما هو لديهم بالمنزل. «كلوا بقدر ما تستطيعون!»، قال الأمير، وتناول لنفسه قطعة من قصب السكر، وضعها في ماء زهري اللون، «فبعد سيركم الطويل ينبغي أن تكونوا قد جعتم كثيراً».

كان صحن سالومون ما زال ممتلئاً تقريباً، عندما أخذه الخادم من أمامه. وقد أحضر الطاهي أطباقاً عليها فاكهة، أما بوسطن، فلم يتصور في أي وقت من الأوقات، أن بإمكانه تناول مثل هذا القدر من الطعام.

«لقد أمرت بإعداد حجرة نوم لكم»، قال الأمير، وهو ينهض من على وسادته المفروشة على الأرض، «وقد تم فرش الوسائد لكم أيضاً».

إن هذا يشبه تقريباً ما كان في *الهوستال*، فكر بوسطن لنفسه، عندما استلقى على الوسادة، الفرق هو فقط، أننا كنا هناك أربعة، أما هنا فنحن ثلاثة، وأن ما كان في الهوستال كأنه قد كان قبل ألف عام.

«ألا تستطيع النوم؟»، همس سالومون، وكان هو أول من سحب الغطاء من فوقه، «ينبغي أن تكون أنت تعباً مثلي! بل وأكثر تعباً، ربما لأنك مشيت أسابيع قبل ذلك عبر فرنسا وعبر مملكتنا!».

أما بوسطن فكان ينظر عبر النافذة المفتوحة باتجاه السماء التي كان القمر يتربع فيها عالياً، وينسل غاطساً إلى قلب الحجرة بضوء بارد، مما جعل نور

الحجرة باهراً، إلى الحد الذي يمكن فيه ربما حتى قراءة صحيفة.

كان سالومون يتقلب في مرقده، أما طارق فكان يستلقي ساكناً.

«أنت لم تروِ لي بعد، لماذا سرت كل هذا الطريق البعيد من الشمال!»، همس سالومون، «فإن لم تكن أنت ذلك الأمير، كما تصوروك: فمن أنت إذن؟ لقد سرنا معاً عبر الجبال، وقد عرفت اسمك؛ ولكن لا أعلم عنك شيئاً آخر، بوسطن».

«ليس من ضرورة للهمس»، قال طارق ذلك من مرقده وقد استند إلى كوعيه، «أنا لا أقوى على النوم، أنا أفكر، إنني أفكر وأفكر، كيف سنُخرِج أكلة لحم الخنزير من غرناطة، إنني أفكر إلى الحد الذي جعلني التفكير حائراً».

«بوسطن؟»، سأل سالومون، ولكن بصوت أكثر ارتفاعاً هذه المرة، «إن كنت أنت مثلنا لا تستطيع النوم: ألا ترغب في أن تحكي لي؟ وربما تعينني كي أصرف انتباهي عن الأمر الفظيع الذي أدور في حلقته».

«من الأفضل أن لا تسأله، يا ابن إسحاق!»، قال له طارق، «لأنه سيقدم لك مائدة من الحكايات التي لن يمكنك تصديقها؛ ولكنك لن تتمكن من نسيانها بعد ذلك! أو أنك ستفكر بعد ذلك، بأنه ربما يكون ما ادعاه قد حدث فعلاً، إلا أن حالك سيصبح أفضل بعد الذي سيقوله».

ظل بوسطن معتصماً بالصمت، أعرف القليل عن هذا الزمن كي أَتعمد الكذب، فكر بوسطن في نفسه، كيف يمكنني إيجاد رواية، أقولها لسالومون، فيها تبرير مقنع لما دفعني لأن أجول مشياً من الشمال إلى هنا؟وما هي الأحداث التي عايشتها أثناء الطريق؟ فهو سيلاحظ للحال أن لا معنى لذلك الذي فكرت به، أما طارق فهو عالم بحالي على أي حال.

«حدثني عن حكايتك، بوسطن»، قال له سالومون من جديد، «أكثر هولاً من تلك التي عشناها في غرناطة، منذ أن سيطرت الملكة، لا يمكن أن تكون، فلماذا ينبغي أن لا أكون مستعداً لتصديقك؟».

«لم يعد لديّ البرهان»، غمغم بوسطن، لقد فعلت ما نصحني به طارق، لقد خبأته».

«البرهان؟»، سأل سالومون، «البرهان على ماذا؟».

التفت بوسطن إلى طارق، الذي كان مستلقياً وقد أدار وجهه إلى الجدار، وبدا كما لو أنه قد غفا في نومه، إلا أن بوسطن كان واثقاً، أنّه يتابع كل كلمة تقال.

«لقد سافرت عبر الزمن»، قال ذلك بصوت منخفض.

لم يعد لديها متسع للراحة، وليست هي المرة الأولى التي تشعر فيها بذلك إثر كل محادثة مع الجنوي، ثم جاء هروب الصبي، وهمومها بشأن ذلك، وبحثها عن معرفة من كلفه القيام بلعب دور الأمير، كل ذلك تمكنت من صرف همها عنه؛ ولكنها، تستيقظ الآن ولديها كل تلك الأفكار المتعلقة بتلك النفوس التي لم تتحول للمسيحية في كل من كاتاييس و سيبانغوس، الأمر الذي لا يدعها تركن براحة للنوم.

لا يوجد برهان، فكرت إيزابيلا، إنه سوء الحظ فقط هو ما يكمن في المسألة، فطالما أن لا أحدَ حاول من قبل الإبحار غرباً، فلن يمكننا معرفة من هو على حق: هل هو هذا الأحمق الكبير، كولون، أم هم علماء مملكتي. لقد كان من الخطأ، أننا لم ندع رئيس اللجنة تالافير اليشاركنا في تلك المناقشة يوم السبت، فاللجنة كانت على الأقل هي من قرر اعتبار خطط الجنوي، لا قيمة لها، ورفضت مطالبه؛ إلا أن هذا الكولون، حضر إليها فجأة بكل بساطة،

ومن دون دعوة، كما أصبح شأنه في الآونة الأخيرة، فكيف سيتسنى لها دعوة رئيس الأساقفة بهذه السرعة، لقد نقل سانتآنخيل بالطبع إلى تالافيرا بعضاً مما جرى النقاش بشأنه وأوضح له ما يقوله العلم بخصوص هذه المسألة؛ ومع ذلك كان لديها الإحساس بأنه، ومن أجل اتخاذ قرار نهائي، لم يتم فعل كل ما هو دقيق وصائب على نحو كافٍ.

لهذا السبب طلبت الدعوة لعقد مائدة نقاش في قاعة السفراء، للمرة الأخيرة، ثم حدقت في التشويه الحاصل في الإطار، الذي كتبت عليه عبارة ولا غالب إلا الله. لقد بدا منظر الإطار مع هذا التشوه بشعاً، وأنه لا بد من إحضار مهني ليقوم بصنع بلاطة جديدة من الخزف، تحمل تلك الكتابة، وليس لديها ما يمنع من ذلك، إن كانت تلك الكتابة تزين القصر كله، حتى وإن كتبت بالعربية.

«رئيس الأساقفة تالافيرا!»، نادته الملكة، كانت هذه أول مرة تلتقيه منذ محادثتهما مساء يوم الجمعة، وكملكة ينبغي لها نسيان الخلافات، وكرئيس للأساقفة عليه أيضاً نسيان خلافه، «كم هو جميل منك أنك لبيت دعوتي بمثل هذه السرعة».

أحنى تالافيرا رأسه قليلاً.

«عندما تدعوني، صاحبة الجلالة»، وبدا أقل تقيداً بالشكليات، «فإنني أحضر إليكم بسرور، فما زال لدي اليقين أيضاً».

قاطعت إيزابيلا كلامه. «كما ترى فقد دعوت السنيور سانتآنخيل أمين خزانة زوجي، إلى هذه المحادثة، كما أن زوجي سيحضر للحال إلينا»، ثم نظرت للباب، وتابعت: «هذا ما آمله».

أدرك تالافيرا أن الأمر لا يتعلق بالمسألة التي أمّل أن تكون، فالملكة لم تغير

رأيها للآن، بالنسبة لقانون طرد اليهود الصادر في آذار/مارس.

«يوهانّأ» ناداها تالافيرا بود، «تسعدني رؤيتك من جديد، أيتها الأميرة! لقد بلغني، أن خطيبك لم يحضر كما كان متوقعاً، آمل أنك لست حزينة لذلك؟»، ثم غمز لها بعينه.

قلبت يوهانّا شفتها السفلى، «لا أعتقد أنه من اللباقة، أن تتحدث عن هذا الموضوع»، قالت له.

ابتسم رئيس الأساقفة، «بالتأكيد لا، المعذرة، يوهانّا»، قال لها، «والآن، صاحبة الجلالة؟ لماذا دعوتني؟».

«المسألة تتعلق مرة أخرى بالجنوي»، قالت إيزابيلا، ثم نظرت بانزعاج نحو الباب، لقد أصبحت مغامرات فرديناند مزعجة مع مرور الوقت، فإن لم يستطع التخلص من ألعابه، حتى عندما ترجوه زوجته الحضور للمحادثة، فإن ذلك يعني أن الأمور وصلت إلى نقطة، يقتضي معها التحدث إليه بوضوح.

«أود أيها الموقر رئيس الأساقفة أن أفهم، لماذا لم تلق لجنتكم من العلماء بالاً إلى خطط الكولون، أوضح لي المسألة للمرة الأخيرة، حتى وإن كنت أعتقد، أن السنيور سانتآنخيل... »، والتفتت إلى من ذكرت اسمه بآحناءة من رأسها، ثم تابعت: «مع أنني أعلم أنه نقل أسبابكم خلال محادثتنا آنذاك مع هذا الكولون، إلا إنني بالرغم من ذلك، ما زالت في حالة من الشك، أيها الموقر رئيس الأساقفة، هل يجوز لنا ترك تلك الأرواح على الجانب الآخر من البحر بكل بساطة، لنار جهنم، حتى إن تيسر أدنى احتمال متاح لنا لإنقاذهم».

تنهد تالافيرا، كان يتمنى التحدث عن موضوع آخر.

هذا الرجل القصير في معطفه البالي، هو إنسان أحمق، وتالافيرا، لم يكن الوحيد في اللجنة على أي حال من يعتقد بذلك، إنه يظن نفسه مدعواً من الله، وقد يكون هذا ممكناً، ولكن، أما كان حرياً به أن يكون أكثر تواضعاً؟ فحتى يسوع المخلص نفسه لم يبد في مثل هذه الصورة من التعالي، عندما تجسد على الأرض، مع أن بوسعه الادعاء بحق، أنه ابن الله.

«ما اقترحه عليكم، صاحبة الجلالة، هو في الحقيقة أمر مستحيل»، قال تالافيرا، وأحنى رأسه قليلاً من جديد، «انظري للكرة الأرضية بمخيلتك، وتصوري المسافة بين ساحل اسبانيا وساحل الهند».

من دون أي ضجيج، تم فتح الباب من قبل أحد الخدم، إلا أن الملكة تجلدت، كيف أن فرديناند لا يخجل من نفسه، في أن يأتي على الدوام متأخراً، وكيف سيكون الحال لو علم كل واحد مبرر تأخره، وكم سيكون ذلك مهيناً لها، لقد حان أوان مصارحته.

ولكن لم يكن ذلك الذي دخل إلى القاعة بخطوات ثقيلة هو فرديناند.

«كبير المفتشين!»، هتفت إيزابيلا متفاجئة، فما شأن توركيمادا بالرحلة الغربية باتجاه الهند؟ وهي لم تدعه للاجتماع، ثم نظرت لما يحمله بيده اليسرى قابضاً عليه بقوة، «هل أمسكتم بالصبي؟».

نظر كبير المفتشين إليها متفاجئاً، «الصبي؟».

دفع الخادم نحوه بكنبة، وبصعوبة وعلى مهل، جلس توركيمادا على طراحتها، «الصبي، بالطبع!»ثم رفع كيس الظهر بيده للأعلى وقربه من العيون، «منذ أن أحضر الفلاح هذا الكيس وانا أنقب في ذاكرتي، أين رأيته من قبل!».

«وماذا؟»، سألت الملكة، «وأين هو الآن؟».

هزّ كبير المفتشين رأسه، لقد حمله باحتراس عبر الحمراء، وقد كانت المسافة الأخيرة التي قطعها مشياً مضنية له، كانت أنفاسه تتصاعد بصعوبة وعلى نحو غير منتظم، فإن كان الرب يريدني أن أمارس مهمتي في هذا المنصب، عليه أن يمنحني القوة لذلك، فكر في نفسه، ولكنني أشك بهذا في أحايين كثيرة.

«لا أحضر صبياً إليكم»، قال لها، «وأين انتهى به هربه، لا أستطيع أن أقول عن هذا شيئاً، ولكنني، صاحبة الجلالة، أريد تنبيهكم، عن الضرورة القصوى التي تستدعي العثور عليه، واكتشاف مكيدته»، ثم توقف قليلاً، وكأنه يبغي عن قصد زيادة تشوقهم، فيما كانت تتجول عيناه مارة بكل واحد في الصالة، «إنه متحالف في مؤامرته مع الشيطان.!».

دفع تالافيرا بالهواء صفيراً من فمه، «أنتم تعلمون، توركيمادا، أنني بمسألة الحديث عن التحالف مع الشيطان، لست موافقاً على رأيك تماماً»، قال ذلك ثم تقدم خطوة أقرب، «إن تشوقي أعظم، لمعرفة كيف ستبرهنون على ادعاءاتكم!».

ضحك كبير المفتشين، ثم أخذ بفتح الكيس باحتراس، فيما بدا شكله وقد تكور على نفسه واستقر جاثياً على ركبتيه، كانت يداه ترتجفان عندما فتح غطاء الكيس، شيء من القماش بحجم اليد سقط على الأرض، فجثت يوهانّا على ركبتها ورفعته.

«ليس هذا!»، قال كبير المفتشين، نافد الصبر وهو يلوح لهم بشيء في يده، «انظروا إلى هنا، هذا ما أريد أن أريكم إياه!».

ثم رفع كتابا إلى الأعلى.

اندفع تالافيرا نحوه، «يبدو غريباً، إنني أقر بذلك»، ثم بدأ يقلب

صفحاته، «والكتابة أيضاً».

«إنها ليست مكتوبة بأية لغة نعرفها»، صرخ كبير المفتشين توركيمادا، «انظروا جميعكم، ودققوا تماماً، إن كان بمقدور أي راهب الكتابة بمثل هذا الخط المتناسق المنتظم، والتي برغم كل هذا، فإن أياً من رجالي العلماء لم يستطع فك حروفها؟وحتى الطريقة الجديدة في الطباعة، التي تم اكتشافها من قبلي، لا تعد شيئاً بجانبها! وانظروا إلى هذه الصور الكافرة.

انحنت يوهانّا من فوق كتف تالافيرا، الصور كانت ملونة وساطعة وتظهر أماكن لم تفهمها، ومنازل رائعة كانت تظهر فيها أيضاً، وأناساً يلبسون أردية غريبة؛ وفيما بينها توجد كلمة تتكرر دائماً، تعرفت عليها: غرناطة.

«فأي راهب، حتى وإن كان قد تدرب في أفضل *إنكونابل* محترفة، يستطيع أن ينجز مثل هذه الصور؟ وأي حفار على خشب قادر على حفر مثل هذه الألواح الخشبية المعدة للطباعة؟»، صاح توركيمادا، «ومن ثم، صاحبة الجلالة»، ثم نزع الكتاب من بين يدي تالافيرا، «ويوجد هنا في الكتاب الغامض كلام عنكم، ودائماً يكررون الكلام عنكم!».

وانضمت إيزابيلا الآن إليهم، «إيزابيلا!»، صاح كبير المفتشين، وأشار بأصبعه المرتجفة إلى كلمة، ثم تابع تصفحه، «إيزابيلا! وأيضاً هنا: إيزابيلا، إيزابيلا و فرديناند! فحتى إن كنا لم نفهم ما تبقى مما تمت كتابته: أيمكنكم أن تتشككوا؟!».

حدقت إيزابيلا بالكتاب، «أسماؤنا!»، غمغمت، ثم مررت إصبعها على الكتابة ثم سحبتها مرتعبة، وكأنها خشيت أن يقترب الشيطان منها،

«بل وحتى صورتكم!»، هتف كبير المفتشين عالياً، «أليست هذه الصورة الزيتية، صاحبة الجلالة، التي رسمها زيتوس لكم على لوحته باسم صورة

المادونا ووضع صورتكم عليها ؟ فأية يد بشرية أمكنها أن تنجز هذا الرسم بريشة ناعمة وبمثل هذه الدقة والصغر في هذا الكتاب؟».

غاصت إيزابيلا في كنبتها، كانت ترتعش، «أنتم ترهبونني، أيها الموقر كبير مفتشي محكمة التفتيش!»، همست الملكة.

في هذه الأثناء، قام توركيمادا برمى الكتاب على الأرض بلا مبالاة، في حين رفعه تالافيرا بفضول، أما سانتآنخيل فقد نظر إليه من فوق كتفه.

«ولكن هذا!» صاح كبير المفتشين، «فهذا ليس كل شيء! انظروا هنا، ما كان يحمله الصبي معه!».

وبأصابع مرتعشة لتقدم صاحبها في العمر، سحب البيضة من الكيس، وقد أعانت اليد اليمنى اليد اليسرى، وهي ترتعش الآن بشدة أكثر، كان قفا يديه يبدو كرقّ من الجلد، مغطى بتجاعيد شعرية، ومنقطاً ببقع بنية، ثم هتف قائلاً: «والآن خذوا انتباهكم!».

عندما قام بإلقاء البيضة، أصبح باطنها مرئياً، وفور ذلك بدأ الزجاج الداخلي بالإضاءة، ورن نغم لمدة قصيرة، وكان حاداً وغريباً.

«والآن؟»، صاح كبير المفتشين، «والآن؟».

فحتى تالافيرا قفز متراجعاً للخلف مثله مثل يوهانّا وسانتآنخيل، عندما أضاء هذا الشيء الغامض، والآن أخذ يقترب بكنبته من جديد، ولكن بعد ان انطفأ الضوء.

«ومرة أخرى هذه الكتابة الكافرة»، صاح كبير المفتشين، «فماذا يمكن أن تعني مثل هذه الكتابة، إن لم تكن رسالة من الشيطان؟»، وقام للحال برسم إشارة الصليب.

«نعم، وما هو هذا»، سأل سانتآنخيل، الذي كان بجانب تالافيرا على

كرسي محاذٍ لكبير مفتشي محكمة التفتيش.

«سيقول لكم بالتأكيد، ما ليس بوسع مسيحي جيد قوله، سنيور!»، صاح كبير المفتشين وألقى بنظرة اشمئزاز إلى أمين الخزانة الملكية، ثم ترك أصابعه تتجول على الجهة الداخلية من البيضة، إلى أن توهج الضوء لمدة قصيرة من جديد ورن النغم، «أي مسيحي جيد يعرف على نحو قاطع المعدات الشيطانية؟ إلا أن هذه– البيضة ليست من صنع أرضي: هل تريدون الشك بذلك؟».

تالافيرا بدأ يهز رأسه ببطء، «ربما تكون من بلاد الكاتاي البعيدة»، سأل متردداً، «فهناك يملكون أشياء غير معروفة لدينا كلياً! وعندما عاد ماركو بولو من رحلته إلى هناك، كان قد تحدث عن ذلك، وتذكروا موضوع البوصلة! من يمكنه أن يؤكد لنا، أنهم هناك في بلاد الكاتاي البعيدة، لا يصنعون معدات أخرى لا نعرفها نحن.

زفر توركيمادا زفرة غيظ غاضبة باستخفاف واضح، «ومن أين عرف الناس هناك أسماء ملوكنا؟واسم مدينتنا؟ وهذا الذي هنا»، وأشار إلى تالافيرا كي يناوله الكتاب، ثم تابع: «وحتى هنا»، وبدأ يقلب بأصبعه المرتعشة صفحات الكتاب، ما اقتضاه وقتاً طويلاً كي يعثر على المكان الذي يبحث عنه، «هنا، اقرأ بنفسك: وكيف عرفوا أيضاً اسمه»، ثم وضع إصبعه على كلمة بعد أن توقف لوهلة قصيرة، «أليس هو اسم الأمير؟».

«الأمير؟»، سألت إيزابيلا.

قلّب كبيرالمفتشين في صفحات الكتاب، «أبوعبدالله» هتف قائلاً، «وهنا البُوخاراس! وأنتم تظنون أيها الموقر رئيس الأساقفة، أن هذا الكتاب جاءنا من بلاد الكاتاي البعيدة؟ إن هذا الكتاب وهذه الأدوات هي من

الشيطان».

صمت تالافيرا.

أما إيزابيلا فنظرت إلى الكتاب، ومن ثم إلى تلك الأداة الغريبة، التي كان زجاجها الآن معتماً، «لا يمكن أن يكون غير ذلك...» قالت هامسة، «ينبغي أن يكون».

«لقد تحالف الشيطان مع المغاربي!»، صاح توركيمادا، «وإلا ماذا تعني هذه الكتابة؟لقد كتب الشيطان في هذا الكتاب عنكم، وعن مدينتكم وعن ذاك الأمير الذي في الجبال! نحن لا نستطيع فهم ما كتب هنا بتلك اللغة الشيطانية: ولكن ماذا يمكن أن يكون خلاف دعوة إلى بوعبديل للقتال؟».

«كبير المفتشين»، ناداه تالافيرا، «مع كل الاحترام!».

«لا، لا ليس الشيطان من الأهمية، لدرجة أنه يستطيع منع كنيستنا المقدسة من إنقاذ النفوس»، قال توركيمادا.

لقد آحمّر وجهه الآن لدرجة كاد يتحول معها إلى اللون الأزرق، إنه رجل بالغ الشيخوخة جدا، «لا، لا أبداً! فمن هو الأولى بتشغيل مثل هذا الجهاز غير المغاربيين؟ إنهم يبغون طردكم من هذه البلاد لأنكم، أنتم صاحبة الجلالة، من تقومون بحماية المؤمنين، من أجل أن».

«كبير المفتشين»، ناداه تالافيرا، «كيف سيتمكن المغاربيون من الحصول على مثل هذا النجاح! فالمغاربيون أصبحوا ضعافاً منذ أمد بعيد!».

«ليس عندما يأخذ الشيطان على عاتقه هذه المهمة!» أجابه كبير المفتشين. وبسبب هياجه البالغ، فقد ارتجفت يداه، وتقطع تنفسه، وصاح: «لكن ليس عندما يكون الشيطان نفسه».

في هذه اللحظة، سقط على الأرض شيء أصدر صوت قعقعه ثم تدحرج على البلاط.

«يوهانّأ!» نادت المالكة.

وحتى هذه اللحظة اكتفت يوهانّا بالإصغاء، كما لو كانت تتصرف مثل طفل، ظلت صامتةً، لقد حدث أمر ما! فكرت في نفسها، أخيراً حدث أمر مثير في حياتي! إنه عريسي، الذي كان يحمل كل هذه الأشياء معه! إنه عريسي، حتى وإن لم يكن هو عريسي بالفعل.

وأخذت تلعب بالمحفظة الجلدية الغريبة، من دون أن تلتفت إليها، إنها وسادة أخرى، ولكنها هذه المرة ليست مثل الأخرى الصغيرة التي كانت تتحسس وجودها في صدرها؟، فهذه أكبر بكثير، ولها كيس جلدي، وهي أقل غرابة؛ إلا أنها برغم ذلك، حافلة بالأسرار، فما هو ذلك الذي يهتز ويخشخش بداخلها؟ وما هو ذلك المعدن المخطط الخشن على حافتها؟وماذا يعني وجود ذلك الشيء الملحق في نهايتها؟

قربت ذلك الجسم من ناظريها، أما كبير المفتشين فكان يتجادل مع رئيس الأساقفة، ولكن كالعادة فإن كبير مفتشي محكمة التفتيش سينتصر في النهاية، وبرفق أخذت تهز ذلك الذيل الملحق وتشده، للأسفل وللأعلى، فانفصل بعدئذٍ ذلك المعدن المخطط، وانفتح الكيس الجلدي.

«ليتمجد اسمك أيتها العذراء، والدة الإله»، هتفت يوهانّا.

تدحرجت قطع النقد على الأرض.

«ارحمنا يا رب»، هتفت الملكة ورسمت إشارة الصليب على وجهها.

كانت النقود غريبة، مثلما كانت لغة الكتابة والخط في الكتاب، ومثلما حال البيضة، والمعدن المحزز المثبت على ذلك الشيء المصنوع من الجلد.

قطع من نحاس ومن معدن أصفر وفضة وبعضها حتى بلونين، معدن أصفر له إطار فضي، وآخر بإطار فضي ومعدن أصفر في وسطها، «تقدس اسمك يا عذراء، صلي من أجلنا!».

هزّ كبير المفتشين رأسه راضياً مبتهجاً، «أي برهان تريدون أكثر؟»، قال ذلك وهو ينظر إلى تالافيرا خلال ذلك، «هكذا يرسل الشيطان النقود إلى المغاربيين من أجل قتالهم».

«ولكن، كان يمكنه أن يرسل كمية أكبر من النقود!»، قال تالافيرا ساخراً، «هذه النقود، تبدو لي، على الأرجح أنها».

إلا ان كبير المفتشين قاطعه موجها كلامه إلى الملكة، «أتصدقون الآن، صاحبة الجلالة؟ أنَّ الصبي لم يكن شيئاً آخر غير رسول سري من الشيطان!».

كم هو مثير، فكرت يوهانّا لنفسها، أوه، يا لروعة كل هذه الأحداث المثيرة التي تجري هنا.

«لقد أرسلت جنوداً ليرصدوا الأمير على أي حال»، قالت إيزابيلا، «من أجل أن لا يتمكن من جمع جيش من حوله».

هزّ كبير المفتشين رأسه، وأخذ لونه يعود بالتدريج إلى حالته الطبيعية، «ولكن، أهم ما في الأمر هو الصبي، ابعثوا برسل على ظهور الخيل! علينا إيجاد الصبي، هذا الصبي ينبغي أن يحرق! أَحرقوا يد الشيطان الطويلة!».

فتح أحد الخدم الباب بحرص.

«فرديناند»، نادته الملكة.

نظر الملك مبتسماً منقلاً بصره من واحد للآخر، «ألهذا الحد تبدو الأمور جادة؟» قال لهم، «لم يفتني شيء؟ وكما يبدو لي فإن ما يتعلق

بالجنوي قد جرى توضيحه».

تجلدت إيزابيلا بالصبر، لا يمكن للمرء تجاهل هذا، فكرت في نفسها، فكل واحد هنا يعلم يقيناً، من أين هو قادم، ينبغي وضع نهاية لذلك.

«ابعثوا برسل على ظهور الخيل»، قال كبيرالمفتشين، وقد تظاهر بأنه لا ينتبه للملكة، «ينبغي إيجاد الصبي، اقتلوا يد الشيطان الطويلة».

كم هو مثير، فكرت يوهانّا.. أوه، يا لروعة كل هذا المثير من الأحداث التي تجري هنا.

-24-

عندما انتهى بوسطن من رواية حكايته، كان سالومون قد جلس منتصباً، لقد طار النعاس من عينيه.

«هل تقصد أنك سافرت عبر الزمن؟»، قال سالومون لبوسطن، «ما هذا الهراء!».

«لقد قلت لك، إنك لن تصدقني»، قال له بوسطن بصوت أجش: «وأنت الآن ترى ذلك».

غضّن سالومون جبينه، «أنت على حق، بوسطن، يصعب عليّ تصديقك»، قال ذلك، ثم استند على كوعيه، «هذا يعني، أنك تملك الدليل الذي تحدثت عنه، فكيف يبدو هذا البرهان؟».

«إنه صغير مثل بيضة»، قال طارق، وكان بوسطن على وشك الظن أنه قد استسلم للنوم، إلا أنه ظل مديراً وجهه نحو الجدار، ولم ينبس بحركة طيلة رواية بوسطن لقصته، «وهذه البيضة تصدر نغماً عجيباً، وهي تضيء، كما تُري صوراً من باطنها، والحمراء كانت من بين تلك الصور المخفية بداخلها»، ثم استدار نحو سالومون، «هذا هو برهانه، فإن كنت أنت تصدق ما حدثك به، فلا أستطيع أنا أن أخمن؛ ولكن صدقني، سالومون، إن بوسطن كانت لديه تلك الأداة، التي لم ير أحد مثلها في العالم، إنها أداة، تبدو وكأنها - من صنع الشيطان».

في مكان ما من المطبخ كان قد سقط شيء ما على الأرض وانكسر، وصوت فتاة أطلقت صرخة مرتعبة، فنقل سالومون نظره بين طارق وبوسطن،

«ولكن لماذا تخلى عنها إن كانت من صنع الشيطان؟ فهي ستحتوي على قوة سحرية!ويمكن لهذه الأداة أن تحمية من الأخطار! فلماذا إذن ينبغي له التخلي عنها؟».

«لأنني أنا الذي نصحته بذلك»، أجابه طارق، «محكمة التفتيش - أنت تفهم ما أقصد، فلو أنهم اكتشفوا هذه البيضة معه وغيرها من الأشياء، لساقوه إلى المحرقة من دون تردد».

زفر سالومون باستخفاف، «أنا لا أؤمن بالشيطان»، ولكن بالنسبة لواحد مثلك يؤمن بوجوده، أليس عليه أن يكون واثقاً أيضاً بأن قوة الشيطان أقوى من مقدرة رجال محكمة التفتيش؟ ألا يعني هذا، أن بوسطن، خادم للشيطان، وبمساعدة الأداة الشيطانية، يمكنه بكل سهولة أن يحمي نفسه؟ فلماذا يتخلى عنها إذن؟».

أومأ طارق بجهله، «لا أعلم»، أجابه، «من أين لي أن أعلم، ما الذي أصدقه مما قاله وما الذي لا أصدقه! ومن أين لي أن أعلم ما أستطيع تصديقه؟ فربما يقول الحقيقة فعلاً، هذا ممكن، ولكن هل كنت ستجد حقيقته أكثر صدقاً بالقول إن الشيطان هو من أعطاه تلك الأدوات؟».

صمت سالومون، ثم نظر إلى بوسطن متشككاً، «وأنت تقول إنها كانت بلاطة من الخزف؟»، سأل بوسطن، «وأنت تعتقد أن البلاطة هي التي جعلتك تسافر عبر الزمن؟».

«هذا هو التفسير الوحيد!»، قال بوسطن، «هذا هو التفسير الوحيد الذي يراودني، سالومون، فكم من الوقت أمضيته في التأمل والتفكير! فتماماً، في اللحظة التي لمست فيها البلاطة، أصبحت فجأة هنا، عندكم، في الحمراء! في زمانكم، وأيضاً عندما كنت في القلعة، وفي كل مكان، كان الأمر ذاته».

هزّ سالومون برأسه «من الممكن أن يكون ذلك جائزاً»، غمغم قائلاً، «إن كان ذلك حقيقياً، وإن كان ما ذكرته عن رحلتك، صحيحاً».

«عليك تصديقي»، قال بوسطن، «أرجوك سالومون! باستثنائكما أنتما الإثنان، ما من أحد هنا... »، ثم بلع ريقه، «والآن تلاحقني الملكة أيضاً، لأنها مقتنعة أنني محتال، وأنني لست ذلك الأمير من بورغوند، في حين أنني».

من المطبخ كانت تسمع أصوات، وأواني تصطدم ببعضها، وصوت نسائي يضحك.

أصغى سالومون السمع، ثم قال: «يمكن أن يوجد برهان آخر أيضاً!» قال سالومون، وتابع بعد ذلك موجهاً كلامه إلى طارق: «إن كان صحيحاً ما يدعيه، فينبغي أن يعلم إذن ما سيحدث في المستقبل، فيستطيع أن يخبرنا في هذه الحالة ما سيحدث لغرناطة، ويمكنه أن يخبرنا ما إن كنتم أنتم المغاربيون ستنتصرون على ملوك إسبانيا! وما إن كان شعبي سيتم إنقاذه، كل ذلك يمكنه أن يعرفه».

ضحك طارق وقال «إنه برهان جميل، ويمكنه أيضاً أن يحدثنا بما يشاء! فكيف سيكون بالمستطاع التأكد من أنه قال الحقيقة عن المستقبل، إن كان ما يتحدث عنه لم يحدث بعد؟».

كان عليّ الإنتباه أكثر خلال دروس التاريخ، قال بوسطن لنفسه، ومع ذلك كان الأمر محرجاً إثر كل إجابة لي في تلك الدروس، وكان من الأفضل لي آنذاك أن لا أنسى ما استذكرته خلال التحضير لمذاكرات الصف وما كنت قد تعلمته خلالها، إذن، كان بوسعي الآن أن أتحدث لهم ببعضها، فكانوا ربما وثقوا بي في هذه الحالة، فأنا أحتاجهم، وأنا أحتاج لأصدقاء، ولا أريد

أن أكون هنا وحيداً! ولكن المعلومات الوحيدة التي يمكنني أن أحدثهم بها، هي تلك التي عرفتها من الدليل السياحي للسيدة هيلبرت، إلا أن هذا ليس كافياً».

«ماذا سيحل بالأمير؟»، سأل سالومون بتشوق، وكأن طارق لم يسمعه، «هل سيجرؤ على القتال؟ وهل سينتصر على الملكة؟

هزّ بوسطن رأسه كمن يجهل الأمر، «لا أعلم شيئاً حول الانتفاضة!»، قال متردداً، وبدأ يشك إن كان قادراً على التذكر، «ستحتفظ الملكة بغرناطة محتلة لعدد من السنوات، وبعد طرد اليهود سيتم طرد المغاربيين أيضاً، على الرغم مما كانوا قد التزموا به في معاهدتهم مع بوعبديل، وسيخربون مكتباتكم، وسيهدمون مساجدكم وحماماتكم وسيحرقون كل كتاب عربي، وستصبح غرناطة مدينة مسيحية، ولن يسمح لأي واحد التكلم باللغة العربية. وفي المستقبل، في زمني الذي أعيش فيه»، وهنا قطع كلامه والتفت إلى سالومون باهتمام، ثم تابع، «في الألفية الجديدة: عندئذٍ، سيندر من يتذكر غرناطة السلطان».

«ها أنت تسمع!»، هتف طارق، «أي هراء يختلق! فمن هو الذي سيحرق كتبنا، التي جمعت بداخلها معارف العالم! وأي طبيب، أكان مغاربياً، أم يهوديا أم مسيحياً، ممن لم يغرف علومه من كتبنا؟ بل وأي رياضي؟ أو أي فلكي؟».

«ونحن؟» سأل سالومون من جديد، وكأن طارق لم يقاطع بوسطن، ونظر إلى بوسطن بلهفة شديدة، «ونحن؟».

هزّ بوسطن برأسه علامة جهله. فهو لم يستطع قول الحقيقة له: وإخباره عن عدد *الكونفرسوس* الذين ماتوا في محارق محكمة التفتيش، ولا ما حصل

لهم وهم في طريق هربهم، وكيف شُردوا، وقتلوا.

«لم يتم طرد الملوك»، قال بوسطن، «وتم الإبقاء على محاكم التفتيش لمئات السنين بعدئذٍ».

هزّ سالومون رأسه، إذ ربما لم يعد يرغب بمزيد من المعرفة، فما عاناه من الفظائع كان كافياً، وقد يكون رغب فقط في سماع، ما يستطيع تحمله.

ولماذا ينبغي ذلك أيضاً، فكر بوسطن، ولماذا ينبغي علي إخباره عن كل ما حدث لدينا، بعد قرون عديدة فيما بعد، وعمّا تعلمناه في المدرسة، وما تم الحديث عنه كثيراً جداً، بحيث لم يعد أحد يرغب بسماع شيء عن ذلك. ولماذا ينبغي إخباره أنَّ أولئك الملوك لم يكونوا آخر الملوك بل تواصلوا لأجيال، وبأن محاكم التفتيش لم تكن منذ زمن بعيد أيضاً هي الأسوأ.

«وأنت تصدقه؟»، صاح طارق، «وهل تصدق حكاياته؟».

رفع سالومون منكبيه بمعنى من لا يعلم.

«وأيضاً»، قال بوسطن، وبدا سعيداً أنه تذكر أخيراً أمراً، يمكنه أن يتحدث عنه من دون أن يخيف سالومون، «وسيتم في هذا العام اكتشاف أمريكا! ولهذا السبب، فكل واحد ممن يعيشون في زمني يعرف تاريخ هذا العام: 1492. ففي شهر تشرين الأول/اكتوبر من هذا العام، سيصل كولومبوس إلى سواحل كوبا بثلاثة سفن».

«أمريكا»، هتف طارق، «أمريكا! لقد حدثتني في الفندق عنها! قل لي بحق النبي، ما هي هذه الـ أمريكا؟».

«عندما سيحاول كولومبوس في الصيف الإقلاع باتجاه الهند»، قال بوسطن، «فسيأتي بدلاً من».

«أنت تتحدث عن كولون؟»، سأل سالومون، «ذلك الذي دار على

كل بلاد العالم، من أجل أن يجد ملكاً يقتنع بخرافاته عن الإبحار غرباً إلى الهند؟».

«لقد التقيت به بنفسي!» قال بوسطن، ثم تذكر للتو، كيف كان الموقف مخزياً وفاضحاً، «فعندما تحدث أمام الملكة. رفضت هذه طلباته».

«تماماً كما رفض طلبه ملك البرتغال من قبل، مثله مثل الآخرين»، قال سالومون، «إنه سخيف ذلك الذي يحلم به، إن حساباته يدحضها حتى الطفل».

«وهذا ما فعله سانتآنخيل»، قال بوسطن، وقد أصيب بالهلع، فكيف لم يخطر بباله ما سيعنيه ذلك؟

لن يتم اكتشاف أمريكا.

«سانتآنخيل؟»، سأل سالومون.

«سانتآنجيل»، قال طارق، «هو من سأذهب إليه عقب صلاة فجر الغد، كي أتحدث إليه، فإن لم تكن لدى الأمير الشجاعة، وإن كان ملوك- أكلة لحم الخنزير قد أحرقوا مخزن إسحاق أيضاً: فينبغي أن يكون هناك مخرج آخر! فلن نقبل نحن المغاربيون أن يتم العدوان علينا».

«إن صديقنا من زمن المستقبل لا يعلم شيئاً عن انتصار مقاومة المغاربيين»، قال سالومون، ثم ابتسم لبوسطن.

لم يتم اكتشاف أمريكا!

«إن صديقنا ربما قد لا يكون قدم من المستقبل»، هتف طارق، «وقد يكون كاذباً، وعدا عن ذلك»، ثم قفز واقفاً، في مكان ما من القرية كان يغني أحدهم مع العود، إنه صوت رجل يصاحبه صوت ثانٍ، ثم تابع كلامه: «اليوم ما زال هو اليوم، والآن هو الآن! فهل تريدون الإدعاء، أن كل شيء

تم تقريره، بالنسبة لما سيحدث فيما بعد، لأنه، وكما يدّعي، قد تم حدوثه حقيقة؟وهل تريدون القول إن كل قرار أتخذه في ما يخص حياتي، ليس هو قراري، لأنه كان قد تقرر قبل ذلك بزمن بعيد؟ إذن نحن لا نعيش في حقيقة الأمر حياتنا الخاصة بنا أبداً؟ أيعني هذا أن كل ما نفعله سيان كلياً، لأنه على أي حال، هو ما سيتم، كما تحدثت عنه كتبه بشأن المستقبل البعيد؟ بحق الله وكل أنبيائه! من سيصدق هذا؟ بل من يرغب في تصديقه؟

هزّ سالومون رأسه على مهل، وقال: «لا أعلم».

«ولكن أمريكا»، همس بوسطن، ومع توالي الوقت لم يعد يعلم، ماذا عليه أن يعتقد، «فأمريكا لم يتم اكتشافها بعد، فالملكة أبعدت كولومبوس، لأن مطالبه كانت مفرطة، ولن تهييء له السفن»، ثم نظر لطارق «فإن حدث ذلك، طارق، فإن لم تكتشف امريكا، وهو عكس ما يعرفه كل تلميذ مدرسة لدينا؛ إذن، إن سار التاريخ على نحو مختلف: فلماذا لم يتيسر لمقاومتكم أن تنجح إذن، وهو ما لا علم لأبناء زماننا به؟».

تأمله طارق طويلاً، ثم غمغم قائلاً: «ولماذا لن تنجح مقاومتنا، بالله».

«يجب أن تصدق قصتي، طارق!» قال بوسطن «أرجوك صدقني أخيراً! فكيف يمكنني أن أخرج من هنا بصورة ما، وهو أمر لا أستطيعه بمفردي، إن كنت أنا لوحدي؟ فأنا لا أفقه شيئاً هنا بينكم، ثم ألا تفهم أنني عندما أجد هذه البلاطة الخزفية، وألمسها، كما فعلت ذلك في القيصرية - فأظن أنها ستعيدني، كما جلبتني إلى هنا».

ولكن أمريكا لن يتم اكتشافها.

نظر إليه سالومون بتأمل، أما طارق فقد زمّ شفتيه.

«إن صح ما أفكر به»، قال بوسطن وقد شدّ على قبضة يده، عليهما

تصديقه، عليهما تصديقه! وعليه هو أيضاً ان يصدق نفسه كذلك «ويبقى إذن، أنه عليّ ربما فقط العثور على البلاطة، ألا تفهمون ذلك!».

«لماذا لم تُمسك بها جيداً في ذلك الحين، عندما لمستها، في هذا المستقبل، الذي كان بالنسبة لك حينها وقتاً حاضراً ؟»، سأله طارق باستخفاف. «فعندئذٍ، كانت ستكون ما زالت الآن لديك، وكانت ستكون معك منذ البداية، وبالتالي، كان بوسعك العودة إلى ما كنت».

«إنها لم تعد موجودة»، أجابه بوسطن بصوت أجش، «إنها بكل بساطة لم تعد موجودة».

«واين تريد أن تعثر عليها، بوسطن؟»، سأل سالومون، متحدثاً بلهجة إملائية مثلما يتحدث إلى طفل، لا يريد المرء تخويفه، «تذكر، بأن غرناطة كبيرة في اتساعها! ولنفترض لمرة واحدة أنّ كلانا قد صدّقك، طارق وأنا، وأننا نود مساعدتك في البحث عنها، فمن أين تريدنا أن نبدأ؟ وأين تريد أن تجدها؟».

هزّ بوسطن منكبيه عاجزاً، بالطبع لدى سالومون كل الحق.

فليس بمستطاعه لمس كل بلاطة خزفية على جدران الحمراء! وعلى كل حال، كانت بلاطته متميزة، لا تشبه غيرها في الحمراء من تلك التي تزين جدرانها.

«ولكن إن كنتما تريدان مساعدتي في البحث عنها!» همس بوسطن، «فربما نستطيع معاً».

إن غرناطة واسعة.

ضحك طارق من ذلك. ثم قال: «ألا يوجد ما يكفينا لنقوم به أو لنفكر به، غير بوسطن – ذلك القادم من المستقبل، أليست حياتنا مهلهلة بما يكفي؟

لتأتينا الآن بهمّ بلاطتك؟»ثم أطلق زفرة غيظ، وتابع قائلا: «سأعود إلى غرناطة، وسأتحدث إلى سانتآنخيل، فنحن نحتاج إلى خطة جديدة، وإلى معسكر جديد، وعلينا أن نخاتل الملكة، فبماذا تهمني بلاطتك؟ ولماذا أشغل نفسي بثرثرتك عن المستقبل؟ وسننتصر على الملكة، أياً كان هذا الذي تريدنا أن نقتنع به!».

صمت بوسطن، لا ينبغي لي أن أبكي.

وضع سالومون يده على كتف بوسطن، «عليك أن تحاول فهمنا، بوسطن»، همس له، «نحن لا نستطيع تصديق ما رويته لنا، هل كنت ستصدق أنت روايتك؟ وقد لا نريد ربما تصديقها، وليس على كل حال بعد أن أخبرتنا عما سيجلبه المستقبل لنا، إن كان ما قلته لنا حقيقياً».

قفز بوسطن واقفاً، «ولكنني قلت أيضاً إنه ربما تأتي الأحداث على نحو آخر!» هتف قائلاً «أرجوك سالومون! أرجوك طارق! إن لم يتم اكتشاف أمريكا، وهذا ما يبدو الآن، فالملكة ردت طلب كولومبوس! فإن لم يتحقق المستقبل، وإن جرت الأمور في منحى آخر! فعندئذٍ يمكنكما بالتأكيد».

ارتعشت أوصاله، فلماذا، نعم لماذا لم يستشرف ذلك مبكراً؟ منذ أن التقى بكولون في الحمراء؟

أمريكا.

إن الأمر كان سيكون أفضل كثيراً مما جاء في الكتب، خمن بوسطن، نعم، فهذا ما أدركه الآن جيداً. فذلك كان سيكون أفضل بالنسبة للمغاربيين، ولليهود أيضاً على أي حال، وأيضاً سيكون أفضل بالنسبة للمسيحيين، فلكم تحمَّلوا تحت سلطة محاكم التفتيش، ولكن بالنسبة لي... وفجأة قفز واقفاً.

«ينبغي أن أفكر»، غمغم بوسطن ثم انقض على العمامة، وذهب نحو

الباب، لكنه بدأ يشعر بالدوار، وفجأة أصبحت بلاطة الخزف لا قيمة لها بالنسبة له.

«بوسطن؟»، ناداه سالومون، «بوسطن، إلى أين تريد الذهاب؟».

لا يمكن أن يمضي أحد هكذا.

-25-

كانت الليلة في الجبال تشبه السحر، وكان ضوء القمر يريه بسهولة الطريق الجبلي أمام قدميه، كان التراب والأحجار المدببة، تتقصفان تحت أقدام بوسطن عندما كان يدوس فوقهما، فتقض تلك الحركة مضجع السكينة. وكانت هناك منبسطات من الأحجار المسطحة، التي جرى رصفها بأيادي البشر، كي يجعلوا من المشي فوقها، أقل مدعاة للشكوى؛ وبين مسافة وأخرى كانت توجد مصطبة تمكّنه من الاستراحة عليها، وأبعد نحو الأعلى، أبعد من ذلك بكثير صعوداً نحو الأعلى، يمضي هذا الممر متعرجاً وصولاً إلى سييرا، التي تحدّث سالومون إليه عنها، وحتى عبر هذا الطريق كان يمكنهما سالومون وهو، الوصول أيضاً إلى البُوخاراس، إلا أن هذه الدرب تبقى حتى وقت متأخر من الربيع وطوال بدايات العام مغطاة بالثلوج، بل كانت تظل بعد ذلك نهيرات جليدية تجري لأمد طويل، كونتها تجمعات مياه الثلج الذائب، فجرت في أخاديد عميقة كانت قد حفرتها لنفسها عبر مسارها المتواصل هناك.

وعلى الجانب الآخر من القمة، كانت ترقد غرناطة، ويكاد يكون خارج التصور، أن يكونا سارا كل تلك المسافة سالكين طريقهما بمحاذاة نهر خينيل. جلس بوسطن على صخرة ناتئة، وأخذ ينظر من هناك إلى القرية، التي كانت تلتمع منازلها البيضاء تحت ضوء القمر، إزاء الجبال الرمادية الداكنة، وتحت

القرية يمتد الوادي الذي كانت تنمو على مدرجاته أشجار اللوز والزيتون؛ وعند نهايته، كان هناك وادٍ آخر أكثر انفتاحاً، وأخيراً لانخارون، ومن ثم طريق العودة إلى غرناطة.

ما زالت القرية لم تنم بعد، ففي هدأة الليل كانت تتناهى إليه أصوات تأتي من البعيد، إنها أنغام عزف على العود وضحك وغناء، ثم تناهى له أخيرا صوت نهيق حمار أطلقه خلال نومه.

لقد سافرت في الزمن إلى عام 1492

فكم هو رائع، لو أنني بكل بساطة سافرت حقيقة إلى هنا، وكم هو رائع مشهد هذه الطبيعة على هذا النحو الذي لا يصدق. ولكن هذه بلاد لا يمكنني مغادرتها، فهذا زمن آخر. وربما لم يعد الأمر كله ذا صلة بالبلاطة منذ زمن بعيد، ولا في الكيفية التي سأتمكن فيها من العودة، وإنما الأمر هو إن كان هناك طريق متاح لي للعودة بالمطلق، وحتى إن كان سيوجد مخلوق، هو أنا.

لماذا كل شيء في هذا العالم أصبح واضحاً له الآن فقط؟

اتكأ بوسطن بظهره إلى صخرة وعرة، إذ كان عليه أن يفكر.

لقد صرفت الملكة كولومبوس، وأمريكا لن يتم اكتشافها.

فإن كانت أمريكا لن يتم اكتشافها...

هناك تحت، في القرية جوقة غناء تغني الآن، وبإيقاع موزون يتم التصفيق بالأيدي، بل وربما كان هناك رقص أيضاً، فما هو الذي يدفع المغاربيين لمثل هذا الرقص.

إن كان لن يتم اكتشاف أمريكا، فينبغي إذن أن يكون للتاريخ بدءاً من هذه اللحظة مسار آخر مختلف، على نقيض ما جاء في الكتب المدرسية، بل

وينبغي أن يكون مساره مختلفاً جداً، ثم أخذ شهيقاً عميقاً.

وبالتأكيد، ففي وقت ما لاحقاً، سيقوم شخص ما بالنزول على شواطئها. إذ ليس من أحد يمكنه ان يتصور أنها ستبقى غير مكتشفة إلى الأبد، فأحد ما سيقوم بالإقلاع نحو الغرب، في وقت ما، وهو وقت لن يطول، فما بالإمكان اكتشافه، سيتم اكتشافه، ولكن فقط في وقت لاحق.

ولكن هل سيكون الإسبان، هم أول من سيصلها؟، فكر بوسطن. فالإسبان هم الذين نهبوا ذهبها وفضتها واغتنوا وأنشؤوا الجيوش من ورائها؟ أم سيكون أول من يصلها البرتغاليون أو الإنكليز، وما هي الأمور الأخرى التي ستحدث أيضاً؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟وما هو الذي سيحدث، وأين؟

ولكن الأحداث برمتها ستتم على نحو آخر؛ فإن تمت الأحداث في بدايتها على هذا النحو الآخر المختلف، فكيف ستكون في وقت ما في ما بعد متفقة مع ما جاء في الكتب؟ إذ لو لم يستأصل كورتيز شأفة الأزتيكيين، ولو لم يكن البيوريتانيون الذين أبحروا على سفينة (ماي فلاور) في العام 1620، وأرسوا سفنهم على الشاطئ الشمالي من أمريكا؟ فهل كانت ستوجد بلاد مثل وطن أبيه أصلاً؟ وماذا بشأن كل الحروب، والسلام الصعب الذي تم في ما بعد؟وماذا بشأن اكتشاف واختراع السير الناقل[1] والإنترنيت؛ وماذا بشأنه هو نفسه؟

يحتمل ألاتوجد أنت أبداً، بوسطن، فإن لم تُكتشف أمريكا، فلن توجد أنت، إذ عندئذٍ لا وجود لأبيك، ذاك الأمريكي، الذي يعتز بأن شجرة أصوله تعود إلى (ماي فلاور)، والحال نفسه لو كانت (ماي فلاور) قد غادرت

(1) سير (قشاط) متحرك، أو خط التجميع المتحرك في الصناعة (المترجم)

الساحل الإنكليزي في العام 1620 من دون أن تصل إلى هدفها المحدد.

عم السكون القرية الآن، وقد تغطى القمر بغيمة، انسحبت من ثم على مهل من فوقه، والآن فقط أحس بوسطن بالبرودة.

وحتى لو كنت أنت موجوداً، بوسطن، بالرغم من كل شيء، فهل كانت ستوجد القيصرية أيضاً، حيث واجهتك البلاطة؟وكيف كانت ستتطور غرناطة في بلد كإسبانيا، لم تتمكن من أن تسلب من الغرب كل تلك الكنوز التي لا حدود لها؟ وهل كان من الممكن ربما عودة المغاربيين؟ وهل كانت ستوجد غرناطة الحالية بكل شوارعها وساحاتها *والهوستال*، الذي يرقد فيه الآن بالتأكيد طوقان وقدير وسيرغاي من دون أن يفتقدوه؟ وهل كانت ستوجد حقاً منطقة سكنه على الإطلاق، أي المنطقة نفسها التي قدم منها والتي يمكنه العودة إليها؟

تنهد بوسطن، فكيف أمكنه فقط، أن يكون ساذجاً على ذلك النحو!

ولماذا توضحت له الآن فقط كل تلك الأمور، على الرغم من أنه علم منذ أيام، أن أمريكا لن يتم اكتشافها؟

فربما حدثت أمور كثيرة اخرى، أهم، وأفظع، وعلاوة على ذلك، فماذا كان بوسعه أن يفعل؟.

أغمض بوسطن عينيه، فحتى لو أمكنه العثور على البلاطة، فلن يعينه ذلك في شيء، لأنها لن تدخله إلى المستقبل، لأن مستقبله لن يكون، وسيبقى للأبد في غرناطة، وسيبقى للأبد في هذا الزمن، فلن يذهب إلى المدرسة أبداً، حيث كان يشعر بالملل أثناء حصص التعليم، وفي الاستراحات التي بين الحصص، كان يمضيها بتناول قطعة حلوى في الكافيتيريا، بعدما لم يتم اختياره ضمن فريق لعبة كرة القدم؛ مستغنياً عن تناول حساء الخضار الصحي، الذي كانت

تدفع له أمه النقود لقاءه، ولن يكون هناك بعد الآن نقل للصحف بعد ظهر كل يوم وتلقي مصروف جيبه لقاء ذلك، ولن تكون هناك مشاهدة لمباريات كرة القدم في التلفاز، حيث كان يتابع رؤيتها ويضحك، لأن أمه التي تتوتر أعصابها خلالها كانت تقضم أظافرها، لن يكون هناك عودة للمنزل على الإطلاق.

شرق لعابه، لاينبغي أن يتم ما تصوره على هذا النحو، وهو يريد الآن أن ينام، وسيسند رأسه إلى صخرة، وعندما يفيق في اليوم التالي، سيكون كل هذا مجرد حلم.

ثم بدأ بعدئذٍ يسمع نداءات، هل يريدون متابعة الاحتفال في القرية، في مثل هذا الوقت المتأخر؟ أحصنة تصهل مرتاعة، وأحدهم يصرخ آمراً ثم بدأ خشب يتكسر.

حتى إن تمكن من النوم الآن، فلن يكون ما كان قد تصوره عندما يفيق أنه ليس إلا مجرد حلم كما تمنى، وهو الآن يريد أن يعرف ما يحدث من حوله.

حاول القائد أن يوضح لرجاله، أن الأمر لا يتعلق بقتال، لقد كانوا متعبين من المسير السريع وهو لم يتح لهم سوى استراحة قصيرة وجزءاً يسيراً جداً من النوم، فالملكة تخشى من انتفاضة.

«لم يقم المغاربيون بمواجهتنا بعد، اتركو السيوف في أجربتها!»، أوضح لهم القائد، «إن مهمتنا هي مهمة معنوية، أي أن نعمل بوئام على أن لا يذهب أحدهم بعيداً في أوهامه».

إلا أن رجاله كانوا أناساً بسطاء، وكانوا تعبين، فلماذا كل هذه المسيرة الطويلة، إن لم يتمتعوا بقليل من التسلية والمرح على الأقل؟ فأول بوابة منزل رأوها قاموا بتحطيمها.

«قفوا»صرخ بهم القائد، «قفوا، تراجعوا جميعاً! لم نأتِ إلى هنا كأعداء!».

بدا له الجندي مبهوتاً، والمنازل التي على محيط الساحة فتحت درف أبوابها على مصراعيها، «لم نأتِ إلى هنا كأعداء! نحن مرسلون من قبل صاحبة الجلالة، ملكة قشتالة»، نادى القائد، «أرجو محادثة الأمير!».

«أفي هذا الوقت المتأَخر من الليل، أيها القائد؟»، قال صوت هادئ من زاويته، ومنذ أن التقاه أثناء تسليم غرناطة، كان القائد مندهشاً، إذ كيف يكون في منزلة متألقة على هذا النحو وكأنه هو المنتصر.

لكنه نهى نفسه عن أن ينقل ما فكر به إلى الملك فرديناند.

«أيها الأمير»، قال القائد وهو ينحني، «أرجو السماح منكم عن ممارسة رجالي المتعجلة، إنهم متعبون، والكثير منهم لا يفقهون شيئاً، سيتم دفع تكلفة ثمن البوابة، والملكة تقيم وزناً جماً لعلاقات الصداقة معكم».

ابتسم الأمير ساخراً، «هذا ما أظنه»، أجابه الأمير، وهو ينَقّل بصره بانزعاج بين الجنود الذين كانوا ما زالوا يقفون بجوار البوابة المهشمة من واحد لآخر، «تعبون؟ إنهم تعبون، ولكن بسبب شربهم للخمر قبل أي سبب آخر».

«إن شرب الخمر محرم على رجالي، أيها الأمير»، أجابه القائد متكدراً، «إلا عندما يكونون في قراهم».

في كل المنطقة من حوله انفتحت الأبواب بحذر، إلا أن الناس بقوا بداخل منازلهم.

هزّ الأمير برأسه وابتسم من جديد، «دعنا لا نهدر وقتنا في لغط لا جدوى منه، طالما أن الله وهب الإنسان وقتاً قصيراً على الأرض، ما الغاية التي جئتم

من أجلها إلى هنا؟ وما هي المهمة التي أرسلتكم الملكة بها؟».

حتى وهو الآن، فكر القائد، ومع كونه مسيطراً على إمارة، هي أصغر من بعض العزب التي في منطقة الفيغا، ومع أنها لا تعدو كونها رجماً من الحجارة، فهو لا زال أميراً، وطالما بقيت أنا قائداً، سأظل أتعامل معه على هذا الأساس.

«إن صاحبة الجلالة في قلق»، قال القائد، «إن جاسوساً، كما يبدو، قد تسلل إلى الحمراء، وأن الملكة تخشى أنه...» وتردد قليلاً ثم تابع: «أرجوكم معذرتي، أيها الأمير»، قال القائد «علينا العثور عليه. ففي غرناطة يتنامى الخوف من احتمال قيام عصيان. وصاحبا الجلالة أرسلاني إليكم لأن طرقات إمارتكم في وقت ما...» ثم توقف، فكيف يمكنه قول ما كان عليه قوله، من دون أن يهين الأمير، فعلى الطريق نحو الجبال لم يروا رجالاً يتحشدون هناك، ومجرد إلقاء نظرة على هذه القرية المتعفنة تبرهن على ذلك، كما لا توجد قوات متخفية أيضاً، إن ظنون الملكة كانت مضحكة، وليس من قبيل الصدف أنها أقطعته هذه البقعة من الأرض في هذه المنطقة الجبلية، فهي على الأقل ذات منافذ محدودة تصبح مراقبتها كلعبة أطفال.

صمت الأمير، إنه لا يسهل مهمتي، فكر القائد لنفسه، ولكن لماذا عليه أيضاً فعل ذلك، لقد جئنا إلى هنا مع أول الليل وكسرنا بوابة منزل في هذه المنطقة البائسة؛ فعلى الأقل بدأ افتضاح الخرافة وإن متأخراً، الآن، فالمشكلة تتعلق به وبالملكة وما إن كانت الإمارات لها حقوق متساوية وتعامل معاملة متكافئة، أما إن كانت البوخاراس بالتالي، قد عوملت كإمارة حقاً في هذه الحالة، فقد جرى نزع القناع عن مثل هذه الخرافة، يضاف لذلك كله، الإهانة التي ألحقتها بمقدمي على هذا النحو إلى هنا، إنه حقاً أمر لا يطاق.

«والآن، أيها الأمير، أنتم تحكمون هذه الإمارة في البوخاراس»، قال القائد، محاولاً تجاهل الابتسامة الساخرة على وجه من هو بمواجهته، «وأن رجالاً قليلو التسليح يتجمعون من حولكم».

نفى الأمير ذلك، «قل لملكتك، أنها تشرفني، عندما تجد صاحبة الجلالة بأنني ما زلت أمثل خطراً، مع أنها عملت كل جهدها بالأساس، على ألا يحدث هذا أبداً»، قال الأمير، «أنتم خبيرون بالقتال، أيها القائد؛ وقد رأيتم طرقاتنا التي توصل إلى هنا، فقل لي اين يمكن أن تتخفى قواتنا؟ ثم رفع يده ليوقف القائد عن الكلام. «وعن الممر إلى سييرا؟ فيمكنكم التحقق بنفسكم، ارسلوا جنودكم أيها القائد الآن في هذه اللحظة وللحال، كي لا ينالكم الشك إن أنتم أجّلتم ذلك للغد، ولم تعثروا على أحد وتظنوا أننا استغللنا ساعات الليل كي نخفي أمراً أو نخفي أحداً، فتشوا كل منزل، وكل حظيرة، وكل غرفة؛ تعاملوا فقط، أيها القائد، مع الناس برفق»، قال الأمير ذلك، فأحسّ القائد بالخجل من نفسه، «وإن كان ممكناً، ترفقوا ببوابات المنازل أيضاً».

ثم استدار الأمير ملتفتاً إلى الساحة، حيث كان فتح الأبواب يتتابع، ونادى قائلاً: «أيها المغاربيون في البوخاراس! إنني أرجو عفوكم، على ما أصابكم بسببي، افتحوا أبوابكم لجنود الملكة، دعوهم ينبشون في صناديقكم وخلف ستائركم، قدموا لهم ما يشربونه بعد مسيرهم الطويل، عاملوهم كأصدقاء، كما عليهم هم أيضاً أن يفعلوا الشيء ذاته»، ثم ألقى ببصره على جنود الملكة الذين بدوا خلال ذلك مرهقين، كما لو كانوا على وشك النوم في أمكنتهم، وتابع الأمير كلامه: «وعاملوهم كأصدقاء».

خرجت همهمة من المنازل.

«وأنتم أيها القائد»، وجه له الأمير كلامه: «أرجوكم التفضل في غضون ذلك لشرب كأس من الشاي، ولكن إن كنتم تبتغون أو كنتم تعتقدون، أنَّ تفتيش رجالكم سيحتاج لمدة طويلة، فأدعوكم أيضاً لجولة لعب في الشطرنج.

«أشكر لكم ضيافتكم»، قال القائد بحيرة، «من أجل جولة شطرنج واحدة أو حتى لجولات كثيرة، أيها الأمير، سيكون لدينا الكثير من الوقت، فأوامر الملكة هي أن جنودي سيتموضعون هنا في الإمارة، كي يراقبوا مداخلها: تعبيراً عن مخاوف، أن لا يخرج من البوخاراس على الإطلاق أي خطر يهدد بلداننا المسيحية».

كان على الملكة إرسال آخر مكاني، فكر القائد، بل كلا، إذ من يعلم عندئذٍ، كيف كان سيتصرف من كان سيحل مكاني هنا.

«إذن يعلم الآن كلانا، أنه لدينا الوقت الكافي من أجل اللعبة الملوكية»، قال الأمير، وكان ما زال يسرح بعينيه فوق الوادي، لقد كان الأميرعلى علم منذ البداية أنَّ هذه الإمارة كانت في أعالي هذه المنطقة النائية المهملة، فكر القائد لنفسه، ولكنه رغب أن يلعب هذه اللعبة، وها هو الآن يملك البرهان.

«سأدعو الآن لإحضار رقعة الشطرنج القماشية».

وحيث إنَّ المزيد من السحب القادمة من البحر في الجنوب كانت تزيد من انتشارها، لتحجب القمر، فقد جعل ذلك من إمكانية مراقبة ما يجري تحت في القرية، أمراً صعباً، ولكن في الوقت ذاته ساعدته العتمة أيضاً على التواري، كما كان يوجد ما يكفي من الكتل الصخرية المتراصة، ومن الأشجار الملتوية المتمايلة.

بعدما سمعه من تحطيم للخشب عمّ السكون فجأة، وقد سمع بوسطن أصواتاً، كان أحدها صوت الأمير. وقد جرى بعض الاضطراب، ولكن ليس ضجيج معركة، ولا صخب ينم عن القيام بتخريب، وأيضاً ليس من صراخ أو ولولة.

الجنود؟ فكر بوسطن مذهولاً، جنود الملكة؟ ولكن ألم يأتوا من أجل القتال؟ حتى وإن أصدر الأمير قراراً لناسه بتسليم القرية من غير قتال، فإن الضجة تحت في القرية هي الآن مختلفة، فمن غير المعقول أن يكون كل مغاربي قد انتصر وليس كل جندي قد سلم سلاحه.

وبكل حرص استطاعه، تسلل متابعاً خطوه على المنحدر، لم يعد يستطيع البقاء على الطريق، طالما أنه لا يعلم ما الذي يجري تحت في القرية، لقد تنحى جانباً، باحثاً عما يدرؤه من وراء الصخور، محاولاً أن لا يصدر ضجيجاً وهو يمشي فوق الحطام.

يجب أن أعلم، ما حدث، فكر بوسطن لنفسه، وقبل ذلك لن أعود إلى سالومون وطارق.

لقد تمت إضاءة المصابيح في كل الأنحاء، إنها فوانيس زيت؛ وضعت في كل زاوية، فضوء القمر لم يكن كافياً، فبعد أن توارى الآن خلف الغيوم، فإن نوره آنطفأ الآن كاملاً.

إنهم يبحثون عن شيء، فكر بوسطن، عن ماذا يبحثون في القرية، أو عن من؟ أرجو أنهم لا يبحثون عني؟ هل أكون أنا ذا شأن لجنود الملكة في البوخاراس؟ فماذا سمعت في الحمراء، ليمكنني البوح به؟

ضغط بوسطن على عمامته لتثبيتها على رأسه، إن شعره الأشقر كان الخطر الأكبر عليه، فإن كانوا يبحثون عنه، فكيف سيتعرفون عليه وهو في

ملابسه المغاربية؟ إنه مجرد فتى مثل سائر الفتيان في هذه الجبال.

إن الأمر لا يتعلق بك، بوسطن، فلا تكن مثاراً للسخرية، ولا تعتبر نفسك مهماً جداً! إن المسالة تتعلق بالأمير؛ سيان من يكون قد جاء للقرية، فإن الأمر يتعلق بالأمير، إذ في المحصلة، هذه هي إمارته الجديدة.

كاد أن يصل تقريباً إلى أول منازل القرية، فما زال يمشي ناس هناك بمصابيح يحملونها، رائحين وغادين، أو أنهم يحملون مشاعل يخفق ضووؤها متذبذباً. كانوا يضيئون منازلهم، وجزراً من ضوء متذبذب تتيح لثواني رؤية مغاربي، أو رؤية نافذة، ثم لا يلبث كل شيء أن يغرق في الظلمة. وأيضاً أخيلة رجال كان يمكن تمييزها، تومض للحظة بمعالم غير واضحة. والآن يأخذه طريقه للمرة الأخيرة إلى حافة صخرية، كي ينفتح الطريق أمامه عريضاً إلى القرية.

كان بإمكانه الوقوف والانتظار، وكان بوسعه التنصت، فيما إن كان أحد ما قادماً إليه، إلا أنه لم يكن حذراً مع أنه لم يكن غير مبالٍ.

لقد سمع بوسطن الصرخة في اللحظة نفسها، التي شعر بها بصدمة تجابهه، ثم أنشبت يدان في كتفه.

فحتى إن لم يكن الأمر متعلقاً به هناك في الأسفل، وحتى إن لم يكن هو من يبحثون عنه، فهم قد عثروا عليه الآن.

-26-

كل شيء سار بسرعة، وهو ما لم يجد بوسطن معه وقتاً للتفكير، لقد سمع الصرخة، كانت صرخة ألم، وصرخة هلع؛ فأحس بهدير في رأسه، في المكان الذي صدمت جبهته الآخر فيه؛ وقد أحس بالأصابع، التي كانت أظافرها تخدش جلد ذراعه بعمق؛ كما سمع تنفساً سريعاً لاهثاً، ناجماً عن سرعة التسلق.

انصت، من دون أن يتسع له الوقت للتفكير، لقد كان واحداً فقط، لا أصوات تنادي للحاق به، ولا قضقضة خطوات تتسلق الجبل، وباستثناء حشرجة الأنفاس في وجهه، كان كل شيء ساكناً.

عاد إلى التفكير من جديد، وفجأة بدا وكأن جزءاً منه يقف بجانبه، بهدوء كامل، ويتابع من الخارج، مجريات ما حدث له قبل هنيهة، كمن يشاهد فيلماً تتتابع فيه الأحداث بالسرعة البطيئة وبوضوح، إن واحداً بمفرده فيه من الفظاعة ما يكفي؛. ولكنه بالرغم من ذلك فإنه مع شخص واحد يستطيع أن يحاول، لم يكن قوياً أبداً في حياته الحقيقية، بل كانوا يهزؤون منه؛ فلم يسبق له أن ضرب أحداً، وحتى دورة تدربه على الجودو لم يكملها، كل ذلك كان بالنسبة له سيان الآن، فهو لم يواجه أبداً موقفاً يتعلق بمسألة الدفاع عن النفس، خلال حياته كلها، خلال حياته الحقيقية.

بقوة، لم يعلم، أنه يمتلكها، حاول بوسطن أن يتملص ممن يمسك به،

وبصمت؛ حاول وهو يرفس بقدمه في العتمة، إصابة قصبة ساق خصمه غير المنظور، بتصميم كاد أن يفقده توازنه لنفسه؛ مع استمرار سماعه تنفساً لاهثاً خلال ذلك كله، فيما هو تائه بين الذهول والذعر.

لقد أصاب ساقه مرة، ومرتين؛ودائماً كان يجذب وينزع نفسه، إلى أن أدرك، بأن يده اليمنى قد تحررت إثر دفعة، ومن دون تردد، ضرب الآخر بقبضة يده مراراً على وجهه بوحشية، وعلى طوقان أن يراه الآن، فكر بوسطن وتعجب من نفسه، كيف أنه يذهب لمثل هذه الأمور في مثل هذه اللحظات التي تتعلق فيها الأمور بحياته، سيرغاي، قدير، مدلل أمه، إيبي؟ كانت أفكاره في هذه الأثناء واضحة وباردة.

في اللكمة الثالثة، صرخ الآخر فجأة.

«أووو!» هكذا صرخ، والذراع التي كان ممسكاً بها، تركها الآن حرة، كان الآخر يرتجف وهو يصرخ متالماً «أووو!».

وقف بوسطن متيبساً، ما زال لم ير وجه خصمه؛ إلا أن هذا لم يعد ضرورياً.

«سالومون!»، همس بوسطن غير مصدق، بعد أن بانت له الحقيقة بوضوح، وبعد أن عاد إلى نفسه، وبدأ بالإرتعاش، «لقد أصبتني بالهلع، والآن أرجوك أن لا تصرخ هكذا! فسيسمعُنا حتى من هم هناك في القرية!».

تحول نحيب سالومون إلى تأوه، «لقد كسرت لي أَنفي!»، قال سالومون بنبرة متألمة، «بوسطون، لماذا كسرت لي أنفي؟».

أحس بوسطن بالاسترخاء في جسمه، كم هو غريب، أنه قبل لحظات كان يشعر بالقوة، والآن، حيث مضى كل شيء، أخذ يرتعش مثل شجرة حور. «لم أدر، أنك أنت هو، سالومون!»، همس بوسطن، «أنا سعيد أنك

أنت هو!» وبسرعة جر سالومون معه إلى خلف الحافة الصخرية، ماذا لو سمع صرختك أحد من القرية!»، ولكنني لم أعلم!، ثم أخذ يتلمس وجه سالومون، «لقد أمسكت بي مثل مصارع! هل تدمي كثيراً؟».

هزّ سالومون برأسه تحت ذراع بوسطن، «إنها تؤلمني على نحو فظيع!»، غمغم قائلاً.

«ولكن كان هذا حظاً طيباً أنني أنا هو من كان قد ضربك على أنفك!»، همس بوسطن، «تعال إليّ الآن، وفكر بالأمر جيداً، فأن أكون أنا، افضل من ذاك الذي كنت بالتأكيد تحسب حسابه!»، لقد اراد أن يبحث في جيب بنطاله الجينز عن منديل من الورق كي يعطيه إلى سالومون، ولكنه سرعان ما أدرك كم كان أحمق، «ولكن أنت مقاتل جيد، سالومون، لقد ظننتك بحق إنساناً آخر! حبذا لو كان طارق قد رأى ذلك!».

جذب سالومون أنفه بحذر للأعلى، وقال لبوسطن: «لا أعلم إن كان لهذا قيمة! إلا أنني أشعر وكأنه قد يصبح ضعف ما هو عليه على الأقل! إلا أن الألم أخذ يتراجع قليلاً، وربما لم تكسر لي عظم الأنف».

«سأسعد حقيقة لذلك!»' قال بوسطن، «إن النزيف الأنفي سيء بما يكفي، يؤسفني ما حدث! ولكن، إجلس الآن، سالومون! حدثني عما حدث تحت!».

أخذ سالومون بالتدريج يتنفس بهدوؤ أكثر، وفكت السحب أسر القمر ومنحته الحرية من جديد، ورأى بوسطن دموع الألم على وجنتي سالومون. كما سال الدم على برنسه، «لقد كانوا جنود الملكة»، همس سالومون، ثم تلمس أنفه على نحو غير إرادي، «لم أعدّهم، ولكنهم كثر! وفور وصولهم، قاموا بتحطيم بوابة».

«وأنت فررت للحال؟»، همس بوسطن، «لماذا قررت الهرب؟ هل خفت من القتال؟».

ظل سالومون يواصل تلمس وجهه، «إنه متورم حقاً»، غمغم سالومون، «بإمكانكم أنتم القتال جيدا في المستقبل!»، فكر، بوسطن، فقط! ماذا لو تعرف أحد الجنود عليّ!

انتظر بوسطن- في حين تابع سالومون الكلام الذي كان قد بدأه: «إن كان واحد من هؤلاء الذين تحت، هو من الذين أحرقوا منزلنا!»، همس سالومون، «أي من أولئك الذين يعرفون شيئاً عن مخزن والدي، ومن أجل أي غرض تم إعداده!».

«بالطبع!»، غمغم بوسطن، «بالطبع، لقد نسيت هذا تماماً، فهم يبحثون عنك أيضاً».

بصق سالومون على حافة برنسه، وبدأ يمسح بالمكان المبلل وجهه، «كم هو جيد، أن الظلمة ما زالت تعم المكان»، فكر بوسطن، وأنه لا يسعني سوى رؤية المعالم الرئيسية؛ الأسود والأبيض والرمادي، ومع جلاء العتمة سيبدو الآن ربما شكله فظيعاً بالدم الذي لطخه.

بصق سالومون للمرة الثانية، ثم تحسس خده، «ليس هذا وحده»، همس سالومون، «لقد سمعت، ما قاله القائد للأمير».

« ثم ماذا؟»، سأل بوسطن، «ماذا قال له؟ وماذا يبغون من وجودهم هنا ؟».

«يريدون حراسة الأمير»، قال سالومون، كان صوته بارداً وباهتاً، «من أجل أن- من أجل ان لا يقوم المغاربيون بأي عصيان».

«وماذا لو كانوا شاهدوك... «غمغم بوسطن. «طالما أنهم يرتابون، بما

يمكن أن يتم فعله بالذهب، وبأن والدك كان سيعطيه للمغاربيين».

أومأ سالمون، «بالطبع! إن وجودي كان ربما سيتخذ برهاناً، إنه برهان على أنَّ تمرداً كان يتم التخطيط له، وهم يفتقدون هذا البرهان حتى الآن، والأمير ينفي كل شيء».

«وطارق، هل سمع ذلك أيضاً؟»، همس بوسطن، «وبأنهم يحسبون احتمال التمرد؟» قال ذلك، وهو يدرك ما سيعنيه ذلك كله لطارق.

أومأ سالومون، «ولكنه أراد البقاء»، أجابه، «لن يترك الأمير لوحده، كما قال، فهو ليس جباناً، يفر، عندما يحل الخطر».

«يا لهذا الأبله!»، قال بوسطن، «وإن اكتشفوا أمره؟ فهم يعرفونه أيضاً! فهذا سيعقد الأمور أكثر!».

«لا يفكر طارق بهذا»، قال سالومون، «بالنسبة له، المهم هو أن لا يكون جباناً»، وأخذ بعد هذا نفساًعميقاً، وبدا أن الألم لم يعد بتلك الحدة، «والآن يفتشون القرية كلها»، همس بعد ذلك، «يفتشون عن السلاح، وعما إن كان هناك جنود مختبئون يمكن للأمير أن يهاجم بهم».

تلك كانت إذن دواعي الأضواء تحت، هكذا إذن هو ما كانوا أمّلوا أن يعثروا عليه، ثم نشق بوسطن وقال: «كل واحد يمكن أن يرى بأم عينيه، أنه في مثل هذه القرية الصغيرة، لا يمكن إخفاء جيش، ما هذا الهراء».

بقي سالومون صامتاً.

«سالومون؟»، قال بوسطن، «أم أنك لا ترى ذلك؟ أن هذا لا جدوى منه، أن يبحثوا تحت في الأسفل عن جيش؟».

بقي سالومون صامتاً.

«سالومون؟ لماذا لا تجيب إذن؟».

«لأن»، همس سالومون. ثم صمت من جديد.

«نعم، لأن؟»، ردّ بوسطن «سالومون، تكلم! أكاد أشعر بالخوف شيئاً فشيئاً!».

«لأنهم لا يبحثون فقط عن الجنود والسلاح»، قال سالومون بصوت أجش. «إنهم يبحثون عن الجاسوس الأشقر للأمير، الذي تسلل إلى الحمراء. بوسطن! إنهم يبحثون عنك».

وقف بوسطن جامداً، فإن كان يعرف ذلك من قبل، فما الذي جعله يضطرب هكذا، كل ما في الأمر هو أنه لم يشأ أن يصدق ذلك فقط.

«يجب أن تهرب، بوسطن!» همس سالومون، «ففور بزوغ الضوء، علينا أن نغامر بإيجاد طريقنا عبر الممر، لا يمكنك أن تبقى هنا!».

وفي القرية، وعلى بعد خطوات منهم نهق حمار، كما كان هناك مشعل كانت تتراقص ذؤاباته الكسولة من فوق جدار خشبي لإسطبل؛ ثم تحول إلى المنزل التالي.

«ولكن، ستأتي معي؟» همس بوسطن، «سنذهب معاً؟»وأدرك للحال أن لا شيء يهمه الآن. لقد أراد أن لا يذهب وحيداً.

«أنت تعلم يقيناً!»، قال سالومون «إننا سنذهب معاً».

إن نهيق الحمار للمرة الثانية جعلهما يجفلان، لقد كان قريباً جداً، قادما من الإسطبل، الذي كان مشعل الجنود قربه قبل قليل، كان الحمار ينهق وينهق، كمن يريد إبلاغ حنقه إلى القرية كلها.

أشار بوسطون إلى سالومون ليأتي إليه، ثم مشى الخطوات القليلة المتبقية حتى البناء، من دون أن يلتفت لشيء، ثم ضغط على ألواح جدار الزريبة ورفع الملاءة القماشية التي تغطي مدخل الباب. كان الحمار يتابع نهيقه، ولا

يمكن أن يتم فعله بالذهب، وبأن والدك كان سيعطيه للمغاربيين».

أومأ سالمون، «بالطبع! إن وجودي كان ربما سيتخذ برهاناً، إنه برهان على أنَّ تمرداً كان يتم التخطيط له، وهم يفتقدون هذا البرهان حتى الآن، والأمير ينفي كل شيء».

«وطارق، هل سمع ذلك أيضاً؟»، همس بوسطن، «وبأنهم يحسبون احتمال التمرد؟» قال ذلك، وهو يدرك ما سيعنيه ذلك كله لطارق.

أومأ سالومون، «ولكنه أراد البقاء»، أجابه، «لن يترك الأمير لوحده، كما قال، فهو ليس جباناً، يفر، عندما يحل الخطر».

«يا لهذا الأبله!»، قال بوسطن، «وإن اكتشفوا أمره؟ فهم يعرفونه أيضاً! فهذا سيعقد الأمور أكثر!».

«لا يفكر طارق بهذا»، قال سالومون، «بالنسبة له، المهم هو أن لا يكون جباناً»، وأخذ بعد هذا نفساً عميقاً، وبدا أن الألم لم يعد بتلك الحدة، «والآن يفتشون القرية كلها»، همس بعد ذلك، «يفتشون عن السلاح، وعما إن كان هناك جنود مختبئون يمكن للأمير أن يهاجم بهم».

تلك كانت إذن دواعي الأضواء تحت، هكذا إذن هو ما كانوا أمّلوا أن يعثروا عليه، ثم نشق بوسطن وقال: «كل واحد يمكن أن يرى بأم عينيه، أنه في مثل هذه القرية الصغيرة، لا يمكن إخفاء جيش، ما هذا الهراء».

بقي سالومون صامتاً.

«سالومون؟»، قال بوسطن، «أم أنك لا ترى ذلك؟ أن هذا لا جدوى منه، أن يبحثوا تحت في الأسفل عن جيش؟».

بقي سالومون صامتاً.

«سالومون؟ لماذا لا تجيب إذن؟».

«لأن»، همس سالومون. ثم صمت من جديد.

«نعم، لأن؟»، ردّ بوسطن «سالومون، تكلم! أكاد أشعر بالخوف شيئاً فشيئاً!».

«لأنهم لا يبحثون فقط عن الجنود والسلاح»، قال سالومون بصوت أجش. «إنهم يبحثون عن الجاسوس الأشقر للأمير، الذي تسلل إلى الحمراء. بوسطن! إنهم يبحثون عنك».

وقف بوسطن جامداً، فإن كان يعرف ذلك من قبل، فما الذي جعله يضطرب هكذا، كل ما في الأمر هو أنه لم يشأ أن يصدق ذلك فقط.

«يجب أن تهرب، بوسطن!» همس سالومون، «ففور بزوغ الضوء، علينا أن نغامر بإيجاد طريقنا عبر الممر، لا يمكنك أن تبقى هنا!».

وفي القرية، وعلى بعد خطوات منهم نهق حمار، كما كان هناك مشعل كانت تتراقص ذؤاباته الكسولة من فوق جدار خشبي لإسطبل؛ ثم تحول إلى المنزل التالي.

«ولكن، ستأتي معي؟» همس بوسطن، «سنذهب معاً؟»وأدرك للحال أن لا شيء يهمه الآن. لقد أراد أن لا يذهب وحيداً.

«أنت تعلم يقيناً!»، قال سالومون «إننا سنذهب معاً».

إن نهيق الحمار للمرة الثانية جعلهما يجفلان، لقد كان قريباً جداً، قادما من الإسطبل، الذي كان مشعل الجنود قربه قبل قليل، كان الحمار ينهق وينهق، كمن يريد إبلاغ حنقه إلى القرية كلها.

أشار بوسطون إلى سالومون ليأتي إليه، ثم مشى الخطوات القليلة المتبقية حتى البناء، من دون أن يلتفت لشيء، ثم ضغط على ألواح جدار الزريبة ورفع الملاءة القماشية التي تغطي مدخل الباب. كان الحمار يتابع نهيقه، ولا

أحد في القرية، يعيره انتباهاً.

«اهدأ، اهدأ تماماً!» همس بوسطن، كانت تفوح رائحة حيوانات، ورائحة روث، وكان ارتفاع حدة الحرارة يتصاعد من داخل الغرفة المغبرة التي كانت محصورة بالداخل بعد أن لم تجد في الليل مخرجاً لها، وعلى الأرض، كانت دجاجتان تصوتان مفزوعتين، «اهدأ، اهدأ تماماً!» مسّد الحمار من فوق جلده المنفوش، ثم ربت على جنبه وحكَّ ما بين عينيه، نهق الحمار للمرة الأخيرة، ثم هدأ أخيراً. لقد تم تقييده بحبل ربط بداخل حلقة، وكانت الدجاجتان تنبشان بين حافريه، أما بوسطن فشد نفسه إلى جسم الحيوان الدافئ.

اسدل سالومون الملاءة القماشية من خلفه لتسد الباب، «وأنت تعتقد أنهم لن يرونا هنا؟»، قال سالومون، لقد أنهى الجنود تفتيشهم هنا للحال، لذا فربما كان هنا لما تبقى من الليل الأمان.

«اهدأ، اهدأ تماماً!»، همس بوسطن، وبدا تقريباً وكأن الحمار على وشك أن يغفو لفرط ما كان بوسطن يمسد به جلده أو يربت عليه.

ربما نكون هنا في مأمن هذه الليلة، آمنين بالقدر الذي يشعر به كل واحد في القرية خلال هذا الوقت.

«دعنا ننام، سالومون! فما يمكن أن يحصل في الغد، قد يستدعي منا الحاجة لقوتنا».

-27-

كلما سمع تكسر الخشب، كان طارق يقفز من موضعه ويركض إلى الشارع، وإثر المحادثة التي جرت بين الأمير وقائد الجند،، كان قد ادرك أن آفاق المقاومة قد اضمحلت، فكيف سيقفون في وجه الملكة إن كان الجنود يراقبونهم ليلاً ونهاراً؟ وكيف سيوفرون السلاح ويجمعون الجيش؟

كان الأمير قد ماطل طويلاً، فلو فعل على الفور، كما قال له طارق...

«طارق!»، همس له سالومون، «علينا الهرب من هنا! لا ينبغي أن نجيز لهم اكتشاف أمرنا! فأنت تعلم، ما الذي سيحصل، إن هم وجدونا!».

إلا أن سالومون كان جباناً، وهو لم يكن شجاعاً في أي وقت، ولا يريد أن يكون كذلك.

«اذهب إذن!»، قال له طارق، «هيا، انقذ نفسك، أيها الجبان! أنا لن أدع الأمير وهو في ضائقة!».

«أرجوك، طارق!»، همس له سالومون، محاولاً شده ليذهب معه، «لن تستطيع مساعدة الأمير!».

إلا ان طارق نفض يده متخلصاً منه وقال: «أنا لست جباناً!».

اختفى سالومون، صاعداً لوحده نحو الجبال، صعوداً نحو الممر، بصمت مطبق، مثل الظل، وفي القرية، يفتش الجنود الآن، وهم يفتحون كل باب، وينظرون في كل صندوق، ويضيئون بمشاعلهم كل زاوية، إلا انهم لم

يعودوا لتحطيم أية بوابة أو نافذة، أما طارق فكان قد توارى بين منزلين وهو يتابع مراقبتهم.

لو أن الأمير سمع كلامه، لو أنه فعل على الفور ما كان طارق قد نصحه به.

وحتى؟، فكر طارق في نفسه، وحتى إن كان بوسطن قد قال عن المستقبل، بأنه لا يعلم عن نجاح مقاومة للمغاربيين، هذا، إن كان قد قال الحقيقة؟ في كل شيء؟ حتى إن كان حقيقياً ما قاله بأنه جاء إلينا من المستقبل، وبأنه يعلم على هذا الأساس، ما سيحدث لنا؟

عقد ذراعيه فوق صدره، فلا يمكن أن يكون الأمر هكذا، الآن كان الآن، وفقط ما يحدث الآن، هو الذي سيتم حسم صدقه في المستقبل، ومع ذلك، فمن سمع يوماً، أن إنساناً سافر عبر الزمن.

في هذه الأثناء كان الأمير قد عاد للعب الشطرنج مع قائد الجند، بكل لباقة وتهذيب، كما لو أن القائد ضيفٌ مرحّبٌ به. كان طارق ينظر إليه، كيف يمكن للأمير الاستسلام على هذه الصورة، وكيف لم يدع سكان القرية للمقاومة! وبدلاً من ذلك قام بأمرهم، أن يفعل الجنود ما طلبته الملكة منهم، والله، فلماذا لم يشأ أبداً حتى الآن الاعتقاد، أن الأمير كان جباناً؟.

جاء أحد الجنود باتجاهه يتمايل وهو يحمل مشعلاً، ويستند بيده الأخرى على الجدار، وعلى ضوء مشعله رأى طارق الندبة على وجهه، فحبس أنفاسه، عونك يا ألله، لا تدع هذا يراني! ليس هذا، الذي كان قد شاهدني في غرناطة! ليس هذا، الذي أحرق منزل إسحاق!.

أزاح نفسه أكثر باتجاه العتمة، وقد سقط ضوء المشعل على واجهة البناء، وعلى الباب الصغير، لم يكن يوفر الجندي شيئاً في طريقه وهو على تلك

الحالة من السكر، وبكل سخط، ركل بقدمه خشب الباب.

«افتحوا يا مسلمون!» صاح على من في المنزل، «ألم تسمعوا، ما أوعز لكم به، أميركم الجبان؟» وتابع الركل بقوة «افتحوا الباب! وإلا، فقد أضطر لفتح الطريق بمشعلي!».

أميركم الجبان، قضقض طارق بأسنانه، ثم حبس أنفاسه مضطرباً، ابق ساكناً، ابق فقط ساكناً الآن.

بخوف تم فتح إحدى درف الباب، وعلى ضوء المشعل رأى طارق وجه فلاح. كان صوته يرتجف، «أرحب بكم في منزلي، أيها الجندي القادم من المدينة!»، قال الفلاح، «هل أنت عطش أيها الجندي؟هل تريد الاستراحة قليلاً؟ لقد طلب منّا الأمير، كما سمعتم، أن نرحب بكم كضيوف، بل وإن شئتم، يمكنكم أن تعتبروا أنفسكم ضيوفنا».

دفعه الجندي ذو الندبة في صدره، «افسح الطريق، أيها المسلم!» غمغم الجندي، ومن خلال ذلك تأكد طارق من معرفته به من جديد، ثم تابع الجندي كلامه: «من سيشرب من مائك العفن؟ ما نريده نحصل عليه، فما من حاجة لدعوتك!».

وقف الفلاح متيبساً.

«أنت تقف في طريقي، أيها المسلم!» صرخ الجندي، «أفسح لي مجال الدخول واسعاً من الباب!وإلا هل علينا أن نفعل بأكواخكم البائسة هنا، ما كنا فعلناه بقصور غرناطة؟»، ثم دس يده في حزامه، «كن ممتناً، أيها المسلم، إن كنت سأفتش صناديقك فقط! فحتى في غرناطة نفسها»، ومد يده في وجه الفلاح بنشوة المنتصر، وفي وميض المشعل تبين طارق ما يرفعه الجندي بيده، فنحن لم نتردد في تحطيم كل شيء كان في طريقنا!».

قفز الفلاح مذعوراً إلى جنب، إلا أن الجندي لم يدخل، لقد وجد الآن تسليته في أن يروّع الفلاح، «التحطيم!» صاح صارخاً. «تحطيم الحمراء! تحطيم زخارف تجديف الكفار! ***ولا غالب إلا الله***! هل المنتصر هو إلهكم؟ أنت ترى الآن بوضوح، من هو المنتصر، أيها المسلم! أنا المنتصر، فأين هو إلهك ليواجهني؟ أفسح الطريق من أمامي!» ثم اقتحم المنزل عبر الباب، في حين كان ما زال المشعل في يده.

صرخ الفلاح عالياً؛ وما إن كان مشعل الجندي قد أحرق الفلاح، أم أن الأمر اقتصر على أثاثه المنزلي، هو ما لم يستطع طارق رؤيته، فاكتفى بأن قفز من مخبئه وفر هارباً، فالجندي الذي كان قد اقتحم من قبل مخزن إسحاق: يتعاطى في معاملته مع المغاربيين مثلما تعاطى مع اليهود، ومن يعلم، فكر طارق، ما إن كان سيتعاطى بالمثل مع مسيحيي ملته، إن كان قد شرب نفس القدر من الكحول أيضاً، إنه رجل فاقد للشرف.

كانت أمامه ساحة القرية، وبقلب نابض وقف في مكانه، إذ إنّ مجموعة من المغاربيين كانت قد احتشدت، كما لو أنها كانت تريد أن تحمي نفسها بتجمعها معاً. فانضم طارق إلى المجموعة، على السجادة الممدودة أمام المنزل الكبير، التي كان قد لعب عليها مع الأمير، جلس أبو عبدالله وقائد الجند متقابلين تحت شعلة قنديل زيت، وهما ممعنان في التفكير، يتأملان رقعة الشطرنج القماشية. وبدا كلاهما وكأنهما منصرفان بكليتهما في كيف يحرك كل منهما أحجاره، وكأن لا شاغل لهما غير هذا، فيما أن أي واحد ممن في الساحة يعرف أكثر منهما.

انضم طارق للحشد متخفياً بداخله وأخذ ينظر إليهما.. إلا أن أفكاره لم تكن معه، ربما كان كل شيء مختلفاً عما كان قد حلم به في وقت ما سابقاً.

وربما كان الصبي الغريب قد قال الحقيقة بالفعل، فهل من قبيل الصدف، أن يرى ما كان في يد ذلك الجندي الثمل؟ لم يكن هناك أدنى شك، فما أراه الجندي للفلاح، كان بلاطة خزفية، بلاطة مطابقة تماماً للوصف الذي ذكره بوسطن.

«أنتم لاعب جيد، أيها القائد»، قال الأمير ذلك وهو يحرك حجر حصانه، «وأنا مندهش، كيف أن مهنتكم الصعبة تتيح لكم الوقت لممارسة هذه اللعبة».

كان القائد ينظر إلى رقعة الشطرنج، ونقلته التالية تؤكد، أنه استوعب نية الأمير، «الليالي، أيها الأمير، إنها الليالي الطويلة»، قال للأمير، «إنها الأشهر التي كنت خلالها في الحمراء: ماذا بقي لي لأفعله غير ذلك؟».

ترك الأمير يده تحوم من فوق رقعة الشطرنج، فمع خصم من هذا القبيل كان بالإمكان إخضاعه بسهولة، أصغى السمع للصخب في المنطقة، يبدو أن الساكنين فعلوا ما كان طلبه منهم، وجنود القائد، وهو ما أدهشه أكثر، فعلوا الأمر نفسه، إلا أن الأمير أرغم أفكاره على العودة إلى اللعب.

لو تمكن الآن من تحريك الفيل ثلاث مربعات للخلف، من غير أن يلاحظ القائد ذلك، وهذا هو مغزى حركة لعبه، سيكون له الخيار في حركة لعبه التالية بين إما أن يحرك الحصان أو أن يحرك الملك، وهكذا سيضيّق الحصار على القائد.

«اوه!» قال القائد، ثم أسند رأسه إلى يديه.

كاد أن يناله الذهول، في كيف مضى التفتيش هادئاً ولم يعثروا على رجال مسلحين في القرية، ولم يكن هناك أكثر، من الرجال الذين يتولون الحماية من اللصوص، وهو ما كانت قد سمحت به الملكة، وخلال بضع ساعات تمكن

الجنود من إنهاء بحثهم من دون نتيجة، ومن هناك انتشروا آخذين مواقعهم في كل مكان من البوخاراس، وسيراقبون كل منفذ، وسيفتشون كل من يريد الدخول للقرية، وقد كان الأمر كما كان قد ظن، عندما تلقى الطلب من الملكين الإسبانيين، بأن نهاية إمارته ستكون هنا في الأعلى، لا بل كان الأمر أكثر سوءاً مما قد ظنه.

«إن أنتم حركتم حجركم على هذا النحو، فأنتم تيسرون محاصرة الملك»، قال الأمير، فسحب القائد يده، إلا أن اللمس يعني القرار، لقد كانت أفكاره هو الآخر في مكان ما.

لم يجد الجنود رجالاً مسلحين لديه، ولكن ماذا لو أنهم اكتشفوا وجود الصبي؟ومنذ البداية علم الأمير أن الخطر يكمن هنا، فالملكة تعتبر أن الصبي كان جاسوسه الذي تسلل إلى الحمراء؛ فماذا سيحدث لو أنهم اكتشفوا وجوده لديه؟

«هل تسمحون لي، أن أعيد التفكير في النقلة التالية؟»، سأل القائد.

ضحك الأمير، ثم قال: «إنه من الحكمة دائماً، أن يتفكر المرء في كل نقلة، *قبل* أن يحرك حجره. ولكن في كثير من الأحيان، وقد ترون معي ذلك أيها القائد، أنه قد يكون من المفيد أيضاً، العودة لاحقاً عن قرار نكتشف أنه كان من الحماقة اتخاذه».

ولكنكم لم تعرفوه بعد.

«لا تجعلنا نلعب مثل الصبيان!»، قال القائد، «كنت على وشك ارتكاب خطأ غبي، إن اللعب لكم الآن».

انحنى الأمير، «يبدو لي»، قال الأمير، «أنّ رجالكم ينبغي أن يكونوا الآن قد بحثوا في كل منزل، فالناحية صغيرة، أجز لهم النوم».

«إن رجالي، أيها الأمير، لديهم مهمة ينبغي إنجازها»، قال القائد، «وقبل أن يفتشوا كل منزل في هذه القرية وكل اسطبل...» ثم توقف لهنيهة واستدار مستغرباً.

أحد الفرسان برز في الساحة، وخاض بجواده إلى وسط الجمهور المنتظر من المغاربيين، الذين صرخوا مرتاعين وهم يتبعثرون، كانت الرغوة تخرج من فم حصانه، كما كانت قطرات العرق تنسال من فوق جلد الحصان اللامع.

«إن الصبي متحالف مع الشيطان!»، صرخ الرسول وهو متثبت فوق سرج حصانه، «وتوجد براهين، أنَّ الصبي الأشقر متحالف مع الشيطان! إن الأوامر العاجلة لصاحبة الجلالة، هي أن يتم العثور عليه! ابحثوا عن يد الشيطان الطويلة! ينبغي حرق الصبي!».

-28-

سرت همهمة ضمن حشد المغاربيين، حبس طارق أنفاسه، لقد جرت الأمور على ما كان يخشاه، لا بل أكثر من ذلك.

«في تحالف مع الشيطان!»، همس أحد المغاربيين، وهو يصر برنسه بيده خائفاً. «يا الله! لا علاقة لي بمثل هؤلاء الناس».

«ولكن أميرنا لن... »، قال آخر، لا يمكن أن يقدم الأمير على أمر يشترك فيه مع الشيطان!».

«هل له علم بذلك؟»، سأل ثالث، «هل تظن أنَّ الشيطان لا يمكنه أن يخدع أميرنا أيضاً؟ إن كان الرسول يقول إنه يوجد حقاً برهان على التحالف مع الشيطان؟».

«معدات»، صاح الرسول ثانية، «إنها معدات لم ترها عين بشر أبداً من قبل!»، ثم رسم على وجهه إشارة الصليب، «إن كل البلاد تبحث عنه الآن، كي يحولوا، دون أن يتمكن الشيطان بنفسه من الفوز والهيمنة من خلاله، ينبغي حرق الصبي!».

رأى طارق كيف أن القائد قد ارتعدت أوصاله، «لقد فتشنا القرية كلها»، قال القائد، «وفتشنا أيضاً عن هذا الصبي، الذي اعتقدنا حتى الآن بأنه جاسوس، ولم يتم العثور عليه في أي مكان».

ونحن أيضاً لا ينبغي لكم أن تعثروا علينا، فكر طارق وأدركه الإضطراب.

إن سالومون وأنا، أصبحنا بالنسبة للجميع رفاق حليف للشيطان، فمن هو صديق حليف للشيطان، أليس محتملاً أن يكون له اتفاق مع الشيطان أيضاً؟ هكذا سيفكر الآخرون، فإن أمسكوا بنا، ستنتظرنا، سالومون وأنا محكمة التفتيش أيضاً.

أومأ القائد برأسه على مهل، «وأنتم، أيها الأمير»، سأل القائد، «أمن المحتمل أن تكونوا رأيتم الصبي المبحوث عنه فعلاً؟ هل تعاودون ربما التذكر من جديد؟ لقد جرى مقاطعة محادثتنا للتو».

رأى طارق أن عيني الأمير قد التمعتا، ولا بد أن يكون قائد الجند قد لاحظ ذلك.

«لم ألتق بهذا الصبي مطلقاً»، قال الأمير وأمعن النظر بقائد الجند، ولكن هذه المرة صوب نظره نحو عينيه، «ولا بأي مرسل من الشيطان أيضاً»، وأبدى إيماءة محتجة، «وأنتم لا تعتقدون أبدأ، أيها القائد، بأنني أخبئ شخصاً كهذا، إن صبياً كهذا لم يكن ابداً في إمارتي في البُوخاراس».

«والآن»، غمغم القائد، وألقى نظرة سريعة إلى الرسول، الذي كان يقف على رجليه غير آمن، «أكاد أصدقكم، أيها الأمير، فمع الشيطان، ما من أحد يرغب في إقامة علاقة».

ولكن القرية كلها رأت بوسطن، فكر طارق، بوسطن ونحن معه، وماذا لو أسرع أحدهم للوشاية، طفل، أو حتى رجل جبان، ممن يأملون بمكافاة ما.

لم ينتظر طويلاً، وعلى مهل، وكمن انتظر من أجل أن يذهب أخيراً إلى المنزل، ترك المجموعة المحتشدة من المغاربيين، من دون أن يلفت إليه الإنتباه. تمشى في الساحة واختفى في الزقاق التالي؛ فهنا كانت العتمة فائقة.

جاء في مواجهته اثنان من الجنود من دون أن يعيراه اهتماماً، كانا يتحدثان معاً ويضحكان ويضربان بملعقة من الخشب على قصعة من النحاس، يصل رنينها إلى مدى بعيد، وكان طارق يسمع دقات قلبه تصل إلى الأعلى حتى حلقه، فالخبر الذي جاء بشأن بوسطن قلب كل شيء.

كان مذهولاً، عندما رأى البلاطة الخزفية في يد الجندي، لا بل كان مشوشاً، فربما كان بوسطن قد قال الحقيقة فعلاً، عندما تحدث عن سفره عبر الزمن؟ حتى وإن كانت تلك الحقيقة لا تصدق، ثم، أليس من الممكن أن يكون ربما اكتشف الأداة، التي ستعين بوسطن لفتح البوابة وليعود عبر الزمن.

لم يستطع أن يتحمل مجريات ما يدور بذهنه، وأن يفكر بتلك الأمور، وهو لم يرد ذلك أيضاً على أية حال، فلماذا ينبغي أن يصرف اهتمامه إلى بوسطن، في مثل هذه الحالة من الأخطار المحدقة! المهم الآن هو الأمير، وما كان، وما سيحدث لغرناطة، فالفتى الغريب، صاحب الحكاية غير المألوفة، يمكنه أن ينتظر.

ولكن حدث الآن، ما جرى التخوف منه قبل أيام، عندما فتح بوسطن كيسه الغريب، فما هو هذا البرهان الذي يعبر عن تحالف شيطاني، وماذا يمكن أن تكون عليه تلك المعدات التي تحدث عنها الرسول، خلاف بيضة غريبة سوداء، كذلك الشيء الذي أراه إياه بوسطن في ذلك المساء في ***الفندق***؟ ومنذ ذلك الحين كان طارق قد عرف، حجم الخطر الذي تخفيه هذه البيضة، أما الآن، فقد تمكن رجال محكمة التفتيش من العثور عليها بالفعل.

مضى في الظلمة من غير هدف، جاهداً أن لا يهرول مسرعاً، وكأن مخططاته كلها لم تتحطم في هذه الليلة، إذ عليه أن لايكون ملفتاً للنظر، بل

غير ملفت للنظر أبداً، وأن يسير بخطوة معتادة، لا تلفت النظر إليه.

لا ينبغي تمكينهم من اقتفاء أثر بوسطن، فإن اعتقدوا أنه في تحالف مع الشيطان، وأنه عن هذا الطريق عمل جاسوساً للأمير، فهو يعني بالنسبة لهم أن الأمير أيضاً في تحالف مع الشيطان، ومعه كل أولئك الذين تمت رؤيتهم بصحبة بوسطن، وأيضاً سالومون، وهو نفسه.

لا ينبغي أن يعثروا على بوسطن، ليس هنا، أصبح تنفس بوسطن عسيراً، وقد اقترب من البيوت الأخيرة في القرية، لن يبحثوا عن البراهين. بالنسبة للملكة كان الأمر على الدوام، سيان بالنسبة لها، حول وجود البراهين، فالملكة مثل محكمة التفتيش، إنهم يصدقون ما يرغبون في تصديقه، ومسألة أنهم سيحضرون بوسطن ليمثل أمام توركيمادا، إن هم أمسكوا به، كصبي، أقام تحالفاً مع الشيطان، هي مسألة لا يشك أحد بها، ليس بوسطن لوحده، بل كل الذين يعرفهم أيضاً، فلن يحرقوا بوسطن لوحده.

استند طارق إلى أحد الجدران، وقد أحس بالحجر من وراء ظهره بارداً. ليمنحني الله رأساً بارداً أيضاً، إنني أستطيع الهرب فمن سيمسك بي؟ ترك القرية في الظلام، يمكنني أن اختفي غداً، ويمكنني التخفي بين المغاربيين المنتشرين في كل البلاد إلى أن لا يعود الجندي صاحب الندبة يتذكر وجهي، وأنه رآني مع ذاك المتحالف مع الشيطان، يمكنني أن أكون في مأمن.

ولكن، وفي الوقت الذي كان هو في خضم أفكاره، علم تماماً أنه لن يقدم على ذلك أبداً، فهو لم يكن جباناً، فلا يمكنه أن يسعى للنجاة بنفسه ويدع سالومون وبوسطن يقعان في يد الجنود. عليه البحث عن الغريبين وأن يساعدهما على الهرب، وأيضاً من أجل حماية الأمير ونفسه وسالومون.

بحق الله وكل أنبيائه، من كان قد سمع يوماً بمثل هذا! ولكن إن كانت

حقيقة، تلك التي تحدث عنها بوسطن: فيمكنني إذن معاونته في عودته عبر الزمن، ففي ذلك نساعد نحن أنفسنا أيضاً، فعودة بوسطن عبر الزمن لن تمكّن أتباع محكمة التفتيش من العثور عليه أبداً.

ثم دخل في زقاق.. أين يختبئ بوسطن الآن؟ وفي أي اتجاه هرب؟ ربما باتجاه الطريق نحو الممر، فبوسطن يعرف كيف يصل إلى هناك، وإن يكن صعباً عليه في الظلمة، الحطام في كل مكان، الأمر الذي يمكن للمرء أن يتهاوى معه بسهولة.

الزقاق ينفرج الآن متسعاً، عند مشارف القرية والمنزل الأخير فيها. ومن داخل إحدى الحظائر جاء صوت نهيق لحمار، وعندما أصغى لصوت هامس أعقبه، أحس طارق بابتسامة الفرج تصعد إلى حلقه، فيا لرعونة الإثنين وقلة مهارتهما، هذا اليهودي وذاك العابر للزمن! ويا لقلة حيطتهما وقلة خبرتهما بالمخاطر، وبالتالي، ومع ذلك، فكم كان هذا مفيداً له وفي هذا الوقت بالذات، فما كان عليه فعله بالذهاب عابراً الممر في هذه الليلة، لم يعد من ضرورة للمغامرة به.

رفع طارق الكيس القماشي المسدل لإغلاق باب الحظيرة، فنهق الحمار.

«ألم تتعلما، أن تصمتا كالسمك، عندما يلحق بها القرش؟»همس قائلاً لهما، «وبدلاً من ذلك تغنون مثلما تغرد الطيور عندما يلوح بزوغ الشمس في يوم جديد.

«طارق!»، همس سالومون.

سقط الكيس القماشي المسدل على باب الحظيرة فأغلقه.

ما زال الوقت ليلاً، ينبغي أن يتم ذلك الآن.

-29-

استند بوسطن إلى جدار الحظيرة، وكانت الدجاجات قد خبأت رؤوسها تحت أجنحتها ونامت؛ وهو أيضاً أحس بأنه لم تعد له رغبة أخرى غير ذلك، أما طارق فكان قد تحدث وتحدث كثيراً.

«أهكذا تعرفت على البلاطة الخزفية؟وهل أنت متأكد تماماً؟»، قال سالومون «بإمكان بوسطن إذن أن لا».

«بالتأكيد، هو لا يستطيع، قبل أن يمسك البلاطة بيده»، قال طارق. «فمن يثق بالجسر، قبل أن تجربه قدمه، قد يسقط في فتحته! وأنا أظن أنها كانت بلاطة بوسطن، ودعني آمل ذلك».

«بوسطن!»، قال سالومون وهو يهزه، «أنت على وشك أن تنام، مع أن طارق كان رأى البلاطة في هذه الأثناء! هل كنت تصدق، بأن ذلك سيتحقق بمثل هذه السرعة؟ افرح بهذا، بوسطن! ألم تسمع ذلك؟».

فتح بوسطن عينيه من دون اكتراث، كان سيقفز لو عرف بذلك بالأمس. بل كان سيهلل، فقد كان بالأمس مفعماً بالأمل، البلاطة، لقد تعرّف طارق على البلاطة، طريق العودة.

إنه الآن لا يريد أن يستمع لذلك، فأن يسمع عن ذلك الآن أصبح أمراً يؤلمه، هو يريد أن ينام، لا أن يُجبر على التفكير، بحق السماء، لا تجبروني على التفكير.

«لقد أخطأت، سالومون»، غمغم بوسطن قائلاً «وحتى بالبلاطة، لم يعد بمقدوري العودة».

«أخطأت»، صرخ سالومون، نهض طارق قافزاً ووضع يده على فم سالومون، انحنى سالومون مُباغَتاً «ألم تقل لنا، إنَّك تريد فقط إيجاد هذه البلاطة، من أجل أن تعود إلى زمنك؟ والآن، ها هو طارق قد وجدها لك! فلماذا لم تسر بذلك؟».

نظر بوسطن إليه يائساً، ألم تجرِ الأمور كما كان يرغب؟ أخيراً يصدقه الإثنان ويرغبان في مساعدته؛ بل وقد وجدا البلاطة له، ولا يريدان تركه بمفرده، لا بد أن يوضح لهما.

«أعتقد، أنني لن أتمكن من العودة أبداً»، قال بوسطن بصوت منخفض. «وحتى ليس بواسطة البلاطة، لقد أدركت ذلك قبل هنيهة فقط، فإن لن يتم اكتشاف أمريكا»، ثم بلع ريقه، فإن جرت الأمور على نحو مختلف عما ورد بما حدثتنا به كتب التاريخ، فسيكون زمني في المستقبل زمناً آخر مختلفاً! أتفهمون هذا؟ إذ لن يكون هناك وجود لوالدي، ولهذا السبب لن أوجد أنا أيضاً، فإلى أين سأعود إذن؟ إن لم أوجد أنا؟».

حدق به طارق، وقال: «لقد قلت قبل ذلك...!».

بحلق به سالومون، ثم أومأ برأسه ببطء «إن جاءت الأمور على نحو آخر»، غمغم سالومون، «بالطبع، أنت على صواب، بوسطن! فعندئذ لن توجد أنت!».

أومأ بوسطن مرهقاً، «ولهذا السبب لم تعد تفيدني البلاطة الخزفية الآن، طارق! فعندما حدثتكم عن ذلك من قبل، كنت أعتقد أنها ستعيدني إلى حياتي المستقبلية، ولكن، ماذا لو لم تكن تلك الحياة».

ضرب طارق بكف يده المفتوحه بقوة على الأرضية المغبرة، فرفع أحد الديوك رأسه مرتعباً ينفض جناحيه، ثم تابع نومه من جديد، «لقد قلت من قبل، إنك تحتاج فقط للبلاطة!» قال طارق، ثم صفّر، وتابع: «وها أنا قد وجدتها لك! والآن تقول إنه لم يعد من جدوى لها؟».

هز بوسطن برأسه، «ألا تفهم ذلك إذن؟» قال هامساً، «لن يكون أي وجود لي! كل شيء سيأتي على نحو آخر، إن كان كولومبوس لن يكتشف أمريكا! فماذا ستفيدني البلاطة في هذه الحالة!».

زفر طارق من أنفه غاضباً، «جبان!»، ثم صفّر، «أيعني هذا أنك تستسلم؟».

كان سالومون يمضي كل الوقت وهو ينقّل بصره بينهما، هنا وهناك، ثم ما لبث أن هزّ الآن برأسه، «طارق، إن بوسطن على حق»، ثم تابع ناظراً إلى بوسطن، «وطارق على حق أيضاً، بوسطن، فمن غير البلاطة لن يستطيع بوسطن العودة إلى عالم المستقبل؛ ولكن بدون رحلة الكولون، لن يكون هناك وجود لمستقبل بوسطن، فهل علينا إذن نسيان البلاطة؟ وماذا سيحصل لو أعادت الملكة التفكير بقرارها على نحو آخر؟ وماذا لو قدّمت ربما لكولون سفنه التي يحتاجها بالفعل؟».

فكر بوسطن بالرجل ذي المعطف البالي، وفكر بشروطه غير المعقولة، التي أضحكت الجميع، وبأنه لن يحيد عن ذلك، لقد كان متهوراً.

«لن تقدم له الملكة السفن»، قال بوسطن متعباً، «لقد بالغ كولومبوس كثيراً بطلباته».

وضع سالومون يده على ذراعه، وقال له هامساً: «بوسطن، لقد فقدت الأمل! وصدقني، فأنا أفهمك، ولكن عندما نفقد الأمل...» ثم نظر إلى

طارق وتابع»، فعندئذٍ، سيأتي ما نخشى منه بالتأكيد، بوسطن، لا تفقد الأمل أبداً، لا تستسلم أبداً، أبداً بأي حال!».

«آمين»، غمغم بوسطن، «ومن أجل ماذا؟ فأنا أعلم أن الجنوي لن يمضي برحلته، فلماذا إذن سرقة البلاطة الخزفية، ولماذا الخوض في المخاطر؟».

ارتعدت أوصال طارق، وبدا غاضباً.

«لم أكن راغباً بإخبارك بالأمر!»، قال طارق أخيراً، «إنك تضطرب عند التحدث عن المصير، الذي ينتظرك في غرناطة، مع أنك تستطيع العودة إلى وطنك في ساعات قليلة، ولكن إن كنت قررت البقاء هنا».

«أنا لم أقرر!»، هتف بوسطن، «افهمني أخيراً!».

قام طارق بحركة من يديه وكأنه يريد مسح ملاحظة بوسطن، «إن كنت ترغب بالبقاء»، قال طارق، متجاهلاً ما كان قاله بوسطن من قبل، «إذن عليك أن تعلم، أن رسولاً قدم للتو من غرناطة برسالة من الملكة، تتعلق بك».

«لماذا احتاجوا الرسولٍ ثانٍ؟»، سأل سالومون بحيرة، «ألم يأتِ قائد الجند برسالة من الملكة من قبل؟».

لم يلقِ طارق بالاً له، «بوسطن، لقد عثر فلاح على كيسك، وكل شيء جرى بعد ذلك كما حدثتك به من قبل، وقد وجدوا عدتك، وهذه كانت الرسالة، التي نقلها الرسول: يوجد برهان، على أنَّ الصبي الأشقر حليف للشيطان! الأمر المستعجل لصاحبة الجلالة، ينبغي البحث عن الصبي! أبحثوا عن يد الشيطان الطويلة، الصبي يجب أن يحرق!» حدق النظر في بوسطن. «الصبي يجب أن يحرق!، والآن، بوسطن، القادم إلينا من المستقبل؟ ألا تعتقد أنه من الأفضل لك أن تحاول السفر بواسطة البلاطة؟».

«يد الشيطان الطويلة»، غمغم سالومون. ثم توجه إلى بوسطن بالقول: «بوسطن، أتدري ما يعني هذا؟ إنه يعني أن كل واحد في البلاد يبحث عنك، ولن تتلقى مساعدة من أحد في غرناطة! وحتى من المغاربيين، بوسطن، إن جماعتي أيضاً يخافون من الشيطان، ففي غرناطة كلها لا يوجد من هو مطلوب يتم البحث عنه أكثر منك».

وجه بوسطن بنظره إلى الأرض، فلو كان تحدث لعلقت الكلمات في حلقه، وجالت الدموع في عينيه.

«ينبغي علينا الآن، محاولة سرقة البلاطة، ليس لدينا خيار آخر»، قال سالومون متعجلاً، «لا يحضرني الآن شيء آخر غير مساعدتك! طارق! أتوافقني على ذلك؟ أليست المحاولة ذات قيمة، ولنقم بذلك حالاً، أياً كان الخطر؟».

زفر طارق من أنفه غاضباً، «من يستسلم مبكراً مثلك هكذا- بوسطن المستقبل- كيف يمكنه أن يفلح في الحياة؟ إن دربكم ينبغي أن يكون مستوياً وممهداً في الحياة بالنسبة لعالمك في المستقبل، وإلا فكيف يمكن أن يكون بمقدور حجر صغير أن يمنعك من أن تتقدم»، ثم أومأ إلى سالومون، «سنسرق البلاطة»، قال طارق، «من هو الذي يأبه للخطر؟ فحتى قبل أن يلون فجر الغد قمة جبال سييرا باللون الذهبي، ينبغي أن يكون الأمر منتهيا».

وبذهول أحس بوسطن بنسمة من الأمل، على غير إرادة منه، فالبلاطة لن تفيده، وهذا يعرفه تماماً، فهو لن يستطيع العودة إلى وطنه، إن كان لا يوجد ما يمكن أن يكون بيته، ولكن طارق وسالومون يريدان مساعدته، مع أن الخطر الذي يتهددهما ليس أقل شأناً من الخطر الذي

يتهدده هو، وهما مستعدان لتأجيل هربهما، من أجل سرقة البلاطة، إنهما أهله، وهو لم يعد لوحده.

«إن الأمر لا طائل منه في جميع الأحوال»، غمغم بوسطن، «ولكن إن أنتما رغبتما بمحاولة».

نهض طارق واقفاً، «ينبغي أن يتم الأمر في وقت نوم الجنود!»، قال لهما. «وكم هو قدر سعادتي فيما سأقدم عليه! إن النبي مع الشجعان، وباسم الله! وعندما سيستيقظ الجندي، ويبحث عن البلاطة، ***أين ذهبت؟ سيسأل نفسه. وكيف يمكن أن تختفي؟*** أما أنت، بوسطن، فستكون قد مضيت بعيداً، «ثم ضحك بعد ذلك، «سأذهب الآن، إلى اللقاء، بوسطن وسالومون، انتظراني قبل أن يرفع المؤذن أذان الفجر».

«ألن آتي معك؟» سأل سالومون متردداً، أما بوسطن فقد وجد مدى صعوبة أن يطرح هو السؤال نفسه.

«في الواقع، عليّ أنا...» غمغم بوسطن.

إلا أن طارق ضحك.

«كم سيسرني، أن أسخر من جندي الملكة على الأقل بمثل هذه الدعابة!» همس لهما طارق، اقسم بحق النبي أنَّ الله سيكون حامياً لي!».

عاد الكيس القماشي ليسدل عائداً لمكانه من وراء طارق، إنهم أهلي، فكر بوسطن لنفسه، إنني لست وحدي.

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

«مانويل»، ناداه جاره، كانت السلال في القيصرية قد تم إدخالها منذ وقت طويل لداخل الحوانيت، وكذلك النراجيل، والأطباق النحاسية،

والبسطات التي كانت مغطاة بالحلي والفناجين التي كتبت عليها الأسماء؛ كما أسدلت كذلك العوارض الدوارة لأبواب المتاجر.

«مانويل كوراثون!».

رفع مانويل رأسه بحذر، إذ ما زال الدوي يهدر في رأسه، من وراء جبهته منذ أيام دون توقف، وهو لا يرغب فيه، وليس من المجدي له إن هو أدار رأسه نحو اليمين أو حاول أن يسنده إلى الجدار، حيث علقت الأقراط المصنوعة في تايوان بشعره. لم يخفّ الدوي في رأسه، وكذلك الدوار والغثيان، تلمس برؤوس أصابعه الأرض بحثاً عن زجاجته، فلم يجدها، ترك ذراعه تسقط بجانبه بكل ثقلها، نعم بكل ثقلها، إنه مدهش أن يكون كل شيء سواء.

«مانويل كوراثون، لقد أقفل السوق! عليك إغلاق متجرك!».

أوه، أوه، هذا الصوت من جديد، ألا يكفي أنه يسمعه طيلة اليوم؟ ***مانويل كوراثون، ألا ترى! هناك لص! مانويل كورازون، أحدهم يريد أن يدفع لك!*** ربما عندما يتناول جرعة أخرى، فربما يكون هذا الصوت قد اختفى أيضاً.

«إن أنت لم تسدل الغلق الدوار لباب متجرك، مانويل، فسيسرقونه في الليل مثل الغربان!» أحس بيد على كتفه، فكيف جاءت هذه اليد لتحط على كتفه، كل شيء ثقيل، هو يحسه ثقيلاً. «مانويل؟ تعال، دعني أساعدك!».

كان طيف، يعرفه من قبل، هيئة إنسان يعرفه جيداً بالتأكيد، ولكن لماذا يتموج هكذا، وينقل سلاله لداخل المتجر، وهل كان الأمر هكذا دائماً؟ هل ينبغي أن تسير الأمور على هذا النحو؟ هذا الزوغان في الرؤية، وإنزال غلق المتجر ووضع المفاتيح في يده.

«عليك الذهاب للمنزل، مانويل كوراثون، انهض! سأوصلك!».

عليه أن يقف، لماذا ينبغي أن يقف، يمكنه متابعة جلوسه حتى صباح اليوم التالي مع مجيء السواح، فلماذا عليه أن يذهب لبيته خلال ذلك، الطريق طويل.

«كلا!»، قال مانويل بغضب محاولاً التخلص من اليد التي امتدت إليه لتحاول إنهاضه، إلا أن يديه لم تسعفاه، غريب، إنه أمر غريب جداً، كل شيء سيان.

«لا تستطيع النوم هنا، مانويل، فالبازار».

ثم جاء صوت آخر، لماذا يزعجه الجميع، وماذا يريدون منه، إن كان يرغب أن ينال راحته، وجرعة واحدة أخرى، «منذ متى يثمل كل يوم؟» وامتدت ذراع من تحت إبطه والتفت إلى ظهره، «لا يفعل هذا في العادة؟».

لا يقوى على النهوض، أوه، إن النهوض صعب، إن كانت ساقاه من تحته يتم جرهما مثل سحب حزمتين غريبتين عن جسده..

«أعتقد، أن حاله بدأ هكذا، منذ أن بدأ يبحث عن ذاك الفتى»، قال الصوت الذي يعرفه مانويل، ولكن من أين يعرفه، من أين فقط، «الذي اختفى فجأة. ولهذا هو مغتاظ من ذلك».

إنهم يجرونه فوق بلاط الطريق، ولم يكن هذا لطيفاً، وكان يريد أن يقول لهم إنَّ هذا ليس لطيفاً، ولكنه لم يستطع رفع رأسه، وشفتاه لم تدريا، كيف ستقولان هذا أيضاً.

«وهل لديك فكرة، لماذا؟».

عليهما أن لا يتحدثا، أن لا يتحدثا، لا يتحدثا.

«لقد ظننت في أحد الأوقات»، لقد توقفا الآن، أما مانويل فقد انهار الآن تماماً، وهما ولم يعودا يجرانه الآن، «لا تسخر مني: إنها دائماً تلك

الشائعة عن البلاطة الخزفية».

لا تتحدثوا، لا تتحدثوا، لا تتحدثوا، جرعة أخرى واحدة أيضاً، لا تتحدثوا، لا تتحدثوا، لا تسمعوا.

-30-

الأندلس، 1492

لم يحتج طارق لكثير من الوقت في بحثه، فمكان وجود مخيم قيلولة الجنود، كان بالوسع من مبعدة أميال سماع ضجيجه، في نهاية طرف القرية السفلي، على منحدر نحو الوادي، قاموا بإيقاد نارهم على هضبة، ومع أن الليل اقترب من نهايته إلا أنهم كانوا ما زالوا يديرون أحقاق الخمر، كما سمع خشخشة رمي أحجار النرد التي يتم رجّها في كؤوسهم الجلدية، فبعد يوم من المسير وليلة صاخبة في القرية، لم يستطع الجنود الخلود للراحة.

وهم يريدون أن يكونوا محاربين! فكر طارق لنفسه بلا مبالاة، في الوقت الذي كاد فيه أن يقترب بصمت محتمياً بشجرة قريبة من النار.

لقد نفذوا مهمتهم، وتم تفتيش القرية، وهم يرتاحون الآن، يأكلون لحم الخنزير، الذي يقطر شحمه على الجمر، ويغنون أغانيهم الغريبة، وهم حتى لم يقيموا حرساً لهم، إذ كانوا يشعرون باطمئنان كامل الآن، فجنديان تعبان فقط تُركا على طريق في القرية من فوق، وكأن الخطر من القرية في الأعلى هو الوحيد الذي يحدق بهم، وليس من أي مكان آخر.

انتظر طارق متوارياً خلف جذع شجرة جافة، كل التعب الذي كان قد حل به، تبخر دفعة واحدة، هذا ما كان يحصل معه دائماً، والآن بقي أمامه فقط الإنتظار المتوتر، إذ كان هناك ما ينبغي فعله بصمت وبسرعة، إلا أنه

يقترب من التسلية والشعور بسعادة القيام به، فما من أحد سيشعر به.

وسرعان ما اكتشف الجندي صاحب الندبة بين الجنود، لقد ترك أَمتعته بجانبه على العشب، وظل جالساً مغلق العينين، في حين أخذ بقية رفاقه من حوله في النوم واحداً بعد الآخر، كان يمكن للمرء الاعتقاد بأنه نائم، لو لم يكن يتناول بين فينة واخرى جرعة من حق الخمر، الذي وضعه كنوع من الحرص عليه، ضمن حوض بجانبه.

كانت النار تومض، وفي أزّة عالية الصوت قذفت من جديد شراراتها الذهبية، قبل أن تتداعى؛ وفي أجيج الجمر المتوقد تحول الجنود إلى أخيلة حمراء. وواحداً بعد الآخر استلقى على الأرض المتحجرة، وقد وضع كل واحد منهم معطفه وصرة حوائجه تحت رأسه، ثم اختلطت خشخشات رمي النرد الأخيرة مع ضوضاء النائمين وشخيرهم، وتلاشى صوت الغناء.

ومع ذلك، ظل طارق ينتظر، وكان الجندي ذو الندبة قد استلقى هو الآخر متكوراً على نفسه، كمن يرغب في تصغير نفسه، بل تصغير نفسه جداً، كان تنفسه يخرج من فمه متعثرا، ومن حزامه كانت تتوهج تلك البلاطة الخزفية.

يا لبساطة كل هذا، فكر طارق، إن الأمر الآن هو مجرد لعب أطفال، بضع دقائق أخرى من الانتظار، زيادة في الحذر، وليغرق في النوم آخر آكل للحم الخنزير، فقط قليل من الصبر.

أحد الجنود عند أطراف المعسكر أطلق صرخة أثناء نومه، وهو يصارع نفسه، ثم عاد كل شيء للهدوء، وانسحبت الغيوم من السماء، وسطع القمر كبيراً، بلون أبيض مزرق، الأمر الذي يجعل المشي تحته سهلاً، وكانت النجوم تلتمع مثل الملايين من حشرات قناديل الليل، ولكنها

ستذوي للتو. لقد حان الوقت.

بحرص شديد هيأ طارق نفسه، ثم عصر نفسه للحظة على جذع الشجرة وهو يصغي بعمق؛ ثم انطلق، بصمت وبسرعة، ما من أحد يمكن أن يكتشف أمره، كان قادراً على أن ينظر أمام قدميه، إذ لا ينبغي أن يتحرك أي حجر، وأن لا تصدر عنه أية نأمة، بقيت الآن أمامه خطوات فقط، وكان بالإمكان التعرف على البلاطة بوضوح تحت ضوء القمر، ولا يمكن أن تكون غير بلاطة بوسطن، فمثل هذه الأمور لا يمكن أن تحدث صدفة! فسينقض عليها للحال، بكل احتراس، كانت رائحة الخمر تفوح بقوة، ولكن لم يتملك طارق أي خوف، إنه مفعم بأمل تحقيق ما يريد، وسيفتح الطريق للحال أمام بوسطن كي يعود عبر الزمن.

تكسر أحد الأغصان تحت قدمه، فتجمد في مكانه، ولكن لم يتحرك شيء في المعسكر، فالضجة الناجمة عن ذلك كانت خفيفة، وكان الجندي ذو الندبة قد تمدد دون حركة، وقد انكفأ دورق الخمر فارغاً على جانبه عند قدميه. بقيت خطوتان، خطوة واحدة.

وبحذر انحنى طارق من فوق النائم، وكانت تقابله رائحة الخمر والعرق، حبس أنفاسه، على مهل، ملليمتر بعد ملليمتر قرب يده من الحزام! وللحال، الآن، البوابة عبر الزمن.

مست أصابعه البلاطة، واشتعلت في جسده نيران حماس متوقد، الآن سيستطيع بوسطن العودة، ولن يستطيع أحد أن يكتشف مكان وجود حليف الشيطان، فأنتما لم تقيما حساباً لطارق، أيها الملكان! ثم أطبقت أصابعه على بعضها.

في هذه اللحظة قفز الجندي واقفاً وألقى بنفسه عليه، ثم ضغط طارق

على الأرض المتحجرة، وفاحت رائحة الخمر في وجهه.

ولكنه لم يفه خلال ذلك بكلمة واحدة، كما لم تأتِ أية ضوضاء من ناحيته، وحتى عندما هوى بقبضته، فلم يكن طارق قد أدرك بعد ما حدث له.

انقض الجندي ذو الندبة على حُق الخمر، ومن حوله كان رفاقه ينشدون أغانيهم، ويلعبون لعبة النرد الممنوعة؛ وبعضهم كان يحتسي الخمر سراً مثله. أما قائد الجند فكان يغمض عينه، فالكل يعلم، أنَّ القائد، يتصرف وكأنه لم يلاحظ شيئاً، هكذا كان يتصرف دائماً، ولو لم يكن صديقاً للمغاربيين، لكان اعتبره الجندي رجلاً طيباً.

قرّب حق الخمر من فمه، كان عليه أن يكون أكثر اقتصاداً، إذ لم يبقَ فيه سوى القليل، كي يبلل شفتيه، كان عليه أن لا يشرب على نحو متعجل، وليس بمثل تلك الكمية، وإلا ما كان حُقه فارغاً الآن.

وبلا مبالاة ترك حُقه يتدحرج بداخل الحوض، ولكن إن لم يشرب، فماذا سيفعل؟ لا يمكن تحمل، كل هذا الغيظ، ألم ينتصروا على المسلمين؟ إلا أن الأمور تسير بالنسبة لهم، كما لو كانت القديسة العذراء قد منعت أن يتم مس شعرة واحدة منهم. ***لم نأتِ كأعداء! أرجو صفحكم لممارسة رجالي! أما البوابة فسيتم دفع قيمتها!***

تكور الجندي حول نفسه، هل تعامل المسلمون مع المسيحيين على هذه الشاكلة، عندما جاؤوا لاحتلال مدينة ***الظهره***، في تلك الأيام من ليلة عيد الميلاد، عندما كان ما زال هو طفلاً؟ فهل طلبوا الصفح آنذاك، وهل تم استبدال الأبواب.

لقد قامت حرب هنا، ألا يدرك القائد ذلك؟ فالحرب لا تتوقف لمجرد أن

الملك وقع معاهدة، بل ستأخذ الحرب طريقها أكثر فأكثر، حتى يتلاشى من الأذهان وعلى كلا الجانبين تذكر سقوط القتلى، وتذكر حال المصابين الذين بترت أعضاؤهم، وتذكر البيوت والحقول التي أحرقت، فطالما استمرت الكراهية في مكان ما وطالما استمر التذكر، وبقيت رغبة الأمل في الإنتقام، فإن الحرب لن تنتهي.

أشكركم من أجل استضافتكم الكريمة، يا لسخف هذا الافتراء، هل تحدّث المغاربيون بهذا الكلام، عندما انقضّوا علينا قادمين إلى الظهرة، في ذلك الليل، الذي كان فيه الناس يصلّون في الكنيسة؟ لقد قتلوا، وقتلوا، ولم يسألوا إن كان مرحباً بهم أم لا، ما وقع هنا كانت حرباً، ألم يدرك قائد الجند هذا؟

كان قد حل الهدوء على المعسكر، وكان يسمع شخير رفاقه من الجنود، وصرخة ما، بين وقت وآخر، تدحرج جاره على جانبه فصدمه بذراعه، إن الحرب لا يمكن نسيانها بمجرد توقيع معاهدة، فالحرب تعشعش في الأذهان، وتتسلل أثناء النوم إلى الإحلام لتتلفها وتخربها، استدعى لذاكرته والدته. لقد توارى حينها، ثم انتظر، وانتظر، كان ما زال صبياً، ثم تذكر والده الذي كان يبغي تعليمه حراثة الأرض عندما تنتهي الحرب ليصبح فلاحاً، أما الآن فقد كبرت على ذلك، ولن يمكنك تعلم الحراثة أبداً.

لم نأت كأعداء! والبوابة سيتم استبدالها! ولكن المغاربيين لم يستبدلوا البوابات، ولم يطلبوا العفو، لم يكن هناك في الظهرة، سوى الحطام والردم والرماد، في تلك الليلة التي ولد فيها أبن الله، إلى هنا وعى كل شيء.

فأين هو أبوه، وأين هي أمه الآن؟ ومن يمكنه أن يتوقع، أنَّ الحرب قد انتهت بالنسبة له.

كان حُق الخمر فارغاً، فلم تعد توجد مواساة أخرى له ولا نوم، لقد تقصف غصن ما.

كيف أمكنه البقاء يقظاً في نهاية يوم كمثل هذا اليوم؟ فحتى الطيور ما زالت ترقد في نومها، ولا شيء يتحرك في القرية أو في الحقول، فكيف يمكن مع ذلك لغصن أن يتكسر.

والخطوات التي كانت تتقدم منه، شعر بها، فقط من خلال أذنه الملتصقة بالأرض، قد يكون واهماً، فشق عينه قليلاً، والرب الذي تركه في الظهرة بطريقة مخزية، فهو الآن يشكر الرب، لأنه منحه ضوء القمر على هذا النحو. وذلك الذي يقترب منه، باحتراس مثل حيوان بري مفترس، كان طفلاً، لا يكاد يكون أكثر من طفل، لم يكن يحمل سلاحاً، ولا جعبة جلدية، أو سترة جلدية للقتال، اقترب منه الصبي أكثر مرتدياً رداء مغاربياً.

حفزّ الجندي كل عضلاته، لا يحمل الصبي سلاحاً، ويده المبسوطة، كانت فارغة، وعندما اقترب الصبي بما يكفي، قفز الجندي واقفاً، لقد أصابت قبضته صدغ الصبي، فكيف لأحد أن يعتقد، بأن الحرب انتهت.

-31-

لم يرغب بوسطن في أن يعيد التفكير حول، كل تلك الأحداث الي جرت بسببه، لا ينبغي أن يصاب طارق بسوء.

«كان ينبغي أن يكون قد عاد من زمن بعيد!»، همس بذلك إلى سالومون، فعما قليل ستشرق الشمس من فوق الأفق! فأين هو طارق الآن؟».

«لقد قال، إنَّ عليه إتمام ذلك قبل أن يؤذن الفجر»، غمغم بوسطن، «والآن، ما زال الوقت ليلاً، ببساطة، ربما أعطى لنفسه المزيد من الوقت؟».

لم يجب سالومون، وبقي واقفاً وهو عاقد ذراعيه مستندا للجدار الخشبي. كانت الحظيرة ضيقة، لاتسمح بالتحرك داخلها ذهاباً وإياباً، وكان الدجاج يبدو في حالة غريبة وهو لا يُظهر رؤوسه أثناء نومه، أما الحمار فخمخم مخرجاً زفيراً من أنفه خلال حلمه.

«لماذا احتاج لكل هذا الوقت؟»، سأل سالومون، فإن كان المغاربيون قد أدّوا صلاتهم، فهذا يعني أن الوقت قد تأخر، أما أنت فعليك الهرب قبل أن يكتشف أحدهم أمرك، أين بقي طارق؟».

«ربما لم يزل الجندي صاحياً؟»، همس بوسطن، «وربما لم يتمكن طارق من سرقة البلاطة منه؟ ولن يكون ذلك بمثل هذا السوء، سالومون، فإن لم يستطع أخذ البلاطة، فلن يكون هذا سيئاً على نحو كبير، وأنت تعلم جيداً الآن، أنها لن تعيدني إلى زمني، إن لم يتم اكتشاف أمريكا!».

أمعن سالومون النظر فيه، «ولكن ربما تأخذك إلى ***مكان ما*** ! فعلى الأقل تبعدك من هنا!إن كنت قد سافرت بها في مرة سابقة، كما ذكرت أنت! وفقط هذا هو الأمر الذي يهم الآن! أنت تتوقع، أن نصدق ما هو غير قابل للتصديق، بوسطن، وها نحن على وشك الاستعداد للقبول، باحتمال أنك جئت إلينا من المستقبل، ونحن نريد مساعدتك لتعود، فإذا بك تحدثنا على الدوام عن هذا البلد، الذي لم يسمع به أحد من قبل: أمريكا! وكأن البلاطة أصبح شأنها سيان بالنسبة لك!».

«ليس هذا صحيحاً!» همس بوسطن، هي مهمة لي بالطبع!»

«وماذا عن طارق؟» قال سالومون، «وماذا إن كان قد حدث له شيء ما؟ ألا تفكر أنت بهذا؟» وأخذ ينقر بأصابعه على الخشب، «أليس من الأفضل أن أذهب لأرى، ما إن كان بحاجة لمساعدة؟ أنت لن تستطيع الذهاب، بوسطن، فإن رأوك بشعرك الأشقر، فذلك سيعني لك المحرقه».

«كلا، أرجوك، سالومون، ابق هنا»، قال بوسطن، «إن حدث لطارق أمر ما...» ثم صمت، «لا أريد أن أكون لوحدي، «أرجوك سالومون، ابق معي هنا».

تقدم سالومون خطوة باتجاهه، كان صوته مزلزلاً، «لأنك لا تريد أن تكون لوحدك، تطلب مني أن أترك طارق لمصيره؟» قال لبوسطن، «وماذا إن كان طارق يحتاج حقاً لمعونتي؟ وأنت تطلب مني، من أجل هذا، وأنت بالذات، ترك طارق يذهب للخطر؟ كنت سأزدري بك بوسطن، لو لم أعلم، كم هو حجم الخوف الذي واجهته في الأيام الماضية، وكم كان ينبغي أن تكون مضطرباً من أجل ذلك، ولهذا فقط، يمكنني أن أنسى ما كنت قد قلته».

صمت بوسطن، فلو تكلم، لم يكن سيقوى على وقف دموعه.
«أنا ذاهب الآن، بوسطن!»، همس سالومون، «تمنَّ لي التوفيق!».
أومأ بوسطن برأسه، ثم جالت الدموع الآن في عينيه.
«انتبه لنفسك، سالومون!» همس له.
لايجب أن يحدث لسالومون أي مكروه، ولا لطارق، إن كل هذه الأمور إنما تتم بسببه، وفوق ذلك، هو الآن من جديد لوحده في هذا العالم الغريب.
استيقظ الأمير، فقد كان أحد ما يقرع بابه بحذر، كان ما زال الوقت ليلاً.
«مولاي!»، همس صوت خادم، «المعذرة، لإيقاظكم! إلا أن قائد الجند يرغب في التحدث إليكم، وهو ينتظركم أمام المنزل.
القى الأمير بمعطف فوق لباس النوم الذي يرتديه، وفي الساحة من أمام المنزل كانت تومض المشاعل من جديد، ماذا جرى الآن؟ ألم يكن الجميع نائمين؟ وفي الأفق كان قد لاحظ بأن تباشير الصباح كانت قد لا حت هناك.
«طلبتم رؤيتي أيها القائد؟» قال الأمير.
وحتى القائد بدا كأنه لم يصح من النوم بعد، ومن دون أن ينبس بكلمة، أشار إلى اثنين من الجنود بوجهين مظفرين، يمسك كل منهما بصبي، واحد فقط من الصبيين كان قد نكس رأسه للأرض، تفاجأ الأمير، ينقص ثالثهما فقط.
«ها هما، سيدي القائد»، نادى أحد الجنديين، ألم يكن هو الجندي نفسه الذي حطم البوابة من قبل؟ ندبة حديثة العهد وحمراء تخط وجهه، والصبي،

الذي كان قد دفعه بركبته للأمام، كان اليهودي الصغير، الذي حاول والده الالتفاف على قانون طرد اليهود، وهكذا تمكنوا في النهاية من العثور على ضيوفه، «انظر، ماذا وجدنا!».

تفحص القائد بنظرة منه كلاً من الصبيين، «وماذا أيضاً؟»، سأل القائد بعد ذلك، من غير أن ينظر للأمير، ثم تابع: «وأين الجاسوس؟ أين حليف الشيطان؟ لقد ظننت أنكما أحضرتما رسول الشيطان معكما، لهذا السبب فقط كنت قد أيقظت الأمير! ولكن ليس من بين الإثنين من هو شعره أشقر!».

إنهما اثنان، وليس ثلاثة، ماذا يعني هذا؟ إن الأشقر ليس بينهم.

«أنتم تعلمون، لقد نزعنا أغطية الرأس عن كل الرؤوس، سيدي القائد»، قال الجندي الثاني، الذي كان قد لوى ذراع طارق خلف ظهره، فيما كان الأخير ينظر إلى الأرض بتمرد، «ليس من أحد في هذه القرية له شعر فاتح. ثلاثة كانوا قد جزوا شعرهم، إلا أن الشعر الذي كان قد نما من تحتها، كان بلون غامق، فالصبي الذي خدع الملكة، غير متخفٍ في هذه القرية، وإلا، لا بد أن يكون صغيراً بحجم الفأر».

حاول الأمير أن يتمالك نفسه وأن يبدو رابط الجأش، فهل يمكن أن لايكون قد فقد كل شيء؟ فحتى خلال بحث الجنود، كان قد سأل نفسه عن المكان الذي يمكن أن يكون الصبي ذو الشعر الأملس قد اختفى فيه، وهل تتوفر القرية على مخبأ آمن له، لن يتمكن الجنود من الوصول إليه، فلا ينبغي أن يعثروا عنده على الصبي، الذي يعتبرونه جاسوساً له، وحليفاً للشيطان. فإن عثروا على الصبي الأشقر، فسيكون في ذلك هلاكه وهلاك القرية كلها، فأين اختفى هذا الصبي؟

«ولماذا تحضرون إليّ هذين الاثنين إلى هنا؟»، سأل القائد، «إننا في منتصف الليل! فماذا يخصني أمر هذين الصبيين المغاربيين!» لقد بدا مغتاظاً، بعد أن أيقظاه من نومه، كما أثاره، أنهما طلبا إيقاظ الأمير؛ والآن، يقتصر الأمر فقط على هذين الصبيين.

تقدم الجندي الذي يمسك بسالومون إلى الأمام، لم تكن خطواته واثقه، وتمكن الأمير من أن يشم رائحة الخمر الخارجة من زفيره. «لقد كانا يتسللان في الظلمة»، قال الجندي. «كانا يريدان الإنقضاض علينا أثناء النوم في معسكرنا! الذي هنا»، ودفع طارق بقبضة يده، «لقد مد يده إلى حزامي! كانا يريدان نزع سلاحنا ومن ثم قتلنا أثناء النوم!»، وقد أخذ صوته الآن رنة مظفرة، «أما ذلك الآخر، سيدي القائد»، قال الجندي. «فعدا عن كل شيء، هو ابن اليهودي الذي أَحرقنا منزله في غرناطة. إنه من ضمن أولئك الذين داسوا على قانون الملكة ويريدون تهريب مقتنياتهم القذرة إلى خارج البلاد. إنه ذلك الذي ادعى بأنه ***كونفرسو*** متنصر، مع أنه، لا يعدو أن يكون ***مارانو*** متعفن»، ثم دفع سالومون دفعة للأمام.

أخ، طارق!، فكر الأمير في نفسه، كيف أمكنك التخلي عن تعقلك، وكيف قيض لك أن تكون بمثل هذه العدوانية، وكيف أمكنك الاعتقاد، بأنك قادر لوحدك أن تدبر شيئاً؟ فأحياناً على المرء أن يكون في غاية سعادته، عندما لا يكون مرموقاً، فلماذا لم تصدقني بأن المجازفة يمكن أن تكون غبية، وأن الحذر هو فطنة وذكاء؟

تراجع القائد، ورأى الأمير كيف تملك القائد الخجل من رجاله، «هل أنت على يقين مما تقول؟»، سأل القائد، هل تؤكد ما قاله رفيقك؟

«لقد كنت أنا موجوداً في الخوديريا، تلك الليلة، سيدي القائد»، قال

الجندي الثاني، «ورفيقي يقول الحقيقة، لقد التقيناهما في منزل اليهودي، ومعهما الصبي الأشقر، ذلك المتحالف مع الشيطان!».

«وعندما أمسكنا به، كاد هذا الذي هنا أن يبول بين قدميه من شدة الخوف!»، صاح الجندي الذي يحمل ندبة على وجهه، ثم دفع سالومون إلى الأمام.

بدأ سالومون ينوح باكياً.

لقد رأينا صاحب الشعر الأصفر لأول مرة في رياليخو، ولم نره بعدها، سيدي القائد»، قال طارق، «فلا أحد يعلم من أين أتى، ولا إلى أين هو ذاهب، لقد رأيناه فجأة يقف بيننا، سيدي القائد! ما يبرهن»، وقد رأى الأمير ما يعانيه الصبي، خلال ما قاله الآن، وكيف أنه يستهين بنفسه»، فما تحدث لكم عنه الرسول القادم من غرناطة: والتي تتعلق بمبعوث من جهنم، يستطيع أن يظهر ثم يختفي، فهذا الذي تتحدثون عنه، ليس لدينا ما نفعله معه!».

«والآن»، قال القائد عاجزاً، كما أدرك الأمير كذلك، بأن المسألة أخذت منحىً آخر، لم يرغبه قائد الجند أيضاً، «يبقى مع ذلك، أنكما اعتديتما على مخيم مبيت الجنود، وهو ما لا يمكنكما نكرانه، ويمكنني الآن معاقبتكما في المكان على ذلك – ولكن عندما يكون اثنان من رجالي قد تعرفا على هذين الصبيين... »، ثم نظر إلى الأمير وكأنه كان يريد أن يعتذر منه.

من الممكن أن يرسل بهما إلى محكمة التفتيش، فكر الأمير، طفلان، من المؤكد، حتى وإن كنت أرى بوضوح، إنه يعارض ذلك، ولن أستطيع إنقاذهما. ولكن ماذا بعد؟. لكنني استجبت لإيوائهم، فهل سيأخذني القائد إلى غرناطة أيضاً؟ أستطيع الادعاء، بأنني لا أعلم شيئاً عن كل هذا، ولا يمكن البرهان على ما يخالف ذلك، وكأن توكيمادا، تلعب البراهين دوراً لديه.

أشار القائد إلى كلا الجنديين، وقال لهما: ستصطحبانهما إلى غرناطة،

على الفور، ولا تضيعا أي وقت، لا يمكنني أن أقرر بنفسي هنا، إن كانا قد قالا الحقيقة، فلدى توركيمادا وسائله لمعرفتها...» ثم صمت.

«السيد القائد»، قال الأمير، وكان قد أزمع أن يأمر العمال الحرفيين، كي يتوقفوا عن العمل اعتباراً من الغد، نعم، اعتباراً من الغد سيأمر بالتوقف عن العمل، إن كان ما زال يعتبر حراً، وهو لا يستطيع الاستمرار في البقاء في البوخاراس، فما فائدة أن تكون له إمارة لا يملكها، قد يرغب في الذهاب إلى مراكش، فالسلطان، سيستقبله هناك كأمير.

«السيد القائد، هذان الإثنان هنا، هما ضيفاي»، قال الأمير.

أومأ القائد برأسه متفكراً، ثم قال: «ومع ذلك، اعذرني أيها الأمير، عليّ إرسالهما إلى غرناطة، أعتقد أنكم لستم على علم بمخططات اليهود، وأنكم لا تعلمون بالمثل أيضاً، أنَّ هذين الاثنين كانا رفيقي من يتم البحث عنه».

إنه يهيّئُ لي جسراً يكون مخرجاً ولا أعلم لماذا، فكر الأمير لنفسه، لأنه ربما يعلم، أنه، ومهما حدث، لا خطر مني، فأية ضآلة وأي خزي هذا. وهل سيكون جبناً مني إن أنا مشيت خطوة واحدة على هذا الجسر؟ وهل ينبغي أن أعلن بنفسي أنني قمت بالتستر على الصبيين، تحت ذريعة، معرفة مخططاتهما، سيان ما سيكون مصيري بعدئذٍ.

حدق طارق النظر إليه.

«أنتم لا ترغبون أخذ ضيفي بالتأكيد»، قال الأمير بحزم.

انتظر القائد، «أيكون جبناً مني إن أنا ادعيت، أنني لا أعلم، هل يعتبر هذا فطنة وذكاء؟ عليّ عبور المضيق[1]، لم يبق لي في هذا البلد سوى الخيار بين

---

(1) المقصود هنا هو عبور مضيق جبل طارق باتجاه مدينة فاس في المغرب كما كان يفكر دائماً، وهو ما نفذه هذا الأمير فيما بعد في العام 1494 حين لجأ إلى هناك وامضى بقية حياته، (المترجم)

الخضوع والخزي أو الموت».

«إنني أفترض»، قال القائد من جديد، ولكن هذه المرة كان وقع صوته أكثر حدة، «أنتم لا تعلمون شيئاً من أمر الخطط الدنيئة لليهود، واعطني كلمة شرف، أيها الأمير؟ ألا تعلمون شيئاً من أمر عصبة الشيطان؟ إن كلمة رجل نبيل تكفيني، سواء كان مغاربياً أم مسيحياً».

هل هو ذكاء أم جبن، أستطيع غداً عبور المضيق.

ظل القائد منتظراً، وقد رأى الأمير أن القائد فهم ما يدور بذهنه، فقد ساق الجنديان الصبيين، وقد بقيا القائد وهو لوحدهما.

«والآن أيها الأمير»، قال القائد متعباً، «أود أن أثق بكم في هذه الحالة، إن الملكة لم تعط أوامرها، كي يتم نقلكم إلى غرناطة؛ إن كنت قد فهمت أنا كلام الرسول على الوجه الصحيح، فما زالت هذه الإمارة تخصكم، ولكننا سنبقى هنا، أيها الأمير»، ثم نظر إلى الأمير هنيهة، وتابع: «لدي إحساس بأنه لن يكون هناك لعب للشطرنج فيما بعد، تصبحون على خير».

-32-

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

كان الفتيان يتقلبون على أسرتهم المتعرقة في هواء الهوستال الخانق. إن كان الفطور رديئاً، فلماذا الاستيقاظ إذن، ومنذ وقت غير قصير لم تعد السيدة هيلبرت توبخهم، إن هم قدموا متأخرين، وهي تبدو شاحبة ومتداعية القوى، كما لو أنها لم تنم منذ وقت طويل.

«يا رجل، إنه يوم الخميس»، قال طوقان، «إيه، أليس من أحد قد استيقظ؟ لقد مرّ على وجودنا هنا أسبوع كامل، يا عالم!».

«وكأننا لا نعلم ذلك»، قال سيرغاي، «أقول لكم من جديد، إنني لا أنام هنا جيداً، بل أنام في منتهى السوء، إنني أستيقظ ليلاً وأفكر بالصغير، وأشعر بأنني لم أسهر على رعايته على نحو كافٍ، أو ماذا تظنون».

«يوجد عفن في عقلك»، قال قدير، «هل تريدنا أن نجعل من أنفسنا ماما له؟».

جلس طوقان في سريره.

«وأنا أيضاً أنام على نحو قذر»، قال طوقان، وسأكون سعيداً إن طرنا عائدين، ما أقوله حقيقي».

بعد أن أعلمت السيدة هيلبرت الشرطة، بعدما لم يعد بوسطن حتى إلى ما بعد ظهر السبت، فقد جرى الاستماع إليها، وإلى كل أفراد المجموعة؛

ولكن أكثر من تم الاستماع إليهم، هم الفتيان الثلاثة، باعتبارهم آخر من شاهده، إن الأمر يشبه رواية بوليسية.

كان بود السيدة هيلبرت أن تطير عائدة، إلا أن المجموعة اعترضت، مبررين ذلك بأنهم عملوا على اقتصاد تكاليف الرحلة منذ زمن بعيد.

تحدثت السيدة هيلبرت مع أهالي التلاميذ، ومع إدارة المدرسة، لقد بقوا ولم يقطعوا رحلتهم، إلا أن غرناطة لم تعد هي نفسها بعد ذلك. أصبحت السيدة هيلبرت في حالة من الهلع، فإن تبينت تغيب أحد التلاميذ أثناء تفقدهم، صرخت، مع أنها ليست من أولئك الذين يصرخون.

ثم هي لم تعد تهتم بشيء، وقالت، إن لديهم وقتاً حُرّاً، لكامل اليوم، وأنه يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون، ولأنها كانت قد لامت متدرب اللغة الإسبانية الخجول، فلم يعد أحد يراه إلا في أوقات نادرة.

وقد حضرت والدة بوسطن، وسألت وبكت، وبدت في حالة متحجرة، وانتقلت للسكن معهم في *الهوستال*. كما سألت الشرطة المجموعة مرة ثانية، لقد مرّ الآن ما يقارب الأسبوع، إلا أن بوسطن ما زال مختفياً.

«لا أعلم، ما الذي تريدون *أنتم* عمله، إيي»، قال طوقان، «ولكنني سأبحث بتدقيق عنه الآن بنفسي».

«بووه!»، قال قدير، «تظن نفسك جيمس بوند 007، أم ماذا؟».

«سابحث عنه الآن بنفسي!»، قال طوقان، رجال الشرطة أغبياء وعميان، هم في ألمانيا أغبياء وعميان، وهم هنا أيضاً أغبياء وعميان، كل واحد يعرف ذلك، سأبحث عنه على أي حال، سيان إن كنتم ستأتون معي أم لا»، ثم نهض من سريره.

«لا تدع خاطرك ينكسر بهذه السرعة، يا شيخ»، قال قدير، «سآتي معك».

«وأنا أيضاً»، قال سيرغاي. ثم تابع: «لم يكن الصغير مقرفاً بحق إلى هذا الحد، كما أنه ليس على ذلك القدر من الغباء، ومسألة أنه فهلوي، فليس هذا ذنبه».

«وأنت أيضاً فهلوي، سيرغاي»، قال له قدير.

شد طوقان مشبك حزامه، «إلا أن سيرغاي أكثر ميلاً إلى أن يكون طبيعياً»، قال طوقان، «وهذا هو الفرق».

«ولكن، مسألة أنه غير طبيعي، فقد لا يكون للصغير في ذلك ذنب أيضاً»، قال سيرغاي «أوو كي، سنذهب من جديد للبحث عنه».

الأندلس، 1492

لم يتمكن بوسطن من النوم مجدداً، بعد أن غادر سالومون، ومن جديد لم تنعم القرية بالهدوء، فحتى الفجر، لم يخلد أحد للراحة بعد مسيرة الجند.

وبالتدريج أصبحت خشيته في مكانها، فكلا الاثنان لم يعودا، من الممكن بالطبع أن يكونا قد نجحا بالهرب، وتركاه لمصيره، لائذين لوحدهما معاً إلى مكان آمن، فمن سيفكر به في مثل هذه الظروف، إلا أن بوسطن، كان على يقين أن الأمر لم يكن أبداً هكذا.

فكلاهما لن يقدما على التخلي عنه وتركه وحيداً، ليس طارق من يفعل ذلك، ولا سالومون، فإن هما لم يعودا، فإن لهذا تفسيراً واحداً.

بقي بوسطن متمددا وهو في حالة يقظة، مصغياً إلى خمخمة الحمار؛ وقد شعر ببعض التعزية، فهو ليس وحيداً هنا على الأقل.

لقد قبض الجنود عليهما، وليس من تفسير آخر يوضح عدم رجوعهما. لقد قبضوا على طارق، وعلى سالومون أيضاً؛ والسبب كان لأنهما أرادا

أخذ البلاطة الخزفية، وجلبها له، فلولاه لكانا ينعمان بالأمان معاً.

وبين اليقظة والخوف وبينما هو نصف نائم، توصل إلى قرار، له خيار واحد فقط وليس من آخر غيره، عليه الذهاب إلى غرناطة.

وسيغادر القرية، الآن حالاً وقبل حلول الفجر، علناً وتحت عيون الجند، وسيقود الحمار وهو في طريقه إلى الوادي، فهنا في الأعلى لن يتركوا حجراً إلا ويبحثوا من تحته عنه فيه، وهنا في الأعلى رآه ناس كثيرون، عليه أن يترك المكان حالاً، والهدف: هو التوجه إلى غرناطة. فإلى غرناطة سيتم سوق كل من طارق وسالومون أيضاً؛ حتى وإن لم يكن يعلم، كيف سيكون بمقدوره مساعدتهما – فليس هو من يستطيع المساعدة، ليس بوسطن! إن كان حليفاً للشيطان!–، ولكن كان واضحاً له أيضاً أنه لا يستطيع تركهما لوحدهما، وأنَّ عليه أن يفعل ما يستطيع فعله، من أجل تحريرهما. وحتى في غرناطة، يمكنه متابعة البحث عن البلاطة، إلا أن الأهم الآن هو أن يفعل كل شيء من أجل مساعدة هذين الإثنين اللذين وضعا حياتيهما في مهب الريح من أجله، أياً كان المصير الأعمى الذي سيواجهه.

عليك أن لا تفقد الأمل أبداً، أبداً لا ينبغي فقدان الأمل.

وقبل شروق الشمس، فك بوسطن رسن الحمار من الحلقة التي ربط فيها بالجدار، عليه أن يغادر القرية قبل أذان الفجر.

بدأت أول العصافير، تطلق تغاريدها الصباحية، والظلام لم يعد معتماً كثيراً بل أصبح أغبشَ بلون رصاصي، أما القمر فقد اختفى الآن.

وبحرص، قاد الحمار من رسنه عبر الطريق المنحدر بين بيوت القرية. وبدت القرية، وكأنها تريد أن تستعيض في الدقيقة الأخيرة ما فاتها من نوم طيلة الليل، وقبل أن ينطلق أذان الفجر، ربت بوسطن على جنب الحمار،

وهمس في أذنه: «على مهل، على كامل المهل»، كان الحمار يتبعه وكأنه ما زال في نومه، «فقط لا تنهق الآن، على مهل، على كامل المهل».

وعندما وصل بوسطن إلى أمام ذلك البناء المكتئب، مجتازاً إياه خلال عبوره، أي ذلك البناء الذي يقيم فيه الأمير، همّ بإلقاء نظرة عليه عبر نوافذه العالية، كان الجنود قد استندوا إلى جدار منخفض يحد الساحة عن طرف الوادي، ملقين برؤوسهم على أكتافهم، وعيونهم مغمضة، في جنوح واضح عما يفرضه عليهم واجبهم، وقد تثاءب أحد جنود الحراسة، ثم تقلب للجانب الآخر أثناء نومه؛ ولكنه ما لبث أن عاد ليلقي برأسه على كتفه.

عليَّ ترك القرية قبل أن يعلن المؤذن أذان الفجر، فإن صحا الكل، سيكون الوقت متأخراً جداً.

وعلى مدخل القرية، هناك مع بداية الطريق، الوعر المتعرج والمُحجر الذي يوصل إلى الوادي، كان يجلس جندي، أسند ظهره إلى شجرة سرو. كانت إحدى يديه تستريح على مقبض سيفه، إلا أن عينيه كانتا مغمضتين وكان تنفسه منتظماً.

«على مهل، على كامل المهل»، همس بوسطن وهو يربت على جنب حماره.

كانت قدما الجندي منفرجتين تعترضان الطريق؛ وكان عليه مع حماره تجاوز الطريق من فوقهما، وقد أحس بوسطن كيف كان قلبه يدق عالياً وبقوة، والآن لا يمكن ارتكاب أَية هفوة، على مهل، على كامل المهل أيها الحمار.

قد يكون الحمار داس على حجر تحت حافره، فجعله يتعثر، ليقفز مرتعباً، وقد ارتفع نهيقه عالياً ومدوياً مع بوادرطلوع الفجر الأولى.

غير معقول، قال بوسطن لنفسه.

أما الجندي، فقد رفع رأسه بجرة واحدة، ثم قفز واقفاً ساحباً سيفه من غمده.

«إيه، أنت!»نادى الجندي، «ماذا تفعل وأنت تتسلل من أمامي!» كان صوته ممطوطاً قليلاً، فهو لم يكن قد صحا بعد.

أمسك بوسطن برسن حماره بقوة أكثر، عندما كان الحمار يرفع نهيقه للمرة الأخيرة، ثم هدأ.

«لم أكن أشأ إيقاظكم، ايها السيد!»، قال بوسطن، يمكن للجندي أن يفسر خوفه، بأنه نوع من التذلل له، «علي الذهاب مع حمارنا إلى الوادي، وأنتم ترون بأننا لا نحمل ما هو ممنوع معنا! لا صرة ولا كيس، فتشوني إن شئتم، فأنا لا أخفي شيئاً!».

حك الجندي رأسه، ونظر إليه وهو شبه نائم.

«أنا أحرس المدخل هنا»، غمغم الجندي، وربما سأل نفسه في هذه اللحظة للمرة الأولى، وهو ما زال في نصف يقظة، ماذا عليه أن يفعل حقاً، فإن جاء مغاربي مسلح، فحسناً، إذ إنَّ كل واحد يعلم بما عليه أن يتصرف: ولكن ما العمل إن أراد فلاح الذهاب إلى حقله، أو العودة منه؟ فهل ينبغي تفتيش كل مغاربي؟ وهل كل مغاربي عدو؟ ثم توجه لبوسطن قائلاً: «تبدو كأنك لا تحمل معك شيئاً مما لا تسمح الملكة به».

انحنى له بوسطن باحترام، «معي حمارنا فقط، أيها السيد»، قال للجندي.

أومأ الجندي له، واستمر في حك رأسه، إلا أن نظرة ماكرة لمعت في عينيه. «ولكنك لم تُصَلِّ بعد، أيها المغاربي!» قال الجندي، «فكيف يمكنك

أن لا تؤدي صلاة الفجر؟ كنت أظن دائماً أن صلاة الفجر مقدسة، بالنسبة لكم كمسلمين!».

ربت بوسطن على ورك حماره، على مهل، على كامل المهل، كان المزيد ثم المزيد من العصافير التي تنطلق في تغريدها الصباحي، وقريباً ستلون أشعة الشمس بضوئها الذي ستنثره فوق الأفق، وعليه أن يواصل، قبل أن يطلق المؤذن أذان الفجر، ويخرج أهل القرية مالئين دروبها.

«هناك من ينتظرني في لانخارون»، قال بوسطن، لهذا علي أن أصحو مبكراً، وعندما يحين وقت الصلاة، أيها السيد، سأؤدي صلاتي على جانب الطريق».

«هم»، قال الجندي، وقد لاحظ بوسطن كيف كان يصفن متفكراً، «على أي حال، إنني هنا في الواقع، من أجل أن أراقب ما إن كان الأمير لا يجمع جيشاً من حوله»، غمغم الجندي، وقد ظلت نظراته خلال ذلك وكأن غلالة من النوم ما زالت مسدلة عليهما، «فليذهب كل مغاربي، يغادر من هنا إلى الجحيم، فعلى الأقل ينقص واحداً منهم»، وبدا أن منطق بوسطن قد أراحه، «يمكنك أن تذهب، أيها الصبي! فالقائد قال، إننا جئنا إلى هنا كأصدقاء ولكن أن نظل متيقظين».

انحنى له بوسطن مرة أخرى، ثم سحب حماره من رسنه نزولاً، مراراً وتكراراً كانت حوافر الحمار تكاد تنزلق خلال مسار الدرب المنحدر، إلا أن الحيوان كان يعرف في الغالب طريقه، لذا كان يبحث عن مكان خطواته المأمونة بمنتهى الحرص.

كان نبض قلبه قد هدأ أكثر، لقد أصبح الآن في المجال الآمن، فكر في نفسه، «يبدو أن مظهري يوحي بأنني فتى مغاربيٌّ، وبأنني تصرفت مثل فتى

مغاربي، إذن لن يهددني خطر كبير إن بدوت كفتى مغاربي».

وعندما وصل إلى المفترق الثاني، سمع المؤذن يرفع الأذان، وصوته يصل إلى البعيد في الوادي، ثم بدأ الحمار في النهيق من جديد، إلا أن بوسطن والى سحبه للأمام.

ولكن ماذا يعني أنه أصبح في مأمن من الخطر، فصديقاه مقبوض عليهما؛ والجندي ما زال يحتفظ بالبلاطة في حزامه؛ وكولومبوس لن يبدأ رحلته؛والعالم الجديد لن يتم اكتشافه؛ وهو نفسه لن يوجد أبداً.

-33-

في السجن تحت برج الكوماريس، كان من الصعب التمييز بين الليل والنهار؛ فحتى عندما تكون الشمس في قبة السماء، كان يتسرب ضوء قليل فقط إلى الأسفل، إلى حيث كانت تعم برودة الظلمة.

كان باولو جالساً يطوي ركبته ويبسطها، ثم يعود ليسحبها، وربما تعوَّد أن يعرج، أكثر مما ينبغي عليه أن يفعل، فعلى الأقل، وعندما لا يكون هناك خطر يتهدده ممن قد يكون يراقبه، يقول لنفسه: إنَّ على ركبته أن تُثبت بأنه سيتمكن من استخدامها عند الحاجة لها مرة أخرى في المستقبل.

نهض واقفاً بحذر ومشى خطوات عدة. أما السجين، فكان غافياً في زاوية زنزانته، يتنفس على نحو منتظم، من دون أن يقوم أحد باستدعائه للتحقيق معه حتى الآن، ولو لمرة واحدة، فلا بد أن يكون كبير المفتشين منشغلاً بما فيه الكفاية بأمر الهراطقة الملحدين، الذين كثر عددهم في البلاد هذه الأيام.

تنهد باولو متحسراً؛ لم يكن جيداً أن يمضي المرء وقته هنا ليلاً ونهاراً في عزلة السجن، مشتت الأفكار، فهنا لا يتاح له تركيز فكره حتى في لعبة شطرنج، وهذه كانت نقطة ضعفه دائماً، إذ فقط في المنزل، وبين ذراعي فتاته، وفي المسيرات الطويلة للجند، وفي فوضى المعارك، يفقد قدرته على التأمل والتفكير.

ألقى نظرة على سجينه حيث يرقد، فتساءل: لماذا ينبغي معاقبة يهودي، إن كان قد أُجبر على ترك بلاده، من دون أن يتاح له اصطحاب ما يقتنيه معه، فإن لم يكن كل ما يقتنيه، فليكن جزءاً من ذلك على الأقل؟

لأن سجينك كان متشدداً، لم يقبل الدين الحق، باولو، ولأن قانون تنصير اليهود يحظر ذلك، ولأن ذلك القانون أصدرته الملكة، وقد أصدرته الملكة، لأنها ملكة، وليس لأنها على حق دائماً، بل لأن الكنيسة المقدسة والرب نفسه معها، وهو ما يعرفه كل واحد.

وحده هو من لا يعرف، فما عساه أن يفعل برأسه البليد.

ضرب باولو رأسه بحذر للمرة الأولى ثم الثانية، بحجر السور الهش، متسائلاً إن كان بهذه الوسيلة يستطيع جلد تلك الأفكار التي تتبادر إلى خاطره، فلماذا لا يستطيع أن يقول لنفسه إنه كان مجرد فلاح غبي، لا يفقه شيئاً؟ ولماذا لا يدع التفكير لأولئك الذين أعطاهم السيد الرب أن يقرروا في هذه المسائل، وهما الملكة والكنيسة؟.

عليّ السعي للعمل من أجل أن أرى ضوء النهار، فكر باولو في نفسه، والسعي للعودة إلى رفاقي الجنود، وإلى المهمات التي تقتضيها واجبات الجندية، فقد يصرفني هذا عن مثل تلك الأفكار.

المسألة تتعلق بركبته، ونهض واقفاً من جديد، مرتين، وعشر مرات، وفي المرة القادمة عندما سيقدم تقريره الشفهي للقائد، سيرجو إعفاءه من خدمة السجن؛ فركبته أصبحت بحالة جيدة، وهو قادر الآن على القتال، إلا أن القائد موجود الآن في البوخاراس، ليراقب الأمير، وليقبض على الصبي، ليس فقط لأنه جاسوس، بل لصلته بالشيطان والجحيم.

تنهد باولو وتابع تأملاته، عندما يقولون مثل ذلك، يكون عليه أن يصدق

ما يقولون، ولكن هذا يدفعه إلى الاستغراب إلى حد بعيد، مقدار هذا العدد الهائل من الناس الملتحقين بالشيطان، والذين يزيد عددهم أكثر في كل مكان وفي كل يوم، فعندما يقول كبير المفتشين هذا، وعندما تقول الملكة هذا أيضاً، فلا بد أن يكون ذلك حقيقياً، وقد خولهم الرب الإله أن يقرروا، وأن يحكموا، وأيضاً أن يعرفوا، وبالنسبة إليه قرر الرب الإله أن يكون فلاحاً، كما قرر قبل ذلك بكثير أن يصبح جندياً.

بدأ السجين يتحرك في زنزانته، فألقى باولو بنظرة إليه للداخل من كوة في الباب مغلَّفة بالشبك، كان إبريق الماء قد انقلب على جنبه، إلا أن أرض الزنزانة كانت جافة، عليهم لحس الماء من الجدران، كما قال رفيق له من الحرس.

ورأى واجبه في أن يتدبر كيف سيحصل السجناء على الماء.

كلما علت الشمس أكثر فوق الجبال، شعر بوسطن أكثر، أن وطأة التعب تزداد تغلغلاً في أوصاله، تجاوز كروم الزيتون، وكانت المدرجات تقوده إلى الوادي؛ وكان كثيراً ما يكاد الدرب يلامس مجرى الماء فيه، فيترك بوسطن الحمار ليشرب، بل كان هو نفسه يتناول رشفة ماء أحياناً، ولكن لم يجلس قط، لأنه يعلم أنه لو فعل، لأخذته سنة النوم للحال.

لقد غادر القرية منذ أمد، إلا أن الجنود كانوا في كل مكان، وفي كل مكان كانوا يبحثون عنه. وكمصاحب للشيطان، سيكون مشتبهاً به بسبب شعره الأشقر، ومعه أيضاً جميع المغاربيين، لقد وضع غطاء رأس مغاربي كعمامة على رأسه.

توقف الحمار على جانب الطريق محنياً رأسه، ليلتهم بعض الحشائش المغبرة، وقد استجاب له بوسطن، وماذا سأفعل عندما أصل إلى غرناطة؟

وكيف سأساعد طارقاً وسالومون؟

وحتى إن كانا حرّين، فسيبقى الخطر محدقاً بهما، أما بالنسبة إلي، فالمحرقة بانتظاري؛ فلا بدّ من الرجوع إلى المستقبل، إلا أن الملكة ردّت طلب كولومبوس، وأمريكا لن يتم اكتشافها، ولهذا السبب لن يرحل في عام 1620، ذلك الرجل ذو الوجه الرمادي من أتباع مذهب الكويكرز، من بلايموث مع زوجته وأولاده الثلاثة متوجهاً بحراً إلى العالم الجديد، من أجل أن يتخذ لنفسه مع أسرته وطناً جديداً له هناك؛ لأنه ربما، ومرة ثانية، ربما، لأنه حتى ذلك الحين لم يظهر الرجل الذي كان على قدر كافٍ من الجنون، كي يقلع بطريق البحر غرباً باتجاه الهند. ولن يعلم ذلك الرجل من أتباع الكويكرز شيئاً عن أمريكا، ولذلك فقد انتهت حياته في موطنه الأصلي؛ وهكذا، لن يولد في بوسطن بعد قرون من ذلك الزمن، طفل صغير أصبح بعدئذٍ والدي.

إن هذا يفوق الاحتمال، إن طارقاً وسالومون مقبوض عليهما، والبلاطة الخزفية ما زالت في حزام الجندي؛ وأمريكا ربما لن تكتشف إلى الأبد، فلا أمل أبداً.

رفع الحمار رأسه ومشى خطوات عائداً إلى الدرب، فربما كان قد سار في هذا الدرب مراراً مع مالكه، لذا فهو يعرفه أكثر مما يعرفه بوسطن.

ومع ذلك يجب أن أذهب إلى غرناطة، ففي غرناطة سيتقرر كل شيء. ماذا كان سيقول سالومون؟ ***عندما نفقد الأمل، سينالنا ما كنا قد خشيناه، هذا أكيد!***. يجب أن أعود إلى المستقبل، لن أستسلم.

سوّى كتفيه، ينبغي إقناع الملكة.

وستقتنع منك *أنت*، بوسطن؟ هل جننت؟ وكيف ستتمكن من إقناع

الملكة، بأن تدع كولومبوس يبحر إلى الهند؟ ماذا ستفعل؟ وأنت بالذات، مخبر، وجاسوس المغاربيين، حليف الشيطان؟ ففي غرناطة يوجد من الجنود أكثر مما هو موجود في كل المملكة!

وقف الحمار وأخذ بالنهيق؛ ثم استدار عائداً وأخذ يصعد بتثاقل مع الطريق نحو الأعلى.

يجب أن نذهب إلى غرناطة، أيها الحمار!، قال له بوسطن، محاولاً أن يسوق الحيوان من جديد باتجاه الأسفل، «أنت الساتر الذي يموه شخصيتي».

صدم الحمار حافره بإحدى الحصى، وأراد العودة إلى إسطبله.

تنهد بوسطن، «إذن، عوداً حميداً!»، قال ذلك وودع الحمار بلطمة على مؤخرته، سيفتقد الفلاح حماره؛ أما هو فسيتحتم عليه – وهكذا– أن يواصل سيره من دون الحمار، وفي البلبلة المنتشرة في قرى المغاربيين، لن تلتفت إليه الأنظار، وشعره الأشقر سيبقى هكذا تحت غطاء الرأس المغاربي الذي يرتديه، حتى وإن كان لا يسوق حماراً.

سمع بوسطن أذان الظهر عندما وصل نزولاً إلى القرية الثالثة، وعند مدخل القرية، كانت النسوة جاثيات على مجرى الماء وهنّ يغسلن الثياب، وأخريات كنّ ينشرن الأردية الكتانية البيضاء لتجفيفها، وغير بعيد عن المكان، وانحداراً مع مجرى الماء للأسفل، كان الصباغون يشطفون الأغطية والشراشف، والوادي أخذ يتابع امتداده من هنا، والمنازل كانت بيضاء مثل تلك التي على الجبل في الأعلى، ولكنها كانت ببنيان أعلى؛ وتعطي هذه الناحية انطباعاً بأنها أقرب إلى أن تكون بلدة صغيرة، بوجود تجارها وعرباتها التي تجرها الحمير، وبوجود الجامع وساحة السوق، تجمعت النسوة بجانب عين الماء بجرارهن المصنوعة من الفخار، أو بجرادل الماء الجلدية، وأباريق

الشرب، تراجع بوسطن خطوات للخلف ليستظل بفيء المنازل، وقد وصل حاله في هذه الأثناء إلى درجة من الإعياء لا حدود لها، بحيث أخذت الصور تعوم أمام عينيه.

خطت إحدى النساء نحو الأخريات المتجمعات حول عين الماء، «لقد سمعت، أن جنود الملكة قد زحفوا عبر القرية»، قالت المرأة، «إلا أنهم يدعون بأنهم توجهوا إلى الأمير بنية ودّية، فهل منكن من تعرف المزيد عن هذا؟».

«كانوا يبحثون عن حليف الشيطان!» صرخت إحدى العجائز، التي كانت تتكئ على عصا مقوسة، كانت تجلس على مبعدة قريبة من الأخريات، وكانت تنصت لما يدور من حديث هناك، ارتعشت أوصال بوسطن، «وبعد وقت قصير من وصول الجنود، جاء رسول من الملكة قادماً من الحمراء راكباً، وكان جواده مغطى بالعرق؛ لأنهم كانوا قبل ذلك يبحثون عن متجسس، هو صبي أشقر الشعر، ويقولون إنه في الحقيقة في تحالف مع الشيطان! وإن أميرنا كان قد آواه! ونحن جميعاً هنا سنبقى أتباعه المخلصين، وإنشاء الله، وهو شاهد على ما أقول! فإن ملوك النصارى»، وقامت بإشارة تنطوي على الكثير من الاستخفاف، وكأنها تريد نزع عنق أحد ما، «ولكن، والله، إن صدق ما نقله الرسول، وإن كان هذا الصبي على تحالف مع الشيطان؛ فأنا أيضاً أتمنى أن يحرق أيضاً!»ومن الجمع جاءت همهمة موافقة.

هل أخذ نبع الماء يزوغ ويتراقص حقاً أمام ناظريه؟ إلا أن بوسطن أحسّ كيف بدأ العرق يتجمع فوق جبينه.

«أخ، هذا هراء، أيتها العجوز!» قالت امرأة ثالثة، ثم تحلق عدد أكبر من الناس على نحو أكثف حول عين الماء.

«ولكن لديهم براهين!»، صرخت العجوز، «لقد وجدوا مع هذا الصبي

براهين، لا يمكن دحضها، إنها أداة كان يحملها معه، لا يمكن ليد إنسان أن تصنع مثلها!»، ومن جديد جاءت همهمة جماعية، إن المغاربيين يخشون بدورهم الشيطان أيضاً.

وأخذ الماء يزوغ ويتراقص بالفعل هذه المرة، والأصوات أتت من بعيد، لقد أحس بوسطن بغصة في حلقه.

«هل رأيتها بعينك، أيتها العجوز؟»، سألت المرأة التي كانت تقف في الطابور من أمام بوسطن، «منذ متى تصدقين كذب أكلة لحم الخنزير؟».

وشعر بوسطن أن الأرض تميد من تحت قدميه، لا ينبغي أن يقع، ولا ينبغي لغطاء الرأس المغاربي أن يسقط عن رأسه، عليه أن ينأى بنفسه بعيداً من هنا.

بدأ بالركض، كان رأسه فارغاً، وبدا له أن الأرض تتأرجح من تحت قدميه، ومن خلفه سمع النساء ينادين عليه، إلا أن أياً منهن لم تجرِ وراءه.

وبعد أن ترك آخر منزل وراءه، ووصل الطريق المؤدي إلى لانخارون، حيث بدا الطريق هناك منبسطاً ومحاذياً لمجرى الماء، هناك فقط ألقى بنفسه على الأرض تحت شجرة زيتون، ومن جديد أحسّ بالغثيان.

وكما قال طارق، ومنذ هذه اللحظة وما يليها، تحول إلى تابع للشيطان بالنسبة إلى جميع الناس في كل البلاد.

-34-

تذكر مانويل، فور رؤيته للفتيان، ازداد الصخب في الزقاق منذ الصباح، وحاول هو أن يبقى متيقظاً؛ فقد جرى سرقة الكثير منه خلال الأيام التي كان فيها شارداً في أفكاره. وبين وقت وآخر، كان يغوص بداخل متجره، ليتناول جرعة من هناك، وظل يأمل بأنه سيأتي الوقت في أحد الأيام ويتجاوز ما هو فيه؛ وسيكون وقتها قد نسي الفتى الأشقر، ونسي البلاطة الخزفية أيضاً، وعندها لن يعود بحاجة إلى أية جرعة، والآن هؤلاء الثلاثة من جديد.

«أنتم هو من كان، سنيور! أليس كذلك؟»، قال الأول، وقد تذكره مانويل منذ المرة السابقة، عندما لم يتكلم أبداً، مع أنه الأطول، والأكبر سناً بينهم كما بدا ظاهرياً، ففوق شفته العليا كان قد بزغ شارب له.

«كنت ماذا؟»، سأل مانويل، ومن زاوية عينه اليسرى كان يراقب جاره. لو أنه فقط لا يتدخل من جديد، لكان كل شيء سيجري على ما يرام وبسرعة، لا أعرف شيئاً، لا أعرفه، لم أره، عمّن تتحدثون؟

«ما زال مختفياً»، قال الأقصر من بينهم، تحدث متلعثماً، إذ كان يبحث عن المفردات التي يود استخدامها في كلامه، وكانت إسبانيته بائسة، «أرجوكم! إن كنتم تعرفون شيئاً، سنيور! أرجوكم!».

سيدة شابة، ذات وجه محمر، حملت طوقاً لماعاً قربته من فتحة قميصها الخارجي ذي الفجوة الواسعة المنخفضة عند الصدر، كانت تحرك رأسها

يميناً ويساراً وهي تنظر لمرآة متسخة مثبتة على إطار الباب، «كم هو ثمنها؟» سألته السيدة.

حصّل مانويل الثمن، إلا أن الثلاثة ظلوا واقفين منتظرين في صمت إلى جانب أغلفة الوسائد الجلدية الفارغة المرصوفة بعضها فوق بعض.

«لا أعلم شيئاً!»، قال مانويل، «أنا لا أعلم حتى عما تتحدثون! وقد كانت الشرطة هنا أيضاً، ولكنني لا أعرف شيئاً!».

«أرجوكم، سنيور!»، قال الأقصر من جديد، «أرجوك، سنيور!» تابع الفتى بكلماته القليلة، ومفرداته الهزيلة وإسبانيته المعوجة، بدا مثل أي فتى صغير لا حيلة لديه، «ساعدونا من فضلكم، أرجوكم سنيور!».

لاحظ مانويل كيف أن جاره ألقى بنظرة نحوه، وهو يعلم كل شيء، فكر مانويل في نفسه، ولكن من يعلم ما سيحصل بعد ذلك؟ فالتكهن وحده لا يكفي في هذه الحالة، كي يبلغ المرء الشرطة، وليس على أي حال ذلك التكهن الذي يوجد في ذهنه.

«لا أستطيع مساعدتكم!»، قال مانويل ذلك، وقام بحركة من يديه كمن يريد أن يكش سرباً من الإوز، «أنا لا أعلم من جلب هذه الفكرة لأذهانكم!».

«اسألوه عن البلاطة»، ناداهم الجار من فوق كتفه، «هيه، مانويل، ما المشكلة؟ اسألوه عن البلاطة، أيها الفتيان!» ثم مضى ليكمل بقية النقود المعدنية من ثمنٍ دفعته إحدى السائحات.

إحدى الحافلات الحاملة لسواح كبار السن كانت تزاحم، لمواصلة سيرها في الزقاق، وخمس سيدات كنّ يقسن الخواتم، ويتناولن فوطاً من المنصة، ويلبن متجولات بوقاحة بأوراكهن وأقفيتهن المتضخمة وهنّ يتضاحكن،

ثم يمضين دون شراء أي شيء، فأخذ مانويل في النهاية نفساً عميقاً، ولم يَعد بالوسع رؤية الفتيان في أية ناحية هناك؛ أما جاره فقد سحب نابض لعبة ميكانيكية على هيئة كلب، تركه يهز ويرقص وينبح بالزقاق.

نجح في صموده على موقفه، فكر مانويل في نفسه، ثم رجع خطوات إلى داخل متجره المعتم، «ولكن كم من الوقت أستطيع أن أتحمل الإنكار، حيث الكل يرغب أن يتحدث إلي». كانت يده ترتجف، عندما حاول تناول الزجاجة؛ وهو الآن يحتاج إلى أكثر من جرعة واحدة.

كان يدرك أن العيون تراقبه في الوقت الذي كان يشرب فيه، وقد أحسّ بعد بضع دقائق بتلك الخفة الناعمة التي انتشرت في جسده، والتي ساعدته في الأيام السابقة على تجاوز خوفه واضطرابه. والمشكلة في شربه، تكمن فقط في أنه لا يحتفظ بوعيه ويقظته، وبأن تلك الخفة سرعان ما كانت تختفي، ولا تترك وراءها سوى الكآبة والحزن.

«أرجوكم، سنيور، أرجوكم!»، قال الصغير وهو يكاد تقريباً لا يراه في أعمق أعماق متجره، حيث كدس على رفوفها تلك الأشياء التي لم يعد يرغب أحد بشرائها.

«ماذاجئتم تفعلون بالداخل هنا!»، غمغم مانويل، وباحتراس وعناية أبعد الزجاجة، هذه الخفة الناعمة، لماذا لا يتحدث، وماذا يمكن أن يحدث،

«حدثونا عن البلاطة، سنيور»، قال ذلك الذي فوق شفته العليا زغب شارب.

«إنها مجرد حكايات وأساطير»، غمغم مانويل ثم ترك نفسه يغوص فوق كرسي على هيئة جمل لا مسند له، كانت أعين الفتيان تجول فوق مكان غير محدد منه «خرافات! كلها حكايات وأساطير»، بدأ يشعر بالارتياح من هذه

اللحظة وفور أن تكلم في هذا الموضوع.

ينبغي أن يَبُقّ ما في فمه الآن من كلام، وهو ما كان ينتظر ويتمنى قوله في الأيام الأخيرة، فسيروي حكايته؛ وسيضحك من يسمعه، وفقط من أجل ذلك سيتحدث الآن، يمكنهم أن يضحكوا بعدما ينتهي من قص حكايته، بل يمكنهم حتى أن يضحكوا ساخرين منه.

عندئذ، سيعلم أخيراً، أن لا شيء من ذلك قد حدث؛ ولم يكن هو مذنباً.

الأندلس 1492

رقد بوسطن لوقت قصير فقط تحت الشجرة، كان الغثيان قد ازداد وأصبح يأتيه ويذهب في موجات، كما أن الإعياء الذي لا حدود له ما زال يلازمه، إلا أنه كان على علم مطلق بعدم استطاعته التفكيربالنوم أبداً.

جاء طفلان وألقيا عليه نظرة خجولة؛ ثم فرشا تحت الشجرة شرشفاً وأخذا يضربان بعصا أغصان ذروة الشجرة بحيوية وأمل كبيرين؛ إلا أن حبة زيتون واحدة لم تسقط فوق الشرشف، فحاول بوسطن أن يبتسم لهما.

قام بوسطن بالاستدارة من حول لانخارون، فالمدن تظل خطرة، والواقع أن كل شيء أصبح خطراً الآن، لقد أمضى الليل في حظيرة أغنام فارغة، من غير نوم.

والآن تبحث عنه البلاد كلها، عن شخص حليف للشيطان، لا يمكن حتى للمغاربيين بسبب ذلك أن يحموه من المحرقة، وبالتأكيد ليس اليهود أيضاً، أياً كان مبلغ كراهيتهم للملكين الإسبانيين، ومن حيث إنَّ الخبر المتعلق بملكيته للشيء الغامض قد انتشر بأسرع من الضوء، فهذا أمر لم يعد يشك فيه.

وقد كان كيس الظهر هو البرهان، وقبل كل شيء هاتفه المحمول.

وكيف يمكن للناس أن يصدقوا، من أين جاءت تلك الآلة التي كل شيء فيها غريب، وكل شيء فيها غير معهود؟ الضوء من خلف لوحتها، والرنين الذي بداخلها، وحتى المادة العجيبة التي صنع منها أيضاً. فكيف يمكن للناس أن يصدقوا أيضاً، إن كانوا على أي حال يبحثون في كل مكان عن أي أثر قد يخلفه الشيطان من ورائه؟ وأي توضيح يمكن للآلة أن تقدمه لهم في هذه الحالة؟

إن تم اكتشاف أمري، فقد انتهيت، فكر بوسطن في نفسه، واعتباراً من هذه الساعة، فإن كل واحد في هذه البلاد يمثل خطراً علي، وحتى تلك القرى المغاربية الصغيرة كانت تلك الحكاية قد اقتحمتها أيضاً؛ فإن اكتشفوا شعري الأشقر، سيتم جرّي إلى الحمراء. ولكن أليس من المحتمل أن يكون الموت هو الطريق الذي يوصلني إلى حياتي وبلدي؟ ومن أين لي إذن أن أكون متأكداً بأن البلاطة، هي ما سيعيدني؟ ثم مسح فوق عينيه، ربما لا ينبغي لي أن أخشى الموت، ولا ينبغي أن أفكر بالتعذيب، ولا بالمحرقة. ***عندما نفقد الأمل، سينالنا ما كنا قد خشيناه، هذا أكيد!*** وعندما سمع الأذان، واصل طريقه، كانت قدماه تمشيان كما لو أنهما تتحركانِ وحدَهما، عليه تحاشي إخفاء عينيه أثناء مشيه، «إنني متعب جداً، ولا أقوى على التفكير».

لقد أصبح الطريق الآن أكثر اتساعاً، ويكاد يكون طريقاً صخرياً، أما الشمس فقد علت في كبد السماء، يميناً ويساراً كانت تتفرع طرق صخرية تمضي صاعدة لتختفي في الجبال، وبين وقت وآخر، كان يواجه فتى يسوق عنزة، وامرأة تحمل جرة ماء، وأطفالاً يحملون سلالاً على ظهورهم، ولا أحد يلتفت إليه.

«إنني متعب جداً، كي أفكر، متعب جداً، كي أمشي، فقط غفوة صغيرة،

فقط غفوة صغيرة كي أتمكن من التفكير، كي أعود إلى المشي من جديد، غفوة صغيرة، صغيرة جداً».

تعثر بوسطن.

«إيه، إيه، إيه!»، قال صوت بنبرة ودودة، كانت عربة يجرها بغل قد تجاوزته ثم توقفت منتظرة إياه، «يا لهذا الذي نلتقيه من فتى مغاربي متعب!».

مكان الحوذي، جلس راهب، ممسكاً بالمقود المتراخي بيدين سمراوين.

أراد بوسطن الهرب؛ فالراهب كان أسوأ من أي بشر آخر؛ فخادم أية كنيسة، يجهز المحرقة ويتعطش لضبط كل كافر، ولا بد أن يكون من بين من يبحثون عنه، لأنه متحالف مع الشيطان، فهل ينبغي أن يكون راهباً بالذات ذلك الذي يقتفي أثره، إلا أن رجليه لم تسعفاه أكثر.

«مهلاً، مهلاً مهلاً»، قال الراهب، في الوقت الذي تنحى فيه عن مقود العربة، كان قد شد رداءه الكهنوتي على كرشه المستدير، وكان صليبه الخشبي معلقاً في رقبته على صدره، يتأرجح مع كل حركة. «ستنهار من التعب، أيها الصبي المغاربي! ربما لكلينا الطريق ذاته؟هيا اجلس بجانبي على العربة!».

كانت الشمس محرقة من فوق السهل، وفي البعيد بدت المدينة وقد ابتلعها الضباب، وإن كانت معالمها بقيت بادية يمكن رؤيتها، «أستطيع المشي!» غمغم بوسطن، إلا أنه أحس بأن ساقيه كانتا تتداعيان من تحته.

ولوهلة تقل عن الثانية، وقبل أن تغيم الدنيا أمام ناظريه، طافت في نفسه مشاعر من الارتياح متسائلاً، كم سيغدو الأمر جيداً لو أنه يصل أخيراً إلى نهاية، فإن هم وجدوه فهو لن يعود بحاجة إلى مواصلة الهرب.

-35-

كان الجنود على عجلة من أمرهم في طريق عودتهم إلى غرناطة، فحتى المقبوض عليهما تم السماح لهما بالركوب بأيدٍ مصفودة.

«سيُسعد كبير المفتشين»، قال الجندي ذو الندبة، «وستسعد الملكة هناك في غرناطة!»، ثم فرك يديه ودفع سجينيه للركوب سريعاً، وحتى أثناء الليل لم يكن مسموحاً لهم بالراحة إلا لوهلة قصيرة، إن كبير المفتشين ينتظر، والمحرقة تنتظر؛ كما تنتظر الجندي صاحب الندبة، المكافأة.

صوب طارق أنظاره المتحجرة إلى الطريق من بين أذني الحصان الذي يركبه، وكان يسمع تنهدات سالومون من خلفه، والبلاطة ما زالت مخبأة في حزام الجندي، والأمر أصبح الآن بالنسبة إليه سواء، وللحظة فكر طارق، إن كان ينبغي إبلاغ قائد الجند بالحقيقة؛ إلا أنه أدرك بعدئذٍ، باستحالة ذلك؛ فهما الآن يستطيعان الادعاء بأنهما، سالومون وهو، لم يعرفا شيئاً عن بوسطن، سوى في المرة الوحيدة التي التقياه فيها في ريآليخو، أما إن تحدث عن البلاطة، فهذا يعني اعترافه، بأنه يعرف بوسطن، لا، بل أنه كان يرغب بمساعدته، عليهم في غرناطة أن يعتقدوا بأنه كان أحمق، عندما حاول سرقة السلاح في الليل، وبأن ذلك لا يعدو كونه طيش طفل.

ولكنه لا يظن أن مثل هذه الكذبة كافية وحدها كي تنقذه وتنقذ سالومون، إن كبير المفتشين سيرى فيهما صديقين لشريك الشيطان، وسيطلب منهما

معرفة المكان الذي يمكن العثور على بوسطن فيه، فهل سيشي سالومون ببوسطن تحت التعذيب؟ وهل سيشي هو نفسه به؟ إن الاعتراف بأن بوسطن متخفٍّ في قرية الأمير، يعني أنه يخون الأمير أيضاً.

لمرات عديدة أخذت طارق سحابة من النوم؛ إلا أنه كان يحس بوقع خطوات حصانه من تحته، كان يميل برأسه للأمام قريباً من عرف الحصان، ثم يعود إثر رعشة مفاجئة ليستقيم من جديد.

لن أخون الأمير أبداً، فكر طارق، ولن أخون بوسطن أيضاً بشأن أداته الشيطانية، عليهم البحث عنه بأنفسهم، فمن يعلم إن كان ما زال متخفياً في القرية؟ سأظل على أقوالي التي أدليت بها منذ البداية، إنني لا أعرف الصبي الأشقر.

ولكن من يدري، ما سيقر به تحت التعذيب.

بلغوا أطراف المدينة مع الفجر، عندما كان يصدح الأذان من فوق أسطحة المنازل، وكان الجندي ذو الندبة قد حظر تأدية الصلوات جميعها، إلا أن طارقاً لم يقلق لذلك؛ فالله يعلم من هو المتسبب في تقصيره.

«هيه، هيه، هيه، استيقظوا، افتحوا البوابة!» صرخ الجندي، وضرب بقوة على الخشب المصفح بالحديد، فمد أحد الحراس رأسه المجهد من فوق فتحة في أعلى السور، «دعنا ندخل! إن الملكة بانتظارنا ورئيس المفتشين أيضاً!».

وقد سمع طارق كيف كان يتم تدويرالمزلاج، وببطء بدأت البوابة بالارتفاع، وهكذا تركهم الحراس الذين كانوا يغالبون النعاس ليعبروا.

وعلى الطريق الصاعد إلى الحمراء، سوّى الجندي مراراً وتكراراً سترته، ومسّد من ثم شعره، وكانت الابتسامة التي تعلو محياه، توحي لكل واحد،

مدى فرحه للمكافأة التي تنتظره، صحيح أنه لم يحضر معه بنفسه الجاسوس حليف الشيطان، إلا أن أصدقاءه، عندما سيريهم المرء أدوات التعذيب لوقت كافٍ، سيدلون بالتأكيد باعترافات تدل على الطريق الذي سيقود إليه.

أوقفهم أحد الحرس عند بوابة البويرتا دي لا يوستيسيا[1]، «ينبغي التبليغ عن وصولكم!»، قال الحارس، «إن صاحبي الجلالة ما زالا غارقين في نومهما. لقد حضرتما مبكراً».

«هل يمكن للمرء أن يكون مبكراً، إن تعلق الأمر بالانتصار على الشيطان؟ ردّ الجندي الذي يحمل ندبة على وجهه، «دعنا ندخل!».

ومع ذلك، طال الأمر لوهلة غير قصيرة إلى أن تم فتح الباب، كان طارق يغمض عينيه لبرهة، ثم يعاود فتحهما من جديد، ليستيقظ ثانية، ثم لا يلبث أن يغمض عينيه؛ وقد رأى سالومون معلقاً فوق السرج، ورأسه مرمي على عنق حصانه.

«كلاكما إلى السجن!»، هتف الجندي ذو الندبة، ساقهما عبر الباحة إلى القصر؛ لم يكن مسموحاً لطارق أن تدوس قدماه هذا المكان من قبل، كانت الزنزانة تقع مباشرة أسفل *الميكسوآر*، تحت برج كوماريس.

ومع كل خطوة على الدرج النازل للأسفل كانت البرودة تزداد أكثر فأكثر، هنا لم يقم المغاربيون باستخدام المزيد من الحجر الرملي الأحمر، الذي حمل القصر اسمه؛ بل كانت الأحجار فيه عبارة عن كتل رمادية ثقيلة تلتمع بفعل الرطوبة، وفجأة أحسّ طارق بذلك القدر الكبير من العطش الذي يعانيه.

وفي قعر درج السلم، كان يقف جندي مسنداً ظهره إلى الجدار بسبب

(1) بوابة دار العدالة (المترجم).

معرفة المكان الذي يمكن العثور على بوسطن فيه، فهل سيشي سالومون ببوسطن تحت التعذيب؟ وهل سيشي هو نفسه به؟ إن الاعتراف بأن بوسطن متخفٍّ في قرية الأمير، يعني أنه يخون الأمير أيضاً.

لمرات عديدة أخذت طارق سحابة من النوم؛ إلا أنه كان يحس بوقع خطوات حصانه من تحته، كان يميل برأسه للأمام قريباً من عرف الحصان، ثم يعود إثر رعشة مفاجئة ليستقيم من جديد.

لن أخون الأمير أبداً، فكر طارق، ولن أخون بوسطن أيضاً بشأن أداته الشيطانية، عليهم البحث عنه بأنفسهم، فمن يعلم إن كان ما زال متخفياً في القرية؟ سأظل على أقوالي التي أدليت بها منذ البداية، إنني لا أعرف الصبي الأشقر.

ولكن من يدري، ما سيقر به تحت التعذيب.

بلغوا أطراف المدينة مع الفجر، عندما كان يصدح الأذان من فوق أسطحة المنازل، وكان الجندي ذو الندبة قد حظر تأدية الصلوات جميعها، إلا أن طارقاً لم يقلق لذلك؛ فالله يعلم من هو المتسبب في تقصيره.

«هيه، هيه، هيه، استيقظوا، افتحوا البوابة!» صرخ الجندي، وضرب بقوة على الخشب المصفح بالحديد، فمد أحد الحراس رأسه المجهد من فوق فتحة في أعلى السور، «دعنا ندخل! إن الملكة بانتظارنا ورئيس المفتشين أيضاً!».

وقد سمع طارق كيف كان يتم تدويرالمزلاج، وببطء بدأت البوابة بالارتفاع، وهكذا تركهم الحراس الذين كانوا يغالبون النعاس ليعبروا.

وعلى الطريق الصاعد إلى الحمراء، سوّى الجندي مراراً وتكراراً سترته، ومسّد من ثم شعره، وكانت الابتسامة التي تعلو محياه، توحي لكل واحد،

مدى فرحه للمكافأة التي تنتظره، صحيح أنه لم يحضر معه بنفسه الجاسوس حليف الشيطان، إلا أن أصدقاءه، عندما سيريهم المرء أدوات التعذيب لوقت كافٍ، سيدلون بالتأكيد باعترافات تدل على الطريق الذي سيقود إليه.

أوقفهم أحد الحرس عند بوابة البويرتا دي لا يوستيسيا[1]، «ينبغي التبليغ عن وصولكم!»، قال الحارس، «إن صاحبي الجلالة ما زالا غارقين في نومهما. لقد حضرتما مبكراً».

«هل يمكن للمرء أن يكون مبكراً، إن تعلق الأمر بالانتصار على الشيطان؟ ردّ الجندي الذي يحمل ندبة على وجهه، «دعنا ندخل!».

ومع ذلك، طال الأمر لوهلة غير قصيرة إلى أن تم فتح الباب، كان طارق يغمض عينيه لبرهة، ثم يعاود فتحهما من جديد، ليستيقظ ثانية، ثم لا يلبث أن يغمض عينيه؛ وقد رأى سالومون معلقاً فوق السرج، ورأسه مرمي على عنق حصانه.

«كلاكما إلى السجن!»، هتف الجندي ذو الندبة، ساقهما عبر الباحة إلى القصر؛ لم يكن مسموحاً لطارق أن تدوس قدماه هذا المكان من قبل، كانت الزنزانة تقع مباشرة أسفل *الميكسوآر*، تحت برج كوماريس.

ومع كل خطوة على الدرج النازل للأسفل كانت البرودة تزداد أكثر فأكثر، هنا لم يقم المغاربيون باستخدام المزيد من الحجر الرملي الأحمر، الذي حمل القصر اسمه؛ بل كانت الأحجار فيه عبارة عن كتل رمادية ثقيلة تلتمع بفعل الرطوبة، وفجأة أحسّ طارق بذلك القدر الكبير من العطش الذي يعانيه.

وفي قعر درج السلم، كان يقف جندي مسنداً ظهره إلى الجدار بسبب

(1) بوابة دار العدالة (المترجم).

التعب الذي يعانيه، إلا أنه كان من الصعب التعرف عليه في عتمة السجن بهذا الوقت المبكر من الفجر، «ضيوف جدد؟»، سأل الجندي وتقدم نحوهم، وقد لاحظ طارق، بأنه كان يعرج، «كم واحداً آخر أيضاً؟ لم يعد هنا مكان لهم!».

«هيه، بابلو! لقد فوّتَّ عليك بعض الأحداث، وأنت في موقعك المريح هنا، صدقني في ما أقول لك!»، قال الجندي ذو الندبة «قم بتأمين مكان لهما! لقد قبضنا على هذين الاثنين في البوخاراس، لقد كانا مع ذلك الصبي، الذي تحالف مع الشيطان!»، ثم دفع طارقاً بركبته في ظهره، «وسيقرّون أيضاً، أين يمكننا أن نجده، بعدما يريهم كبير المفتشين أدواته المباركة!».

بدأ قلب طارق يخفق بسرعة أكثر، «لقد قلنا لهم إننا لا نعرف حليف الشيطان!»، صرخ قائلاً، إن الأمر يتناول الآن التحقيق بهذا الأمر، وفقط بهذا، فمن يعرف حليف الشيطان، فهو بالنسبة إلى توركيمادا، شيطان أيضاً مثله، إن سالومون، وهو نفسه، لم يعرفا بوسطن، فهل سيصبح جباناً لهذا السبب؟

تناول الجندي الحارس رزمة مفاتيحه، كان الحديد يصلصل على الحديد، «بجانب هذا الذي هنا أستطيع وضعهما»، قال ذلك، فيما كان يبحث بين رزمة مفاتيحه عن المفتاح الصحيح لتلك الزنزانة.

«عندما سيريهم كبير المفتشين أدواته المباركة»، قال الجندي ذو الندبة، وهو يتطلع بابتسامة مبتهجة تملأ عرض وجهه، ثم تابع: «لقد تذكر البعض، ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك! انتظروا فقط، فستعطي أداته مفعولها العجيب فيكما أيضاً! الدرجة الأولى: لف الإبهام والكي بالحديد، الدرجة الثانية: الربط إلى المقعد ومن بعده الدولاب، والدرجة الثالثة: ساحق الرأس و».

«وبعد مرحلة سحق الرأس لن تعرفا ماذا فعل الزمان بكما»، قال الجندي الحارس، وقد انتقى مفتاحاً ضخماً من بين رزمة المفاتيح وأداره في ثقب قفل الباب الكئيب الذي فتحت فيه نافذة على مستوى الرأس مشبكة بالحديد، «إلا أن آلة سحق الرأس لا فائدة منها من أجل الاستجواب! وأنا لا أفهم كيف أن الموقر، كبير المفتشين لا يدرك ذلك».

ترنح الباب وهو يُفتح بمفصلاته الثقيلة مصدراً صوتاً كالعواء، وفي الغرفة الصغيرة، التي تأخذ نورها الشاحب من فتحة النافذة الصغيرة المفتوحة بالباب والمشبكة بالحديد، كان يجلس رجل على الأرض، ملقياً برأسه على ركبتيه حامياً إياه بكلتي يديه، كانت تفوح من الداخل رائحة العفن، ورائحة عرق وبراز تعودان لأسابيع عديدة مضت.

«جاءك من يسليك، أيها العجوز»، صرخ الجندي ذو الندبة، وقد أحس طارق بركبة ذلك الجندي تدفعه في ظهره، إلا أنه حاول أن يظل منتصباً ومتماسكاً.

رفع الرجل الجالس على الأرض رأسه بتمهل، لقد بدا متعباً وذاهلاً وعديم الأمل، إلا أن عينيه اتسعتا فجأة.

«سالومون»، همس منادياً.

وسالومون أيضاً رفع رأسه هو الآخر.

لقد تمرس الآن بالشجاعة خلال وجوده في الجبال، فكر طارق في نفسه، ففي البوخاراس كان أقل جبناً مني، ويمكنني أن أتفهم بأن تلك النظرة من الرجل ربما كانت كافية كي ينخرط سالومون في البكاء.

«لديك هنا حياة هادئة بحمد الله»، قال الجندي ذو الندبة، لقد أتم تسليم سجينيه بحسب الأوامر، والآن يمكنه أن يخلد للراحة والطمأنينة. كان درج

السلم الذي يخرج من الزنزانة تحت برج كوماريس، قائماً في مواجهتهم؛ وفجأة أحسّ بأنه عاجز عن أن يتمكن من الصعود وتسلقها حتى نهايتها. إنها غير محدودة النهاية، وعدد درجاته غير محدود، «أريد إغفاءة فقط»، قال لباولو، «هل تفهم ما أعنيه؟ لقد اعتقدت أن الحرب ستكون بشعة أثناء القتال؛ ولكنني أراها الآن، وأقسم باسم الأم المقدسة والدة الإله، إنها أبشع بكثير».

لقد مال بجسده إلى الجدار عند أسفل قدم الدرج، أراد برهة قصيرة من الراحة فقط، ليقوم من ثم بالصعود عليه.

«لا يخلدون للهدوء»، غمغم الجندي، «هؤلاء المغاربيون! الذين انتصرنا عليهم، فليستسلموا أخيراً للهدوء!» ثم أسند رأسه إلى أحد الحجارة، وقال: «هل لديك خمر أيها الرفيق؟ لقد شربنا ما كان لدينا منه بأكمله أثناء مسيرة الطريق إلى هنا، لقد كثرت مسيرات الجند! ألم يحن الأوان كي يستسلم المغاربيون ويهدؤوا؟».

«إن الزنزانة تفيض بسجنائها» قال بابلو «وها أنتم تحضرون الآن هؤلاء الأطفال! فكلما طال أمد الحرب، امتلأت السجون أكثر، فهل ينبغي أن يبقى الحال هكذا؟».

ألم يسأل بابلو، أن يعطيه دورقاً من الخمر؟ أقله، أن يعطيه جرعة واحدة؟

«لا بد أن يكون لديكم هنا في القلعة شيء من الكحول للشرب! بابلو، ناولني قليلاً منه، قبل أن أغفو»، قال الجندي ذو الندبة.

هزّ بابلو برأسه نافياً وهو في حالة من التعب، طبعاً، فكر الجندي ذو الندبة في نفسه، هنا في الأسفل، في مركز الحراسة الذي يقوم فيه بابلو بأداء خدمته، ليس من حاجة له لذلك الخدر الناعم؛ فحتى النوم متاح له هنا.

إن الحياة ليست عادلة، وهي لم تكن عادلة في الحرب، كما هي أقل عدالة بعدها، ثم بدأ الجندي ذو الندبة بتسلق الدرج للأعلى، إنه درج طويل، لا نهاية له، لا حدود لنهايته، كان عليه الاتكاء على الجدار، النوم.

لقد سقط من حزامه شيء ما! وقد سمع حتى كيف ارتطم ذلك الشيء بدرجات السلم، ومن دون أن ينظر خلفه، عرف الجندي ما كان قد سقط منه، وهو لم يعلم حتى لماذا حملها معه كل هذه المدة الطويلة؟ لقد كانت غنيمة، ولكنها كانت عبئاً لا ضرورة له. ولكن كان بإمكانه في البوخاراس، أن يخيف الآخرين بها، إذ كانت البلاطة تمثل سعادة له، بأن يرى ذلك الخوف في عيني من يراها.

ما زالت أمامه كل تلك الدرجات ليصعدها، وما زال ينتظره كل ذلك الكم من التعب.

أما أن يكون بابلو قد انحنى ليلتقط البلاطة بحركة سريعة ويخفيها تحت قميصه بعجالة فائقة، فهو ما لم ينتبه له الجندي ذو الندبة.

ما زالت أمامه كل تلك الدرجات، وما زال ينتظره كل ذلك الكم من التعب.

-36-

عندما أفاق بوسطن وصحا لنفسه، كان أول شيء أحسّه، هو ذلك الشيء الذي يهدر صعوداً ونزولاً تحت ظهره، كان ما تم تمديده عليه، تفوح منه رائحة قوية نافذة، وقد عرف حتى قبل أن يفتح عينيه، المكان الذي هو فيه. لقد اقتفوا أثره وعثروا عليه، وتم وضع حد لفراره.

ومن مقعد حوذي العربة ترامى لسمعه لحن رفيع لرجل متقدم في السن. كان اللحن يعطي انطباعاً وكأنه نشيد يؤديه كورال كنسي، فحاول بوسطن الجلوس بكل ما استطاعه من احتراس.

كان الضوء الخافت قد أوحى بقدوم المساء، ففي الحقول، قام الناس بتنظيف معاولهم ومناجلهم بالحشيش وأوراق الشجر، واتجهوا صوب بيوتهم، وبدأت الطرقات تخلو من عابريها.

قفزة واحدة وأُصبح حراً! فكر بوسطن في نفسه، متحسساً بذهول معصمي يديه، لماذا لم يقيدوا يديه بالعربة؟ يا لتهاون هذا الراهب! بل لماذا لم يتم تقييد يديه ورجليه؟ فهل يعتبره هذا الأخ الراهب مغاربياً؟ فإن كان الأمر كذلك، فهذا ما سيسهل له الهروب أكثر في هذه الحالة.

حرّك بوسطن رجليه مؤرجحاً إياهما بحذر من فوق الألواح الجانبية للعربة، كان الغناء القادم من مقعد الحوذي يزداد ارتفاعاً في مقطع معين، فينقلب الصوت ويتغير اللحن، تحسس بوسطن بيديه حافة العربة، محاولاً

إيجاد ممسك قوي لهما كي يقذف بنفسه للأسفل.

«هذا ما لا ينبغي أن يفعله... الصبي المغاربي»، نادى الصوت القادم من مقعد الحوذي عالياً.

تجمد بوسطن بفعل المفاجأة.

«كان بمستطاعه الفرار بسهولة مني، بل بسهولة جداً»، غمغم الصوت الآن، وظل الراهب ممعناً النظر بعينيه للأمام مراقباً مسار الطريق، إلا أن بوسطن كان يرى من مكانه فقط، شعراً خفيفاً متناثراً في أعلى قمة رأسه، ورأساً حليقاً عند قذاله في الخلف، كان يبدو وكأنه يتحدث مع نفسه، «إن السيد الرب في حكمته التي لا يمكن سبر غورها، جعل لساقي الصبي مقدرة على الجري، أسرع من البغل الذي يجر العربة، وحتماً أسرع من ساقي راهب عجوز، أما البعض الآخر... من المغاربيين، فيجدون أماناً لدى الكنيسة، أكثر من أي مكان آخر»، قال الراهب ذلك كله وهو يخاطب نفسه، ثم توجه لبغل العربة: «بررررر، قف هنا أيها الأشهب».

ارتجت العربة، ثم توقفت، أما بوسطن فقد تردد، هيّا بوسطن، اقفز! ماذا تنتظر!

ولكنه كان ما زال يشعر بعناء تعب ليلتين لم يذق خلالهما طعم النوم، وبكل بساطة، كانت الرغبة في مواصلة البقاء حيث هو، هي التي تغلبت.

«وأحياناً!»، تابع الصوت، «فإن الرب الذي لا حدود لجوده يجلب للأكثر من بين عبيده المطيعين أيضاً أموراً غير متوقعة أمام أعينهم قد لا يكونون يرغبون في رؤيتها». ثم ترجل الكاهن حائراً من مقعد الحوذي وأخذ كيس العلف، وبدأت للحال أسنان البغل بالطحن المنتظم للعلف المقدم له، مخرجاً صوتاً أثناء مضغه، «المجد لكِ يا والدة الإله، بماذا ترشدين

ولدك المؤمن الآن بحسب طيبتك السرمدية؟ ألم يكن بالإمكان تجاوز ما كان قد حدث الآن، لعبدك الفقير، خادم كنيستك هذا، وأن لا يكون رأى ما قد رآه، بالرغم من أنه أغلق عينيه، عندما... سقط هذا الصبي المغاربي وأطاح الهواء بالعمامة عن رأسه، «ثم رفع الراهب عينيه للسماء وبدا كما لو كان يصغي؛ ثم أحنى رأسه، توقف قلب بوسطن «هكذا حدث لي أيضاً، أيتها العذراء المقدسة فائقة الرحمة»، قال الراهب براحة واطمئنان «كما قلت، لقد توالت الأقوال عن سماع المغاربيين بالمخلوق الأشقر، فلماذا لا يكون هذا الصبي من المغاربيين؟ ولماذا لا يكون هذا الصبي ليس واحداً منهم؟ فالصبي المغاربي لا يعدو كونه صبياً مغاربياً مسالماً! وهذه الشكوك التي تشيع بيننا نحن المسيحيين هذه الأيام، هي بالتأكيد لا تسر الله، هل تقولين أنت لي هذا أيتها السيدة المقدسة؟» ثم حكّ رأس البغل فيما بين أذنيه، ظل بوسطن في حالة الاستعداد للقفز، «من جهة ثانية، أيتها السيدة مريم، يا والدة الإله»، قال الراهب، «أنت بدورك تعرفين، قلة عدد من هم من بين المؤمنين الذين يتقاسمون معنا مثل هذا الرأي! لا أريد أنا هنا أن أدعوهم بالعميان، فأنا لا أزيد عن كوني فرداً صغيراً فقيراً من ضمن أخوية الدير، وأنا وحدي من يعرف، كيف يصنع الجبن، وبالتأكيد لن يقيض لي امتلاك حكمة الكنيسة المتمثلة بكبير المفتشين، كي يتسنى لي إمكانية الشك فيها، ولكن كلانا، أيتها السيدة والدة الإله، أنتِ وأنا، متفقان حول هذه المسألة؟» وعاد ليرفع عينيه نحو السماء، ثم ليحني رأسه بكل خشوع، وتابع في الحديث مع نفسه: «لا أريد التواني، في الإعراب عن شكري بتلاوة صلاة السلام عليكِ يا مريم، ولكنك تعلمين أيتها العذراء المقدسة، أنني لا أستطيع تأدية هذا الواجب، فالجبن لا بد من إيصاله إلى المدينة، فجلالتها المعظمة تتشوق

في طلبها له». تنهد إثر ذلك، ثم نظر إلى بوسطن، وكأنه انتبه في هذه اللحظة فقط، إلى أن الصبي كان معه على العربة.

«آهه، إن صديقي المغاربي الصغير قد صحا من نومه!»، قال متحدثاً إليه بود، «لقد كنت منهك القوى، عندما التقيتك، وآمل أن يكون ما فعلته باصطحابك معي على العربة أمراً صائباً؟ وأن يكون طريقي إلى غرناطة هو طريقك أيضاً؟».

أومأ بوسطن برأسه إيجاباً، وهو يحاول استيعاب الوضعية التي هو فيها.

«لقد ظننت ذلك»، قال الراهب بابتهاج، «فيا للإرادة التي يهيِّئها الرب الذي لا حدود لجوده دائماً، لتحدث من جديد ودائماً مثل تلك الأمور الرائعة، بأن نلتقي في الوقت المحدد الناس المحددين »، ثم ابتسم «على أي حال، أعتقد أيها الفتى»، وهنا تسلقت عينا الراهب اللتان بدتا فجأة متيقظتين وملتمعتين، بسرعة تستعرضان بوسطن، كمن يريد سبر غوره ثم انتبه لنبرة صوته، وتابع: «إن على كلينا الاستراحة قليلاً عند أول جدول ماء نصل إليه، فالسيدة العذراء المقدسة، ولحسن الحظ، تشاطرني قناعتي، وهذا ما يمكنني أن أقوله لك، فإن شئت يمكنك أن تعود من جديد لتجلس بين السلال المملوءة بجبني، ونستطيع في هذه الحالة مواصلة سيرنا، فالملكة تنتظرنا بلهفة في قلعتها الحمراء.

تحركت العربة، لديه حق، مع هذا الراهب القصير الغريب الأطوار الحق؛ فعندما أكون قد استرحت تماماً، يمكنني الهرب منه بكل سهولة، فكيف يمكنه أن يلحق بي بساقيه اللتين أتعبتهما الشيخوخة، وعربته المتداعية التي يجرها بغل؟ فأنا سأكون بين سلاله بمأمن أكثر من أي مكان آخر في هذا

البلد، بل ربما الأكثر أمناً؛ فأنا أستطيع القفز من العربة في أي وقت، فلماذا لا أسافر معه؟ فكل ميل أجتازه راكباً في طريقي إلى غرناطة، لا أحتاج خلاله لاستخدام ساقيّ، إنما يعجل في وصولي إلى هدفي، ولكن عليّ التنبه، كي لا أغفو خلال ذلك، مهما كانت درجة تعبي، عليَّ أن أكون يقظاً.

ومع ذلك، فقد استيقظ من أفكاره تلك، مع صدمة توقف العربة فجأة. ففي هدأة الليل كان واضحاً للسمع من جانب الطريق بأن هناك خرير ماء يجري.

«عليك النهوض الآن، أيها الفتى»، قال الراهب، وعاد صوته الآن لنبرته التعبة، «اركع بجانب الماء».

رفض بوسطن الاستجابة لطلبه، كان بمقدوره تقييدي إن كان راغباً بتسليمي، فكر بوسطن في نفسه، ألا يعلم من أنا؟ توجد مكافأة بالتأكيد، لمن يسلم كبير المفتشين أحد الملاحَقين من الضالين عن الدين، كذلك المتحالف مع الشيطان! إلا أن الراهب لم يفعل ذلك، كان بمقدوري الهرب في أية لحظة، إلا أنه لم يبد أي اهتمام للاحتفاظ بي، فلماذا أثق به الآن.

كان جدول الماء أكثر اتساعاً مما توقعه بوسطن، قفز متخبطاً بالماء فوق الحجارة والحصى، وكان ماء الجدول الناجم عن ذوبان الثلوج في جبال السييرا تطفو عليه الرغوة، ويرش رذاذ الماء متناثراً هنا وهناك مع اصطدام تدفق الماء بإحدى الصخور.

«عليك أن تنحني راكعاً، أيها الصبي»، قال الراهب للمرة الثانية وهو يتنهد، «فأنت طويل قياساً بحالي أنا العبد الفقير»، نظر إليه بوسطن بتساؤل، إلا أن الراهب اكتفى بإلقاء نظرة عابرة إليه، «والآن – أنا أعلم، بأن المسلمين لا يحبون ذلك، ولكن ثق بي أيها الصبي المغاربي – انزع

العمامة عن رأسك!».

أمسك بوسطن بالعمامة، وثبّتها أكثر فوق رأسه، ما زال الراهب يتجاهل النظر إليه، «حتى السيدة العذراء تعلم، أنه يوجد أيضاً مغربيون شقر»، قال الراهب، «ألم يكن بو عبديل نفسه، آخر أمراء أسرة نصر الدين أشقر؟ هيا! انزع العمامة عن رأسك، أيها الفتى».

تردد بوسطن في البداية، ثم وضع عمامته جانباً على العشب.

«ربما تعاني بعض الألم في البدء، أيها الصبي»، ثم نزح بيديه بعض الماء من الجدول وصبّه على رأسه مبللاً شعره، وأخذت خصلات الماء تسيل أمام عينيه، «لقد تدربت على هذا منذ سنوات بعيدة، لا تجزع».

إنها المعمودية، ظن بوسطن وهو بحالة من الارتباك، هل هي معمودية؟

ثم أحس بوسطن بأن موسى الحلاقة قد أصبح فوق رأسه.

منذ أن انتقل بلاط الملكة إلى غرناطة، أصبح الأذان هو الذي يوقظ يوهانّا كل صباح.

«استديري على الجانب الآخر وواصلي نومك، يا حمامتي الصغيرة»، قالت لها آمّي، «ما شأنك وصلاة الفجر لدى الكفار؟ واصلي نومك، إن ظلالاً سوداء توجد تحت عينيك!».

إلا أن يوهانّا كانت تنهض بهدوء مع كل صباح، بالرغم من ذلك، وإن شاءت الصراحة مع نفسها، فإن عليها أن تسلم بأن تلك الساعات الصباحية كانت أفضل أوقات يومها: فباستثناء المغاربيين، كانت المدينة ماضية في سباتها، وكذلك كان حال أمها وأبيها وجميع من هم في البلاط، ففي هذه الساعات المبكرة من كل صباح، فإن القلعة كانت كلها لها.

باحتراس، كانت يوهانّا تزيح اللحاف إلى جنب، أما آمّي، فكانت على

مرقدها أمام الباب تشخر بصوت هادر، وكان حالها يتردى يوماً بعد آخر. فكيف تسنى لي النوم بعمق رغم ذلك! فكرت يوهانا في نفسها، ليس من حاجة للمؤذن، كي يوقظني، يمكنهم بدلاً من ذلك ترك أمّي ترقد هناك في أعلى إحدى المآذن لتوقظ المغاربيين بشخيرها، ثم انفجرت بالضحك.

ومثلما هو الحال الذي دأبت على فعله كل صباح كان أول شيء تفعله هو البحث عند نهاية قدميها، كانت تلك الوسادة الصغيرة ما زالت في مكانها، بل كانت تلمسها أحياناً بأصابع قدمها وهي بين النوم واليقظة في بعض الليالي، فتحس بارتعاش طفيف، قبل أن يغالبها النوم من جديد.

كان صوت مؤذن الجامع الذي يقع تحت جبل القلعة مباشرة، يتمتع بحلاوة وقوة فائقتين، جلست في النافذة تقلب تلك الوسادة الصغيرة بين يديها، وتصغي، هنا في غرناطة، كانت تنتظر بكامل الترقب كل صباح ذلك المظهر الذي تبدو عليه هذه المدينة المهيبة في تلك الساعة الساحرة، فعندما كان ضوء الصباح يلون السماء بلون ذهبي من فوق الأسطحة، بدا وكأن كل يوم كان بمقدوره أن يجلب لغرناطة معجزة جديدة. نعم، حتى في كل يوم عادي، ومع توالي تلك الأيام، وفقط عندما كانت الشوارع تغص بالعابرين، ويستيقظ الآخرون كان وعد المعجزة يتبخر، إلا أنها كانت تحس بقدوم تلك المعجزة، لا بل هي تحس بها مع قدوم كل يوم.

الوسادة الصغيرة التي بين أصابعها لم تفقد بريقها بسبب لمسها من قبل أصابع غريبة؛ إذ أحياناً، وعندما كانت تصبح كامدة اللون إثر وضعها ما بين ثدييها، كانت تبصق على سبابة أصبعها لتمسحها، فهذا الزجاج

اللدن العجيب، الذي صنعت منه الوسادة الصغيرة، بدا لها أليفاً مع مرور الوقت.

ومع ذلك فأنا لا أعرف مكنون سره، قالت يوهانّا لنفسها، فمن هو خطيبي الذي لم يكن خطيبي؟ وما هو السحر الذي تحمله هذه الوسادة؟ فلو علم كبير المفتشين، أنني أخبئ لدي أداة من الشيطان، بل أحملها معي، فما الذي كان سيفعله في هذه الحالة؟ فلو علمت أمي بذلك، لكانت سقطت ميتة من الخوف، كانت ستظن أنَّ روحي لن يمكن إنقاذها بأي حال.

لوت يوهانّا فمها ساخرة، لقد أصيبت هي نفسها بالجزع، عندما عرض كبير المفتشين الكتاب، وتلك البيضة الغريبة، والوسادة الجلدية وقطع النقد بداخلها، ولكن هل بالضرورة أن تكون تلك الأشياء من صنع الشيطان؟ فهل كل ما بدا غير معتاد وغريباً، ومثيراً ورائعاً هو من صناعته؟ كان تالافيرا قد قال، إن تلك الأدوات قد تكون استقدمت من بلاد الصين، فما تقصى عنه ماركو بولو كان قد أعجبها أكثر بكثير، فماذا لو كان الناس في بلاد الصين البعيدة هم الذين صنعوا تلك الأدوات الغريبة؟ وماذا لو تمكنت هي نفسها من السفر إلى هناك، في رداء صبي من دون وصيفتها آمّي، كي تتعرف كل هذه الأشياء؟

ربما كان من الأصح ألا تصّد ذلك الجندي، وبدل أن تبرهن مثل تلك الأدوات على سيطرة الشيطان، ألا يمكنها أن تبرهن على أنه ربما من الممكن الوصول إلى كاتاي[1] أو إلى بلد مثل سيبانغو[2] المليء بالأسرار، بطريق أسرع من تلك المعروفة حتى الآن؟ ألا يستحسن أن لا تقف أمها

(1) الصين.

(2) اليابان.

الورعة وكبير المفتشين مع الاعتقاد أن وراء كل شيء يكمن الشيطان! ثم أدارت الوسادة الصغيرة بين أصابعها، أما بالنسبة إليها، فهي تفضل الاعتقاد بالصين.

لقد أنهى المؤذن أذانه، ومن خلفها كانت آمّي قد قلبت جسمها الثقيل بمشقة على الجانب المعاكس، ثم سرعان ما تابعت شخيرها مستغرقة في نوم هادئ.

لو علمت فقط كنهه، فكرت يوهانّا في نفسها، لو علمت فقط ما كان مقصده من وراء كل ذلك، إنه يحمل سراً، فهل ينبغي دائماً أن يكمن الشيطان وراء هذا السر؟ ربما كان فقط مسافراً قادماً من بعيد! وربما يعرف بلداناً، لم يرها أحد من قبل! وربما لهذا السبب بدا دائماً واهن العزم وخائر القوى، لكونه قادماً من بلد بعيد! إنني سعيدة لأنني ساعدته على الفرار. ولا أريدهم أن يعثروا عليه! ولكنني من جهة أخرى، لن أستطيع بعد ذلك التمكن من سؤاله عن شيء، لم أعد قادرة على التحمل أكثر، وأن أبقى من دون أن أعرف.

دخلت ذبابة من النافذة وأخذت تحوّم بلجاجة من فوق وجه آمّي، كان أزيزها منفراً ومزعجاً في هذه الساعة من الصباح الهادئ، ثم حطت أخيراً على جبين آمّي، التي نهضت وأشاحت بيديها الاثنتين لكشها.

«إش، إش، إش»، صرخت عالياً، «يا حمامتي الصغيرة، يا غزالتي الصغيرة!» ومثل صباح كل يوم، ومثل كل صباح، «ستسقطين من النافذة! ارجعي من هناك!».

ضحكت يوهانّا، ثم انحنت أكثر، كما لو كانت تريد إلقاء نفسها للأسفل، أما بشأن الشيء الخطير الذي بحوزتي، فهي لا تعلم شيئاً، فكرت

يوهانّا في نفسها راضية، وعن هذا الشيء لن يعلم أحد أبداً.

أوه، أخيراً أصبح لدي سر أملكه، وأخيراً يمكنني أن آمل بأن يحدث لي أمر مدهش وخارق.

-37-

ارتعد بوسطن مع أول حزة، ما أدى إلى خدش موسى الحلاقة لجلد رأسه؛ ولكنه أدرك في النهاية ما كان الراهب يريد فعله.

«تريد جزّ شعر رأسي!» همس قائلاً للراهب، «أنت تريد قص شعري!».

يميناً ويساراً كانت خصل الشعر ترتمي على كتفه، وتلتصق وراء أذنه، وبعضها يجرفه الماء الذي يجري من فوق رأسه لتعود في ما بعد فتصب في مجرى الجدول الرئيسي، وقد لبث بوسطن هادئاً بالقدر الذي استطاعه.

«والآن، ليتمجد اسم الخالق، فالأخ الراهب وصانع الجبن، يملك أفضل موسى حلاقة حِدَّة في الدير»، قال الراهب، بعد أن نفض خصلة شعر أخرى علقت بأصابعه، ثم تابع كلامه، «ولأن الأخ الراهب صانع الجبن، ليس الأخ صانع الجبن فحسب، أيها الفتى، ولكن بمعونة الله وقدرته، هو الأخ الحلاق أيضاً»، ومسح بظهر يده رأس بوسطن، «وفقط، وفقط، وبالماء فقط...» ثم تنهد بمشاعر غير راضية، «ولكن بشعر حليق، لن يجدي الحال هذه المرة، يا صديقي الصغير!» وضحك ضحكة ساخرة.

وحينها عندما ألقى الراهب بموسى الحلاقة على كتلة من العشب النامي بجانبه، حينها أدرك بوسطن أن جمجمته أصبحت جرداء، وقد حاول أن ينظر في جدول الماء ليرى انعكاس صورته هناك تحت ضوء القمر، ولكن

حتى لو كان الضوء ساطعاً، فما كان بمقدوره رؤية صورته، فصفحة الماء كانت سريعة الحركة.

ربما يكون في هذا أمر جيد، فكر بوسطن في نفسه، فمن يعلم كيف سيبدو شكلي بمثل هذه الصلعة؟! قد لا أجرؤ إن نظرت إلى نفسي بعد ذلك أن أخرج بها إلى الناس، ولكن لماذا يفعل الراهب كل ذلك؟

«سينبت لك بالطبع، زغب أشقر من جديد، لذا عليك التنبه والحذر»، قال الراهب، ونهض من على الأرض متشكياً، وبدأ يفك الحبل الذي يشدّ به الرداء الكهنوتي على جسمه، ومن ثم رأى بوسطن مفزوعاً كيف بدأ الراهب يلف القطعة القماشية البنية حول رأسه على نحو غير ملائم، «أدر ظهرك»، قال لبوسطن، «... أنت لا تريد بالقطع أن تبدو كرجل مسن...» استقر الرداء الكهنوتي الذي رماه الراهب على الأرض بجانب بوسطن، بعد أن كان على وشك أن يسقط في الجدول.

«ماذا تنتظر؟» سأل الراهب فاقد الصبر، «ألا تريد أن تعطيني برنسك؟ فكم من الوقت ينبغي على راهب تعب من أخوية الدير، البقاء منتظراً تحت نجوم السماء، باللباس الذي خلق الله فيه آدم؟» ثم تنهد من جديد، راسماً علامة الصليب، «حمداً لله من أجل الظلمة!»، قال الراهب، «فمن يعلم، فبعض الحيوانات، ترى جيداً في الظلمة! ينبغي أن أجلس على كرسي الاعتراف طلباً للمغفرة، فالله سيغفر لي».

لم يجرؤ بوسطن على الاستدارة نحوه، وبأصابع مرتجفة نزع عنه البرنس من فوق رأسه ورمى به إلى الراهب، لقد رأى تقاطيع عامة بيضاء لظهر قصير وسمين، ومن تحته ساقان رفيعتان مقوستان.

«والآن، هل جاء ردائي مناسباً لمقاسك؟»، سأل الراهب أخيراً، بعد أن

انتهى من ارتداء البرنس، وقد بدت نبرة صوته مرتاحة هذه المرة، بعد أن وضع العمامة على رأسه أيضاً.

كان بوسطن قد وقف يعقد الحبل على وسطه، إلا أن رداء الكاهن بدا فضفاضاً عليه وهو يتدلى ساتراً جسده، إلا أن الحبل طوى الرداء في ثنيات حوله، وكانت تشتم من الرداء رائحة الجبن ورائحة قوية لرجل عجوز، فلو أنه كان في حياته السابقة، لكان تقزز من ذلك.

وقد أحس بوسطن كيف أن زاوية فمه تكاد تظهر معالم ضحكة، ثم همس: «إنني راهب!».

جلس الراهب بحركة مجهدة في مقعد الحوذي، أما البرنس فكان مشدوداً حول بطنه مثلما كان حال رداء الكهنوت من قبل، إلا أن الصليب الخشبي ظل يترنح على صدره، «والآن، من يستطيع أن يرفض للسيدة العذراء، أم الله أمراً؟»، قال الراهب، في صيغة دعاء متوسل، وهو يدق على العربة، «اصعد، لقد خسرنا وقتاً كثيراً! إن الملكة تنتظر جبنها!».

قفز بوسطن إلى العربة، فأزاح إحدى السلال وجلس على أرضها، «لماذا تفعل كل هذا من أجلي؟»، سأل الراهبَ.

طرقع الراهب بلسانه، وشدّ لجام البغل حاثاً إياه على السير، ولكن بعد أن ظن بوسطن أنه لا يريد الإجابة عن سؤاله، أو أنه لم يسمع السؤال بالأساس، بدأ الراهب حديثه.

«من أكون أنا، الراهب المعوز الضعيف، لأوصد الباب في وجه رغبة السيدة العذراء المقدسة؟»ثم تابع من جديد، «فالسيدة العذراء المقدسة تفهم حالك أيها الصبي، وهي مثلي، قلقة منذ زمن بعيد! فهي لا يمكنها أن توافق على كل هذا القتل، وكل هذا التعذيب، وهذه المحارق! إذ يبدو لي أنها

تخشى أن يكون ابنها قد ضحى بنفسه من دون جدوى. إن السيدة العذراء لا تريدك أن تُحرق، ولهذا ألبستك رداء أخوية الدير وجعلتك تبدو كواحد منهم».

حدق بوسطن النظر إليه جيداً، فلم تكن الظلمة تسمح بمعرفة إن كان الراهب يؤمن حقاً بما يقوله أم لا؛ إلا أنه يظل على أي حال راهباً.

«إن في هذا تحايلاً»، همس بوسطن، «فهل يجوز لراهب مثلك أن يكذب؟».

ألقى الراهب إليه بنظرة متعبة، «لا أريد المشاركة بموتك، أيها الصبي، حتى إن كنت كافراً، بل وإن كنت حتى»، ثم نظر من جديد نحو الطريق وتابع قائلاً: «بل حتى إن كنت هرطوقياً ضالاً، فموت إنسان، كان قد خلق على صورة الله، قيمته أكبر من كذبة، تبدو لي أنه ينبغي الإقرار بها سريعاً على كرسي الاعتراف، وتلاوة دعاء: السلام عليكِ يا مريم، إنني أخ راهب بسيط، وأشكر ربي يومياً، كوني لا أفهم شيئاً فيما عدا صنع الجبن وقص الشعر، فما يحدث في العالم عدا ذلك، لا يعنيني وأنا في الدير أنهض من أجل تأدية صلاة الاستيقاظ من النوم، وأذهب إلى القداس الصباحي في الكنيسة، وإلى صلاة الظهيرة وصلاة المساء وأنهي يومي بالصلاة الختامية. إنني أذهب إلى مجبنتي وأقوم بتطييب الجبن بالأعشاب التي تحمل النكهة المناسبة، ألا تشمّ أنت هذه الرائحة؟» تنهد قليلاً، ثم تابع كلامه: «والآن، تريد الملكة جبننا، وكأنه لا يوجد في مملكتها جبن آخر، ولا تود أن يكون ما تريده سوى من جبن الدير، إنها جبنة من الماعز المبارك المصفى في السلال بواسطة تلك الأيدي التي تبتهل في صلاتها لله!»، ثم نشق بأنفه وتابع: «إنه هراء، مع كل احترامي! فحتى المسيح نفسه لم يتحاشَ مرة واحدة في كل الأراضي المقدسة، أن يأكل

بسرور من جبن الكفار المصنوع من الماعز والغنم، أم هل علمنا الإنجيل شيئاً مختلفاً؟ وهل علمنا الكتاب المقدس تجنب أكل الجبن المصنوع من قبل الوثنيين والملحدين؟ فيا لهذه المبالغة في الورع والتقوى! أخبريني أيتها القديسة والدة الإله، ماذا تقولين أنت بهذا؟».

بقي بوسطن مترقباً، فالقديسة والدة الإله، وكعادتها دائماً، هي مع الرأي الذي يقوله الأخ راهب الدير، لذا أومأ الراهب برأسه سعيداً، «أنا أعلم، نعم أنا أعلم»، قال الراهب «إن جلالتها لا تقصد أمراً سيئاً! إنها تطلب جبننا عن قصد! وأقول لكِ بكل الخشوع، أيتها السيدة العذراء المقدسة ذلك، اعتماداً على تلك الأيام التي حكم فيها المغاربيون في الحمراء، فلم أكن وقتها مضطراً إلى أن آتي إلى هنا كلما كان القمر بدراً في الشهر!».

جلس بوسطن، ثم ناداه: «أيها الأخ راهب الدير؟ في الحقيقة، أنا سعيد بكل شيء».

كانا قد وصلا إلى بوابة السور، وكانت الطرقات تزدحم بالحركة، تماماً كما كان عليه الحال في ذلك الصباح، عندما همّ مع سالومون بالصعود إلى الجبال، ورأى بوسطن وقتها مواكب اليهود التي لا نهاية لها، تسير خالية الأيدي من حمل أي شيء، فيما عدا الثياب التي تم ارتداؤها على الأجساد.

تنهد الراهب متحسراً، «أيتها القديسة العذراء، أيتها القديسة العذراء!» غمغم بالقول «أنا أعلم أيضاً، أنكِ كنت ستعتبرين هذا الترحيل عاراً، ولكنك أنتِ، مريم عظيمة الرحمة، أما كان بمقدورك بالمحصلة فعل شيء ما لمنع ذلك، أم لا؟ إنني لا أعدو أن أكون راهباً فقيراً فقط من أخوية الدير، يفهم بصنع الجبن فحسب، ولكنكِ أنتِ، أيتها السيدة العذراء، ألست أنت من تجدين

أذناً صاغية لدى من هو فائق القدرة، أي لدى الخالق نفسه! أليس عليكِ ربما بذل جهد أكثر من ذلك بقليل؟ أم أنك لم تسامحِي بعد أبناء إسرائيل، الذين صلبوا ابنك على خشبة الصليب؟ ولكن، تفكري إذن بأن من فعلوا ذلك، ليس هؤلاء الذين هنا، ولكن من كانوا قبلهم - وقبل آبائهم رجوعاً لقرون عديدة إلى الوراء! وتفكري أيضاً، أيتها السيدة العذراء»، ثم تابع قائلاً، وقد أصبحت نبرة صوته أكثر حدة بقليل، «إنك أنت نفسك كنت من أبناء هذا الشعب، وكذلك كان ابنك أيضاً، قد يكون لك مبرراتك، بأن تسمحي بحدوث مثل هذه التعاسة - ولكن، أنت يا مريم، يا والدة الإله وفائقة الرحمة، اعذري خادمك الذليل إن كان لا يستطيع فهم مبرراتك هذه».

توقف البغل محدثاً رجة في العربة، فألقى الراهب لفتة متفحصة سريعة نحو بوسطن، ثم تحول بنظره إلى البوابة، حيث كان جندي من الحرس يشير للعربة بالاقتراب نحوه.

«ماذا أفهم من هذا الذي أراه؟»، سأل الجندي بخشونة، ولاحظ بوسطن من النظرة الأولى، أنه كان الجندي نفسه الذي قام بالتهكم به وبسالومون منذ أقل من أسبوع، فسرى الجزع في جسده، ولكن هذا الجندي الذي يراقب المئات من الناس الداخلين والخارجين، هل سيتذكر حقاً صبياً يهودياً مرتدياً المخمل والحرير، عندما يمر به راهب صغير حليق الشعر راكباً عربة تحمل جبناً، ويطلب الإذن له بالمرور؟

«وماذا بشأنكما أنتما أيها الزوج الغريب من البشر؟».

نهض الراهب من مقعد الحوذي واهناً، في حين انزلق البرنس إلى فوق بطة رجله.

«من حقك أن تسأل، يا أخي!» قال له مضطرباً. «ألم تعد تعرفني؟ إنني

من يأتي بالجبن إلى الملكة مع كل اكتمال للقمر: جبن الماعز، وجبن الغنم، وجبن البقر، جبن بالمطيبات العشبية أو بدونها، جبنة طازجة أو تم تخميرها في قماش. إن الملكة تحب جبننا المصنوع في الدير، وأقسم بأن تقوم باختباره، إن كان يحق لك تذوقه، إن الملكة تكافئ الدير بسخاء أيضاً لأننا نصنع لها هذه الجبنة الجيدة على هذا النحو الذي ينال رضاها، ولكن للحقيقة، لا أعلم إن كانت هذه ستكون المرة الأخيرة!».

«كيف ذلك؟» سأل الجندي، ثم أخذ يدور من حول العربة، يضرب على عوارض العجلات الخشبية مختبراً مدى صيانتها، ينظر إلى هذا أو ذاك من سلال الجبن، وبدا الجندي كأنه استعاد تذكره، فسأل: «ولماذا ترتدي إذن لباس رجل مغاربي، إن كنت راهباً في أخوية الدير؟».

كان الراهب يسير خلف الجندي متهللاً قبل ذلك، ولكنه توقف الآن. «يمكن أن تسأل كما تشاء!»، أجابه الراهب، «بل يمكن أن يكون هذا السؤال جيداً! وفي الجواب عن ذلك يكمن المبرر فيما قلته لماذا يمكن أن تكون هذه آخر مرة أحضر فيها هذه الجبنة الفاخرة للملكة، التي ربما ستحن لها فيما بعد، فأنا لن أقوم بارتداء هذا اللباس الشائن للكفار أثناء الطريق إلى هنا، حتى إذا أصر الأب رئيس الدير فرض أوامره الصارمة عليّ».

«الأب رئيس الدير؟»، سأل الجندي وهو يحك رأسه، «لماذا طلب الأب رئيس الدير من كاهن ورع أن يرتدي لباس المسلمين؟».

«بسبب القلق، أيها الأخ، بسبب القلق!» هتف الراهب قائلاً، «أنصت لي إذن، إن الأب رئيس الدير فكر: بأنه علينا المرور في بلاد المغاربيين، فإن رأى هؤلاء عربتنا محملة بالجبن المسيحي، فمن يعلم إن لم يكن من الجائز السطو علينا؟ ولكن بدلاً من ذلك إن وجدوا واحداً منهم يجلس على مقود

الحوذي: ألن يوفروا سلامتنا؟

أومأ الجندي برأسه متفكراً، «نعم، فالمغاربي يملك قدراً كبيراً من الخبث، يصعب معه الثقة به!»، قال الجندي، «إن أباكم رئيس الدير كان صائباً بفعل ذلك، وبأن يكون لديه مثل هذا القلق، ولكن، لماذا تحمل الصليب إذن فوق البرنس؟».

رسم الراهب على محياه سحنة وجه ذكي، ثم أشار للجندي كي يقترب منه، «هذا لا يزيد على أن يكون حيلة»، همس له الراهب، «البرنس والعمامة للمغاربيين، والصليب للمسيحيين! وفقط من أجل اليهود لا أحمل شيئاً، فكما تراهم أنت بعينيك، إنهم يمرون من أمام البوابة، لا خوف منهم، فهل يمكنني أن أكون متأكداً، نظراً لأنني أتخفى في لباس مغاربي، بأن لا يعتبرونني تابعاً كافراً يحمل الجبنة للملكين المسيحيين، معتقدين أنها جبنة مسلمة؟ أليس حتى من واجبهم التحقق من ذلك باعتبارهم مسيحيين حقيقيين؟ وهل يحق لمغاربي أن يحوز الجبن؟ فالمرء لا يعلم في هذه الأوقات، أيها الأخ، ممن ينبغي أن يحمي نفسه! لعله من الأفضل أن يحمي نفسه من الجميع، وإلا كيف سيكون المرء آمناً؟».

نظر الجندي إليه بحالة من الارتباك والذهول، «من المحتمل، أن تكون على حق»، غمغم الجندي، «فبالنسبة إلى هذه المسألة لم أفكر على هذا النحو من قبل».

«لا ينبغي عليك ذلك، أيها الأخ!»، قال له الراهب، «لا مجال للتفكير، أليست السيدة العذراء المقدسة أم الكنيسة حاضرة دائماً؟ ألا تفكر هي من أجلك ومن أجلي ومن أجل الجميع؟ولاحظ كيف كان الأب رئيس الدير ذكياً في ما ذهب إليه من الأفكار!»، ثم تنهد، وتابع: «ولكن في المرة القادمة

لن أسافر على هذه الشاكلة، وسيسامحني الرب، فقد كنت طيلة الطريق، وأنا في لباس الكفار، أعاني من حكة جلدية، وكأن اللباس يذكرني بأنني خائن للباسي الكنسي! وأخي الراهب الصغير هنا»، ثم أومأ إلى بوسطن، وتابع: «لم يستطع المثابرة على تحمل الرداء، فعاد لارتداء لباسه الكهنوتي، ألم أقل الحقيقة؟».

وباضطراب أومأ بوسطن برأسه موافقاً.

«*من الأفضل لي أن أدع المغاربيين يسرقونني، على أن أخون لباسي الكهنوتي*»، هكذا قال، أما الآن فهو مسيحي حقيقي! يفضل السطو على جبنه، من أن يرتدي ذلك البرنس.

انحنى الجندي لهما بكل توقير ولطف، ثم غمغم قائلاً: «إنكم تحملون، حقاً، عبئاً ثقيلاً، أيها الأخ الراهب، فليحفظكم الله بعنايته».

ثم أشار للعربة لتمضي باتجاه المدينة.

بقي بوسطن جالساً وسط السلال بكل هدوء، «لقد عدت للكذب ثانية»، قال للراهب أخيراً.

أخذ الراهب مكانه على مقعد الحوذي، إلا أنه بدا حزيناً، «فور أن يتاح لي الوقت، سأترجى السيدة العذراء أن تغفر لي» غمغم الراهب، ثم تابع كلامه:

«يا لهذه الساعات العصيبة، التي يكون فيها المرء مجبراً على أن يختار بين مختلف المعاصي، إن كان المرء يرغب في مرضاة الله؟».

-38-

من القصر ذهبت إيزابيلا عبر ساحة التدريب[1] صاعدة إلى القصبة، كان الصباح مضيئاً وساطعاً كما شأن كل الصباحات الأخرى في الآونة الأخيرة. ألا تستطيع الشمس أن تنير عقلها؟ «فما يجري يزيد كثيراً على ما تتحمله طاقتي، إنه كثير جداً»، فكرت في نفسها. مثل اتخاذ كل هذه القرارات المريعة. لقد ظننت أننا عندما نحرر هذه المملكة من سلطة المغاربيين، سيكون كل شيء على ما يرام، ولكن، لا شيء على ما يرام، والآن يتعلق الأمر باليهود، ودائماً هذا العبء الذي عليّ حمله على أكتافي، وإلى جانب ذلك زوج، لا يمد لي يد المساعدة، ولا يصلح لشيء، لأنه مستمتع بمحظياته الصغيرات. ألم يتنبأ لي تالافيرا بهذا منذ وقت بعيد؟ إن العبء الأعظم للملكة هو شعورها بوحدتها، ومع فرديناند، تأملت بالإفلات من تلك الوحدة، ولكن ها هي السنون تمضي ويتوالى الحال نفسه.

زمّت شفتيها، حسم هذه الخطوة لا بد من إنهائها اليوم، لقد انتظرت استثنائياً حتى ما قبل الظهر، ففي الصباح الباكر يمكن الادعاء أمامها بأن صفاء السماء فوق ريآلييخو لا يعني شيئاً، ولكن ليس في هذه الساعة من النهار؟ كان اليوم هو السبت، وعلى مواقد مطابخ المسيحيين والمغاربيين كافة وضعت قدور الطبخ استعداداً لوجبة الغداء، ففي هذا الوقت من اليوم

(1) المقصود هنا ساحة تدريب الجنود، (المترجم).

عليها أن تحسم قناعتها، وطالما كانت تجد صعوبة في اتخاذ هذا القرار.

«صاحبة الجلالة!»، ناداها سانتآنخيل وانحنى لها انحناءة عميقة، وكان قد دخل من بوابة الكرمة، قادماً منها إلى الساحة، من دون أن يحدث صوتاً يسمع. «لقد بعثتم برسول إلي؟».

لماذا اختارته، هو بالذات، هو، *الكونفرسو* اليهودي *المتنصر*؟

ولكن من غيره؟ فلو طلبت من تالافيرا الصعود معي إلى البرج، فأنا أعرف ما الذي كان سيقوله: ***لا قيمة لهذا، يا ابنتي. انزلي يا طفلتي إلى تحت، وانسي ما شاهدته، فالاب القدير في السماء هو الذي يأخذ المسألة على عاتقه، وهو سيعطيك إشارة، من هو الذي يستحق أن توقعي به الموت. فحتى ذلك الحين اتكلي على الله فقط وانزلي الآن من هذا البرج.***

وبعدئذٍ؟ فكرت إيزابيلا بمرارة، أعود إلى مرقدي وأتقلب فيه، وأسأل نفسي ليلة بعد أخرى: أكان من واجبي أن أقوم بما طلبه مني توركيمادا، وهل كان من الأجدى لتلك النفوس البائسة غير النادمة، أن يتم تطهيرها بالنار، وأن مسؤوليتي، هي أن أصدر الأمر بذلك، وتالافيرا لن يستطيع معاونتي في هذه الحالة، إن تالافيرا يقدر الأمور بخفة، وهو يعارض كل ما يقوله كبير المفتشين، وهذه المعارضة المناكفة تربكني أنا فقط.

فلماذا إذن ليس توركيمادا؟ ولماذا لا يصعد معي كبير المفتشين مرة أخرى إلى البرج؟

لأنني أعلم جوابه مسبقاً، كما هو الحال مع تالافيرا، وهو يريد أن يرى الجميع يحرقون، أما أنا فأقف بين الاثنين وعليّ اتخاذ القرار، ساعديني أيتها السيدة العذراء، ساعديني، كيف يمكنني أن أعلم، ما يرضي الله، إن كان خدام كنيسته يطلبون مني أمرين متناقضين؟

ولهذا كان سانتآنخيل؟ فما هي النصيحة التي يستطيع سانتآنخيل تقديمها؟

«ليس مطلوباً منه تقديم النصيحة»، فكرت إيزابيلا في نفسها. أريد فقط رؤية وميض عينيه هناك في الأعلى من على البرج، عندما لا يخرج الدخان من فوق *الخوديريا*. لقد ترك اليهودية منذ زمن بعيد، ولا يوجد ورع ومخلص للكنيسة مثله، فإن كنت مع واحد من اليهود *الكونفرسو*، نراقب معاً في يوم السبت منطقة رياليخو، فسأستوثق منه، وسأعلم ذلك من وجهه، وسأعرف عندئذ ما ينبغي عليّ فعله.

«سنصعد معاً إلى برج فيلا تورم سنيور سانتآنخيل»، قالت له الملكة، «ستساعدني في الإجابة عن سؤال صعب».

انحنى لها سانتآنخيل مرة ثانية قليلاً، هو يعلم بماذا يتعلق الأمر، فكرت إيزابيلا في نفسها، بل يمكن القول إن الصعود إلى البرج كان أمراً عديم الجدوى، إنني أرى منذ الآن من وميض عينيه، ما ينتظرنا هناك.

«لقد سبق أن كنت أنا في الأعلى هناك قبل أسبوع، سنيور»، قالت إيزابيلا»، وكان هذا مع كبير المفتشين، وقد رغب أن يبرهن لي بأن *الكونفرسو* من اليهود *المتنصرين* السابقين من سكان غرناطة لم يأخذوا معتقدهم الجديد على محمل الجد، وبأنهم ما زالوا *مارانوس*، أي إنهم ما زالوا يهوداً، سنيور سانتآنخيل، وما زالوا يحتفلون بيوم السبت، وأنه لا دخان فوق أسطحتهم في المساء الذي يسبق السبت!»، وأمعنت النظر بعد ذلك بحدة في عيني سانتآنخيل.

«لا أعلم، إن كان عليّ أن أقرأ إهانة لي في كلماتكم، صاحبة الجلالة!»، قال لها، «أنتم لا ترغبون القول، إنني».

أومأت الملكة بالسلب، «لا بالتأكيد، سنيور سانتآنخيل! بالتأكيد لا!»، قالت له، «أنتم بخدمة بلاط زوجي منذ سنوات بعيدة، وقد كانت نصائحكم لنا حكيمة دائماً! كما أنه ليس من أحد يرنم بحماسة في قداديس الكنيسة مثلكم».

انتظر سانتآنخيل، «ولكن كل أولئك الآخرين، الذين كانوا يعتنقون عقائد آبائكم مع قدومنا إلى غرناطة منذ أقل من مدة أربعة أقمار؟»، قالت الملكة، «كانوا قد تخلوا عن عقيدتهم اليهودية السابقة بسرعة فائقة، سنيور سانتآنخيل! وطبقاً لتنفيذ ما يشترطه قانوني المتعلق بوضعية اليهود، أستطيع إذن أن أثق بهم، فإن هم تقيدوا فعلاً بكل تعاليمنا الكاثوليكية المقدسة، فستكون أرواحهم مصانة؟ وإلا فإنهم يكونون قد رغبوا باختيار مصيرهم المحزن، وسيكون عليهم ترك البلاد من دون اصطحاب أي من مقتنياتهم؟».

«لقد تركتم لهم أحد هذين الاحتمالين فقط، صاحبة الجلالة!»، قال لها سانتآنخيل بحدة، «فلماذا تسخطون عليهم الآن، إن كانوا قد تحولوا إلى عقيدتنا الصحيحة الوحيدة، فقط من أجل تحاشي مصير الترحيل؟».

هزت الملكة رأسها متبرمة «أنا لا أسخط!»، قالت له «فأنا لست مثل رئيس الأساقفة تالافيرا، فبالنسبة إليه المعمودية التي يختارها المرء بإرادته الحرة كافية لمرضاة الله! أما بالنسبة إلي فعلى اليهودي أن يتعمد، وأن يذهب لقداس الكنيسة، ويذهب للاعتراف، وأن يعمل بمقتضى ابتهالات كنيستنا الكاثوليكية المقدسة! وإن أراد الله، فكل ما سوى ذلك هو إضافة، ولكن برغم ذلك، سنيور سانتآنخيل!»، وتوقفت عن متابعة كلامها لبرهة، ونظرت إليه في هذه اللحظة، وكأنها اكتشفت فيما وراء جبينه البقية الأخيرة من يهوديته، ثم تابعت كلامها: «لكن ليس عندما يواصل اليهودي ترديد

ابتهالاته الكنسية والتمسك بطقوسه اليهودية في الوقت ذاته! كالتي تقول: قدّس يوم السبت، ولا تشعل فيه ناراً في موقدك».

بقي سانتآنخيل صامتاً.

ومن الجهة الثانية أقبلت يوهانّا قادمة من القصر، كانت تبدو حالمة، وقد ضغطت بإحدى يديها على صدرها.

ما الذي تقوم بفعله هناك؟ ما الذي تخبئه في صدرها؟، فكرت إيزابيلا مبهوتة، هل يمكن أن يكون ما تخبئه هو منمنمة لصورة الهابسبورغي، مثلما فعلت أنا بمنمنمة فرديناند؟ وهل يمكن أن يكون، ذلك الفتى المشؤوم، المتحالف مع الشيطان، والذي انتهى أخيراً لأن يكون موضع إثارة للشفقة، هو الذي وضعته أمام ناظريها، وما هو حظ الأمير فيليب، وما يعنيه بالنسبة إليها؟ وهل من الممكن أن تحلم به فجأة، وأن تضغط على صورته الصغيرة فوق صدرها؟ وهل يمكن أن يكون هناك أمل في أن يتنصر هذا الطفل المتمرد؟

تنفست بعمق ، «يوهانّا!»، نادتها الملكة.

جفلت يوهانّا، وكما لو أنها تفاجأت، سحبت يدها عن صدرها.

ضحكت الملكة، إنها الحقيقة، فكرت الملكة في نفسها، إن الأمر حقيقي. لقد خبأتها هناك ولا تريدني أن أعلم، وإلا ماذا تعني هذه النظرة الحالمة في عينيها! إنها لا تريد رفض الهابسبورغي، هذا أمر أصبحت الآن متأكدة منه، فالله صنع كل شيء على نحوه الممتاز.

«اصعدي معنا إلى برج فيلاتورم، يوهانّا»، قالت إيزابيلا ومسدت ذراع ابنتها بنعومة، فأجفلت يوهانا، «قد تصبحين في يوم ما ملكة، سيكون عليك اتخاذ قرارات، كما هو شأني الآن، وسيكون الأمر جيداً إن أنت أصبحت

تلمين بما يمكن أن ينتظرك في المقبل من الأيام، بوقت مبكر».

بشفاه مغلقة أحنت يوهانّا رأسها، ولكنها لم تعارض.

وخلال الصعود، صمت الثلاثة معاً، وقد سارت يوهانّا في مقدمتهم.

«والآن»، قالت إيزابيلا وهي تنظر بعناء إلى عيني سانتآنخيل.

فعندما صعدت مع توركيمادا إلى الأعلى ووقفا على المصطبة هناك، كان الوقت المساء الذي يسبق السبت آنذاك، فماذا يعني أن لا يخرج الدخان مساء من المداخن؟ لقد أبقاها هذا أسبوعاً كاملاً تفكر بهذه المسألة، فأذعنت حينها بسرعة شديدة لما طلبه كبير المفتشين، فماذا يعني، حتى إن بقيت المواقد في رياليخو باردة في عشية يوم السبت؟ ألا يمكن أن يطبخ الكونفرسوس في يوم السبت نفسه، كي يبرهنوا على الأقل أمام أنفسهم، وكإثبات قاطع، بإيمانهم النهائي بالدين الذي اعتنقوه؟

وهذا ما جعلها تهدأ خلال كل الأسبوع المنقضي، «إن غياب الدخان من فوق الأسطح عشية اليوم الذي يسبق السبت لا يمكن أن يكون إثباتاً وحده، حتى إن أصرّ توركيمادا على هذه المسألة»، ثم داست على المتراس. جميع المنازل في المدينة، كان يتصاعد منها الدخان من فوق الأسطح.

وفقط، فوق رياليخو، كانت السماء بالغة الزرقة، مثل معطف السيدة العذراء.

«والآن، ما قولك، سنيور سانتآنخيل؟».

بقي سانتآنخيل صامتاً.

«لم توقد أية نار في رياليخو»، همست إيزابيلا، وداخلها إحساس، كاد يكون جارحاً، بأنها كانت قد تأملت لأقصى الحدود، أن يكون الأمر على غير ما رأته، فهناك لم تشعل النار بأي موقد، مع أن كل واحد في غرناطة

كان ينتظر وجبة الغذاء. هل ترون دخاناً، سنيور سانتآنخيل؟ هل ترون أي دخان؟

كانت قد علت وجه سانتآنخيل مسحة متكدرة، مع أنه كان يسيطر على نفسه في العادة، وبدأ يهزّ برأسه بهدوء.

«وكيف يمكننا أن نفسر هذا، سنيور سانتآنخيل؟»سألت إيزابيلا، سيسعد فرديناند بهذا كثيراً، وكانت هي دائماً تخشى أن يكون كل همه لا يتعلق بالنفوس، بل بالذهب، وهو ما سينال منه الكثير. «ساعدني، سنيور! كيف يمكننا أن نفسر هذا؟».

صمت سانتآنخيل.

انحنت يوهانّا في هذه اللحظة وهي تفتح ذراعيها بعيداً عن صدرها من على تراس البرج، «إنني أطير!»، صاحت «إنني أطير!».

ظلت منتظرة للحظة، ولكن لم تكن آمّي موجودة لتصرخ، ثم استدارت نحو أمها وقالت: «إنني لا أفهم ما الذي تستغربونه، أليس معروفاً في كل مكان أنَّ اليهود يذبحون لعشاء يوم السبت الأطفال المسيحيين ليشربوا دمهم؟ ألم تسمعوا هذه الحكاية لدى؟»ثم ضحكت.

«فماذا سيطهون إذن في *الخوديريا*؟ فالدم المسيحي الطازج هو دم ساخن!»، ثم تابعت ضحكها هذه المرة إلى الحد الذي أصيبت فيه بالارتعاش.

«يوهانّا»، نادتها الملكة، ونظرت إلى سانتآنخيل نظرة مناشدة ورجاء، صمت سانتآنخيل.

-39-

ليس بعيداً عن مدخل بوابة السور أوقف الراهب عربته.

«الآن أصبحنا في غرناطة، أيها الفتى»، قال لبوسطن، «ولا أعلم لماذا رغبت بأن تأتي إلى هنا، إذ لا يوجد أي مكان آخر، كما يبدو لي، خطره عليك أكثر من وجودك هنا».

ولوهلة غير قصيرة راودت بوسطن رغبة شديدة بأن يخبر الراهب بكل شيء؛ فقد عانى صعوبة كبيرة في أن يبقى صامتاً على حقيقة لم تفارقه لحظة واحدة، ومن ثم، ألم يكن الراهب نفسه لديه قليل من الجنون؟ أليس من المحتمل في هذه الحالة أن يصدقه؟

إلا أن الحذر هو الذي تغلب في النهاية، «شكراً جزيلاً!» قال له بوسطن هامساً، «وشكراً لأنك لم».

«ربما تود أيضاً مرافقتي في الصعود إلى الحمراء؟» سأله الراهب «أم أن نهاية هدفك تنتهي هنا في المدينة؟».

أومأ بوسطن برأسه، «إلى الحمراء!»، ردّ على الراهب.

تحركت العربة، فالزنزانة هي في الحمراء، وربما يعثر هناك على تلك البلاطة الملعونة، التي قد تفيده الآن، ولكن، الملكة أيضاً موجودة فوق، في الحمراء، وإن وجدت إمكانية ما في أن ينطلق كولومبوس برحلته، فسيتقرر ذلك أيضاً فوق، في القلعة.

«بررر»، نادى الراهب على بغله، وعند المدخل الهابط للصعود إلى جبل القلعة كان قد تحدث إلى الحرس؛ إلا أن المحادثة لم تكن طويلة على غرار ما كانت عند بوابة المدينة.

«إن كذبي أصبح يتكوم ليصبح جبلاً، ارتفاعه مثل ارتفاع جبال أرارات!»، غمغم الراهب في نفسه، «آه، كم أتوق للخلاص بعد الاعتراف!».

أويمكنني العودة مع الراهب إلى ديره؟ سيستقبلونني هناك بالتأكيد، ما دامت حلاقة رأسي تتم في وقتها، فأين يمكنني أن أجد حماية لروحي من محكمة التفتيش، في مكان أفضل من أن أكون مباشرة تحت أنظارهم؟ وقد يتم نسيان مسألة التحالف مع الشيطان مع مضي السنين، وهناك يمكنني تعلم صناعة الجبن، وتلاوة الصلوات من الفجر حتى المساء، لا ينبغي لي أن أخشى شيئاً بعد الآن.

لقد اقتربا الآن من *المدينة*، حيث الأصوات والضحك، وضوضاء الحياة اليومية هناك.

وأمريكا؟ لقد نسيت أمريكا!

لن يتم اكتشاف أمريكا، فإن بقيت في الدير، فسيكون الأمر سيان بالنسبة إلي، ولماذا علي الاعتقاد بأنه سيتم اكتشافها، إن كنت أجازف الآن بالذهاب إلى الملكة؟ أما في الدير فسأكون آمناً حتى آخر حياتي إلى أن تكون إغفاءتي الأخيرة بسلام، مشيعاً بترانيم أخوة الدير، حيث لا تعذيب ولا محرقة.

وقفت العربة أمام مطبخ في المدينة، «ماذا بك يا صبي؟»، سأل الراهب. «ألا تفكر بمساعدتي في تنزيل الجبن من العربة ونقله؟».

أومأ بوسطن برأسه، وماذا عن طارق؟ وماذا عن سالومون؟

ثم حمل سلة من جبن الغنم، وجبن الماعز، أو الجبن الطازج أو ذلك

المخمر بداخل شراشف قماشية، في يوم ما، سيستريح الراهب من رحلة القدوم إلى القلعة؛ وحتى ذلك الحين، سيمضي بوسطن وقته في البحث عن صديقيه، مع أنه يعلم بأن ذلك أمل واهن، فكيف له إذن أن يحررهما؟

فإن لم يتم اكتشاف أمره، فسيعود برفقة الراهب إلى الدير، لقد اتخذ الآن قراره، وفور الانتهاء من تنزيل الجبن وخزنه في المطبخ، سيقول للراهب ذلك، إذ لا يمكنه أن يظل منتظراً إلى الأبد إمكانية عودته إلى حياته السابقة. وطارق وسالومون فقط هما اللذان يبقيان على وجوده هنا، فكيف يمكنه أن يبقى متصالحاً مع ضميره، إن كان هو الذي تسبب بمعاناتهما الراهنة ووقوعهما في يدي رجال محكمة التفتيش؟

عندما نفقد الأمل، سينالنا ما كنا قد خشيناه، هذا أكيد!

حمل السلة بذراعيه الاثنين، كان محتواها ثقيلاً، وضغط على نفسه بقوة، كي يمنع الدموع التي كانت على وشك أن تنفر من عينيه، لقد اختلط لديه اليأس والراحة معاً بطريقة غريبة؛ أما في الدير فسيعيش على الأقل هذه الحياة الغريبة في هذا الزمن من دون أن يشعر بالخوف.

وماذا عن طارق وسالومون؟

في هذه اللحظة سمعها تناديه.

«فيليب»، ناداه الصوت، لم يكن النداء مرتفعاً، بل فقط للدرجة التي اقشعر معها بدنه لهول المفاجأة، وتابع الصوت: «أو أي اسم تشاؤه، حليف الشيطان! دع السلة في مكانها وتعال إلى هنا! وإلا طلبت لك الحرس!».

كانت يوهانّا آخر من نزل على درج البرج، إذن لم يكن هناك وجود للدخان فوق *الخوديريا*، فلماذا اهتاجت أمها لهذه الدرجة؟ ما هو ذنبها، إن تعند اليهود ولم يكونوا راغبين في التنصير؟ ومن هو الذي يتوقع من الملكة،

أن تنقذ كل نفس، حتى إن كانت هذه النفس بذاتها لا تريد من أحد أن ينقذها؟ فلتُصَلِّ مسبحة وردية أكثر أو حتى عشراً، وسيغفر لها الله هذه الخطيئة، إن كانت تعتبر خطيئة حقاً، ولتتركهم يعانون نار جهنم، بدل أن تقدمهم للمحرقة كي تتطهر نفوسهم فيها قبل إرسالهم من هناك إلى الجنة. كل يوم يتكرر الأمر نفسه، لقد أصبح الحال مملاً، مملاً.

وحتى تلك الوسادة نفسها التي في صدرها، لم يتم حلّ لغزها، وهي الآن على وشك أن تتمنى أن تكون هذه الوسادة أيضاً مما يخص الشيطان حقيقة، فكم سيكون الأمر مثيراً بحق في هذه الحالة.

خرجت عبر البوابة إلى الخارج باتجاه المدينة حيث يقوم العاملون هناك بخدمات القصر، كان البستانيون منشغلين في مساكب الورود، وشبان المطبخ كانوا ينقلون الماء النقي من النبع وهم يصفرون خلال ذلك، فحتى الخدم أسعد منها.

كانت هناك عربة تمر قرب المطبخ، وهذه العربة كانت قد رأتها مراراً هنا من قبل، وربما كانت المرة الأخيرة التي شاهدتها فيها، هي ليلة اكتمال البدر السابقة. كانت رائحة الجبن تصل إلى السماء، وربما مثل ذلك أيضاً رائحة الراهب من أخوية الدير الذي يجلس على مقعد الحوذي؛ للراهب كرش مستدير، وهي لم تستوعب لماذا تنتقي أمها دائماً هؤلاء البشر مغاربيين أو يهوداً، من أولئك الذين يتمتعون بالرزانة والصبر، وينطوون على قدر بالغ من الطهارة والنقاء. كان كرش الراهب الكبير يهتز من تحت برنسه الرقيق مع كل حركة يقوم بها، وكان الأمر شائناً، أن يبدو رجل ورع بذلك المظهر، ألم تر أمها هذا؟

ثم توقفت في خطوها، البرنس، العمامة، لماذا يرتدي راهب برنساً

وعمامة؟ ثم ألقت نظرة سريعة على مرافقه، كان الراهب قد درج حتى الآن على الحضور إلى الحمراء بمفرده، إلا أن الآخر يرتدي على الأقل اللباس الكهنوتي، مثلما ينبغي لراهب في الدير، إنه صغير السن، وحليق الرأس، ويبدو بسحنة خشنة، وهو يشبه...

حبست يوهانّا أنفاسها، «فيليب»، نادته بصوت هامس، «أو أي اسم تشاؤه، حليف الشيطان! دع السلة في مكانها وتعال إلى هنا! وإلا طلبت لك الحرس!».

مع أنها لم تكن على تمام الثقة، فلو استدار الفتى بوجهه نحوها ونظر إليها مستغرباً، أو لو تجاهل أن تكون قد قصدته، وواصل القيام بعمله، لكانت أدركت أنها قد أخطأت، وأن الأمر لا يتعدى تشابهاً في المظهر فحسب.

إلا أنه لم يتردد، ففور سماعه لندائها بدأ يرتعش، أيرتعش حليف الشيطان؟ وهلعاً، وضع السلة على الأرض.

أعطته يوهانّا إشارة ليتبعها وسبقته إلى غرفة الغسيل، انحنت لها النسوة اللواتي يعملن هناك بقوة.

«إش، إش، إش!»، قالت يوهانّا وأشارت لهن كي يتركن صالة الغسيل. «يمكنكن الذهاب الآن!».

وبارتباك انهمكت واحدة من النساء على شرشف تقوم بتنظيفه بالفرشاة داخل إناء خشبي، إلا أن يوهانّا ضربت على يدها بالفرشاة.

«لقد قلت، لديكن وقت حتى يوم غد؟» نادت عليهن.

وعند الباب اصطدمت آخر امرأة بالراهب الصغير، أما يوهانّا فلم تصدق للحظة واحدة أنه قد يعترض على أوامرها، فلو كان على قدر من الذكاء، لكان أدرك أن لا إمكانية له في الإفلات والهرب من هنا مرة ثانية. وليس من

مساعدتها. ولكن هل يريد الهرب؟ ولماذا عاد إذن ثانية إلى هنا؟

أبقى الفتى رأسه منكساً نحو الأرض، كمن يرغب في إخفاء وجهه. كما كان الرداء الكهنوتي يتأرجح من حول جسده النحيل، ولم يعد من مبرر للشك بمن يكون، والآن ستعرف كل شيء.

«تحدث»، قالت له يوهانّا.

رفع الفتى رأسه ببطء للأعلى ناظراً إليها، وحاله لم يعد مثيراً للشفقة، على مثل ذلك القدر الذي كان عليه حاله قبل أسبوع، قد يعود ذلك ربما بسبب رأسه الحليق، أو قد يعود السبب ربما لما ترغب معرفته منه.

«ماذا تبغي بتسللك إلى الحمراء، بعد أن لم يكن لك همّ آخر أفضل من أن تتاح لك فرصة الفرار من هنا؟ أريد أن تحدثني عن كل شيء، يا حليف الشيطان!».

أخيراً حدث أمر مثير لافت.

-40-

تردد بوسطن قليلاً، قبل أن يلحق بالأميرة لداخل البناء، لقد عرفته، فكيف يمكنه الإفلات منها؟

كانت النسوة قد خرجن بمواجهته عند دخوله، كنَّ خليطاً، فمنهنَّ من كنَّ كبيرات في السن ومنهنَّ من كنَّ شابات، ولكنهن كنَّ جميعاً في حالة من الهياج، وعدم الرضا، ناظرات خلفهن؛ وقد تدلت من تحت مناديل رؤوسهن خصلات من شعرهن الرطب؛ كما كانت فساتينهن ومحازمهن مبللة من العنق حتى القدم، وتعجب من نفسه كيف أنه لاحظ كل تلك الأمور العابرة.

كان الجو في الغرفة حاراً؛ آنية خشبية يتصاعد منها البخار، تم نقع الغسيل فيها، كما كان الهواء رطباً ودبقاً، وعلى الأرض كان قد ألقي دلو لرفع الماء من البئر؛ في الوقت الذي كانت ما زالت تتوهج فيه نار الموقد الحجري، ومن فوقه مرجل نحاسي هائل يغلي الماء بداخله.

«تحدث»، قالت له الأميرة.

رفع بوسطن رأسه، فقبل أسبوع فحسب كانت هي قد ساعدته على الهرب.

«ماذا تفعل بتسللك إلى القلعة متنكراً، بعد أن كنت قبل بضعة أيام، لا تريد شيئاً سوى أن تجد مهرباً من هنا؟ أريدك أن تقرّ بكل شيء، يا حليف

الشيطان!».

كنت أريد أن أصبح راهباً، فكر بوسطن في نفسه وهو في حالة من الإرهاق، ولقد مررت بأحداث جمة في الأيام الأخيرة، بحيث لم يعد لي بعدها أي مكان للخوف، استند إلى الجدار، وقد اكتسب وجه الأميرة نعومة من خلف حجاب البخار المسدل في الهواء.

«لماذا تركتِني أهرب في المرة الأخيرة؟»، سألها بوسطن.

زفرت الأميرة من أنفها بغضب واضح، «ألم أطرح *أنا* السؤال عليك *أنت*؟» صرخت به، «أريد أن أعرف، من تكون، حليف الشيطان!».

أومأ بوسطن برأسه، يمكنها أن تكون جميلة، فكر في نفسه، لو لم تكن قليلة الصبر على هذا النحو الذي هي فيه، ولو أنها لا تفور غاضبة بمثل هذه السرعة، أو لو أنها كانت على غير ما تبدو عليه من عدم الشعور بالسعادة. وكأن عدم الرضا ونفاد الصبر سبق تسجيلهما على ملامحها بصفة دائمة. لقد تعجب هو نفسه من أفكاره، ولكن من الأفضل له أن يقرر، ما ينبغي أن يقوله لها.

انحنى بوسطن لها وقد شبك أصابع يديه الاثنتين بعضهما ببعض، «لقد جئت إلى غرناطة آنذاك من أجل – أن أصبح راهباً!»، قال على نحو حاسم، «وعندما أمسكتم بي في *الفندق*، كنت في طريقي إلى... لقد أردت الذهاب إلى الدير، ولكن عندما ظننتم».

«هراء، اصمت!»، قالت له الأميرة، كانت عيناها تقدحان شرراً من الغضب، «تستطيع قول هذا لوالدتي المتدينة، وحتى هي الأخرى لن تصدقك! لقد وجدنا أدواتك!».

«أدوات؟»سأل بوسطن، لم يكن هناك جدوى من النكران.

«البيضة!»، قالت الأميرة. «والوسادة الجلدية بحافتها المسننة! والكتاب الغريب، الذي يحوي كلاماً عن غرناطة، وعن والدتي، وحتى عن بوعبديل! فسّر لي معنى وجود مثل هذه الأدوات، إن لم تكن حليفاً للشيطان بحق!».

«لا أعلم، عن أي... »، قال بوسطن، إلا أن الأميرة أصبحت أكثر غضباً في هذه الأثناء، وقد وهن صبرها.

«يمكنني مناداة الحرس!» نفخت صارخة، «فكّر جيداً بما تريد قوله، يا حليف الشيطان!».

أومأ بوسطن برأسه، «ولكنكِ لن تصدقيني»، قال لها، «إذا كنت لم تشائي تصديقي عندما قلت إنني رغبت أن أصبح راهباً»، قال ذلك وبدا عليه أنه يبحث عن شيء من حوله، فعند الجدار تحت النافذة، ومن خلال البخار المندفع للخارج، كانت توجد دكة بالية لامعة، تضع عليها النساء العاملات في الغسيل، سلال غسيلهن، تناول السلة الأولى من فوقها ووضعها على الأرض، ومن ثم الثانية، ثم جلس وأخذ ينظر للأميرة بتحدٍّ، «إنها حكاية طويلة»، قال لها.

لقد راقب كيف يتصارع لديها كل من الفضول والسخط، إلا أن الفضول انتصر لديها في النهاية.

«لم آتِ من بلادكم»، قال لها بوسطن بحذر، إلا أن الأميرة لم تقاطعه. ربما، كما ظن بوسطن لأنها بوغتت، وربما قد يرضيها إن هو حكى لها الحقيقة. وفي النهاية لم يبقَ له خيار سوى أن يحدثها في المحصلة عن موضوع هاتفه المحمول وكيس الظهر؟ وأن يبرهن لها على أن الشيطان ليس هو من أعطاه تلك الأدوات؟ ثم قال لها بعد هذا التفكير مع نفسه: «وأنا، لست قادماً حتى من زمانكم أيضاً!».

أخذت الأميرة بالارتعاش، ولكنها ظلت محافظة على صمتها، وكان واضحاً أنَّ الحقيقة التي لا تصدق لم تغضبها كما أغضبها كذبه قبل ذلك. ربما تجد فعلاً مصداقية في ما سيقوله، إنه أمر مثير على أي حال، وهو لم يعد لديه خيار.

«إن الزمن الذي أنتمي إليه، يعود إلى أكثر من خمس مئة سنة قادمة»، قال بوسطن، وبحث عن رد فعل ذلك في عينيها، «أعلم أن هذا وقعه مثل من يتحدث عن أسطورة، ولكن هذه هي الحقيقة».

ثم انتظر، إلا أن الأميرة ظلت صامتة، وقد لاحظ بوسطن، أن رسغ يدها التي كانت تمسك بها الدكة، أصبحت بيضاء بسبب استثارتها المفرطة، «أنا نفسي لا أعلم بالدقة كيف جئت، فجأة أصبحت هنا؛ وأما كيف سأعود، فمعرفتي بذلك أقل من معرفتي بكيفية مجيئي».

«والأدوات؟»، سألته الأميرة، وصوتها الذي من المفترض أن يكون متوعداً، كانت رنته مشدودة فقط، «عليك توضيح ما تعنيه تلك الأدوات».

«إن الكتاب هو كتاب»، قال بوسطن، «هو بكل بساطة، كتاب، إن الأشياء تبدو لدينا في زمننا على نحو مختلف، وهذا ما يمكنك أن تتصوريه، لقد تم اختراع الكثير خلال خمس مئة سنة، الكثير مما تم اختراعه وما تم اكتشافه أيضاً، «أمريكا»، فكر في نفسه، «فإن وصلت مع الأميرة إلى الحد الذي تستطيع معه تصديقي: ألن يكون بإمكانها ربما أن تقنع والدتها، أنّهُ لا بد من أن يبحر كولومبوس؟» وما سميته أنت بالبيضة، هي في الحقيقة أداة يستطيع المرء أن يتحدث بها إلى ناس آخرين موجودين في أماكن أخرى؛ والجيب الجلدي».

«فيليب»، قالت له الأميرة، «يوجد ضوء! إن البيضة هي ضوء!»

«نعم، بالطبع، هذا أيضاً!»، أجاب بوسطن بسرعة كي لا تحنق ثانية، «ولكن هي في الحقيقة».

«وكيف تستطيع أن تبرهن على كل ذلك؟»، سألته يوهانّا، كيف تبرهن على أنك قادم من المستقبل، وأنك لست أداة الشيطان؟ كيف تستطيع أن تثبت ذلك؟».

صمت بوسطن.

«خمس مئة سنة!»، قالت يوهانّا، «سأكون عندها ميتة!».

أومأ بوسطن برأسه، ولاحظ بوسطن، أنها لم تعد ربما غاضبة كما كانت في البداية، ربما تكون حانقة قليلاً، وهي على الأرجح قد تكون مرتابة، ولكنها ليست في كل الأحوال غاضبة كما كانت في البداية، عندما رغبت أن أمثل أمامها بأنني كنت أريد أن أصبح راهباً، إنها تصدق الحقيقة أكثر، وهذا هو الجنون؛ لأن الحقيقة في هذه الحالة هي الأكثر جنوناً.

ثم تذكر فجأة أمراً يمكن أن تساعده يوهانّا فيه، بالطبع! إنها أميرة، فإن استطاع إقناعها...

أولاً أمريكا، وثانياً طارق وسالومون، «ولذلك، هل تفهمين»، قال لها بإلحاح، محاولاً النظر في عينيها، «لأنني قادم من المستقبل: لذلك فأنا أعلم أشياء كثيرة عن زمانكم! فأنا أعلم، ما سيحدث في الخمس مئة سنة القادمة! وأعلم أيضاً – هل تسمعينني جيداً؟».

أدارت يوهانّا رأسها لتهرب من نظرته إليها، إنها تفكر، إن كانت تريد أن تصدقني، قال بوسطن في نفسه، وهي تفكر ما إن كنت شريكاً

للشيطان، «هل تسمعينني؟».

أومأت الأميرة بالإيجاب، «تابع كلامك»، قالت له بنبرة غير ودودة.

«ولهذا فأنا أعلم أيضاً»، قال بوسطن، وهو يحاول، أن يتابع كلامه وإنما مع إعطائه نبرة هادئة، «أنا أعلم أنَّ والدتك على وشك ارتكاب خطيئة شنيعة!».

«وتجرؤ على الادعاء بأن الملكة، ترتكب خطأً، يا ولد؟»، صرخت يوهانا.

أومأ بوسطن بإشارة من يده مؤداها، دعك من هذا الكلام الآن، ثم تابع: «عليها أن تدع الجنوي يقلع في رحلته البحرية!»، قال لها، «كولون! هو من سيكتشف لكم أمريكا، هل تفهمين؟ وستصبح إسبانيا جراء ذلك غنية بدرجة غير متناهية!».

«إن الذهب، لا يساوي لأمي شيئاً»، قالت الأميرة، أما بوسطن، فكان يراقب ردّ فعل تصديقها له. «إن أمي مستعدة للذهاب إلى أقصى الحدود، إن تعلق الأمر بخلاص النفوس، فضلاً عن ذلك فإن كولون يرغب في الذهاب إلى الهند، أما عن أمريكا»، ثم نظرت إليه ببعض الشك، «فهذه لم أسمع باسمها أبداً».

«بالطبع لا»، قال لها بوسطن، «فهي لم تُكتشف بعد! إنها قارة كاملة بحالها، وأنتم لا تعلمون شيئاً عنها الآن! ولكنها موجودة، يوهانّا، صدقيني أقول لك! توجد أمريكا، وستجعل من إسبانيا بلداً غنياً!».

نهضت يوهانّا واقفة «أنت تقول لي إنَّكَ قادم من المستقبل، وإنَّ قارة سيتم اكتشافها، لم نسمع بها! وأنت تحدثني بكلمات أخرى عن أشياء لا يمكن لمسيحي أن يصدقها، ولكن أين هو برهانك على ذلك؟».

انكمش بوسطن على نفسه، ولوهلة ما تملكه شعور بأن الأميرة، حتى وإن كانت لم تصدقه تماماً، فإنها ترغب حقاً في أن تصدقه، إلا أنه لا يملك البرهان الذي يقدمه لها.

«ولكن في محاولة لجعل الأمر ممكناً! ألا تجدين من الأسهل لك أن تصدقي ما قلته، بدل أن تعتقدي بمسألة علاقتي بالشيطان؟».

ببطء شديد جداً أخذت يوهانّا تهزّ برأسها، «أنا لا أعلم ما ينبغي عليّ تصديقه؟»، غمغمت بكلامها من دون أن تدعه يغرب عن عينيها، وتحركت يدها بتردد صوب فتحة صدرها، ولكن ظلت عيناها تغوران في عينيه، كما لو أنها كانت تحاول سحره، «وهذه؟ ما هذه؟».

وبتردد أعادت يدها من خارج فتحة صدرها ومدتها نحوه بحركة متوعدة، أما ما كان بداخل يدها، فلا يعدو أن يكون قليلاً من الكاتشاب وضع بداخل عبوة في كيس صغير يقدم عادة مع شريحة الهامبرغر، سرعان ما تعرف عليها بوسطن للحال.

«هذه؟»، سأل بوسطن بذهول، وشعر بأنه على وشك الضحك، كان التوقع الذي انتظره بالغاً، فتحسب لكل الاحتمالات؛ والآن، كانت النتيجة بهذه البساطة؛ لا أكثر من عبوة صغيرة من الكاتشاب. «هذه»، والآن لم يعد يستطيع كبح نفسه عن الضحك، «هذه لا تعدو كونها عبوة صغيرة من الكاتشاب!».

بدت الأميرة غاضبة؛ وتبين له كيف يتبدل مزاجها بسرعة دائماً، لقد جذبت يدها مع الكيس الصغير وقربتها من عينيها، «كات – ماذا؟»، سألته. لا يمكنها أن تظن أنه يحسبها بلهاء؛ إنه يحتاج إليها، إنه يحتاج إليها.

«كاتشاب!»، قال لها بوسطن، «إنه بكل بساطة كاتشاب! وربما أنتم لا تعرفونه أيضاً حتى الآن، يصنعه المرء من الطماطم»، وإلى أن لاحظ وجه يوهانّا المغرق في الحيرة، تذكر أنَّها لا تعرف أيضاً ما تعنيه الطماطم؛ فالطماطم كانت تنمو في أمريكا؛ وأمريكا لم يتم اكتشافها بعد.

«لقد جاءت الطماطم من أمريكا!» قال لها بوسطن، «تصوري، يوهانّا! كل هذا الذي حدثتك عنه! عليكم ترك كولون يبحر!».

وبخطفة سريعة انتزع من يدها كيس الكاتشاب الصغير، إنه لزج ورطب قليلاً، «ومكان فتحها من هنا!».

حدّقت يوهانّا بيديه، لقد كانت خائفة حتى من أن تتراجع خطوة واحدة للخلف، وكأنها وجدت أن ما يرغب في أن يريها إياه، أمر في غاية الفظاعة.

«من هنا يتم فتحه!»، قال بوسطن، «هل ترين؟ هكذا». وبرأس أصبعيه أمسك بالحافة العليا للكيس الصغير؛ وفتحها عند الزاوية المثقبة المخصصة للفتح، وقد كان حذراً، فالكاتشاب يترك بقعاً شنيعة، وينبغي الحذر كي لا ينفر منبجساً للخارج، «هاكِ!»، قال بوسطن.

انحنت الأميرة للأمام قليلاً، في حين لم تحرك قدميها من مكانهما، ثم رفعت رأسها، وندّت عنها صرخة مكبوتة؛ لقد امتدت يد إلى فمها.

«بكل بساطة، إنه كاتشاب!»، قال لها بوسطن بهدوء، ضغط على عبوة الكاتشوب الصغيرة، ففار الكاتشوب على محيط الفتحة، وقدمها للأميرة، «تذوقيه قليلاً!».

فرآها وهي ترتعش، لقد كان ارتعاشها بالغاً إلى حد تمالكته هو أيضاً الخشية عليها، كانت عيناها محدقتين وقد جحظتا للأمام، «إنه مجرد

كاتشاب!» صاح بها بوسطن من جديد، ومن أجل أن يبرهن لها ذلك، ضغط على محتوى السائل اللزج فأخرجه من العبوة، وقال لها: «بل هو حتى لذيذ الطعم!».

في هذه اللحظة بدأت الأميرة بالصراخ.

-41-

إن أمراً مهماً واحداً كان على سانتآنخيل أن يقوم به الآن: العودة إلى المدينة للحال، وعليه أن يفكر بمعنى الزيارة التي تمت للبرج، فأخته ما زالت مقيمة في المدينة مع زوجها وأولادها، وهم لم يحسموا أمرهم بعد، في كيف سيقررون موقفهم من القانون المتعلق باليهود؛ وإن كان يدرك الآن أن الوقت قد تأخر لأي قرار.

أم أن عليه أن يقدم لهم النصح: تصرفوا كما فعلت أنا! اطلبوا تعميدكم!؟

إلا أنه وقبل قليل فقط، شاهد ما حصل له برغم ذلك؛ إذ لن يمكن أبداً إقناع كبير المفتشين بأن هؤلاء الناس صادقون في نيتهم، عندما يسجدون أمام الصليب، فمن المستحيل أن يدعهم توركيمادا بعيداً عن التجسس عليهم وملاحقتهم، فعلى الواحد من ***الكونفرسو*** في غرناطة، أن يتعلم كيف يعيش والمحرقة تقف دائماً أمام ناظريه.

وحتى استثناء الملكة له من شكها به، يمكن أن يتغير بسرعة؛ فهو ما زال بالنسبة إلى فرديناند مستشاراً مهماً، فما دام الأمر يتعلق بالذهب والغنى، فسيحتاج إليه الملك، ومن الأجدى له أن يبقيه حياً على أن يراه ميتاً.

هل عليه نصح أخته إذن بمغادرة البلاد؟ وأن تترك كل ما تملكه هنا، كما يأمر القانون، وأن تبحث عن إحدى السفن لترحل على ظهرها كما فعل

الآلاف غيرها؟ وهل تكون حياة آمنة في الغربة، حتى وإن كانت مع الفقر، أفضل لها من التهديد بالموت وهي في غرناطة؟

هذا إن وجدت حياة آمنة في الغربة، تذكر سانتآنخيل بقشعريرة ما جرى لإخوته في العقيدة خلال القرن الماضي في بلاد الفرنجة، وفي أوغسبورغ وريغنسبورغ ونورنبورغ وفي عديد من مثل هذه الأسماء الغريبة، وسقوط آلاف منهم موتى هناك. ومع ذلك، فقد حاول، بمساعدة المغاربيين، ومساعدة إسحاق، تسهيل هرب اليهود من غرناطة، وكان يمكنهم اصطحاب ممتلكاتهم معهم، فيهودي غني مرحب به حيثما كان، على غير حال ذلك الذي يطلب الإحسان والصدقة.

ولكن عندما يجتاح الموت الفظيع البلاد كما حصل قبل قرن من الزمان بدءاً من مصب الراين وحتى أقاصي بافاريا، مروراً بسهوب المجر وكل بلاد الهابسبورغيين؛ وعندما ينتشر الطاعون في مكان ما في أوروبا، فسيكون اليهود هم المسؤولون عن ذلك؛ لأنهم سمموا الآبار، هكذا كانت الأمور دائماً، فاليهود هم الذين يدنسون خبز قرابين الكنائس، ويشربون دماء أطفال المسيحيين، هكذا يدعون. والأكثر خطورة من ذلك، أن اليهود يتحملون المسؤولية في نظر المسيحيين إلى الأبد، وأينما ذهبنا، وحتى وإن نحن ذهبنا إلى هدفنا، فسيتم حرقنا في يوم ما.

فبماذا عليه إذن أن ينصح شقيقته؟ لا يمكنك أن تستمري بالبقاء هنا، ولا يمكنك أن ترحلي، حيثما كنتِ فأنت لا تستطيعين العيش؛ وليس في أي مكان آخر أيضاً.

جاء خادم متوجهاً نحوه إلى ساحة التدريب.

هل عليّ ترجي الملكة، كي تعيد النظر بالقانون المتعلق باليهود من جديد؟

فلو اعتقدت أن في ذلك فائدة لكنت فعلت ذلك منذ أمد بعيد، إن تدين الملكة، وهمة توركيمادا لن تفترا في عدم الكف عن ترك شعبي لا يهنأ في العيش بسلام، وفرديناند، الذي لا يعرف أحد عن أموره المالية مثلما أعرفه أنا، فرديناند، الذي لا يشغل باله سوى الأمل في المزيد من بريق الذهب، إلى جانب تفكيره في عشيقاته، فرديناند هو قبل أي واحد آخر لا يمكن أن يوافق أبداً على إعادة النظر بقانون اليهود، إنه ينتظر الثروة التي ستدرها عليه عملية التهجير هذه؛ فالحرب ضد المغاربيين كانت باهظة.

«سنيور، إن جلالتها تطلبكم للحضور إلى قاعة السفراء، فالموقر كبير المفتشين يرغب في بدء التحقيق مع حليف الشيطان».

جلست يوهانّا بجانب الصبي على الدكة، هل سيحاول أن يحكي لها قصة خيالية، وهل يحسبها بلهاء إلى هذا الحد؟ هل كان راهباً؟ كان عليها أن تضحك من هذا، فقد يكون أي شيء ما عدا أن يكون راهباً!

انتظرت، كانت حكايته غير قابلة للتصديق، بل كانت الأكثر في عدم قابليتها للتصديق من أي شيء آخر. قادم من المستقبل! فلا أحد يستطيع القدوم من المستقبل، تشنجت أصابعها وهي تقبض على الدكة، هل تمكن أحد من القدوم من المستقبل؟ كانت حكايته رائعة ولا يداخلها أي ملل.

«أين البرهان؟»، سألت يوهانّا، فلو لم يستطع البرهنة لها، فهل يمكن أن تمنحه تصديقها؟ وماذا لو أنه قص لها الحقيقة فعلاً؟ وماذا لو أنه جاء إليهم من زمن آخر، فيه أدوات كتلك التي قدمها كبير المفتشين بنشوة الظافر على أنها البرهان الذي يؤكد أنه شريك للشيطان، في حين أنها لا تعني أمراً مهماً؟ أو مثل تلك البيضة الصغيرة التي يمكن أن يتحدث بواسطتها الناس بعضهم مع بعض عندما يكونون في مناطق متباينة؟ وماذا لو كانت توجد قارة أخرى،

قارة بكاملها لم يتم اكتشافها بعد، تقع بين الساحل الإسباني وبلاد الهند، وهي قريبة، بحيث تتمكن بضع سفن من الوصول إليها خلال أسابيع؟

مدت يدها إلى فتحة صدرها، ينبغي أن يوضح لها ماذا تعنيه هذه أيضاً! فإن تمكن من أن يوضح لها ما تعنيه، فإنها ستصدقه، هذا الشيء المدهش، هذه الوسادة الغامضة. «وهذه؟ وماذا عن هذه؟».

لقد رأت أنه يريد أن يضحك، فكيف يتجاسر على الضحك من سرها؟

«إنها ليست أكثر من كاتشاب»، قال لها، وقد ضحك بالفعل.

شعرت يوهانّا بالغضب يغلي بداخلها، ماذا يظن نفسه، يروي حكايات لا يصدقها أحد، وهي حكايات يمكن للمرء أن يُحرق بسببها! ويضحك من ثم من سرها! «كات – ماذا؟» سألته.

تحدث عن أمريكا، وتحدث من جديد عن أمريكا، ولكن بكثير من الحماس، بل بكثير، بكثير جداً من الحماس الذي أبداه.

لقد مزق الوسادة، وسادتها.

ارتعبت يوهانا، لقد أرخت رقبتها من دون أن تقترب من الحافة، إلى حيث مزق الصبي الوسادة، فشعّ منها ما هو أحمر.

أطلقت صرخة مكتومة، كان يفور منها ما هو أحمر، إنه أحمر مثل الدم، فضربت بيدها على فمها.

«كاتشاب!» قال الصبي من جديد، ضغط على الوسادة، ففار الدم على الحواف، ثم لحس منه، وقدم الوسادة من ثم إليها «تذوقيه!».

أحست يوهانّا بأن ركبتيها قد تخلتا عنها؛ ففي سيغوفيا، يقولون إن اليهود قد ذبحوا أطفالاً مسيحيين كي يشربوا دماءهم، إن الشيطان يرغب بدماء المسيحيين.

كانت تريد الهرب، ولكنها لم تستطع الحركة؛ فكيف تجرأت على الشك بمسألة شراكة هذا الصبي مع الشيطان؟ وهي الآن تنال جزاءها على ذلك التبجح والتمرد، فاغفري لي أيتها القديسة العذراء مريم، لأجل شكي.

كانت ترتجف كثيراً، ولم تستطع الصراخ، «إنه مجرد كاتشاب!»، استمر الصبي في مناداتها، ثم تناول جرعة كبيرة منه، وفي عينيه كان واضح أنه قد استساغ طعمه كثيراً.

وأخيراً أمكنها أن تصرخ.

-42-

سيقوا مقيدين إلى القصر، وفي جو من الظلمة الباردة تعرف طارق على الملكة؛ ثم على رئيس أساقفة غرناطة، الذي يتحدثون عنه بأنه حيث يحل، ويتسنى له أن يفعل، يترك خلفه فيضاً من التسامح؛ أما كبير المفتشين فكان في الوسط، وبجانبه كان يجلس أيضاً سانتآنخيل بذاته، الذي تظاهر بأنه لم يرَ في حياته أياً من الثلاثة.

وطارق من جهته لم يعبأ بالنظر إليه، ولكنه عندما رأى أمين خزانة البلاط، أمل أن لا يرتكب أياً من إسحاق أو سالومون غلطة ما، إلا أن الملك وحده هو من تغيب، فهل هذه إشارة طيبة أم إشارة سيئة، أم أن هذا لا يعني شيئاً؟

«انحنوا للتحقيق!»، نادى كبير المفتشين.

وببطء شديد جداً انحنى طارق على ركبتيه، أركع نحو الكعبة، نحو الكعبة، فكر في نفسه، إنني أركع نعم، ولكن عينيّ متجهتان إلى مكة، إنني لن أركع لمخلوق حي من البشر، ولن أركع على أية حال لأحد من أكلة لحم الخنزير.

«والآن»، قال كبير المفتشين، وعلى طاولة منخفضة من على يمينه، تعرف طارق مذعوراً على كيس بوسطن الغريب، الذي خرجت منه على غير توقع نغمة متقطعة غير مألوفة، تم سماعها، ***ليحمنا الله***.

انحنى كبير المفتشين ، وكأنه لم يسمع شيئاً، أو كأنه لا يخشى شيئاً، وقد

رأى طارق في عينيه كيف أنه يتحرق للتحدث إلى خصومه، وبيده اليمنى المرتجفة كان يبحث بين ما كان على الطاولة، «الآن!».

عليّ ألا أنظر إلى عينيه، فكر طارق في نفسه؛ فهذا يثير حنقه، عليّ أن أبدو مغلوباً على أمري، خافض العينين، بل جميعنا ينبغي أن نبدو كذلك، «ها قد تجمعتم أنتم الثلاثة من جديد!».

وقد لاحظ طارق، أنَّ إسحاق لم يكد يتمكن من الركوع، «بماذا تتهموننا؟» قال إسحاق موجهاً سؤاله لكبير المفتشين، «إنني تاجر معروف في هذه المدينة، يضاف إلى ذلك أنني مسيحي مؤمن مثلكم أيضاً! وكم كانت سعادتنا كبيرة، عندما قدم ملكانا»، ثم انحنى صوب إيزابيلا وكاد يسقط، ثم تابع: «إلى هذه القلعة بعدما وجدت سلطة المغاربيين نهايتها أخيراً! ولكن الآن.».

«اصمت!» صاح به كبير المفتشين، «ما هي تهمتكم، هذا ما تريد معرفته؟ أيها اليهودي! إن قائمة الاتهامات هي من الكثرة بحيث إن رجلاً عجوزاً مثلي لا طاقة له لحفظها كلها في رأسه المرهق!»، ثم ضحك ضحكاً عديم البهجة، شعر طارق إثرها أنه أخذ بالارتجاف، وأنه لا جدوى من التظاهر بالتذلل، وأن لا جدوى أيضاً من كل ما سيدلون به؛ فكبير المفتشين يعرف منذ الآن ما هو القرار الذي سيصدره بعد جلسة الاستماع الراهنة؛ ومثلها مثل جميع جلسات الاستماع المماثلة، لم تنتهِ أي منها في محكمة التفتيش بغير قرار الإعدام.

«أليس صحيحاً أنكم جميعاً عملتم على محاولة خرق قانون آذار/ مارس، الذي أصدرته الملكة، عن طريق القيام بإجراءات من شأنها إخراج مقتنيات اليهود المتشددين من المدينة، ومع أنها بحكم القانون ينبغي أن تصبح في ملكية

التاج؟ أليس صحيحاً أنكم من أجل هذا الغرض عقدتم اتفاقاً مع البحارة المغاربيين على أن يحملوا ذهبكم على سفنهم لنقله إلى خارج البلاد؟ أليس صحيحاً أيضاً أن المغاربيين حصلوا على الذهب لقاء ذلك، وهو من الكثرة بحيث إن بوعبديل يعمل على إعداد جيش في جبال البوخاراس، وسيعمل على مقاتلة الملكة في الميدان؟ وأن ذلك كله يتم -بمعونة الشيطان؟».

كان تنفسه يخشخش في صدره، كما ظن طارق، «إنه عجوز ومريض، فلماذا لا يسقط ميتاً؟ ولماذا لا يصيبه الله بسكتة دماغية فيوقعه أرضاً، ويخلّص منه المؤمنين الحقيقيين ؟».

أخذ إسحاق يتمايل بجانبه من جديد، إلا أن طارقاً أيقن أنَّ سبب ترنحه لم يكن خوفاً بل إعياء، أما سالومون فقد جلس متيبساً، ولم يعد يبكي، كما لاحظ بوسطن في نفسه مستغرباً، مع أن المناسبة كانت سانحة لذلك، إنه صادق وليس جباناً، ولكن ماذا ينفع هذا هنا.

«هل تقرون بالاتهامات التي توجهها لكم محكمة التفتيش المقدسة؟»، سأل تالافيرا، لقد نهض واقفاً وتقدم خطوة نحوهم، وبدا كأنه، يريد أن يسند إسحاق في ترنحه، «أم أنه يوجد توضيح كلي آخر لديكم، إيزاك، بشأن ما حدث عندما حضر الجنود إلى منزلكم عشية السبت من الأسبوع الماضي؟ فليس من غير المعتاد، لتاجر مثلكم، عندما يكون لديه مخزن مليء، الادعاء بأن ما فيه هو ملك له».

«اصمت!»، صرخ كبير المفتشين، ضارباً بقبضة يده على المسند الجانبي لكنبته، «متى تم تفويض رئيس أساقفة غرناطة من قبل محكمة التفتيش؟ وما يتعلق بموضوع استجواب هذا الذي هنا»، مشيراً بإصبعه المرتجفة إلى إسحاق»، وما إن كان يريد الاعتراف، أو إذا لزم الأمر المجيء بالأدوات

ليراها قبل ذلك؟ هذه كلها متروكة لي، أخ تالافيرا! لقد شوهد شريك الشيطان عندكم!»، قال موجهاً جملته الأخيرة إلى إسحاق.

انحنى تالافيرا قليلاً.

وسانتآنخيل؟ فكر طارق في نفسه، بماذا يفكر سانتآنخيل الآن؟ إنه يبدو بارداً ساكن الأعصاب، ألا يخشى أننا قد نتهمه؟ كيف يمكنه أن يكون مطمئناً إلى أننا سنبقى صامتين دائماً عن دوره، إن جاء كبير المفتشين بالأدوات؟ لف الإبهام، الربط إلى مقعد التمديد، الدولاب.

وبعد ذلك ساحق الرأس.

«أما الآن»، صاح توركيمادا، وهو يرفع الكيس من فوق ركبته، «فالقضية تتناول أمراً آخر! وشكوى أخرى تذهب بعيداً أكثر، وثقلها يزن أكثر من جميع الشكاوى التي عرضتها جميعاً! إذ بحسب ما صرح به الجنود أمام صاحبة الجلالة، فقد كنتم أنتم الثلاثة في تلك الليلة المعنية قد تنقلتم برفقة صبي، وهو من نعتبره نحن من دون أدنى شك - حليفاً للشيطان!»، كانت يداه منشغلتين خلال ذلك بسحب ما هو بداخل الكيس. وعلى نحو محموم أشار إلى أحد الخدم الذي كان يرقب كبير المفتشين بعينين خائفتين ومتحيرتين، متأملاً أن يكون عنى بإشارته غيره، «من دون أدنى شك!»، صاح كبير المفتشين من جديد، ثم حمّل الخادم الحقيبة باستعلاء.

كانت يدا الخادم ترتجفان من الخوف، عندما ناوله توركيمادا البيضة السوداء، فطنّ من جديد ذلك الرنين الغريب المتقطع، ومن جديد لم يتزعزع كبير المفتشين جراء ذلك، «والآن؟»، صاح توركيمادا، «الآن؟ ألم تبين وقائع ما حدث أنَّ الشيطان هو من قدم لكم بنفسه الخطة، وأنَّ

الشيطان نفسه، متخفياً في صورة ذلك الصبي الغريب، أو ربما بالتحالف معه، هو من حرضكم على تلك المؤامرة بين اليهود والمغاربيين؟ وأنَّ الشيطان نفسه قدم العون إلى بوعبديل ملك المغاربيين في مخططاته، من أجل إعادة إحلال سلطته في الأندلس، ومن أجل مقاومة الإيمان المسيحي المقدس؟»

«كلا» صرخ طارق، «لا شأن لنا بالشيطان...!»، مع أن ذلك لم يكن ذا فائدة وغير ذي جدوى، ولا اعتبار كلياً لقوله.

«اصمت، أيها الصبي المغاربي!»، صاح كبير المفتشين، «أينبغي أن نريكم إذن الأدوات أولاً؟ ألا تريدون الاعتراف آخذين بالاعتبار كل هذا الكم الوافر من البراهين الساحقة؟ أنتم ترون أنني رحيم معكم! فأنا لا أرغب بالتعذيب، ولا أحد يكره قسوة المعاملة مثل كبير المفتشين! إن الأمر رهن بالمتهمين، ودائماً بالمتهمين، الأمر رهن بكم أنتم فقط، وبكم أنتم وحدكم! فعندما تقرّون أنتم الثلاثة، فستطهر النار بالموت أرواحكم، من دون أن أزيد قبل ذلك في آلامكم، والتي أنا نفسي»، وهنا التمعت عيناه، ثم تابع: «لا أريد أبداً وتكراراً أن أعايشها! الصراخ!» ثم تأوه متحسراً، كما كانت عيناه تلتمعان متسعتين.

«ليس الأطفال أيها الموقر»، قالت الملكة بصوت خفيض، فقد كانت صامتة عن كل شيء حتى الآن، «ليس الأطفال أيها الموقر! إن حرق نفوسهم في المحرقة بغية إنقاذهم، سيكون كافياً لهم».

ألقى توركيمادا إليها بنظرة مليئة بالاستخفاف، «ستوافقونني، صاحبة الجلالة»، قال لها، «إن هؤلاء الأطفال الذين هنا..».

انشق الباب في هذه اللحظة.

«لقد أمسكنا به!» نادى أحد الجنود صارخاً، بصوت متصدع، «لقد أمسكنا بشريك الشيطان!».

وبمعونة رفاقه جرّ بوسطن لداخل القاعة.

-43-

إن أول ما خطر ببال بوسطن، عندما انقض عليه الجنود، كان فكرة التأمل بالسخافة المضحكة في أنه وقع بأيدي رجال محكمة التفتيش، بسبب كيس صغير من الكاتشاب. وأن ذلك حدث مباشرة إثر اعتقاده أنه ربما يكون قادراً على أن يقلب كل شيء نحو الأفضل، وتمنى لو أنه لم يحتفظ بعبوة الكاتشاب الصغيرة، عندما ذهب بصحبة طوقان وقدير وسيرغاي والبنات لتناول الطعام يوم ذهبوا لمشاهدة الحمراء؛ ليته لم يذهب معهم، فأمه تدعي دائماً، أن المرء عندما يدمن الذهاب إلى محلات الهامبورغر، فهذا مؤذٍ لصحته.

إنه ضار جداً بالصحة، فكر بوسطن، ولا يمكن أن يكون أكثر ضرراً مما حصل على الإطلاق. ولماذا فكرت أنا بمثل هذه الأمور غير المعقولة، ففي الأسبوع الماضي عانيت أشكالاً عديدة من الخوف، بحيث لم أعد منذ أمد بعيد أشعر بطعمه.

«حليف الشيطان»، نادى كبير المفتشين، واتكأ بيديه الاثنتين على مسندي كرسيه محاولاً الوثوب، ولكنه عاد أخيراً ليغوص في مقعده.

بجانب كبير المفتشين كانت تجلس الملكة، واثنان من الرجال، تذكر بوسطن أحدهم، وهو الذي كان حاضراً في جلسة الحديث مع الجنوي، سانتآنخيل، وفي قبالته كان يركع طارق وإسحاق وسالومون، «والآن، ها أنتم جميعاً في قبضتنا!».

ستناله لكمة للحال، فلا بد أن يكون وجهه أصبح مزرقاً، كما ظن بوسطن لنفسه، وظن أن الثلاثة كانوا على وشك الابتسام؛ ثم لاحظ، كيف أن ثلاثتهم عملوا يائسين على أن لا ينظروا إليه، وأبدى تفهمه لهم.

«والآن، حليف الشيطان، ألا ترغب في السلام على رفاقك؟ هؤلاء الثلاثة هنا يدّعون عدم معرفتهم بك!».

«لست شريكاً للشيطان!»، قال بوسطن، وهو يصوب عينيه مباشرة لعيني كبير المفتشين مباشرة، «كل هذا سخافة!».

«هل تعرف الثلاثة، أم لا تعرفهم؟»، نادى عليه كبير المفتشين، «أليس هذا سؤالي؟».

إنه يزرقّ أكثر فأكثر، فكر بوسطن، فإن هو اهتاج أكثر قليلاً من ذلك فسيسقط صريعاً.

«لم أرهم من قبل أبداً»، ورأى كيف أن كتفي طارق تهدلا للأسفل، وكيف أن إسحاق تمايل في مجلسه، «وأنا لست حليفاً للشيطان!».

«لقد وجدناه لدى الأميرة!»، هتف الجندي الذي كان ما زال يلوي ذراع بوسطن المتألمة خلف ظهره، «لقد شرب دماً، دماً، أيها الموقر! إن الأميرة».

«ابنتي؟» هتفت الملكة، «ماذا فعل بيوهانّا..».

في هذه اللحظة دخلت يوهانّا إلى القاعة تسحبها آمّي من يدها، فرمت بوسطن بنظرة حاقدة، كما كان من السهل التعرف على الآثار التي خلفتها الدموع على خديها، إلا أنها حافظت على مشيتها المنتصبة، إلى أن جلست بهدوء على كنبتها التي عاجل أحد الخدم في دفعها تحتها.

«يوهانّا!»، هتفت الملكة، لكنها لم تتحرك من مكانها، كما لم تخطُ بحركة واحدة باتجاه ابنتها، «إنه لم... ؟» نظرت إلى ابنتها بتساؤل.

«سيتضح كل شيء على الفور!»، هتف كبير المفتشين، وهو يضرب بيده على مسند كرسيه، «تش!تش! إن كبير المفتشين يرأس التحقيق!» ثم حدّق في بوسطن، «أتدّعي أنك لست شريكاً للشيطان؟ الإنكار، يدعيه الكل الآن، الهراطقة والكفار ينكرون أيضاً قائلين: ***أنا لست مشعوذاً، وأنا لست مارانو، وأنا لم أقم بتدنيس قربانة الكنيسة!*** هل تظن أيها الصبي، أنني التقيت يوماً متهماً أقرّ بأنه مذنب؟ ولكنهم أقرّوا جميعاً في النهاية! وهو ما يبرهن أن الروح القدس هو الذي يقود محكمة التفتيش المقدسة في عملها لتأدية واجبها، والتعرف على الهراطقة والكفار، ولذلك فجميعهم، جميعهم بدون استثناء، يقرون بمجرد أن نريهم الأدوات».

«ولكنني أستطيع البرهنة!»، قال بوسطن، «لم يكن دماً! لقد كان مجرد كاتشاب! وأستطيع البرهنة!».

ضحك كبير المفتشين، ثم قال: «أحضروا أداة لف الإبهام!».

«أستطيع البرهنة!»، قال بوسطن من جديد، أوه نعم، بل يمكن للخوف أن يشعر بالخوف، «لديكم كيس الظهر! بداخله يوجد..».

ومن جديد أشار كبير المفتشين للخادم، انحنى الخادم؛ ثم جاء بكتاب الدليل السياحي للسيدة هيلبرت نحو بوسطن.

«والآن؟»، قال كبير المفتشين، «كيف تستطيع أن تفسر لنا هذا الكتاب الآن؟».

تنفس بوسطن الصعداء، بالطبع كان لديهم كتب، في العام 1492، وهو يعرف هذا؛ بل وحتى طباعة الكتب كانت قد اكتشفت.

«إنه بكل بساطة مجرد كتاب!»ردّ بوسطن، «ونحن نسمي مثل هذه الكتب بالدليل السياحي، فعندما يطير الناس إلى غرناطة، من أجل».

«يطيرون؟»، صرخ كبير المفتشين مهتاجاً، «الناس، الذين يطيرون؟».

ورأى بوسطن كيف يتطلع الجميع نحوه.

«هو يدعي، بأنه قادم من المستقبل»، قالت الأميرة بصوت خفيض واهن. «من زمن، يطير فيه الناس، ويستطيعون الحديث فيه بعضهم مع بعض من مكان لآخر». شدّت آمّي على ذراعها بقوة أكثر.

«ها!»، صرخ كبير المفتشين، «تجديف! إنه تجديف! إن ملائكة الرب فقط هي من تستطيع أن تطير!».

«أرجوك!»، قال بوسطن، محاولاً التقدم نحوه خطوة، إلا أن ذراعه الملوية وراء ظهره آلمته، كما لو أنها اقتلعت من منبتها في مفصل الكتف، «ثم تأملوا هذا الكتاب جيداً، فهو يوضح كل شيء!»، ثم حدّق بصفحة الكتاب المفتوحة وقرأ: «***غرناطه (27000 ساكن)، هي مدينة تتمتع بحيوية وفيها جامعة وهي محمية أثرية في الوقت ذاته***».

«اصمت!»، صاح به كبير المفتشين. «اصمت، اصمت، اصمت! إن معرفتك للغة الشيطان التي جرى بها تأليف هذا الكتاب لا تبرهن لنا أمراً آخر أكثر من أنك تتقن لغة الشيطان؟ أليس الأمر كذلك؟ فليس واحد من بين كل علمائنا استطاع حل طلاسمها! لتدّعي أنت أيها الصبي، أنك تفهمها! فبماذا تفسر لنا أنت ذلك، أكثر من أنك حليف للشيطان؟».

«كلا!»، صرخ بوسطن «أرجوكم! إن أنتم أحضرتم الكاتشاب، فسأريكم».

هنا، دخل أحد الخدم إلى القاعة، وقد غطى العرق جسده، «هناك خبر ينبغي إبلاغه لصاحبة الجلالة!»، قال الخادم مفزعاً وهو ينحني بقوة.

«بماذا ستزعج جلسة تحقيقنا؟»، صرخ كبير المفتشين، «ألا يوجد لما

ستقوله وقت آخر؟».

هزّ الخادم رأسه بخوف ثم قال: «لقد أرسلني سنيور كولون، صاحبة الجلالة! كي أعلمكم بأنه سيغادر غرناطة هذا اليوم، من أجل السفر إلى بلاد الفرنجة، لقد تسلّم خبراً من أخيه، بأن الملك الذي يجلس في مدينة باريس، سيقدم له السفن التي يريدها من أجل السفر إلى الهند وسيبانغو وكاتاي!».

نظرت إليه الملكة بملل وقالت: «حسناً، فليسافر الآن وليكن الله معه، أبلغ هذا إلى سنيور كولون على لساني! وغرناطة لن تفتقده، ونحن نتمنى لملك الفرنجة، حظاً طيباً»، قالت ذلك وابتسمت.

انحنى الخادم لها وغادر القاعة متراجعاً بسرعة.

«حالم!»، قالت إيزابيلا والتفتت إلى كبير المفتشين: «تابع، أيها الموقر والمعذرة للمقاطعة».

لن يتم اكتشاف أمريكا، فكر بوسطن في نفسه، حسناً، هذه المرة تقرر هذا نهائياً؛ فالملكة تركت كولومبوس يتراجع، وأنا لن أعود، وحياتي لن أستردها، ولا أريد الموت بالمحرقة، وبالذات ليس في هذه اللحظة.

«لو أنتم أحضرتم لي الكيس الصغير»، قال بوسطن وهو ينظر للملكة بتضرع، «فسأستطيع أن أبرهن..».

«إنه يدّعي أنَّ الدم مصنوع من فاكهة»، قالت الأميرة بكلام خالٍ من أي انطباع، «وأنَّ تلك الفاكهة تنمو في بلد اسمه أمريكا، وهي تقع بيننا وبين الهند، وهي بلد هائل الحجم لم يكتشف بعد، وهي ما سيكتشفه السنيور كولون لنا».

كان صوتها ما زال بنبرته الواهنة المنخفضة، كما فكر بوسطن، صوت فزع إلى آخر حدّ. لقد روعتها، فيا لحمقي، ويا لغبائي، إنها لا تعرف كيف

ستستطيع أن تصدق، فكل حقيقة كانت أكثر رهبة من الأخرى.

«إنه يدعي...».

كادت عينا كبير المفتشين تخرجان من محجريهما، «تجديف!»، صرخ عالياً من جديد، «تجديف! الناس يطيرون مثل الملائكة، وأرضاً مثل التي خلقها الله بإبداع وتناسق غير قابل للوصف، قد نسي الله خلقها! أقول لكم، لا يوجد شيء بين الساحل الإسباني وبين الهند الموجودة في أقاصي الدنيا، هذا مثبت، وهو معروف من العلماء كافة! فهل تتحدث التوراة عن أرض ستوجد في قلب المحيط، بعد بضعة آلاف من السنوات، وبعد أن أكمل الله خلق الأرض في ستة أيام فقط؟ هذا يعني أن خليقة الله لم تكن مكتملة، بحسب ادعاء الصبي، وأن الله نسي شيئاً لم يخلقه في حينه؟ وهذا يعني أن الله ينسى مثل أنثى عجوز؟»، ومن جديد تنشق شهيقاً عميقاً، رافقته خشخشة مروعة، «تجديف! إن الكتاب المقدس لا يعرف شيئاً عن هذه الأرض! هل أطاح بها إلى هناك مدٌّ من صنع الشيطان، كي يجرب أخذنا إليه؟ فبماذا تتحدث أيها الكافر».

«والكتاب المقدس لم يتحدث عن مملكة إسبانيا، أيها الموقر»، قال رجل بلباس رئيس الأساقفة، «ومع هذا، لا يجادل أحد في أنها موجودة، فليس كل ما لم تذكره التوراة يعني أنه غير موجود».

«ألا يستطيع رئيس الأساقفة عدم مقاطعة كبير المفتشين؟»، صرخ توركيمادا، «هذا الصبي».

«لماذا لا ندعه يقدم براهينه التي يتحدث عنها ويبين ماهيتها؟»، سأل رئيس الأساقفة باستخفاف، «وجميعنا، وأنت لن تعارض أيها الموقر، لا نجد تفسيراً لكل هذا الذي وجد في كيسه، أفلأننا لم نجد تفسيراً ندعي أنه من

عمل الشيطان، أليس الأمر هكذا؟ ولكن ماذا لو كان الصبي يعرف توضيحاً لذلك؟».

«لديّ صور على الهاتف المحمول!»، همس بوسطن، وهو يشير إلى الجهاز الذي استقر مهملاً على ركبتي توركيمادا في الدقائق الأخيرة، كان يود أن يريهم ناطحات السحاب، ونصب الحرية، وكم سيكون جيداً، كم سيكون جيداً أن يكون له دائماً ذلك الرجاء بأمريكا، وسيقوم بالتقاط صورة لهم جميعاً، ألا ينبغي أن يقنعهم ذلك؟

زفر كبير المفتشين، «البيضة!»، صرخ بغطرسة، مشيراً للخادم. ثم عمص بعينيه الاثنتين في وقت واحد، «حسناً، يمكنك أن تبرهن لنا ما تدعيه! فليس لأحد أن يقول إنَّ محكمة التفتيش المقدسة لم تكن كريمة! فإن نجحت في إقناع محكمة التفتيش المقدسة، فإننا سنعيد التفكير من جديد بما ينبغي أن نفعله بك! فإن لم تنجح في البرهنة»، وابتسم كبير المفتشين، «فإنك لن تحرق فقط!».

ومع إشارته للخادم، كان الجندي قد حرر ذراع بوسطن، أحضر له الخادم الهاتف المحمول، ولا يذكر بوسطن أبداً أن إصبعه قد رجفت بكل هذا القدر.

«إنه جهاز يتحدث المرء بواسطته عبر الهواء مع الناس الذين يكونون موجودين في مكان آخر!»، قال لهم بوسطن، «حتى إن كانوا في أماكن بعيدة، ولكن يستطيع الإنسان أن يقوم بأخذ صور أيضاً، وهذا ما سأفعله للحال، كما يمكن أيضاً رؤية الصور، لقد خزّنت صوراً عن أمريكا، وهي ما سأريكم إياها. ستكتشفون أمريكا، صاحبة الجلالة وستصبح إسبانيا غنية جداً لهذا السبب، هناك ذهب وفضة بكثرة»، لم تظهر على وجه أحد أية نأمة، لا تعبير عن الاندهاش، ولا عن الرضا، بل ولا حتى أية أمارة شك.

«توجد هناك ناطحة سحاب و».

«ناطحات سحاب!»، صرخ توركيمادا، «إن السماء هي مملكة الله! فمن يدّعي أنه سيمس السحاب..».

نجح بوسطن ولكن بصعوبة في فتح الهاتف المحمول، كانت شاشة العرض مظلمة.

«وماذا بعد؟»، نادى كبير المفتشي، «وماذا الآن؟».

كانت الملكة تجلس منكبة للأمام، أما يوهانّا فكانت متكومة على ذراع وصيفتها آمّي، مخفية رأسها بين كتفيها.

إلا أن شاشة العرض بقيت مظلمة، وكان بوسطن يحاول بأصبعه المرتجفة ليجعل الهاتف المحمول يقلع للعمل، إلا أن شاشة العرض بقيت مظلمة.

«الشحن»، همس بوسطن، «إن الشحن فارغ!».

«ماذا؟»، صرخ كبير المفتشين، «عن ماذا تتحدث، يا صبي؟ ألا تريد البرهنة لنا».

«الشحن فارغ»، همس بوسطن من جديد. «لا يعمل إلا إذا كان فيه كهرباء. فالشحن فارغ».

«ها!»، صرخ كبير المفتشين، وأشار للخادم ليجلب له الهاتف المحمول. كان الخادم يرتجف.

الجميع كان يساوره الخوف باستثناء توركيمادا، فكر بوسطن، فكبير المفتشين لا يخشى حتى الشيطان، الذي يعتقد أنّه مخيف وخبيث.

«الشحن! الكهرباء! عن أي شيء تتحدث أيها الصبي! وبيده الواهنة، المرتجفة المتقدمة في العمر، حاول تشغيل الهاتف المحمول كما فعل بوسطن، إلا أنه بقي معتماً.

«والآن، ها هو البرهان النهائي لدينا!»، صرخ كبير المفتشين وهو يضغط على الملامس مرة إثر أخرى من جديد، «ألم أقم بنفسي مرة بعد أخرى بإضاءة جهاز الشيطان هذا، ألم أجعله أيضاً يطن؟ إلا أنه ظل الآن معتماً وأخرس! لقد سحره الصبي، كي لا نكتشف ما يخبئه الشيطان بداخله، ولا نعلم ما يبغيه منه، فأية براهين نحتاج أيضاً؟».

«هذا يحدث إذا تناوب المرء على تشغيله لمدة طويلة!»، هتف بوسطن، «أرجوكم! هذا يحدث بكل بساطة فقط، عندما».

«خذوهم إلى السجن!»، قال كبير المفتشين، كما لو أن بوسطن لم يكن قد تكلم، «هؤلاء الثلاثة هنا»، وأشار إلى إيزاك وطارق، وسالومون، «ينبغي حرقهم بالمحرقة، لأنهم خرقوا القانون الذي أصدرته الملكة، ولكن هذا الذي هنا!»، وكانت عيناه قد ضاقتا فبدتا كأنهما مثقوبتان، ثم ابتسم لبوسطن: «فدعه يتذوق أولاً الأدوات كافة، أبقوا على كل شيء جاهزاً، فأنا أود أن أكون حاضراً، سنبدأ بأداة لف الإبهام، غداً، نعم من الغد! ذلك أن روحه ما زالت متيبسة، ومن أجل إنقاذها لا يكفي لها الحرق فقط، بل أخرجوا الشيطان أولاً.

«لا!» صرخ بوسطن. «لا!».

ما أعظم خوفه! وهو يستطيع تحسس هذا الخوف.

-44-

وقف سانتآنخيل في برج فيلاتورم وألقى بنظره على المدينة، صعد هذه المرة بمفرده إلى فوق، كان يرغب في أن يتأمل ويفكر.

ما زالت السماء زرقاء من فوق حي رياليخو، ولم يكن السبت قد انتهى بعد، هناك شيء ما محدد في كلام الصبي، هذا الصبي المدهش الذي اعتبروه حليفاً للشيطان، كانت حكايته غير قابلة للتصديق تماماً، ولم يكن مستغرباً أنهم أعادوه إلى الزنزانة من جديد، كان كل شيء غير قابل للتصديق.

ومع ذلك، فهل هناك من تفسير آخر، تفسير ذي مصداقية؟ الشيطان، فكر سانتآنخيل في نفسه، وقد زمّ شفتيه ساخراً. فما أعظم فائدة هذا الشيطان لكبير المفتشين، إذ هو يستطيع الاتكاء عليه في كل مناسبة! فلو كنت أنا مكان الشيطان– ومن أجل هذا الافتراض وحده، كان سيرمي توركيمادا بي إلى النار– فهل كنت سأختار صبياً عديم المهارة حليفاً لي ضد الملكة؟ وضد الكنيسة وقوتها الجبارة؟ ألم يجد الشيطان حليفاً أفضل منه؟ ولو كنت أنا الشيطان ورغبت أن أكون من خلف إثارة الانتفاضة المغاربية– هذا إن كانت الانتفاضة هي هدفي– أما كنت تعاملت من أجل تفجيرها بطريقة أكثر ذكاء؟ من المؤكد أن الشيطان، ينبغي أن يكون غبياً، كي يتصرف بمثل هذه الأساليب الخرقاء.

فإن لم يكن الشيطان، هو من أعطى الصبي تلك الأدوات، ومثل تلك

البيضة الغريبة، التي لا يستطيع أحد أن يقول ما هي الخدمة التي تقدمها، فمن أين جاءت؟

بدأ الدخان يتصاعد من المدخنة الأولى في *الخوديريا*، ثم أخذت بقية المداخن تتبع الأولى، لقد انقضى يوم السبت، ولكن إلى متى، وما هو عدد الأيام والأسابيع التي سيمكن الاحتفال فيها بيوم السبت في غرناطة؟

لماذا لا نعتقد أنَّ المشكوك فيه قد يكون صحيحاً، كما قال الصبي؟ ألم يكن هذا هو التفسير الوحيد الذي يربط بين الجميع؟ فماذا نعلم نحن عن جوهر الزمن، فالزمن ينصاع في تعاقبه أيضاً للخالق وحده، أفلا يمكن لهذا الخالق أن يسيره أيضاً حسبما يشاء؟

فإن كان حقيقياً إذن أن الصبي قادم من المستقبل؛ أليس من الممكن أن يكون حقيقياً أيضاً في هذه الحالة، ما كان قد تحدث به عن تلك البلاد الغامضة التي تقع في وسط المحيط؟ تلك البلاد التي لم ترها عين بشر: أمريكا. فماذا لو كان الصبي قد قال الحقيقة إنّهُ يوجد بين السواحل الإسبانية وبين بلاد الهند البعيدة، عالم غير معروف فعلاً، عالم عامر بثروة لا حدود لها؟

ومن دون محكمة تفتيش.

نظر سانتآنخيل إلى المدينة، التي كانت السماء من فوقها قد تغير لونها بالتدريج، إن الملكين يحتاجان إلى الذهب، وهما يحتاجان إليه بإلحاح بعد أن أفرغ قتالهم مع المغاربيين خزائنهم، فهذا القتال زاد من نمو مديونيتهما، وهو ما دفع فرديناند للخوف من ذلك، وقد كان المصدر الوحيد الباقي لتعويض ما فقده من مال هم اليهود.

ولهذا لم يكن هناك من أمل لشعبه؛ ليس لأخته ولا لكل الأسرة، وليس من أمل بالطبع لأولئك القابعين تحت في رياليخو، الذين أشعلوا النار الآن

في مواقدهم بعد انقضاء يوم السبت، سيموتون جميعاً، من أجل أن تملأ مقتنياتهم خزانة القصر، وحتى إن هم هربوا، فستصبح كل أموالهم من حصة التاج، هكذا أمر القانون.

أحس بالانفعال يكبر في نفسه، ولكن ماذا لو أن أمريكا كانت موجودة حقاً؟ فإن كان الذهب سيسيل من هناك إلى إسبانيا على قدر لا متناه، مثلما يدعي الصبي، فإن الذهب سيجعل من الملكين ثريين؟

وعندئذٍ لن يحتاج الملكان لمقتنيات اليهود.

طأطأ سانتآنخيل رأسه، إن هذه الـ (أمريكا) قد تكون منقذاً، بلد من دون محاكم تفتيش؛ إن كانت هذه الـ (أمريكا) موجودة، فعلى كولون أن يبحر.

ألقى نظرة أخيرة على المدينة التي يلفها الإبهام، كان يعلم ما ينبغي عمله، من أجل إقناع الملكة، وقد كان واثقاً، أنَّ هذا لن يكون صعباً عليه.

مضى سانتآنخيل مسرعاً نحو القصر، وكان من المعتاد أن تمضي الملكة مثل هذا الوقت في مسكنها الخاص.

غرناطة، نيسان/أبريل في الوقت الحاضر

لم يضحكوا، كما لم يضحك منه أي منهم.

«إيه، يا شيخ»، قال الصغير، «إنها قصة رعب».

«ماذا قال؟» لقد بدت لغتهم خشنة وغير مفهومة.

ذاك الذي له زغب على شفته العليا، والآخر الذي كان في زيارتهم الأولى هو المتكلم، كانا قد صمتا وهما في حالة من التفكير والتأمل، تناول مانويل الزجاجة.

«إذن، أنتم تقولون، إنه قام برحلة عبر الزمن؟»، سأل ذلك الذي يوجد

زغب على شفته العليا، فعلى الأقل جرب التحدث بالإسبانية.

اضحكوا، لماذا لا تضحكون؟ قال مانويل في نفسه! قولوا لي إنَّ كل ذلك الذي قلته لكم هو مجرد هذيان، وإنه لا يوجد سفر عبر الزمن! وأنا لا ذنب لي، باختفاء الفتى!

«ألأنه وجد هذه البلاطة؟»، قال ذلك الذي يتحدث الإسبانية على نحو أفضل من الآخرين.

أومأ مانويل برأسه مجهداً، «عندما يتم الطرق عليها، يتم بذلك فتح بوابة عبرالزمن، هكذا حدّثوني عندما كنت شاباً صغيراً، وهو ما يعلمه الآن كل واحد هنا في القيصرية»، قال مانويل، «ولكننا لم نعلم أبداً ما يمكن أن يحدث، إن تم مس البلاطة، أو لمجرد أن يتم تناولها باليد»، ثم تناول الزجاجة، ولكنه لم يجرع منها شيئاً، «لقد كنا حذرين جداً، كنا جداً حذرين، وكنا جميعنا دائماً كذلك».

حدق به الفتيان، ولم يضحكوا منه، لأنهم لم يستوعبوا ما قاله لهم.

«والآن قمت بوضع البلاطات الخزفية في المقدمة، من أجل أن يأخذها أحد ما»، قال له ذلك الذي لديه زغب فوق شفته العليا، على أي حال كان سؤاله قريباً من هذا المعنى: «لأنكم تريدون أن تتخلصوا منها؟».

أومأ مانويل موافقاً.

«إيه، يا شيخ، وماذا بعدئذٍ»، قال الصغير، وهو يحثه على المتابعة.

«حدثني جدي– آنذاك عندما كان الناس يتحدثون كثيراً عن البلاطات الخزفية، حيث كان يتم الحديث بالسر دائماً– عن أنه فقط بواسطتها أيضاً يمكن إغلاق الأبواب مرة ثانية»، غمغم مانويل، «ولكن كيف سيكون ذلك بالتحديد».

«وماذا بشأن ذلك الذي يسافر عبر الزمن؟»، سأل الفتى صاحب الزغب فوق شفته العليا، «وماذا عن إغلاق البوابة من خلفه؟ وعلى أي جانب من الزمن يرسو؟».

«نعم، على أي جانب رسا؟»، سأل القصير، «على جانب الزمن الذي هو الآن، أم على جانب الزمن الذي كان آنذاك؟»هذا يعني أنه فهم، عما يتم الحديث.

«لا يعرف أحد عن ذلك شيئاً!» أجاب مانويل، والآن أخذ جرعة خمر من جديد، «هل تعتقدون أنه لو كان كل شيء معروفاً، فإن أحداً ما كان سيعمل على محاولة تجريبه قبل ذلك؟ هل تظنون أننا لم نكن فضوليين عندما كنا أطفالاً ولم نكن لنرغب في تجريب ذلك؟»، قال لهم مانويل، وبدأ يشعر بقليل من الدوار، ثم أبعد الزجاجة عنه، «ولكننا لم نكن نعلم».

«... وهل يمكنكم العودة ثانية»، قال ذلك الذي يتحدث الإسبانية أفضل من رفاقه، ثم تابع: «ولكن، يا رجل، كيف تضع البلاطات هناك في الأمام من أجل أن يأخذها أحد ما؟».

أرخى مانويل رأسه نحو الأرض، «ربما لا يكون لاختفاء صديقكم أي علاقة بالبلاطة الخزفية!» قال متوسلاً، فربما يكون اختفاؤه مجرد مصادفة! أي مجرد مصادفة غريبة توافقت مع اختفاء البلاطة!».

«بووووه!»، قال القصير.

ثم أخذوا يتحدثون من جديد في ما بينهم بلغتهم غير المفهومة، وكأن مانويل غير حاضر معهم، «ولكن هذه الحكاية لا يمكن قولها للشرطة»، قال ذلك الذي له زغب فوق شفته العليا.

«من الأفضل أن نذهب، أم ماذا؟ قد يصيب هيلبرت الذعر مرة أخرى».

لم يودعوا مانويل، لقد مضوا خارجين من دون أن ينظروا حتى بلفتة إلى وجهه، واختفوا في زحام الزقاق.

والآن؟ فكر مانويل في نفسه، ربما يكونون قد مضوا إلى الشرطة، وربما لا، ربما يصدقونهم في الشرطة، وربما لا، وحتى إن صدقوهم... وأخذ جرعة خمر أخرى؛ إن القانون لا يعاقب على عرض بلاطة قديمة للبيع.

إلا أن الشرطة لن تصدقهم على أي حال.

وبالرغم من كل شيء، فالأمر سيان، بالنسبة إلى ما هو معاقب عليه؛ فالفتى الأشقر هو الآن في مكان ما من الماضي، ولا يستطيع العودة.

-45-

الأندلس، 1492

«يوهانّا»، قالت الملكة، كان الخادم قد أوقد المشاعل في باحة الأسود، وكان ضوؤها ينعكس في ماء الأحواض، كما كانت رؤوس الأسود ترخي ظلالها الواجفة فوق الحصى، «يا لها من تجربة رهيبة بالنسبة إليكِ! ويا له من حظ لغرناطة وللمسيحية كلها، فلو لم تصرخي إثر الجزع الذي أصابك، عندما كان يشرب الدم، لبقي صبي الشيطان متوارياً إلى الأبد».

كادت الملكة تصرخ وهي تتحدث إلى يوهانّا، كي لا يغرق صوتها في الوشيش الذي كان يحدثه رش النوافير، ومن جديد جلست يوهانّا بعيداً على الجانب الآخر من الأحواض، لقد كانت الطفلة في حالة من التيبس، ومن حسن الحظ أن آمّي ترعاها وتحدب عليها مثلما ترعى دجاجة صيصانها؛ وإلا، فمن يعلم ما هي الضائقة التي من الممكن أن يجد أطفالها أنفسهم فيها. كما تم العثور على حسن الخاتمة في مواجهة مبعوث الشيطان التي جرت للتو أيضاً، ومع أنها هي الملكة، إلا أنه من غير الممكن لها في المحصلة الاهتمام بكل شيء، وحبذا لو كان فرديناند يساندها على الأقل في عملها.

«يوهانا؟»، نادتها الملكة.

أما أن فرديناند لم يحضر بعد الظهر أثناء التحقيق، وكونه غائباً الآن أيضاً، فهي أمور تستدعي التحدث إليه مطولاً بهذا الشأن، فالبعض أخذ يتهامس

حتى في غرف الخدم في المدينة[1]، في حين تبقى هي على الدوام بمفردها عند اتخاذ القرارات، وليس لديها مستشارون سوى كبير المفتشين ورئيس الأساقفة، وكلاهما يقدمان لها اقتراحات يعارض فيها أحدهما الآخر على الدوام، إنها تحتاج الآن إلى مساعدة فرديناند على نحو ملح جداً.

فهل هذا هو العهد الذي أقدم عليه آنذاك صاحب السبعة عشر عاماً عندما وضع قلبه عند قدميها؟ لقد آن الأوان لوضع حد لألعاب فرديناند، فهو أيضاً حاكم لهذه البلدان وعليه تحمل مسؤوليته؛ فالسيطرة على قلب فتاة شابة أكثر أهمية لديه من السيطرة على حكم المملكة، كما تتقدم أهمية الثروة والمال عنده على أهمية الأنفس البشرية وخلاص أرواح الناس.

أخذ سانتآنخيل وضعيته الجادة، عندما خرج من عتمة البوابة إلى مدخل الباحة، «معذرة، صاحبة الجلالة، لإزعاجكم في هذه الساعة من وقت مسائكم الخاص بكم»، قال ذلك، وهو ينحني للملكة انحناءة كبيرة.

لم تكن تثق به، لقد كان *كونفرسو*، ولكنه كان ذكياً، لا يجاريه أحد في فهمه لأمور التعامل بالأموال، وفرديناند لا يستطيع التخلي عنه.

«تفضلوا بالجلوس معنا، سنيور سانتآنخيل!» قالت له إيزابيلا، «لا بد أن هناك أمراً هاماً يدعوك إلى الحضور إليّ في هذه الساعة، مما لا يمكن تأجيله لوقت آخر، وهو ما أنا متأكدة منه؟».

انحنى لها سانتآنخيل، «لديكم الحق في ذلك، صاحبة الجلالة، فقلقي يؤرقني ويقض مضجعي، لقد تأخرت كثيراً جداً، فإن أبقيت على صمتي أكثر»، ثم استقام في وقفته وتابع: «فقد أحمل على عاتقي عبئاً ثقيلاً أمام

(1) المقصود بالمدينة هنا كما ورد في الهوامش من قبل، هو مجمع خدمات القصر، وقد ذكرنا سابقاً بأن الكلمة نفسها موجودة باللغة الإسبانية. (المترجم).

الله والناس».

مالت إيزابيلا للأمام وقالت: «تحدث الآن سنيور سانتآنخيل، إنني متشوقة لما ستقوله».

مسح سانتآنخيل ذقنه، «لقد جئت لأحدثكم عن حلم رأيته في منامي، صاحبة الجلالة، وهو حلم...» ثم توقف سانتآنخيل عن كلامه.

«تحدث الآن؟»، قالت الملكة وقد عيل صبرها، «تكلم الآن؟».

«أرجو المعذرة، صاحبة الجلالة، فليس عبثاً أنني تأخرت كل هذا الوقت كي أخبركم بما أريد قوله لكم! لقد كان تأخري دافعه القلق والخوف، وأنكم قد لا تصدقون أن ما سأقوله، أو أن تعتبروا ما سأقوله تجديفاً، كما هو شأن الموقر كبير المفتشين، ولكنني الآن، صاحبة الجلالة، أشعر أن الصمت يثقل على روحي بشدة! فما أنتم على استعداد لتصديقه، هو قرار يتعلق بكم أنتم، وكذلك الشأن بما تريدون فعله».

«وهذا ما سأفعله من دون شك، سنيور سانتآنخيل»، أجابته الملكة بكل برود، «وليس من حاجة لسماحكم لي بفعل ذلك، إنني الملكة هنا».

انحنى لها سانتآنخيل بشدة من جديد، «إنني أخشى، صاحبة الجلالة، أن تكون إسبانيا على عتبة ارتكاب خطيئة كبرى»، قال لها، «المعذرة، وهنا أيضاً أتحمل أنا وزراً في ذلك!».

أدركت إيزابيلا أن صبرها قد نفد، «كف عن هذه المقدمة!»، قالت له بغضب، «يكفي اعتذاراً! كنت تتحدث عن رؤيا حلمت بها».

ظل سانتآنخيل لوقت ما في حالة الانحناء آخذاً وضعية تراجعية في الوقت ذاته، ثم بدأ كلامه: «تتذكرون صاحبة الجلالة، حديثكم مع السنيور كولون قبل أيام، والذي كان حاضراً فيه حليف الشيطان متلبساً شخصية

الأمير فيليب الهابسبورغي، وفي هذا الاجتماع كنتم قد قررتم نهائياً، أن لا تقدموا العون إلى الجنوي في خطته التي أعدها لرحلته البحرية إلى الهند عن طريق الغرب».

أومأت إيزابيلا بحركة لا تكاد تلحظ.

«وأنتم تذكرون فوق هذا، أنه خلال هذه المحادثة لم يكن سعادة رئيس الأساقفة تالافيرا حاضراً فيها، وهو من كان يرأس كل لجنة تدعون أنتم لعقدها، من أجل دراسة وتقييم الخطط التي كان يقدمها كولون، والتي كنت أنا في كل مرة قد شاركت بها، وكنت أدخل في مشادة نقاشية مع السنيور كولون مدققاً في كل نقطة من خطته، والتي كانت اللجنة تقوم بوزن مبرراتها، وأنها أعلنت بناء على ذلك بأنها غير غير قابلة للتنفيذ.

أومأت إيزابيلا برأسها.

«لقد تصرفت بحسن نية، صاحبة الجلالة!» قال سانتآنخيل، «وأنا أرجو من أجل هذا عفوكم، ولكن في الليلة التالية ظهرت لي في الحلم...» ثم توقف من جديد.

«من ظهر لك؟»، صرخت يوهانّا، أما إيزابيلا فبدت مرتاحة، مع اهتمام ابنتها بمجريات الحياة العادية من جديد، «أنتم تتحدثون على نحو غير مركز أبداً، سنيور سانتآنخيل! ويكاد المرء ينفد صبره معكم!».

«في الليلة التالية ظهرت لي في المنام – السيدة العذراء!»، همس سانتآنخيل وهو يرسم على وجهه إشارة الصليب، «لقد ظهرت لي ناصعةً وبهية، يطفو عرشها على سحابة، ومن حولها تألق شعاع يفوق في سطوعه ألف شمس، وقد تحدثت إليّ، صاحبة الجلالة، لقد تحدثت السيدة العذراء إلى خادمكم المتواضع، وهو من لم يكد يقوى على تحمل ذلك التوهج المبهر!»، ثم انحنى

ربما للمرة المئة، وتابع: «لقد أمرتني أن أبلغكم بأن كل معرفة العلماء لا تعدو أن تكون سوى معرفة أرضية بخسة سيؤدي اعتمادكم عليها إلى إبعادكم عن الإيمان وستقودكم للوقوع في الخطأ، وإن كل ما ينبئكم به علماؤكم لا قيمة له: فإيمانكم فقط، هو الذي سيقودكم إلى الطريق الصحيح!».

«من أجل شرح ذلك الذي قلته، سنيور سانتآنخيل، فأنا بالتأكيد لست بحاجة لكم»، قالت الملكة غاضبة.

«هذه ليست كلماتي، صاحبة الجلالة، بل هي كلمات السيدة العذراء، التي أحملها أنا لكم»، قال سانتآنخيل، ملقياً بنظرة سريعة إليها، «لست أنا، بل هي القديسة العذراء، هي التي تحذركم، صاحبة الجلالة، من الاعتماد على العلماء المزيفين المتغطرسين، والتنازل بسببهم بإيلاء دينكم درجة أقل من الاهتمام!».

«وأية معرفة من العلم، سنيور سانتآنخيل، بالتحديد هي التي أثارت غضب والدة الإله المقدسة؟»، سألت إيزابيلا، ما زالت هي نفسها لا تعلم لماذا كانت غير قادرة على الوثوق به. لقد كان هو بالطبع من الـ (*كونفرسو*)، ثم سألته: «هل أرادت السيدة العذراء القول لكم، إنَّ الأرض مسطحة؟».

هزّ سانتآنخيل رأسه بحدة! «على العكس تماماً، صاحبة الجلالة»، أجابها، «أبداً، أبداً! إن الله خلق الأرض كروية كي يتمكن الإنسان من الانتقال من أية جهة منها لأية جهة أخرى عليها، من دون الوقوع في أي وقت على الحافة! وهذا يعني، صاحبة الجلالة، أنه بالإمكان الإبحار من ساحلكم الإسباني وصولاً إلى أقاصي الهند!».

«هذا لا ينازع عليه أحد»، قالت إيزابيلا نافداً صبرها، «لم يكن من ضرورة للسيدة العذراء أن تكلف نفسها هذا العناء، إن ما يجعل من هذه

الرحلة أمراً مستحيلاً، سنيور سانتآنخيل!، هو المدة التي تستغرقها الرحلة، كما شرحتم أنتم بنفسكم لنا هذا؛ ذلك أن المرء سيموت جوعاً أثناء الرحلة، وأنه ليس بمقدور أي بحار الوصول سالماً إلى الهند».

فرك سانتآنخيل يديه، «إن هذا بالذات، هو ما أثار غضب السيدة العذراء المقدسة على وجه التحديد! فإن كان الله أهدى إلى خليفته آدم الأرض على شكل كروي، هكذا قالت لي، فذلك من أجل أن يتمكن الخلق من بعده من الوصول من جهة إلى أخرى من دون السقوط عند الحافة: فكيف يجرؤ خلقه من البشر على عدم قبول هدية الله بثقة مطلقة، وعلى عدم الوثوق بأن يد الله الحارسة في تلك الرحلة الطويلة هي التي ستكون من فوق رؤوس البحارة؟ ولهذا السبب لن يجوع أو يعطش أحد منهم، إن أقدم على سلوك الطريق البحري إلى الهند؟ فهل يمكن لمسيحي مؤمن أن يثق بالعلم أكثر مما يثق بحكمة الرب القدير؟».

زفرت الأميرة من أنفها زفرة غيظ واضحة، وهي في مكانها على الجانب الآخر من النوافير، «ما هذا الهراء!»، قالت يوهانّا، وقد تخلصت من احتضان آمّي لها، «ما هذا الهراء الذي تتحدثون عنه، سنيور سانتآنخيل!».

هزت الملكة برأسها مغتاظة، «اهدئي، يوهانا، اهدئي يا ابنتي!»، قالت لها بحزم، «تابعوا سنيور سانتآنخيل! ماذا أبلغتكم القديسة العذراء أيضاً؟».

«أن أتحدث إليكم، هو ما أمرتني به، من أجل أن تعملوا على تقديم مساعدتكم الكريمة إلى كل النفوس غير المُخَلَصة الموجودة في أقاصي بلاد سيبانغو وكاتاي وأيضاً في أقاصي الهند، لتخلصوهم»، قال لها سانتآنخيل، «لقد أمرتني أن أبلغكم أنها تريدكم أن تقدموا إلى السنيور كولون السفن، من أجل أن يصبح بالإمكان توصيل تعاليم ديننا المقدس إلى الناس القاطنين

في تلك البلدان البعيدة على جانبي المحيط، والتي هي على كل حال ومن دون أدنى شك، تلبية أيضاً لرغبتكم الإيمانية الورعة. إنكم مختارون للقيام بهذه المهمة، صاحبة الجلالة، خذوا هذه المسؤولية على عاتقكم، وثقوا بحكمة الله القدير».

بقيت إيزابيلا صامتة.

«اسمعوني، صاحبة الجلالة!»، قال سانتآنخيل بإلحاح، «ما هو الشر الذي يمكن أن يحدث إن فعلتم ذلك الذي طلبته منكم القديسة العذراء؟ ما هي خسارتكم في ذلك؟».

قلبت إيزابيلا شفتيها وقالت له: «إن طلبات السنيور كولون هي، كما تعلمون، متجاوزة لكل الحدود، وأنتم تذكرونها؟ يريد أن يصبح الأدميرال الأول! ونائباً للملك! وتذكرون ما كان قد طلب أن يكون في عداد ملكيته! فهل ينبغي أن يباح له كل هذا فجأة؟».

بدأ سانتآنخيل يتابع حديثه مع الملكة صعوداً وهبوطاً، فيما كانت الحصى تقضقض تحت حذائه بصوت خافت، «ولكنه سينال ما يريده فقط عندما يبلغ الهند فعلاً!»، قال سانتآنخيل بنبرة قاطعة: «أنتم على دراية، صاحبة الجلالة، أنكم لن تخسروا شيئاً، إن أنتم وافقتم على ما يطلبه! فهو لن يحصل على شيء إن هو وسفنه حصل لهم مكروه أو إن هم ضلوا طريقهم! فإن لم يصل إلى الهند، فلن يحصل على *مارفيدي* واحد، وإن رست سفنه على تلك الشواطئ، كما وعدتني السيدة العذراء، فسيكون ما طلبه لقاء اكتشاف الطريق البحري إلى الهند بخسَ الثمن في هذه الحالة، فكروا صاحبة الجلالة بالنفوس والأرواح التي تنتظر الخلاص، وفكروا أيضاً بالذهب!».

ألقت إليه إيزابيلا بنظرة غاضبة، «إن القديسة العذراء كان من الصعب

أن تظهر لكم، لأنكم تفكرون بالثروة!»، قالت إيزابيلا، «وأيضاً الأمر المهم بالنسبة إلي، كما هو بالنسبة إليها، هو النفوس فقط».

ظل سانتآنخيل واقفاً أمام كرسيها، ناظراً إليها، «لا يوجد في مملكتكم من يشك بذلك، صاحبة الجلالة!»، قال لها ذلك بنبرة قاطعة، «ولكنكم تفهمون أيضاً أن الشيء الوحيد الذي قد تخسرونه، هو مليوني *مارفيديس*، ستتكلفون بها من أجل سفن السنيور كولون، وكل ما تبقى سيحصل عليه بعدما يصل إلى هدفه فقط، ابعثوا خلف السنيور كولون ليعود إلى هنا، فما زال بإمكان الخدم اللحاق به».

أومأت إيزابيلا برأسها، وهي متفكرة، «ربما»، غمغمت قائلة.

«ومن أجل أن تصدقوني، صاحبة الجلالة، من أجل أن تصدقوني، مثلما أصدق أنا بشدة التوقع المنتظر، فإنني أضع كل ما أملك من أجل هذه القضية! لن يدفع التاج وحده نفقات رحلة السنيور كولون، صاحبة الجلالة. إن القديسة العذراء التي ظهرت لي، أخذتها أنا كإشارة إلي، بأنها تنتظر مني أن أتحمل قسطاً من واجبي».

«ما معنى هذا، سنيور سانتآنخيل؟»، سألت الملكة بحدة.

«أريد المشاركة بنفقات تجهيز المراكب، صاحبة الجلالة»، قال سانتآنخيل، «سأساهم بكل ما أملكه، أما التاج فيقدم فقط ما تبقى من النفقات».

لم يلحظ أحد قدوم الملك، الذي جاء متقافزاً إلى الباحة مع الكلمات الأخيرة التي تداولتها الملكة مع سانتآنخيل، قبّل زوجته في عنقها.

«إيزابيلا»، قال مخاطباً إياها، «كما أرى، لديك ضيوف! هل هي أمسية هاذرة؟».

كانت إيزابيلا ترتعش، «أين كنت؟» سألته، «أين كنت، فرديناند؟ كان

لدينا العديد من الأمور الهامة التي وجب إنجازها، وتم العثور على حليف الشيطان بمساعدة ابنتك، وعقد كبير المفتشين جلسة للمحكمة، ولكن غاب الملك من جديد! أين كنت فرديناند؟».

ابتسم فرديناند وأرسل بقبلة في الهواء إلى ابنته، «إنها أعمال هامة، إيزابيلا، إنها أعمال هامة!»، قال لها ذلك، ثم ركع بجانب كرسيها، وبدأ بتمسيد ذراعها، «أعتذر لأقصى الحدود، إن كان قد تم افتقادي!»، قال لها فرديناند.

إلا أن إيزابيلا أزاحت يده عن ذراعها، «لم يفتقدك أحد»، قالت له بحدة، «ليس من أحد، فكل واحد في هذه المملكة اعتاد على اتخاذ القرارات الهامة من دون ملكه».

ابتسم فرديناند مازحاً: «أوه!»، قال لها، «هل أستمع إلى قليل من غضب زوجتي الحنون؟ وهكذا دعوت إليك أمين خزانة البلاط بديلاً عني، لتتلقي منه المساعدة في اتخاذ قراراتك؟».

«إن السنيور سانتآنخيل جاء ليطلب مني السماح للجنوي بالإبحار»، قالت إيزابيلا ببرود، «لقد ظهرت له القديسة العذراء».

«القديسة العذراء ظهرت له!» هتف فرديناند، «أعجوبة إثر أعجوبة! والقديسة العذراء ترغب بأن يبحر السنيور كولون؟ أليس للقديسة العذراء هموم أخرى؟».

«فرديناند!»، نادته إيزابيلا، «بأية لهجة تتحدث عن والدة الإله!؟».

«أقول منذ الآن: إن السنيور كولون لن يبحر على حساب ذهبي»، قال فرديناند، وهبّ واقفاً، «هناك طريق جاهزة إلى الهند عن طريق البحر الأبيض المتوسط، زوجتي العزيزة، فلماذا نحتاج إلى هذا الطريق

الثاني؟ إن الجنوي لن يبحر».

«لن يبحر الجنوي؟»، سألته إيزابيلا، كيف تجرؤ على سلوك كهذا؟ أنت لا تحضر عندما تتم مناقشة الأمور، ولكنك تريد اتخاذ القرار؟ أنت لم تصغ أبداً إلى ما كان قد قاله السنيور سانتآنخيل، ولكنك تقرر من لدنك أنَّ السنيور كولون لن يبحر؟»، قالت ذلك ونهضت واقفة، «يكفي فرديناند!»، صرخت عالياً»، بحق الإله، يكفي، يكفي بالفعل! هذا السلوك ينبغي وضع نهاية له! أنت ملك، فرديناند! وأنت تتحمّل مسؤولية تجاه كل نفوس البلاد! والآن حملنا الرب مسؤولية كل تلك النفوس الموجودة على جانبي البحر وتريد أنت أن لا تدعها تتحرر؟ كما لا تريد الاستجابة إلى أمر الله؟».

أمسك فرديناند بذراعها، ولكنها نفضت يده عنها، «هذا يكفي، فرديناند! فما دمت لا تتصرف كملك، فلن يكون لك أن تقرر كملك! إن الجنوي سيبحر! إن الجنوي سيبحر!»، ثم أخذت شهيقاً عميقاً.

«دعه يَعُدْ، سنيور سانتآنخيل!»، قالت ذلك، ولكن بهدوء أكثر، «أنت على حق؛ إن لم يصل إلى الهند، فما الذي سنخسره؟ ولكن إن اكتشف هذا الطريق البحري: فكم سيكون الربح؟ ألا يستحق هذا ثمنه؟»، ثم أومأت بهدوء: «كل النفوس غير المُخَلَصة، سنيور سانتآنخيل!» قالت له، «كل النفوس غير المُخَلَصة، أشكركم، لأنكم على استعداد لتقديم ثروتكم أيضاً من أجل هذه الرحلة».

انحنى سانتآنخيل لها بشدة، «إن القديسة العذراء هي من شاءت ذلك»، قال لها.

أما يوهانّا، فقد ابتسمت من مكانها على الجهة الأخرى من النوافير.

-46-

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

لم يتبادلوا الكلام في طريق العودة إلى ***الهوستال***. لقد ذهبوا سريعاً، لقد ذهبوا هكذا سريعاً، وكأن من المهم بالنسبة إليهم أن لا تقلق السيدة هيلبرت من جديد لغياب أحد تلاميذها، في حين أن الحقيقة هي أن أمر السيدة هيلبرت أصبح سيان بالنسبة لهم. فبعد الذي سمعوه للتو في القيصرية، كان عليهم الركض بسرعة، وأن يفعلوا شيئاً ما، كي لا تحولهم تلك الحكاية التي سمعوها إلى مجانين.

وفقط، بعد أن تناولوا العشاء بدؤوا بالحديث عما سمعوه قبل ذلك. وكأنهم كانوا على اتفاق مشترك غير معلن، على أن لا يتحدث أي منهم للآخرين، عما سمعوه في القيصرية، فذهبوا إلى غرفتهم وأغلقوا بابها خلفهم، ثم جلسوا على أسرتهم، مع أنهم كانوا ما زالوا في الوقت الحر. كان ضجيج الخارج يصل إليهم من غران فيا، عبر النافذة المفتوحة.

«هل تصدق ذلك؟»، سأل سيرغاي وهو ينظر إلى طوقان، «إن هذا هو الكلام الفارغ بعينه، أم ماذا؟».

نظر طوقان لخارج النافذة، كانت شمس المساء تنعكس بلون أحمر على نافذة في الواجهة المقابلة من الشارع، «لا أعلم»، أجاب من دون أن ينظر لمن يحدثه، «حقيقة، لا أعلم».

ثم صمتوا برهة، وتبدل موقع سقوط الشمس مليمترات عدة، ثم ما لبث أن اختفى أثرها في النهاية.

«أنا أصدقه»، قال قدير ذلك على نحو قاطع، «لقد أوشك الرجل على نهايته! كان منتهياً تماماً! إلا أنه كان مصدقاً لما قاله على أي حال».

فأومأ الاثنان برأسيهما.

«ولكن كيف ستجري الأمور، إيه؟»، سأل سيرغاي، «فإن كسّر شخص ما هذه البلاطة قبل ألف سنة أو متى...»، فصحح له طوقان بالقول: «قبل خمس مئة عام».

«فهزّ سيرغاي رأسه موافقاً وتابع: «أووكي، لنقل خمس مئة، فلا بد أن تكون هناك حفرة مكانها، ظلت باقية منذ ذلك الوقت، وإلا؟ إما أن تكون في صالة السفراء، أو ما لا أعلم ما هو اسم ذلك الجزء من القصر؟ أي حيث تم نزع البلاطة من مكانها؟

«ولكن لم يكن هناك من أثر»، قال قدير، «ليس عندما كنا نحن هناك».

هزّ طوقان برأسه، «وإن يكن؟» قال لهما، «فعلى ماذا يبرهن هذا؟ هل تظنان أنهم يتركون حفرة على حالها لمدة خمس مئة عام؟ أو ماذا؟ ألن يأتي سائحون يا رجل، فماذا إن لم يكن على ما يرام! من المنطقي أن يعملوا على إعادة ترميمه!».

«إذن لا توجد حفرة»، قال سيرغاي، «فإن كان بالإمكان إعادة البلاطة الأصلية إلى مكانها، فسيكون بمقدور المرء فتح بوابة في الزمن لا يمكن إغلاقها».

أشار طوقان بحركة من يده بجانب رأسه، تعني أنه كلام يصدر عن مخبول، «هذا ممكن في الماضي، يا أبا العقل»، قال له طوقان، «وهنا تكمن

المسألة؛ إن الحفرة ما زالت في مكانها!».

صمت الثلاثة من جديد.

«ولكن على نحو ما»، غمغم قدير، «يبدو كل هذا غير منطقي، وإلا؟ أعني، كل هذه الخمس مئة سنة، أو لا أعلم كم مرّ من عدد السنوات، من دون تلك البلاطة. ولكن لو تمت إعادة بلاطة من بلاطات تلك الأيام، فمعها سيعود الزمن فجأة لزمن نزعها، فكيف ستمضي الأمور، إيه؟ إما هكذا وإما هكذا! فلا يمكن للزمن أن يتكرر مرتين، أو ماذا!».

«يا رجل»، غمغم سيرغاي، «بأي شيء تفكر يا شيخ!هذا سيعني إذن»، ثم نظر إلى الاثنين معاً، وتابع: «إن كل هذا الذي حدث، يمكن أن يحدث مرتين، وإلا؟ ومن الممكن لما قد حدث أن يحدث بكيفية أخرى، وإلا؟ وبالإمكان إذن».

«توقف!»، قال طوقان، «إن هذا هو التفاهة بعينها! أكاد أصاب بالغثيان!» ثم نظر من النافذة، حيث أصبحت الواجهة المقابلة في الظل، «إن الزمن الماضي لا يمكن استعادته، وهذا منطقي! وإلا، فمن المنطقي أن يكون الوقت الحاضر في هذه الحالة من الممكن أن يكون مختلفاً أيضاً، فهل تفهمان أنتما يا صاحبي عقل الخردة، ما أعنيه!».

«بوووه، إيه!»، قال سيرغاي وهو ينحني، «هل تريد أن تدرّس في الجامعة، أم ماذا؟ وإلا ما معنى أن تفكر بكل تلك الأشياء!».

«ومع ذلك؟»، قال طوقان»، ومع ذلك؟ فهذا منطقي أم ماذا؟ إن الزمن لا يكون سوى مرة واحدة!».

«قل هذا في دروس الفيزياء! وستنال علامة جيدة، وسيكتبون على جدول درجاتك المدرسي: طوقان يفكر! أتراهن؟».

قفز طوقان واقفاً، وأخذ يلكم سيرغاي على زنده، وهو يقول له: «اصمت! اصمت أيها العجوز، اصمت فوراً!».

بقوا هنيهة صامتين.

«هذا ما لا يمكن لأحد فهمه على أي حال»، قال قدير، بعد ذلك الصمت، «فأن يعود أحدهم إلى زمن مضى، فهذا يعني بالنسبة إليه وجود زمنين، أم ماذا؟ وهو ما يعني منطقياً أن ما يعيشه الإنسان في الثاني هو غير ما يعيشه في الزمن الأول».

«في أي واحد من الزمن الماضي موجودون نحن في الوقت الحاضر؟»، سأل سيرغاي، «هل فكرت بالأمر، أيها المخرف؟هل نحن في الأول أم في الثاني؟».

«يا شيخ!»، قال طوقان.

«ليس لدي وقت لمثل هذه الخرافات»، قال سيرغاي، «الرجل غير متزن، إنه مدمن على شرب الخمر، وقد أطفأت الخمرة مصباح مخه فأصبح معتماً، مما جعله يتحدث بتلك الحكايات غير المعقولة».

أومأ قدير بارتياح.

«أراهن على أنَّ أمراً ما قد حدث للصغير»، قال سيرغاي، «أعني حادثاً طبيعياً، يؤسفني ما حصل بالفعل، ولكن هذا هو الواقع، ستصلي أمي من أجله».

نهض طوقان واقفاً.

«هل سنخرج؟»، سأل سيرغاي، وأخذ يتمايل في مكانه على السرير، «مشاهدة النسوة الحلوات؟ وشرب بعض *السيرفيتزا*؟».

قهقه قدير، بالطبع سينتهي الحال بهم للاكتفاء مرة أخرى بشرب الكولا

فقط، وهم يحتاجون إلى شربها الآن بشدة.

الأندلس، 1492

كانت يوهانّا مستلقية باسترخاء، في حين كانت آمّي في مرقدها أمام باب غرفتها تنفخ و تخرخر وتشخر أثناء نومها، فكيف ليوهانّا في مثل هذه الحال أن تنام.

كان قلبها يخفق بسرعة، راحت تقلّب الكيس الصغير بين يديها، كان لزجاً وقد ترك آثاراً حمراء وراءه في المكان الذي كانت تخبئه فيه في صدرها.

لماذا فعلت ذلك؟ ولماذا لم تتركه بكل بساطة في الباحة، عندما هرع الحرس مسرعين إليها إثر صراخها، وإمساكهم بالصبي؟

«كإثبات؟» فكرت يوهانّا، «ربما أردت إظهاره لكبير المفتشين، أو لأمي، للملكة؟ أو ربما لا، في الواقع أنا لم أفكر أبداً».

أصبح لون الكيس الصغير أحمر بنياً عند خط فتحه، أما السائل فقد تحول إلى لون داكن، مثلما يتحول لون الدم، فلماذا اعتقدت فجأة إذن ومن جديد أن الصبي كان قد قال الحقيقة ؟

آمّي غمغمت من مرقدها أثناء نومها: «كلا!»، هكذا كانت تغمغم، وتضرب بذراعها، «كلا! أجرني من الشيطان، كلا!».

ارحمي نفسك، آمّي، ارحمي نفسك، فكرت يوهانّا في نفسها، من الممكن أن يسمعك توركيمادا، فيعمل على شدّ وثاقك إلى الدولاب، أحياناً، وعندما تتمكن يوهانّا من فهم ما كانت قد قالته آمّي أثناء نومها، كانت تخبرها به في الصباح ضاحكة منه، فيتلون وجه آمّي بالأحمر من الخجل

والخوف، وتقول لها: «هراء، هذا هراء يا حمامتي الصغيرة! فعن أية سخافة تتحدثين!».

وما من مرة تبوح فيها عما حلمت، سيان ما كانت قد قالت أثناء نومها، فكرت يوهانّا، وعلى أي حال، فما يشغلني هو شأن آخر.

ومن جديد، بدأت تصدق الصبي، لأنها لم تصدق سانتآنخيل، لقد انتهت لهذه النتيجة، ولهذا السبب أخذ قلبها يخفق بسرعة، إذن، فماذا لو كان سنيور سانتآنخيل يكذب على الملكة...

ثم جلست وأخذت تراقب القمر الذي يبدو كمنجل أبيض مزرق، إن البحارة يعرفون أيضاً كيف يستفيدون منه ليجدوا طريقهم فوق لجة البحر وهم في طريقهم إلى الهند.

لقد اخترع سانتآنخيل قصته تلك، فلماذا تظهر القديسة العذراء بالذات إلى يهودي متنصر *كونفرسو*؟ عضت يوهانّا على شفتيها، هي لا تؤمن على أي حال بأن القديسين يظهرون لكل أولئك الأتقياء الورعين، كما تؤمن بدرجة أقل أيضاً بمقولة أن الشيطان قد أغوى نصف البلدان الإسبانية، ولكن حسناً، حسناً الآن: فحتى إن كانت القديسة العذراء قد ظهرت في وقت ما أو في مكان ما، فلماذا تظهر بالتحديد للسنيور سانتآنخيل؟

ولماذا إن كانت القديسة العذراء تريد أمراً ما من الملكة، لا تظهر للملكة نفسها؟ ولماذا كل هذا اللف والدوران للوصول إلى الملكة، بالرغم من خطر احتمال عدم تصديق الملكة للسنيور سانتآنخيل؟ في حين أن إيزابيلا كانت ستنفذ أمر والدة الإله من دون تردد، لو ظهرت لها في الحلم، فلماذا لم تفكر القديسة مريم بذلك؟ ولماذا إن كانت ترغب بتوصيل رسالة، تصرعلى الظهور إلى هذا اليهودي المتنصر من *الكونفرسو*؟

لقد كذب سانتآنخيل، وبذكاء، لقد عرف ما يريد إبلاغه للملكة، وقد عرف طريقة إغوائها بالكيفية التي لا تستطيع الاعتراض عليها، ولكن لماذا يرغب أمين خزانة البلاط من والدها فجأة دفع الجنوي للسفر، وهو الذي كان حتى إلى ما قبل أيام معارضاً بشدة لإبحار كولون؟ بل قبل أسبوع كان قد شرح لماذا يرى هذا المشروع المجازف متعذراً، ولماذا يلحّ فجأة على الملكة كي تقدم إلى كولون السفن التي يحتاج إليها؟ ولماذا، وبكل ثمن في العالم، يريد انطلاق هذه الرحلة، بل هو مستعد لتقديم ما يملكه أيضاً لدعمها؟

أخذت يوهانّا تنقر بأصابعها على ملاءة السرير الحريرية، وتمنت لو أنها تتحدث مع أحد ما؛ فأمي، فكرت يوهانّا في نفسها، لديها بلدان مملكتها، ولديها إيمانها وورعها، ووالدي لديه عشيقاته، وشقيقاتي صغيرات، وآمّي غبية؛ ليس لدي أحد، دائماً وحدي لو أنني لم أشِ بالصبي...

فقط، هذا السبب هو ما يمكن أن يكون ما دفع سنيور سانتآنخيل لتغيير رأيه، لقد صدق ما قاله الصبي.

لا علاقة لأمين خزانة البلاط بالطريق البحري إلى الهند، فكرت يوهانّا في نفسها؛ إنه يعرف جيداً أنه طريق بعيد، ولهذا السبب من غير الممكن سلوكه. إن ما كان يهمه، هو تلك الأرض الغامضة، أمريكا. تلك التي تحدث عنها الصبي، تلك الأرض غير المعروفة، التي تقع بين ساحلين معروفين، وهي من القرب بحيث يمكن للناس أن يصلوا إليها، هكذا فقط يمكن تفسير سبب إلحاح سنيور سانتآنخيل، كي يحصل كولون على سفنه.

حدقت يوهانّا بالكيس الصغير، فإن كان سنيور سانتآنخيل، سانتآنخيل المعروف بحذره، قد صدق رواية الصبي عن أمريكا، ألا يعني هذا أنه يصدق أيضاً روايته عن السفر عبر الزمن؟ وهذا يعني أن الصبي لا علاقة له بالتحالف

مع الشيطان؟ وبأنه جاء حقيقة بظروف غامضة من ذلك المستقبل البعيد؟

أخذت أصابعها بالارتجاف، إنه رسول من المستقبل، أما هي، فقد قامت بالوشاية به إلى توركيمادا.

وباحتراس شديد قرّبت الكيس الصغير إلى شفتيها، إن كان قد قال الحقيقة، فإنه لا يعدو أن يكون مجرد عصير لفاكهة غريبة، لا يوجد مثلها إلا في أمريكا.

وقربت رأس لسانها بحذر، مغامرة بتذوق ذلك السائل البني، فضغطت على ذلك الزجاج اللين إلى أن خرج ما تبقى من السائل الأحمر، حلو، حلو، بقليل من الحدودة مثل طعم ثمرة، لم تذق مثلها في حياتها.

تركت يوهانا الكيس الصغير يسقط من يدها، بقعة فقط على الملاءة الحريرية، لم يكن دماً، لا، ليس دماً، فطعم الدم يشبه طعم المعدن، والدم له طعم الملح، لقد قال الصبي الحقيقة.

أخذ قلبها يدق الآن بسرعة أكثر فأكثر، وكادت لا تقوى على التنفس، ولكنها تحب هذا، هي تحب ذلك الحال الذي يدق فيه قلبها بسرعة كبيرة، فهي تحس بحيوية، فلا تعود تحس بالملل، والسنيور سانتآنخيل يصدق بأن الصبي قد جاء من زمن آخر، وهي تصدق ذلك أيضاً.

«أيتها القديسة والدة الله، إنني أشكرك!» همست يوهانّا.

بعد قليل سيقوم كبير المفتشين بوضع الصبي على أداة لف الإبهام، وتحزيمه على الدولاب، فلماذا لا يسأل توركيمادا نفسه، كيف أن كل الناس الذين ينعتهم بأنهم شركاء الشيطان، كالساحرات والهراطقة وحلفاء الشيطان، لماذا لا يتمكن جميع هؤلاء من أن يتحرروا من زنازينهم بمساعدة الشيطان؟ ولماذا تكون مساعدة الشيطان ليس لها قدرة على المساعدة، ولماذا يكون

ليس من السهل على إبليس تقديم المساعدة لأتباعه مع أنه هو رب جهنم.

زفرت الأميرة من أنفها زفرة غيظ غاضبة، إن كبير المفتشين كان ذا غباء أعمى، فإن كان الصبي قد أرسل من قبل الشيطان، فلماذا لم يتمكن الشيطان من تحريره؟

ولكن لأن الصبي ليس في حلف مع الشيطان، ولأنه ليس إلا مسافراً قدم إليهم من المستقبل البعيد عبر الزمن؛ لهذا السبب ينتظر الآن في السجن تحت برج كوميروس تورم، إلى أن يخرجه أحد أتباع توركيمادا كي يجرب به أدوات تعذيبه المتنوعة أولاً، وليقوده من ثم إلى المحرقة.

هي فقط المسؤولة عن هذا الذي سيحصل له؛ فلو أنها لم تصرخ، ولو أنها صدقته، لما كان حصل هذا، هي المسؤولة.

وبعد موته، وهو الأكثر فظاعة، ستعود الأمور إلى سابق عهدها من جديد، كل يوم كسابقه، وهكذا، هكذا على الدوام، مرة واحدة في كل حياتها حتى الآن عاشت شيئاً مدهشاً، فحطمته.

طأطأت يوهانّا رأسها على مهل، لقد اختفى القمر وراء الأفق، وهي التي جاءت بالصبي إلى السجن؛ وهي التي ستحرره منه.

-47-

عندما لم يعد الرسول حتى وقت متأخر من قبل الظهر، أمرت إيزابيلا بسرج حصان لها.

لماذا لم يأتِ؟ أَلَمْ يتمكن من اللحاق بكولون؟ أم أن كولون لا يريد أن يغفر لها ازدراءها به في السنوات السابقة، أم أنه تابع طريقه إلى ملك باريس؟

لم تعد تتحمل المزيد من ريبتها أكثر، فإن كان سنيور سانتآنخيل نفسه على استعداد لبذل ثروته، وهو الذي أبقاه فرديناند أميناً لخزانة البلاط، لأنه على درجة من الذكاء والحنكة، فإنها تستطيع أن تكون على يقين، من أنَّ كولون سيتمكن من بلوغ هدفه. وأن هناك كنوزاً كالجبال، ومن كل بد توجد نفوس كثيرة أيضاً، إلا أن كولون لم يرجع؛ لذا، ركبت هي حصانها لمقابلته.

وفي سانتا فه، حيث معسكر الجيش، الذي كانت قد جهزته لقواتها على هيئة صليب عندما كانت تستعد لمحاصرة غرناطة، التقيا أخيراً هناك معاً، لذا اعتبرت اللقاء في هذا المكان يحمل فألاً حسناً لها.

«سنيور كولون!» نادته إيزابيلا، «ما أسعدني بعودتكم».

انحنى الجنوي لها انحناءة خفيفة، من دون أن يبدو على وجهه أي تواضع مصطنع، من ذلك الذي لم تكن لتصدقه أبداً على أي حال.

«لقد كنا، سنيور، في محادثة مهمة، عندما وصَلَنا بالأمس طلبكم» قالت إيزابيلا»، والذي تُعلموننا فيه بأنكم تريدون مغادرة البلاد، وقد كان الأمر

يتعلق بتحقيق محكمة التفتيش، سنيور كولون، لقد تم القبض على صبي، أرسله الشيطان بنفسه إلى قصرنا».

«انحنى لها الجنوي من جديد على نحو يكاد المرء لا يلحظه، لقد بدا مرهقاً، ومعطفه البالي كان قد غطاه الغبار، وكانت تشتم منه رائحة العرق وآثار التعب والمشقة.

«لذا لم تكن هناك فرصة، لحملكم على الانتظار، أو دعوتكم من أجل محادثتكم ثانية»، قالت له، «فمحكمة التفتيش كما تعلمون تتقدم على كل ما عداها».

والآن، لم يعد كولون يكلف نفسه، حتى القيام بأية انحناءة للملكة.

«حسنا، وكما كان»، قالت إيزابيلا، وقد صعب عليها أن تشعر في كل مرة، وهي في مواجهة هذا السوقي، وكأنه قد أمسك بها، بينما هي تحاول أن تشرح له ما تود تبريره، «وفور الانتهاء من التحقيق، طلبنا استدعاءكم، لقد قررنا، سنيور كولون»، وأشارت إلى خادمها، الذي تقدم وهو يحمل لفافة من الرق، «لقد أعددنا ثلاث سفن من أجل رحلتكم إلى الهند».

لم يحرك الجنوي ساكناً، «يبدو لي من خلال محادثتنا الأخيرة، أنكم وجدتم ما حملته لكم آنذاك خيالياً»، قال لها.

لوحت إيزابيلا له، «بعد إمعان وتدقيق النظر»، قالت له، «بعد إمعان وتدقيق النظر، انتهينا للاقتناع بالسماح لكم ببدء الرحلة».

أومأ كولون برأسه بهدوء، ثم نظر إلى عينيها وقال لها: «هذا لا يكفي».

أوه، وقاحته، هذه الوقاحة دائماً، أما كان بالإمكان أن يكون شخصاً آخر غيره، هو من يجرؤ على السفر إلى الهند؟ ولماذا اختار الله بالذات ابن نسّاج للصوف لهذه المهمة؟

«وأيضاً ما طلبتموه، سنيور كولون»، قالت ذلك وأجبرت نفسها على اصطناع ابتسامة، «تمت تلبيته لكم»، ثم أخذت الرق الذي كان يمسك به الخادم، «وكما ترون، فقد وضعنا عليه ختمنا، وبالنسبة إلى رحلتكم لم يعد أمامها أي عائق الآن، سنيور كولون».

لاحظت الملكة الاستخفاف في عينيه، وهو استخفاف لم يعمل حتى على إخفائه، «هذا سار»، قال لها، ثم تفحص الخاتم ولم يبدِ استعداداً لتقبيل يدها، كما لم يركع على قدمه، ولم يبدِ أية إشارة معبرة عن الشكر.

«لقب الشرف، دُوْنْ، ينبغي أن يعطى لي ولكل ذريتي؟ ومرتبة أميرال في أسطولكم ومنح جميع الصلاحيات التي يحملها الأميرال الأعلى؟ وحصة العشر من مدخول البلدان الجديدة، وكذلك الحق في ثُمن كل المؤسسات التجارية التي ستكون هناك؟».

«كل ذلك مستجاب»، قالت الملكة.

«وحق التقاضي في كل البلدان الجديدة؟ ولقب نائب الملك و الحاكم العام على كل البلدان التي سيتم اكتشافها، وكذلك الحق في اختيار كل الموظفين وتعيينهم؟ وتقديم ضمانات بأن كل تلك الصلاحيات والتفويضات وكل العائدات المالية قابلة للتوريث وتسري على أولادي؟

«كل هذا مستجاب»، قالت إيزابيلا من جديد، لقد كان ذلك استسلاماً.

«حسناً»، قال كولون وابتسم، إنها تكرهه، لقد زال استخفافه الآن، إنها تكرهه، «إذن، دعونا نتحدث، عمّا أحتاج إليه للرحلة».

لم يعد وجهه باهتاً ومجهداً، أما عيناه فقد كانتا ممتلئتين بالغطرسة و الصلافة، لماذا هذا الرجل بالذات، أيها الرب.

إن القديسة العذراء طلبت منها هذا، والمسألة تتعلق فقط بأنها من أجل النفوس الموجودة في أقاصي بلاد الكاتاي.

كان الجو في السجن بارداً ومعتماً، وقد أسند بوسطن ظهره إلى الجدار، في حين تدلى رأسه على صدره، كان الخوف من التعذيب قد بلغ مداه لديه، فلم يعد يفكر بأمر غيره، منذ أن تم اقتياده من التحقيق إلى الزنزانة، أما المحرقة التي ستلي التعذيب، فلم تعد تخطر في باله، فمن أمكنه تحمل معاناة الربط إلى المقعد، وسيناله بعد ذلك ساحق الرأس، فكيف يمكنه بعد هذا أن يشعر بالألم.

فكيف تسنى له أن يعتبر العودة إلى بيته أمراً هاماً؟ لا شيء هام، لا، لا شيء أهم الآن من ذلك الخوف الفظيع من الألم، وهو الأمر الذي يجعله مشوشاً، بحيث نقلته تلك الأفكار إلى حالة من السكون.

«بوسطن»، ناداه طارق، «بوسطن، أنت تبكي!» لم يشعر بوسطن حتى بأنه يبكي، لا يعدو هذا أن يكون شيئاً أكثر من الخوف، «لا تمنحهم ما يشتهونه!»، قال طارق، «لا تكن جباناً! ستكون بعد قليل في جنة الفردوس السابعة!».

«مسيحي!»، سأل إسحاق وابتسم.

«ألسنا جميعنا من أهل الكتاب **دهيمي**[1]، أبناء إله واحد؟» أجابه طارق. «ففي جنة الفردوس السابعة سنشرب جميعنا من النبع الواحد نفسه!».

هزّ بوسطن برأسه، «لدي خوف فظيع، طارق»، همس له، «ألست

---

(1) (راجع جدول شرح الكلمات في نهاية الكتاب)، مع العلم أن كلمة: دهيمي– dhimmi هي الترجمة الأجنبية لكلمة ذميّ. وقد جاء هذا التحوير لعدم وجود حرف (ذ) في اللغات الأجنبية فأصبحت (ذ) = (dh)، وكلمة dhimmi = ذمي. (المترجم)

خائفاً؟ ألا تخيفك المحرقة؟ لم أعد أخشى الموت، ومنذ زمن بعيد لم أعد أخشاه، ولكن التعذيب مؤلم، إنه يؤلم على نحو مريع».

نظر طارق إليه، «عليك أن تأمر نفسك، بأن لا تفكر بهذا»، قال له ذلك ونهض واقفاً، وأخذ يمشي في الزنزانة الصغيرة ذهاباً وإياباً، «لا تكن جباناً، فكر ببيت والدك حيث الألفة والحميمية، وفكر بالعصافير التي صحوت باكراً على زقزقتها! وفكر بالأعياد السعيدة التي احتفلتم بها، وبموسيقى العود وكيف أكلت وشربت إلى أن بلغت الشبع من الأطباق الشهية التي ملأت بها بطنك الذي أصبح يهتز كما لو كان طبلاً يمكن القرع عليه! فكر بالفتيات اللواتي زرنك في الأحلام، وفكر بكل شيء ما عدا ذلك الذي ينتظرك بعد قليل».

«هل تفعل أنت ذلك؟» همس بوسطن، وقد استغرب أن لديه الرغبة بالكلام؛ فما زال الخوف ممسكاً به، وهو لا يستطيع تهدئة نفسه، إلا أنه وجد تعزية في الحديث، «يؤسفني جداً، كل هذا الذي حصل، طارق! فأنت هنا بسببي فقط! وأنت أيضاً سالومون! فلو لم تحاولوا سرقة البلاطة الخزفية لي...» ثم تنهد عميقاً، «أيضاً أنتم، إسحاق، إنني أرجوكم أن تعذروني».

كان إسحاق مسنداً ظهره إلى الحائط وعيناه مغمضتان، وكان ذراعه ملقى على كتف ابنه، أما سالومون، فقد بدا وكأنه مستغرق في النوم.

«ليس لك ذنب في هذا»، قال إسحاق وقد فتح عينيه، فحتى لو لم تكن أنت أصلاً، كانوا سيقبضون عليّ، وربما على سالومون أيضاً، وربما على طارق كذلك، كلا، لن يتهمونا حينها بالاتفاق مع الشيطان! ولكن إن لم تكن أنت قد ظهرت، فنكون قد خرقنا قانون الملكة، وسيجابهوننا بالعقوبة! ولن تسمح محكمة التفتيش، للناس الذين حاولوا خداعهم كما فعلنا نحن،

أن يضمنوا حياتهم. ألن يفعل من سيأتي بعدنا مثلما فعلنا نحن؟ إذن بدونك أيضاً كانوا سيحرقوننا، أيها الفتى، وإن كل غرناطة كانت سترى وتهتف: ***ها هم الذين حاولوا مساعدة المارانوس، كي ينقلوا ما يملكون خارج البلاد! الذين أرادوا مساعدة المغاربيين لإعادة السيطرة على غرناطة.! انظروا إليهم كيف يحرقون! هذا هو قصاصهم العادل!*** ».

«شكراً»، أجابه بوسطن، فالكلام كان تخفيفاً له من عنائه، وليشعر بأنه ليس وحيداً، «ولكنني فعلت ما هو الأسوأ، فطارق وسالومون كان يمكن أن يكونا حرين».

قفز طارق واقفاً، وأخذ ينقر على باب الزنزانة، ومن خلف قضبان نافذتهم الصغيرة، ظهر وجه الجندي الحارس؛ وداخل بوسطن شعور بأنه قد رآه في مكان ما من قبل.

«هيه، أنت، آكل لحم الخنزير!»، صاح طارق، «لماذا لا تفتح لنا الباب؟ ألا تخشى من الشيطان الذي نتحالف نحن معه، أن يعاقبك بقسوة بسبب ذلك ذات يوم في نار جهنم؟».

ظل الوجه الذي ظهر من النافذة هادئاً، «من يستطيع أن يعاقب بقسوة أكثر من كبير المفتشين؟»، سأل الجندي، «هل تريدون ماء؟».

كان سالومون قد استيقظ مع الكلام الذي تحدث به والده، «يمكنك أن تدعي، أيها الجندي، بأن الشيطان قد حررنا، فكيف تستطيع أن تواجه الشيطان؟ يمكنك أن تدعي بأن الشيطان قد خلع الباب، وأنه هددك بسيفه المشتعل».

«هل تريدون ماء؟»، سأل الجندي من جديد، وقد لمح التعاطف في عينيه.

«أطلق سراحنا!»، صرخ طارق وأخذ يقرع بقبضتيه على الباب الخشبي المصفح بالحديد، «أطلق سراحنا!».

«طارق!»، ناداه سالومون، وشده من كتفه للوراء، «لا تخف! أنت لست وحدك!».

انشدت كتفا طارق بقوة، «أنا لست جباناً»، غمغم مجيباً.

«لا يوجد جبان هنا»، قال إيزاك.

-48-

لم ترغب في إجراء محادثتها في الباحة، فالمحادثة بجانب النوافير، تكون ودية وغير رسمية، ولكن ليس مع الجنوي، لقد أرادت الجلوس في قاعة يتم فيها الإيحاء بأنها هي الملكة. كان مسند كرسيها مرتفعاً، واللون الذهبي لمسندي الذراعين والأرجل، يمنحان شعوراً بأنه كرسي مثل كرسي العرش. أما الكرسي الثاني، الذي جلس عليه السنيور سانتآنخيل، حاملاً بين يديه قوائم مليئة بالأرقام، فقد بدا كرسياً ضئيلاً أمام كرسي الملكة، أما الكرسي الثالث فكان فارغاً، لم يكن كولون أكثر من رسام خرائط، وابن نسّاج للصوف، فليس ما يدعوها لترهبه.

«أهه، سنيور كولون»، قالت له إيزابيلا، عندما دخل إلى ***صالة دي لوس إمباسادوريس***. كان قد قصّر لحيته وشذبها، وتفوح منه رائحة ماء الورد، وهذا يعني أنه يعلم قيمة ***الحمام*** الذي لا يضاهى، أي حمام المغاربيين، ومعطفه فقط ظل على حاله مغبراً وبالياً: «دعنا إذن نتداول، كيف ستتم رحلتكم».

«دُوْنْ كريستوبال»، صحح لها اسمه ببرود، «وأيضاً بالنسبة إليكم، صاحبة الجلالة، لم يعد اسم السنيور كولون مقبولاً»، ثم جلس على الكرسي الثالث، من دون أن يكلف نفسه عناء تقبيل يدها، «لم تعد مناداتي سنيور صالحة، صاحبة الجلالة، لقد رفعتم مقامي بموجب ختم منكم إلى مرتبة النبلاء قبل قليل».

حدجته إيزابيلا بنظرها، لم تقابل شخصاً من قبل مثله، «دُوْنْ كريستوبال إذن»، قالت له، فهل تستطيع إلغاء موافقتها؟

«مليونا *مارافيديس*، سأحتاج إليها لبناء السفن، وتجهيزها، فبالنسبة لهذه المسألة لن يكون الأمر بسيطاً، لرحلة خطرة مثل هذه التي نحن بصددها، فمن المهم أخذ عدد كافٍ من البحارة، وأيضاً من أجل هؤلاء ينبغي أن يُهيأ لهم مبلغ من الذهب»، قال كولون.

ظل سانتآنخيل محنياً رأسه فوق أوراقه، «إن خمسة آلاف قطعة ذهبية»، قال سانتآنخيل، «تبدو لي مرضية، صاحبة الجلالة، وهي مطابقة لحساباتي تماماً، إنها مليونا *مارافيديس* لسفن دُوْنْ كريستوبال».

«إنها لكم»، قالت الملكة، من دون أن تلتفت إلى كولون.

«بقي أن يتم تقرير من أين ستنطلق الرحلة»، قال كولون، «فالشهرة والمجد ستلتصقان بذلك المرفأ فيما يأتي من الزمان».

أوه، يا لغطرسته، «مالاقا؟»، قالت إيزابيلا، ألا ينبغي أن تنطلق الرحلة من هناك؟ فهي غير بعيدة عن غرناطة، حيث يقيم البلاط الملكي في الوقت الراهن؟».

أومأ كولون للملكة، وقال: «إن المرافئ في هذه المنطقة مختنقة بالمهاجرين مثل شوارعها! إنهم يهودكم، صاحبة الجلالة، وهم يغادرون البلاد بالآلاف بحسب طلبكم، ومعظمهم عن طريق البحر! لذا لن نجد أي قبطان على استعداد لرحلة محفوفة بالمخاطر، كتلك التي أعد لها أنا، ما دام يكسب عن طريق *المارانوس* ذهباً أكثر وبجهد أسهل وخطورة أقل».

نظر إليه سانتآنخيل، «هل يعني هذا، سنيور كولون»، ثم ابتسم ساخراً وهو ينحني، «المعذرة، دُوْنْ كريستوبال، هل يعني هذا أنكم تظنون أنه من

غير المواتي لكم الإقلاع في هذه الأوقات؟ إذن لماذا أبديتم كل هذا الإلحاح، من أجل أخذ موافقة الملكة على خطتكم لهذه الرحلة؟».

أومأ كولون برأسه، «اليهود يهربون عن طريق البحر المتوسط»، ردّ عليه»، إنهم يرحلون إلى صقلية وإلى القسطنطينية وسواحل البحر المتوسط مثل المجانين، أما في الغرب، ثم ابتسم، «أما في الغرب، ومن حيث ستنطلق رحلتي، فالموانئ فيها هادئة، فميناء بالوس يبدو لي ملائماً في هذه الحالة، صاحبة الجلالة، ثلاث سفن، ثلاث سفن قررت مدينة بالوس أن يتم تجهيزها لي».

«كنتم تعرفون بالضبط ما كنتم تريدونه، دُوْنْ كريستوبال»، قالت الملكة ببرود.

«ومترجم أيضاً»، قال كولون، «إنني أحتاج إلى مترجم أيضاً؛ إلى رجل يجيد العديد من اللغات، يتمكن في أحسن الحالات من أن يجيد واحدة من بينها يتفاهم بها مع خان كاتاي، العربية، العبرية، وربما القبطية؛ أي لغات الشرق، وهي اللغات الأقرب إلى لغات كاتاي وسيبانغو من لغتنا».

«إن هذا يبدو لي ضرورياً، صاحبة الجلالة»، قال سانتآنخيل، «إذ في واقع الأمر، إن وصل إلى الساحل الشرقي عن طريق الغرب»، وهزّ منكبيه، «فكيف سيتفاهم مع الوثنيين؟ وكيف سيفهم ما يريد الناس هناك أن يقولوه له؟ وماذا بشأن نفوسهم التي علينا كسبها وتخليصها، صاحبة الجلالة، وحمل تعاليمنا المسيحية المقدسة التي علينا إيصالها إليهم بلغة يفهمونها».

«وهل تعرفون في غرناطة واحداً من مثل هؤلاء؟»، سألت إيزابيلا، «واحداً يتقن كل تلك الألسن؟».

تردد سانتآنخيل، ثم قال: «أستطيع أن أسمي لكم العلامة لويس دي

توريس فقط؛ الذي يعرف إلى جانب تلك اللغات، اليونانية والأرمنية، إلا أنه...» ثم صمت.

«إلا أنه ماذا؟»، سألت الملكة.

«إنه يهودي»، قال كولون، «بل هو ليس حتى ممن تنصروا، أي ليس كونفرسو. لقد ذكروا لي اسمه أيضاً، إنه يتحدث القشتالية جيداً مثلما يتحدث العربية، كما يتحدث العبرية واليونانية والأرمنية والقبطية، إلا أنه يهودي، فهل ترغبون، صاحبة الجلالة، في السماح ليهودي المشاركة برحلة في المهمة الملكية التي قررتموها؟».

أحنت الملكة رأسها، ثم سألت: «ألا يمكن تنصيره قبل بدء الرحلة؟».

هزّ كل من كولون وسانتآنخيل رأسيهما بالسلب، وكأنهما كانا معاً على موعد واحد.

«وحتى إن تم تهديده بالأدوات؟» همست الملكة، من دون أن تنظر إلى أحد منهما.

«إنه على استعداد للموت قبل أن يخون عقيدته، صاحبة الجلالة»، قال لها سانتآنخيل»، إنه، وكما سمعت، ليس واسع الثقافة والعلم فقط، بل هو فائق العناد أيضاً».

هزّت الملكة رأسها بتأمل، «حسناً، إن كانت هذه هي مشيئة الله، في أن يكون يهودياً هو من سيساعدنا في تخليص النفوس في الهند من أجل أن ينضموا إلى ديننا»، قالت الملكة ذلك بلهجة تقريرية قاطعة، «فليسافر هذا اليهودي أيضاً، فطرق الله العجيبة لا تدرك».

ولأول مرة انحنى فيها كولون للملكة في هذه المحادثة، «سأعود غداً للتحدث إليكم، صاحبة الجلالة»، قال لها كولون، «بعد أن يكون كاتبكم

قد أنجز الأمر الملكي لمدينة بالوس، مذيلاً بخاتمكم»، ثم غادر القاعة من دون أن ينتظر حتى سماع جواب الملكة.

فعمّ بعد ذلك الصمت.

«لقد أردتم ذلك، سنيور سانتآنخيل»، قالت الملكة إثر ذلك.

«إنها القديسة العذراء، هي من أراد ذلك، صاحبة الجلالة»، قال سانتآنخيل، وهو ينظر إليها ويبتسم.

«إنه يعلم ما يعتمل في نفسي»، فكرت إيزابيلا، «وهو يعلم مقدار اشمئزازي من كولون».

«تفضلوا بتكليف من يعد لكم أمراً، في هذه الأثناء، صاحبة الجلالة، يسمح فيه لليهودي بمصاحبة سفن دُوْنْ كريستوبال في رحلته»، قال لها سانتآنخيل، «وأن يحدد في الأمر بأنه المترجم باسم التاج»، قال لها ذلك في الوقت الذي غابت الابتسامة فيه عن وجهه، «ليس من السهل ليهودي أن يسافر عبر بلادكم».

«سيتم إعداد الأمر»، قالت له إيزابيلا، «إن أحببتم الانتظار».

قرعت الجرس ليحضر الكاتب.

أحضر لها الخادم إبريقاً من الماء تعوم فيه شرائح من الليمون.

ثم انتظروا صامتين.

-49-

انتظرت يوهانّا سانتآنخيل خلف بوابة بويرتا ديلا يوستيسيا وهو في طريق عودته إلى المدينة، فتربصت له مثل لص داخل دغل على جانب الطريق، لقد كان ذلك رائعاً.

«أبعد الحوذي من هنا!» قالت يوهانّا.

رفع سانتآنخيل حاجبيه مندهشاً، وانحنى لها من نافذة عربته، «لقد فاجأتموني أيتها الأميرة»، قال لها، ثم أعطى للحوذي إشارة: «اذهب غير بعيد من هنا!».

«قد أفاجئكم للتو أكثر أيضاً، سنيور سانتآنخيل!»، قالت له يوهانّا، وهي تصعد إلى العربة لتجلس بجانبه.

بعد أن انتهت من الحديث إليه، أحنى لها سانتآنخيل رأسه، «إنني أعرف إمكانية ما»، قال لها، «وفي الحقيقة، أيتها الأميرة؛ أنتم تفاجئونني بأكثر مما أستطيع قوله، ولكنني لن أسألكم عن الأسباب».

«ولماذا ينبغي لكم ذلك، فلا علاقة لكم بالأمر»، قالت يوهانّا، «هل يمكنني الاعتماد على وعدكم؟ إن لم يتحقق وعدكم، فأنتم تقامرون برأسكم، سنيور سانتآنخيل».

انحنى لها سانتآنخيل ساخراً، «إن رأس كونفرسو في هذه المملكة لا يساوي قيمة كبرى على أي حال»، أجابها، «فمن يدري ما يمكن أن يحدث

أيضاً لرأسي المسكين، ولكن سموكم، تقامرون برأسكم أيضاً».

ضحكت يوهانّا. «أنا، رأسي أنا؟»، قالت له، «ماذا يمكن أن يحدث لي؟ إنني ابنة الملكة، فلا يمكن لمحكمة التفتيش أن تمسني، فإن فشل المخطط، سنيور سانتآنخيل، وإن تم اكتشاف ما قمت بفعله؛ فإنهم سيقولون إنني حمقاء. ***يوهانا لا لوكا***، يوهانّا المخبولة! هذا ما سيقولونه، أيها السيد أمين خزانة البلاط، ليس أكثر من ذلك، فماذا يمكن أن يحدث لي أكثر من هذا؟».

«أنتم ابنة والدتكم الملكة، أيتها الأميرة»، قال سانتآنخيل، «ومع أنني ما زلت لم أفهم شيئاً، ولكن لا تشبه امرأتان بعضهما بعضاً».

صفّر سانتآنخيل لحوذي عربته، وغادرت يوهانّا العربة، «إلى فجر الغد»، قالت له، «لا حاجة بكم لأكثر من أن تظهروا في الزقاق وتعطيهم إياه، لا حاجة بكم لأكثر من هذا».

انحنى لها سانتآنجيل، «سنصلي للقديسة العذراء، كي نوفق في ذلك»، قال لها، «راجياً، أيتها الأميرة، أن توفروا احتمال تسميتكم في المستقبل (بالأميرة الحمقاء)».

جلس الحوذي في مكانه، كانت يوهانّا تضحك؛ فلم يعد الحال مملاً، وكل شيء أصبح جيداً.

كان الضباب قد تمدد فوق الجبال، وبقي هكذا من دون أن يتحرك مع اعتلاء الشمس عالياً، فبقيت ملامحها تلحظ عبر ذلك الغمام فحسب.

إلا أن الشمس لم تعد تُرى فوق سهل البوخاراس، كما قال أبو عبدالله في نفسه، ولكن ربما كانت الشمس تشرق في البعيد، حيث ما زالت مدينتي غرناطة، زهرة جبال السييرا، ترقد هناك في مكانها بانتظاري.

ألقى نظرة إلى الوادي، كان الجنود يتصرفون هناك بهدوء، وكان المرء يلحظهم مساء وهم يتسامرون بلعبة النرد الممنوعة، كما كان القائد مهذباً، وقد تصرف دائماً وكأنه يقوم بمجرد زيارة ودية، سيقوم بعدها بالانسحاب مع من معه، وهم يلوحون بأيديهم ساعة الوداع، مثلما يفعل الصديق عندما يغادر صديقه.

ولكنني أسيرهم، قال الأمير لنفسه، إنني أسيرهم، وأنا في إمارتي، نعم في إمارتي التي تكرموا بمنحها لي، يا للعار.

«الأمير؟»، ناداه صوت القائد من خلفه، «أتيت لأرجوكم بجولة في لعبة الشطرنج».

ألقى أبو عبدالله نظرة أخيرة على الوادي، لم تعد توجد شمس هناك.

«إنني قادم أيها القائد»، قال ذلك وهو يبتسم.

سيذهب من هنا، وفي الجانب الآخر من المضيق سيستقبله سلطان مراكش بترحاب.

أنت تسلم إذن مدينتك؟ وتسلم مملكتك، وهذه المرة للأبد؟ وتتخلى عن كل آمالك؟

ما الذي تستطيعه في مواجهة الملكين، فبالذهب الذي سلبوه من اليهود، سيزيدون من قوة جيشهم، ولن يخشوه لمدة طويلة، سينسحب عبر المضيق. لن يكون أميراً بعدها، ولكنه سيكون حراً.

وتترك شعبك في محنته.

وما الذي تستطيعه في مواجهة الملكين، لقد اتخذ قراره.

«من سيقوم بالنقلة الأولى؟»، سأل الأمير.

كانت يوهانّا تفكر وهي في الطريق إلى مجمع خدمات القصر الذي

يسمونه المدينة، كانت تلك هي المهمة الأصعب؛ فكل ما تبقى بدا لها هيناً، إثر المحادثة التي أجرتها مع سانتآنخيل، هذه هي الخطوة الأولى، والخطوة الأخيرة، ولكنها كانت تفكر فقط من أين ستأتي بالعربة.

كان بناء المطبخ قد شيد بعيداً بما فيه الكفاية عن القصر، وكان عدد الحراس محدوداً، وهذا جيد، أما الخدم فكانوا يمرون في مواجهتها ويخفضون للحال نظرهم للأسفل، لقد تمزق رداؤها قليلاً وتشعث شعرها وعلقت به الأوراق من الدغل، أستطيع أن ألقي بهم جميعاً في السجن إن شئت، ولن يسأل عنهم أحد، فكرت يوهانّا في نفسها معزية، شعب بسيط، رعاع، حزمة من السفلة، ليحدقوا بي ما شاؤوا.

في الساحة الحجرية أمام مخزن المؤونة وقفت مبهوتة، كان هناك بغل يشحج بصوته عالياً، ربما كانت القديسة العذراء قد باركت مجازفتها المزمعة، بلمسة من يدها.

«أما زلت هنا؟»، سألت يوهانّا، انحنى لها الراهب قصير القامة، لقد لبس الآن رداءه الكهنوتي، الذي لا يعلم أحد من أين جاء به، وقد أحكم شد ردائه فوق كرشه، الذي كان الصليب يهتز من فوقه مع كل شهيق يأخذه.

«لقد حققوا معي طويلاً، صاحبة السمو»، قال لها، «وقد أقدموا على ذلك بحق! ويكفي أن تتصوروا، بأنني أتيت بحليف الشيطان إلى قلعتكم!» وضع يده على فمه ونظر إليها مرتاعاً، «تصوروا فقط، ماذا كان سيحصل! لقد كنت أداة للشيطان!»، قال لها ذلك وعاد ليرشق إشارة الصليب على وجهه.

نظرت إليه يوهانّا بريبة، لم تفكر لحظة بهذا الراهب القصير، عندما صرخت، لأن الصبي كان قد شرب الدم أمام ناظريها، إنها معجزة أن يكون

ما زال على قيد الحياة، وبأنه يقف إلى جانب عربته من دون أن يصيبه مكروه، كما أنه ما زالت تفوح منه رائحة الجبن القوية، على الرغم من أن سلال الجبن كانت قد أدخلت إلى المخازن منذ وقت بعيد.

«أداة للشيطان!»، صاح الراهب القصير وهو يحدق النظر فيها بعينيه الجاحظتين، «كم ينبغي أن نشكر القديسة العذراء، لأنها حمتنا من العواقب من جديد!».

«أنت تقصد أنها حمتك من المحرقة؟»، سألت يوهانّا، «يبدو لي، أن على القديسة العذراء أن تقوم بأعمال كثيرة أخرى الآن في هذه القلعة».

«إنها تحملت همّ أن يتم القبض على الصبي»، قال الراهب، «وأن يتم التعرف عليه منكم، صاحبة السمو، واكتشاف من يكون! وأن تحمينا الآن محكمة التفتيش المقدسة منه أخيراً!».

«وبالمقابل يبدو أن محكمة التفتيش المقدسة كما هو واضح، لم تتعاط معكم»، قالت يوهانّا، «وإلا ما كنت لتقف أنت هنا».

تنهد الراهب بحسرة، «لقد كان الأب تالافيرا»، قال الراهب، «إن رئيس أساقفة غرناطة بنفسه، أراد معرفة السبب الذي جعلني أُلبس الصبي رداء راهب، وأحضره معي إلى القلعة».

«وماذا أجبته؟»، سألت يوهانّا.

نظر إليها الراهب بعينين كبيرتين منفعلتين، إنه طفل، فكرت يوهانا، إنه يتصرف مثل طفل، والجميع يصدقه، الأغبياء، «قلت له الحقيقة، صاحبة السمو، وليس غيرها؟»، قال الراهب، «ليس غير الحقيقة المقدسة! وهل يجوز لراهب أن يكذب؟ إن إله الجحيم قد أعمى بصيرتي! ولم تداخلني الريبة أبداً، عندما كنت أسير بعربتي خارجاً من الدير، وإذ أنا أرى صبي الشيطان

يقف فجأة أمامي، متخفياً في هيئة راهب وقال لي إن رئيس الدير أمره أن يسافر معي! كان جديداً في ديرنا وكان بالتأكيد سيتعلم مهنة صناعة الجبن. هكذا رافقني»، وجحظت عيناه أكثر من السابق، «وأنا المتخلف صدقته، صاحبة السمو!»، قال لها، «لقد أعماني الشيطان، بدون أدنى شك! فكروا بذلك الحظ العاثر الذي كان من الممكن أن أجلبه لنا جميعاً».

«لقد فكرت، أيها الأخ الجبَّان»، قالت له يوهانّا، «وفكرت أيضاً أي حظ صادفته، بأن يحقق معك رئيس الأساقفة تالافيرا، وليس الموقر توكيمادا»، قالت له ذلك، وقد زمّت شفتيها، «أو إنني، أيها الأخ الراهب الجبّان، أو إنني»، قالت موجهة الكلام له، «قد أغضب جداً إن حاول أحدهم أن يخدعني، وفيما يتعلق بموضوع الاعتقاد بدورللشيطان فعليّ أن أبذل جهداً للاقتناع بذلك.

تغيرت نظرته، «قد يسأل نفسه، ما أعنيه بما أقول»، فكرت يوهانّا، «والآن يجب أن أشرح له».

«تعال معي إلى المخزن! أيها الأخ الراهب الجبّان»، قالت له، «من الممكن أن نعقد معاً صفقة مشتركة، أنت وأنا فقط، من دون ذاك الذي يشاع عنه في بلادنا أنَّ للشيطان يداً فيه.

رأت نظرة متيقظة قد طفت على وجهه، واختفت تلك المسحة الطفولية التي كانت تغمره، «يبدو أنني بدأت أفهم»، غمغم الراهب.

قد يتحقق النجاح في هذه الحالة، وقد اقتنعت مثل والدتها، بأن القديسين يتدخلون في صفقات البشر، وقد اعتبرت أن القديسة العذراء قد بعثت لها بهذا الراهب، كل شيء أصبح الآن سهلاً.

«إني آمرك، بإعادة سلال الجبن إلى العربة، إن الجبن فاسد».

-50-

استيقظ بوسطن، عندما كان الليل في أحلك ظلمته، فأمام السجن كان صوتان يتخاصمان.

«عندما آمرك بأن تفتح الباب، عليك عندئذٍ أن تطيع!» هسهس صوت الأميرة، كان هذا صوتها من دون شك، فهو كان قد سمعه مراراً.

«لا ينبغي أن أطيعك، صاحبة السمو!»، أجابها صوت الجندي الحارس بنبرة هامسة، «أتضرع إليكم! إن أنا فتحت الباب لكم، وفر السجناء مني، فلن تتردد والدتكم ثانية واحدة بإعدامي!».

«دع نفسك خارج هذه المسألة، أيها الأحمق!» صاحت به الأميرة، وقد أحس بوسطن في هذه اللحظة أن الثلاثة الآخرين استيقظوا أيضاً، «إنني الأميرة، وأنت تعلم ماذا سيحدث لك إن أنت عارضت تنفيذ أوامري! هل تظن أنني سأتردد لحظة في إيقاع أقصى عقوبة بك؟ عليك ألا تخشى من والدتي فقط، بل عليك أن تخشاني أنا أيضاً! افتح الآن!».

«لقد أمرتني الملكة...!»، همس الحارس.

«افتح!» صرخت به الأميرة، من دون أن تهتم باستيقاظ سكان القلعة! إلا أن الجدران السميكة للسجن كانت كفيلة بأن تمتص كل ضوضاء.

«إنهم أربعة، صاحبة السمو!» همس صوت الحارس بإلحاح، إلا أن بوسطن كان قد سمع صلصلة حاملة المفاتيح، «وماذا إن هم هاجموكم؟

وماذا إن هم تمكنوا من الفرار منكم؟ في هذه الساعة عند منتصف الليل؟».

«عندما أقول إنّه لدي ما أتحدث به إلى المساجين!»، قالت الأميرة، وبدأ المفتاح الثقيل يدور في القفل، «فلن تمنعني عندئذ، أيها الجندي، وفور أن تدخلني، أغلق ورائي من جديد! ولتذهب أنت إلى الدرج ولتصغِ هناك، إن كان قد لحق بي أحد ما! فإن سمعت أحداً، عُد وأنذرني بذلك».

فتح شق في الباب، ودخلت يوهانّا، ثم دار المفتاح في القفل من الخارج.

جلس بوسطن منتصباً.

«بسسسسست!»، همست الأميرة وأدارت رأسها لتسترق السمع.

«انتظروا، إلى أن لا يتمكن من سماعنا!».

والآخرون أيضاً كانوا يحدقون بنظرهم إليها.

«إنها حمقاء!»، قال طارق، وهو يفرك عينيه، «ماذا جاء بكِ إلى هنا؟ نستطيع هنا أن نضربك، أيتها الأميرة! نستطيع».

قاطعه سالومون، «ويمكننا أن نأخذك رهينة!»، همس أيضاً، «نأخذك رهينة، من أجل أن تدعنا الملكة نغادر!» ثم نهض واقفاً.

«أعتقد أن عليك ترك هذا جانباً!»، قالت يوهانّا، كان طارق قد لوى ذراعيها؛ في حين حاولت هي من جانبها تحرير نفسها من هجمته من دون جدوى، «إلى أي مدى تظنون، أنه يمكنكم الذهاب أكثر في هذا المنحى؟»، زفرت الأميرة من أنفها غاضبة، «عليكم في هذه الحالة قتلي، كي لا أصرخ! وفي هذه الحالة لن تكون لي أية قيمة تذكر كرهينة لديكم، لا تكونوا بلهاء!» وضربت طارقاً على يده، إلا أنه لم يرخِ شدّه على يدها، «وماذا تظنون، عن سبب مجيئي إلى هنا؟ ماذا؟ لأنني أريد تحريركم، أيها الأغبياء!».

«تحريرنا؟» سأل إسحاق، وقد نهض واقفاً هو الآخر الآن، «أنتِ، صاحبة السمو؟ تحررينا نحن؟».

«ليصمت ذلك اليهودي!»، قالت يوهانّا، «هل سمحت له بالتحدث إليّ؟ هل سمحت له، أن يلقي عليّ أسئلة؟ هو، أو ابنه، أو هذا المغاربي»، وحاولت مرة أخرى تحرير ذراعها، وحدجت طارقاً بنظرة غاضبة، «ستتحررون فقط، لأنني أريد للصبي القادم من المستقبل أن ينجو من المحرقة، ولأنه، ومعكم فقط، سيتحقق له الهرب»، قالت الأميرة ذلك وابتسمت لبوسطن.

حدّق بوسطن بها جيداً، «كي أنجو أنا من المحرقة؟»، همس بكلماته تلك، بينما كانت يداه ترتجفان، وكان قلبه يضرب بشدة، كما كان يتنفس بصعوبة، «لماذا؟».

إلا أن يوهانّا لم تجب.

«سأصرخ بعد قليل بصوت مخيف منادية الحرس كتعبير عن الخوف الشديد!»، قالت لهم، «أصغوا إلي جيداً! كل شيء ينبغي أن يجري كالذي سأقوله لكم! الأحمق الذي في الخارج سيأتي وسيفتح الباب، وقبل أن تمتد يده إلى سيفه ستنقضون أنتم عليه معاً! وستجرونني معكم للخارج، سأصرخ، وسأطلب النجدة، وسيروي بقية المساجين للملكة عن ذلك فيما بعد».

«أنا لم أفهم شيئاً، صاحبة السمو»، قال لها إسحاق، كما لو أنها لم تكن قد نهرته قبل قليل بشأن سلوكه، «ماذا سيحصل إن طلب بقية الحرس للمساعدة؟ فكيف يمكننا الهرب عندئذٍ؟».

ضحكت الأميرة، «أفي هذا الوقت من الليل؟»، أجابته، «وأين سيجدهم بهذه السرعة؟ وفوق ذلك؛ فكروا، كم سيخشى من العقوبة التي ستناله، إن عرفت الملكة بأنه تركني أدخل إلى زنزانتكم! إنه ينتظر بمفرده وهو يرتعش

حيث هو الآن، اتكلوا عليّ في هذه المسألة!»، ثم ضحكت، «الجميع سيتحدث عني فيما بعد بالقول: إنها حماقة مني أن آتي إليكم إلى هنا في السجن؛ ولكنني سأجيبهم، بأنني مصابة بمرض السير أثناء النوم، وأن هذا يحدث لي في كل ليلة، وسيعدّ لي الأطباء خلطة شراب لأجرعها، وسيكون الأمر مسلياً! أقول لكم، إنَّ الأمر سيكون مسلياً!».

كانت ضحكتها حادة ومدوية تصكّ السمع، إنها حقاً حمقاء، فكر بوسطن مذعوراً، إنها غريبة الأطوار على أي حال.

«لن يتبقى لكم الكثير من الأطباء في غرناطة»، غمغم إسحاق، «كانوا جميعهم من اليهود».

لم تجبه الأميرة.

«سيتم قطع رؤوس الحرس»، قال سالومون، فإن نفذنا ما قلتموه لنا، فسيتم قطع رؤوس الحرس من دون شك، فكروا بطريقة أخرى غير هذه!».

«ماذا يعنيني شأن الحرس!»، قالت يوهانّا، «اسمعوني! عليكم مغادرة القلعة».

«وكيف ذلك؟» همس طارق، ورأى بوسطن أنه كان قد حرر يد الأميرة في تلك الأثناء، «كيف؟».

أومأت الأميرة، «كل شيء جرى حسابه، في المدينة ستذهبون إلى منزل أمين خزانة البلاط».

«سانتآنخيل!»، همس طارق منذهلاً، «ولكن كيف؟».

سمع وقع خطوات تقترب في المدخل، «صاحبة السمو؟»ناداها الحارس هامساً، كان صوته متوتراً ومذعوراً، «صاحبة السمو، إنني أخشى».

«ألم أقل لك بأن تنتظر على الدرج؟» صرخت به يوهانّا، «هل تريدني أن

آمر بقطع رأسك؟».

ابتعدت الخطوات بسرعة، لم يعد يعرج، فكر بوسطن، وتعجب من نفسه كونه لاحظ ذلك، فكيف حدث أنه لم يعد يعرج؟

«سيعطي أمين خزانة البلاط وثيقة ليهودي تعرّف به باعتباره السنيور لويس دي توريس، تصرح فيها الملكة له بأن يرافق السنيور كولون كمترجم في رحلته إلى الهند ليفك شفرة لغة الخان ملك بلاد الهند، فأنت كيهودي تتحدث العبرية على أي حال؟ فهل تتحدث العربية أيضاً؟ أما الصبيان فسيرافقانك، أحدهما كخادم لك والثاني باعتباره ابنك، والثالث كسائس للبغل. وهكذا تستطيعون التنقل من دون خطر».

«سيبحر الكولون؟»، سأل بوسطن بانفعال، «هل الأمر هكذا حقاً؟ هل سيبحر؟».

ضحكت يوهانّا، كان وقع ضحكها يكاد يكون مرحاً. «ألم تقل أنت، بأن أرضاً جديدة سيتم اكتشافها لنا، أيها الصبي؟»، قالت له، «والآن، فقد صدقك سنيور سانتآنخيل، أكثر من أمي، وقد حالفه الحظ في أن يتمكن من إقناعها بأن الهند يمكن الوصول إليها من قبل كولون، وقد زودته بثلاث سفن».

«ومن أين ستنطلق؟»، سأل إسحاق، «فالمرافئ كلها مزدحمة».

«بالوس في الغرب»، أجابته يوهانّا، «فإن تم اكتشاف هذه الأرض»، وبدت هنا منفعلة، «هذه البلاد الغربية، أمريكا؛ فسأسافر أنا أيضاً إلى هناك، فمن يستطيع أن يمنعني؟ إنه عالم جديد! سنكتشف نحن عالماً جديداً».

قبض بوسطن على ساعد سالومون، وقد أحس كيف أن الأرض أخذت تميد تحت قدميه، سيكون حراً ولن يكون هناك تعذيب، ولا محرقة، وسيتم

اكتشاف أمريكا.

«هل أنتم مستعدون؟»، همست الأميرة.

تنقص فقط البلاطة الخزفية.

«هل أنتم مستعدون؟».

بالنسبة إلى الأميرة، فإن كل هذا هو مجرد لعب، فكر بوسطن، أما بالنسبة إلينا فالمسألة تتعلق بحياتنا.

وهز هو الآخر رأسه كما فعل الآخرون، ولكم تمنى أن يتمكن مرة ما من السفر إلى أمريكا، والآن، يبدو أن هذا سيتحقق.. في حياة مزيفة.

«حرس!»، صرخت يوهانّا، كان صوتها متلجلجاً، «النجدة، الحقوا بي بسرعة! حرس! أنجدوني!».

كان طارق وسالومون قد وقفا بجانب الباب، وكانا ينظران منه وينتظران.

غرناطة، نيسان /أبريل في الوقت الحاضر

«يكفي هذا الآن، مانويل كوراثون، بحق الله، يكفي هذا الآن!»، ناداه الجار.

كانت الظلمة قد أرخت سدولها فوق القيصرية، وكانت الأزقة هادئة، والسائحون كانوا قد غادروا البازار منذ وقت بعيد، كي يهرعوا إلى فنادقهم على الساحل، ليتناولوا طعام المساء، وكي يمضوا وقتهم في سانغاريا يحتسون البيرة ويشاهدون خلال ذلك برامج التسلية مجاناً، كما كانت أبواب المتاجر الدوارة قد أسدلت، وكانت الوسائد، والشالات، والبلاطات الخزفية والأقراط قد أُزيلت من الأماكن التي كانت تعرقل فيه عبور الناس.

وبقي فقط مانويل كوراثون هو الوحيد الذي لم يُعِد بضاعته لداخل متجره.

«كم مرة تظن أنني سأجرك أيضاً إلى المنزل؟ وماذا تظن ما ستقوله زوجتي، من أنني، ومنذ أيام لا أرجع إلى المنزل إلا بعد أن تكون قد مددت الأطفال قبل وقت طويل من حضوري في أسرتهم؟ يكفي هذا الآن، مانويل كورازون، بحق الله، يكفي هذا!».

كان مانويل يتأوه وهو مستلقٍ منذ ساعات عدة على بلاط الطريق، متكوماً على نفسه هناك، كانت الكرسي الطابورية التي لا مسند لها عالية جداً بالنسبة إليه، بل كان يراها عالية الارتفاع، وغير مريحة؛ إذ كان يتمايل فوقها ويترنح.

«مانويل كورازون!»، ناداه الجار، وبحذاء ذي مقدمة مبوزة، نعره باحتراس، «هل تسمعني؟».

فحتى رفاقه الفتيان لم يضحكوا منه عندما حدثهم عن حكايته، ولم يرغب أي واحد منهم بالضحك أبداً، لقد اختفى الصبي، نعم، اختفى الصبي.

أين كانت الزجاجة؟ ومن كان يركله دائماً، لا ينبغي لأحد أن يركله. أين كانت زجاجته؟

«لا ينبغي أن يركلني»، غمغم مانويل، لقد قرّب ركبته من ذقنه، «أين هي زجاجتي؟».

«أخ مانويل كورازون!»، ناداه الجار من جديد»، لا أستطيع تركك ممدداً هنا! ولكن إلى أين سينتهي بنا الأمر ونحن على هذه الحال؟ أتمنى لك كل خير، مانويل كورازون! عندما تقوم ***الغوارديا***[1] بجولتها، فقد يأخذونك ربما

(1) **الغوارديا – guardia**، كلمة إسبانية تعني دورية الحرس.

معهم، ليعيدوك إلى صوابك!».

ابتعدت تلك الخطوات عنه، وأخذ الرجل منه زجاجته، لا ينبغي للرجل أن يفعل بي ذلك! لا، لا ينبغي أن يفعل!

أحس مانويل بأن خديه مبللان وساخنان.

ثم استغرق في نومه.

الأندلس، 1492

انقضّوا على الحارس وأنزلوا به ضربة واحدة فقط، إلا أن يوهانا ثابرت على صراخها، أمسك بها طارق بإحدى يديها، وبوسطن بالأخرى، ومضوا بها وهم يجرونها على طول الممر، وإلى جانب باب الزنزانة، كان الجندي ممدداً على الأرض وهو يتأوه.

«والآن أخفضوا صوتكم»، همست لهم يوهانّا وقد نفضت عنها كلاً من طارق وبوسطن، «وبسرعة! سأذهب أنا أمامكم!».

كانت ساحة التدريب تبدو شاحبة مع بداية الفجر، وفي السماء كانت النجوم قد بدأ نورها يذوي، وتخفّى القمر وراء سحابة داكنة، لم يكن بالحسبان توقع جو أكثر ملاءمة من هذا، وبعد قليل ستسطع الشمس في الأفق بلونها الذهبي، وتحت عند التل سيتم فتح البوابة.

«إلى مبنى المطابخ!»، همست يوهانّا، وقد لمس بوسطن في نبرة صوتها كلا الأمرين: الإثارة والسخرية، فبالنسبة إليها، المسألة هي مجرد لعبة، أما بالنسبة إليهم فهي مسألة حياة، «إنكم لم تضربوا الحارس بشكل كافٍ، أيها الأغبياء! هيا بسرعة، قبل أن يستيقظوا، ويستيقظ البلاط بأسره!».

تعرف بوسطن للحال العربة التي كانت واقفة أمام مخزن المؤونة «الأخ

الجبّان!»، همس بوسطن.

في العتمة الحالكة، في ليل لا نجوم فيه، كان من الصعب تعرف السلال. أعطت الأميرة إشارة، لم يكن من الصعب اكتشافهم في وضح النهار، وكيف قاموا بالتخفي بين السلال؛ أما الآن، وفي مثل هذه العتمة، فليس من بد في أن تسير الأمور على ما يرام.

«آمركم بالرحيل، الأخ الجبّان»، قالت الأميرة للراهب، «وكل شيء كما تحدثنا به من قبل!».

ثم انحنت من جديد على العربة، «وأنت، أيها الصبي، انتبه جيداً إلى نفسك! وأرجو لقدرك أن يتحقق بالعودة إلى هناك، إلى المكان الذي أتيت منه إلينا»، كانت قد وضعت يدها على ذراعه، ولو لم تكن يوهانّا، لكان اعتقد أنها كانت لمسة ملاطفة منها، «ولا تنسني، أيها الصبي!»، قالت له هامسة، «لا تنسني!»، ثم سحبت يدها من فوق ذراعه.

«أشكرك، يوهانّا!»، همس بوسطن، «لولاكِ...» إلا أن العربة كانت قد تحركت؛ وأخذت عجلاتها تقضقض فوق الرمل.

رفع بوسطن يده ليلوح لها؛ إلا أن الظلمة كانت قد ابتلعت الأميرة قبل ذلك، لقد كانت عجيبة وغريبة، هذا أقل ما يمكن وصفها به، ولكنها أيضاً شرسة، إلا أنه لم يعلم لماذا شعر بالأسف نحوها.

«ماذا ستقول للحرس الذي تحت، أيها الأخ الجبّان؟» همس بوسطن موجهاً كلامه للراهب، وكان ما زال يشعر بالخوف، إلا أنه خوف من نوع آخر غير الذي كان يشعر به عندما كان في السجن، إنه خوف ذو حيوية ممزوجة بالشجاعة والتوقع، بل يمكن أن تكون هناك أنواع مختلفة أخرى من الخوف.

لم يستدر الراهب، بل ظل يتحدث إلى رقبة بغله.

«بحق القديسة والدة الإله، أي عار هذا، أي عار، هذا ما سأقوله للحراس، فكيف أمكنني أن أجلب للملكة جبنة فاسدة، تفوح رائحتها العفنة إلى السماء؟ ألا يكفيكم هذا الذي أنا فيه؟ ألا يكفيكم هذا؟ لقد كادت الملكة تأمر بجلدي من أجل ذلك! وقد أمرتني أن أبعد بأسرع ما يمكن هذه الجبنة النتنة من قلعتها، وأحضر بدلاً عنها جبنة طازجة، ما أشد خجلي من نفسي!».

ضحك بوسطن، «أنت تكذب وتكذب، أيها الأخ الجبّان!»، قال له، «ألا تخشى من ذلك على روحك الخالدة؟».

وقف البغل فجأة محدثاً رجّة بالعربة؛ إذ ربما أفزعته غمغمة ليلية ما.

«لن يحدث شيء لروحه، والله»، قال طارق مازحاً، وأنت أيضاً سترحل معنا إلى الجنة السابعة في الفردوس، الأخ الراهب؛ فالله ينظر إلى أعمال الناس أكثر من أقوالهم».

«هذا ما يمكن أن يكون قد قاله يهودي أيضاً»، عقّب إسحاق.

نزل الراهب من العربة، وربت على عنق البغل، «تقدم إلى الأمام، أيها الأشهب»، قال له، «إنك تنقل شحنة ثمينة»، ثم أمسك باللجام، «أخفوا أنفسكم جيداً الآن، فلقد اقتربنا من البوابة».

ظل البغل معنّداً.

لمس طارق ذراع بوسطن، «بوسطن– القادم – من–المستقبل!»، همس متحدثاً إليه، «بعد قليل سيكون الوداع، إن نجحنا بالهرب»، ثم أمسك بذراعه بقوة أكبر، «سأغادركم قبل المدينة، أنا لا أريد المجيء معكم إلى عالمكم الجديد، سأعود إلى البوخاراس وسأرافق الراهب على عربته».

كل شيء سيكون كما كان فكر بوسطن، وما أغربه والحالة هذه؛ فما حدث قد حدث، إن كان يجوز لكولومبوس أن يبحر؛ فستجري الأمور على نحو آخر، مثلما أوردته الكتب، وأنا أعلم الآن، بأنه كان من الصواب أن يحاول كل من طارق وسالومون سرقة البلاطة الخزفية من الجندي، مع أنني كنت فاقداً لشجاعتي، إلا إنهما لم يوفقا؛والآن فات الأوان.

«لن يبقى الأمير طويلاً هناك»، همس بوسطن، «لن يبقى في إمارته في الجبال، ويؤسفني الأمر بالنسبة إليك، طارق! تعال معنا! فلن تعود الأندلس للمغاربيين، أنا واثق من هذا الآن، كل شيء سيحدث مثلما حدث فعلاً، سيذهب الأمير إلى أفريقيا، وغرناطة تمت خسارتها للأبد».

خطا البغل خطوة مترددة إلا أن أذنيه ظلتا تنصتان.

صمت طارق، «قد يكون صحيحاً ما قلته لنا عن المستقبل»، قال طارق أخيراً، «ومع ذلك، أتمنى أن يحفظني الله! سأذهب مع الراهب، وسألحق بالأمير».

أومأ بوسطن برأسه، «وأنا أشكرك من أجل كل شيء»، قال له، «فلو لم تساعدني منذ الليلة الأولى – أشكرك، طارق، وأيضاً في الجبال، لقد عرضت نفسك للخطر، أنا أرجو، أن لا نفترق».

«وأنا أيضاً أرجو هذا!»، قال سالومون، «فكر جيداً طارق، لقد عشنا معاً أياماً طويلة، تعال معنا إلى أمريكا!».

إلا أن طارقاً هزّ رأسه، «إنني مغاربي»، غمغم قائلاً، «وسأظل مغاربياً، فما عسى لمغاربي أن يفعل في بلاد الملكين حتى إن كانت تقع على جانبي البحر؟ اليوم تهاجرون أنتم، وغداً سنكون نحن المغاربيين، فإن كان صديقك بوسطن يعرف المستقبل حقاً؛ فسيقول لك عندها إنه سيكون هناك

سلام ذات يوم بين *الدهيمي*، أي بين أهل الكتاب، تماماً مثلما كان الحال في الأيام الذهبية للأندلس؟ كيف سيكون الحال، بوسطن، في وقتك أنت، في المستقبل؟».

وراء عينيه رأى بوسطن غرفة الجلوس، وأمه تجلس على الصوفا مع فنجان من الشاي، تتابع الأخبار التي لم تكن تعنيه في التلفاز، وبدا له كل شيء بعيداً إلى ما لا نهاية، أما الآن فيبدو كل شيء قريباً جداً، «ولكن ليس بعد»، أجاب بوسطن هامساً، «وأيضاً لن يكون هذا قبل وقت طويل، طويل». وبقي صامتاً.

في هذه اللحظة أطلق البغل شحيجاً عالياً؛ إذ قفز طيف شخص وسط الطريق أمام العربة فاتحاً ذراعيه. «خذوني معكم، أتوسل إليكم»، قال الجندي الحارس، «إن علمت الملكة أنكم هربتم، فإنها ستقتلني!».

شدّ راهب أخوية الدير المقود فتوقف البغل، «لا!»، قال طارق.

«اصعد! أيها الأخ الجندي!»، قال الراهب، لم يستدر، فالموافقة، لا يحتاج إليها من أحد، «إن وجدت مكاناً بين سلالي، فليكن ذلك المكان لك».

وفجأة تذكر بوسطن من جديد، أين رأى الجندي للمرة الأولى.

«فلنأتِ معاً»، قال بوسطن.

-51-

«سيشي بنا!»، همس طارق، «هل أنت أبله، بوسطن؟ أقسم بالله وبكل الأنبياء! إن آكل لحم الخنزير، سيشي بنا لدى حرس البوابة تحت عندما نصل إليهم!».

ألقى بوسطن بنظرة إلى الجندي الذي كان قد جلس القرفصاء وقد تكور على نفسه بين السلال، «لقد تركني أهرب، عندما اكتشفت الملكة أنني لست فيليب فون بورغوند»، قال بوسطن، «لماذا فعلت معي ذلك أيها الجندي؟ وكان يقدم لنا الماء دائماً، إنني أظن أنه جاد في ما قاله، طارق! إنه يرغب حقاً في الهرب معنا، فلو كان يريد الوشاية بنا كان بمقدوره الصراخ في طلب النجدة قبل هذا!».

قاطعه الجندي، «أصغوا لما أقوله!»، همس لهم، «ماذا تظنون، ما الذي يمكن أن يحدث لي، إن علمت الملكة بأنكم هربتم بسبب خطئي؟ حتى لو استطعت الآن المساعدة مرة أخرى في القبض عليكم! وماذا عساها الأميرة أن تقول عمّا حدث؟ ألن تكون كلمتها مخالفة لما سأقوله أنا – ومن ستصدق الملكة في النهاية؟» لم يكن بالوسع التعرف على ملامح وجهه في مثل هذه العتمة.

«لا أصدق أي كلمة مما تحدث به!» قال طارق، «لماذا عليه إذن أن».

«إنني أتوسل إليكم!»، همس الجندي، «إن تركتموني هنا، فسأنتهي!

وأنا لم أعد أتحمل الحياة هنا أكثر! التنكيل والتعذيب والقتل في كل مكان! خذوني معكم!»، ثم تنهد بحزن، «ففي قريتي تنتظرني فتاتي».

«هذا سبب على أي حال»، قال طارق مازحاً.

ثم مدّ يده إلى قميصه وقال: «أما هذه التي هنا، فلا أريد أخذها معي؛ فما ينبغي نسيانه لا ينبغي اصطحابه».

«قف!»، صرخ بوسطن بصوت مرتفع جداً، وكانت السماء من فوق الأسطح قد أخذ يتفتح لونها بالضوء قليلاً، ولكنها ما زالت متباينة الشحوب، أما ما كان يخرجه الجندي الآن من حزامه، فكان بوسطن يتكهنه أكثر مما يراه، وفعلاً... «قف! لا ترمها!»، كان صوته مرتعشاً.

أما الجندي فكان يحمل في يده البلاطة الخزفية من القيصرية.

«ابقَ هادئاً!»، همس طارق مفزعاً، «بحق الله، بوسطن، ابق هادئاً!».

كان تكهناً أكثر منه رؤية؛ كانت مهشمة من حافتها، والرسم الذي على وجهها قد شحب لشدة الغبار الذي عليها، ولم تكن بلاطة عادية في الحقيقة، إنها أقرب إلى الأرابيسك الموجودة فوق في الحمراء، فلو كانت سليمة، لكانت قطعة استثنائية، والزخرفة التي على وجهها العلوي كانت تشبه كتابة عربية، وفجأة أصبح بوسطن واثقاً بأن طريق عودته قد فتح، لقد فتح البوابة عبر الزمن.

«لا ترمها!».

إلا أن الجندي لم يلقِ بالاً له، فتأهب لرميها وقذف بها بعيداً عنه، داعبت هبة هواء وجه بوسطن، وسمع وقع سقوطها على الرمل خلف العربة.

«لا! كلا! البلاطة!».

قفز بوسطن من العربة، من غير أن يفكر بعواقب ذلك، ففي لحظة ما،

كان قد اعتقد بأن هناك طريقاً قد فتح له من أجل العودة؛ والآن تبخر أمله مع البلاطة في لجة الظلمة.

«لا، أوه، كلا! إنني أحتاج إليها! أنا... «وأخذ يركض باتجاه الجبل صعوداً، للوراء، للوراء. ألا ينتظره الأصدقاء؟ الأمر سيان، كل شيء سيان. شيء واحد يهمه الآن هو الذي يحسب حسابه، وهو أن يجد البلاطة، إنها منقذته، إنها بوابة عودته، صوت قضقضت عجلات العربة على الرمل كان يبتعد رويداً رويداً باتجاه الأسفل.

وأخيراً رآها، وكان الوقت في غسق الصباح الباكر وبصعوبة كان يرى الطريق من أمامه، ومع ذلك كان لا بد أن تكون هي، مجرد بقعة مظلمة على رمل شاحب. قام بوسطن بوثبة نحوها وانحنى عليها، فأمسك قلبه عن الخفقان عندما أخذ يمد يده نحوها، الآن.

العودة إلى المستقبل، مثلما رجع إلى الماضي عندما لمسها قبل أيام، كل شيء سيكون مثلما كان، الآن.

لا شيء.

كانت خيبة الأمل قد نفذت إلى بوسطن بحدة، فأوقفت تنفسه، وكان كما لو أنه مع هذا الأمل قد تم محو كل أشكال الحياة لديه.

لم تعده البلاطة الخزفية، وكان كل شيء مجرد وهم؛ فلم تكن البلاطة هي التي تفتح وتغلق البوابة، ومن قبيل العبث كانت محاولة طارق سرقتها من الجندي ذي الندبة، ومن العبث كان اهتمامه بأمريكا، فالبلاطة لم تعده.

ومن مئذنته نادى المؤذن بأذان الفجر، وبعد أن قلّب البلاطة مرة ومرات بين يديه، وجدها مجرد بلاطة لا قوى سحرية لها، مهشمة من حافتها. وأصبح بوسطن مقتنعاً بأن فراره أيضاً أوشك على نهايته،

واللحاق بالعربة لم يعد ممكناً.

سمع صوت الحرس، وكان ما يزال على جبل القلعة، أي في غرناطة الملكين الإسبانيين، والبلاطة لم تعده إلى بيته؛ إلا أن صرخاته كانت قد أيقظت الحرس في الحمراء.

ارتعدت أوصال بوسطن، فهو لم يعد يسمع حتى وقع حوافر البغل، لقد تابعت العربة سيرها، كما لو أنه لم يحدث شيء ما، وربما اجتازت البوابة السفلية منذ وقت بعيد؛ وهنا في القلعة يسرح الحرس طولاً وعرضاً، يطلقون صفيرهم التحذيري، ليوقظ بعضهم بعضاً.

«صوت شريك الشيطان!»، نادى أحد الجنود، فقفز بوسطن إلى دغل إلى جانب الطريق، «أقسم، بأنه كان صوته! والسجن فارغ! لقد أطلق الشيطان سراحهم! ينبغي أن يكون هنا في مكان ما!».

اقتربت منه خطوات متعجلة فوق الرمل، ألصق بوسطن جسده على جذع شجرة السرو، ابتعدت الأصوات وهي تتجه للأسفل، باحثة عنه.

كم هي أنواع الخوف المختلفة الموجودة فعلاً، لقد تركه التفكير بهذا، بحالة أكثر هدوءً، كل شيء أصبح بالنسبة إليه سيان الآن، لقد عثر على البلاطة، وهي تثقل يده الآن، وفي لحظة ما كان مطمئناً تماماً؛ إلا أنه لم يتمكن معها من العودة إلى منزله، كان كل هذا مرهقاً وكثيراً عليه، كان هذا كثيراً جداً عليه، وكل شيء أصبح سيان بالنسبة إليه.

خرج بوسطن من الدغل عائداً إلى الطريق، وقد لامست خيوط الشمس الأولى ذرا الأشجار؛ وفوق المدينة يطوف أذان المؤذن، لم يعد يفكر طويلاً، الطريق المهمل يؤدي باتجاه الأعلى إلى جبل القلعة، وصولاً إلى الحمراء، في حين أنه من الجهة السفلى، كان يسمع صراخ الحرس

الذين يبحثون عنه، لا مهرب له هذه المرة.

فليحدث بسرعة إذن ما ينبغي أن يحدث، لا يوجد طريق للعودة إلى المستقبل، كما لم يعد يوجد أيضاً أمل بالهرب، فلتكن إذن النهاية هنا.

في وسط ساحة التدريب، كانت تقف الأميرة.

«الصبي!»، نادته، وهي تضع يداً متعجبة فوق فمها، «لماذا لم تهرب معهم؟».

ومن القصر جاءت آمّي ماشية، الأصوات في كل مكان، لقد استيقظت الحمراء؛ وقد انتشر خبر هروب المساجين في كل مكان، وخرج الجميع إلى الطرقات، من أجل البحث عنهم.

«تعال معي!»، همست يوهانا، «إلى مسكني!» لقد أمسكته من ذراعه، فيما صعدت من آمّي صرخة ضعيفة، سيكون اللاحقون به هنا حالاً.

أراد بوسطن أن يدافع عن نفسه، ولكن لم تعد لديه قوة لذلك، كل شيء تحطم؛ كل شيء كان سيان بالنسبة إليه.

«من هنا! عبر صالة السفراء!».

كانت النوافذ عالية، إلا أن الشمس كانت قد وصلت إليها، وكانت أصابع الضوء تتحسس بعضها بعضاً من فوق الجدران، فتحول الموزاييك المزجج ***الأزوليخوس*** إلى اللونين الذهبي والأزرق. وتطوق كل الجدران كتابة: ***ولا غالب إلا الله***.. مكررة دائماً بالعبارة نفسها، ومن ثم تلك الحفرة المنفرة مثل جرح.

«تعال خارجاً للباحة!»، همست الأميرة، «تعال بسرعة!».

لم يكن يريد العجلة، فكل شيء أصبح سيان بالنسبة إليه الآن، «لن أهرب من جديد، ولن أختبئ من جديد، ينبغي أن تكون النهاية»، نادته الأميرة،

وآمّي كانت تصرخ، واقتحمت طليعة الجنود صالة الموفدين، وكان الجندي ذو الندبة في مقدمتهم رافعاً سيفه.

«أمسكوا به!»، صرخ برفاقه، «أمسكوا شريك الشيطان!» ووضع يده على كتف بوسطن.

لم يبال بوسطن بهم، وباحتراس، رفع بيده البلاطة، بقيت هذه، بحافتها المهشمة التي تفتقد مكانها الفارغ في الجدار، فإعادتها إلى مكانها فيه ستعيد الجدار إلى صقالته ونصاعته وستغلق الجرح الذي فتح فيه.

-52-

غرناطة، نيسان /أبريل، الوقت الحاضر

ومثلما حصل معه قبل أيام عدة، انتبه بوسطن أولاً لتغير الضوء قبل كل شيء، فهناك، فوق في الحمراء، كان النهار قد بدأ؛ أما هنا في أزقة القيصرية فكانت الظلمة ما زالت مُطْبِقة تماماً.

كانت الصدمة لا حدود لها، كان ينبغي أن يشعر بالابتهاج، والسعادة، بدلاً من الشك والريبة ومشاعر عدم معقولية ما جرى.

إنها العودة من جديد إلى زمنه.

لا محرقة، ولا تعذيب، إنها العودة إلى زمنه الخاص به.

«إنني في زمني من جديد!»، همس بوسطن، وكما كان قبل أيام، بدأت الأرض تميد تحت قدميه، وكما قبل أيام، توقف قلبه أيضاً، كان هذه المرة فقط على علم بما حصل، رهبة وذهول، ولكن لا يوجد خوف هذه المرة.

«إنني في زمني من جديد!».

على الأرض وأمام قدميه كان شخص ما يتأوه، قفز بوسطن عائداً للوراء.

كانت أشعة الشمس خلال ذلك قد حطت في الزقاق صابغة الجدار المواجه بلون أحمر؛ ثم ما لبثت أن تدرجت في الغوص عميقاً لتقرع بوهجها نوافذ المتاجر.

انحنى بوسطن للأسفل، لقد تعرّف الرجل فوراً.

«هاللو؟» همس بوسطن، ثم ربت على كتفه «**هولا** ؟» وقد كان أمراً رائعاً أن قلبه عاد إلى هدوئه على الفور، ورؤيته لهذا الوجه كانت برهاناً على أنه عاد بالفعل، وكأن شيئاً لم يكن قبل ذلك.

«هل أستطيع مساعدتكم؟».

تدحرج الرجل على ظهره وحدّق في بوسطن بعينين محمرتين مبهوتتين. «لا شيء»، غمغم قائلاً، «لا أريد شيئاً...!»، ثم أخذ شهيقاً عميقاً، صاحبته غمغمة انتهت بتأوهة مستغربة، «تمجدت القديسة والدة الإله، لقد عدت!» وما لبث أن رسم إشارة الصليب على وجهه، وكانت يداه ترتعشان.

«تمجدت القديسة والدة الإله!»، قال بوسطن، وأحس بضحكة تصعد إلى حلقه، «والله، يا الله، بحق لحى كل الأنبياء، هل رحلت أنا حقاً آنذاك؟».

ثم نظر إلى الرداء الكهنوتي الذي قام بربطه حول جسده بحبل الكورديل، كانت تفوح من الرداء رائحة العرق، والبقع المتسخة تملؤه في كل مكان، إلا أنه لم يكن ليعني له شيئاً في العالم الآخر.

«لقد رجعت!»، همس له الرجل، وما لبث أن جلس بمشقة، وبدا كما لو أنه صحا فجأة: «أوه، يا مريم الممتلئة نعمة أم ربنا، الشكر لك!» أما عيناه فقد انصرفتا للنظر إلى يدي بوسطن، «أين البلاطة الخزفية؟».

«كنتم تعلمون... »، سأل بوسطن، وبدل الفرح ظهر عليه الغضب، «وتركتني مع كل ذلك آخذ تلك البلاطة الملعونة؟ إنها في الحمراء من جديد، حيث هو مكانها».

رسم الرجل إشارة الصليب للمرة الثانية، «شكراً للسماء ولجميع القديسين»، قال الرجل، «إذن فقد تم أخيراً إغلاق بوابة العبور إلى الماضي!

وليس من داعٍ ليخاف أحد أن يضيع عبر الزمن بعد الآن».

«أمن أجلِ هذا وجب عليّ... ؟» قال بوسطن، «لذلك البلاطة... ؟»

حتى إلى ما قبل دقائق فقط، كان يمكنه أن يهشمها، من دون أدنى تردد، ولكن الزمن هنا هو زمن عالم آخر.

ومن جهة ساحة بلازا بيب رامبلا، كانت تقترب خطوات قادمة من هناك، فقال الرجل لبوسطن هامساً: «تعال بسرعة! قبل أن يشاهدوك!» أما يده التي كان يحمل بها جامعة المفاتيح، فكانت ترتجف، «ينبغي أن نتحدث!» قال الرجل.

دفع بوسطن بنفسه باتجاه باب المتجر إلى الداخل، لم يكن الباب مغلقاً، كانت زجاجة تتدحرج على أرض المتجر.

«جرعة الخمر»، غمغم الرجل، «أخ، صحيح، جرعة الخمر، تعال إلى الداخل! لقد انتهينا من هذه الآن، إنني أشكر الله».

«ما هي حكايتك، أفي مثل هذا الوقت المبكر تفتح متجرك، مانويل كوراثون؟» قال صوت قادم من باب المتجر، أما بوسطن، فقد حصر نفسه داخل المتجر في الخلف، في إحدى الزوايا، خلف وسائد الجلوس والنراجيل.

«هل تريد أن تكون أول من يستفتح بعملية بيع؟ لقد صحوت مبكراً في الفجر من دون طائل، مانويل كوراثون! فالسواح ينامون لوقت متأخر!»، ثم ضحك.

وقد ضحك معه مانويل كوراثون أيضاً، وردّ عليه: «من يبكر يذكّر، والطائر المبكر في الاستيقاظ، ينال الدودة أولاً، أريد القيام ببعض الترتيب في المتجر قبل أن يأتي أول المشترين، لم يكن حالي على ما يرام في الأيام الأخيرة».

«كل واحد تحدث عن حالك»، قال الصوت، «وأنا سعيد أن ذلك قد مضى، أرجو لك حظاً طيباً لهذا اليوم، مانويل كوراثون! ويوماً موفقاً!».

«أتمنى لك ذلك بالمثل!»، ردّ عليه مانويل، وقد رآه بوسطن وهو يدخل المتجر، «كان هؤلاء هم *الغوارديا*، ولم أكن أرغب في أن يكتشفوا وجودك هنا، إن أول شيء نحتاج إليه الآن هو *كورتادو* قوية»، أحضر إناء من زاوية وملأه بمسحوق البن، وأضاف إليه من ثم الماء من زجاجة، ثم وضع الإناء على موقد مسطح، «علينا أن نفكر».

غاص بوسطن في مجلسه على مقعد بهيئة جمل، «كنتم على علم»، قال بوسطن ثانية، «ومع ذلك تركتموني أتناول البلاطة بين يدي».

هزّ مانويل كوراثون رأسه، وفتش فوق أحد الرفوف عن الكؤوس، «لم أعلم، بل خشيت!»، ردّ قائلاً، «لقد رحلت عبر الزمن، أنا ألحظ ذلك من ردائك، لم يكن أحد على علم بأن ما كان قد تم تداوله من تقولات عن البلاطة الخزفية منذ مئات السنين، كان من الممكن أن يتعدى أكثر من كونه مجرد خرافات!».

«ولهذا السبب أردتم أن تجربوا إن كانت الخرافة ستصدق أم لا؟»، سأل بوسطن غير مصدق، «أياً كان ما يمكن أن يحدث؟ ألم تتصوروا ما يمكن أن يجري لي جراء ذلك؟ هل تدرون أن أحب ما أتمناه في هذه اللحظة هو أن أقوم بتأديبكم!».

رمقه مانويل كوراثون بنظرة سريعة، «صدقني، إنني أفهمك جيداً!»قال لبوسطن، «وصدقني إنني أيضاً عانيت مثل كلب! فلست أنت وحدك من سعد بأن تكون هنا من جديد»، كان الماء قد بدأ بالغليان في الإناء الذي كان على الموقد المسطح، وبسبب البن الذي فيه، بدأ يفور ويسيل، كانت تتصاعد

روائح التحضير للفطور، وكان الجو يوحي ببداية صباح مبكر.

«إنني أستطيع مراجعة الشرطة!»، قال بوسطن، «وأستطيع أن أشكوكم لهم هنا!».

ضحك مانويل كوراثون، «وأنت تظن أنهم سيصدقونك هناك؟»، قال لبوسطن»، إنهم سيقومون بالتحقيق معك، وكلما ازداد احتجاجك، وكلما ازدادت ادعاءاتك بأن ما تقوله لهم هو حقيقة، سيصرون على إبقائك موقوفاً لديهم لمدة أطول؛ فالقول بالسفر عبر الزمن! سيعني بأن على المرء أن يكون مخبولاً ليصدق ذلك».

«أستطيع أن أحدثهم عن مغامرتي خلال تلك الفترة!»، قال له بوسطن. إلا أنه حتى أثناء نطقه بتلك الكلمات، أدرك عدم جدوى هذه الفكرة، فلا أحد سيصدقه؛ وليس لديه أي دليل يثبت ما سيقوله، «أستطيع جعلهم يدققون في اللباس الكهنوتي، وتوجد طريقة للبحث، يمكن بها للمرء أن يثبت عمر ذلك اللباس!».

قدم مانويل القهوة في فنجانين صغيرين نحيلين، ثم ألقى السكر بهما. «وأنت تظن أنهم سيفعلون ذلك؟» قال مانويل، «إن طريقة البحث مكلفة، يا بني! وهم لن يلتفتوا لذلك أصلاً، إن ادعى المرء بأنه كان قد سافر عبر الزمن! فحتى إن كان مثل هذا البرهان واضحاً وفي متناول أيديهم، فسيقولون إنَّ هذا الفتى معتوه!».

تناول بوسطن الفنجان، وكان بوسعه دلقه أو تهشيمه على الأرض؛ إلا أنه أدرك أنَّ التاجر كان على حق، فهو إن سرد قصته، فلن يصدقه أحد. إيزابيلا! يوهانّا! كولومبوس وأمريكا! وحتى أمه، ستصاب بسببه بالشك واليأس والقنوط.

«ينبغي أن نفكر قليلاً، بما يبرر السبب الذي اختفيت فيه كل هذه المدة»، قال مانويل كوراثون»، أن نقدم مبرراً يمكن أن يصدقه بسهولة كل من يسمعه، اشرب قهوتك، علينا الاختفاء من هنا قبل أن يأتي الآخرون، لفتح متاجرهم».

وأخيراً سافرا على الأوتوستراد، كان مانويل قبل ذلك قد تناول من صندوق مغبَّر في متجره، شورتاً ملوناً شنيع المظهر، وقميصاً مضحكاً مطرزاً.

«إنني أبدو سخيفاً بهذا المظهر!»، قال بوسطن، إلا أن مانويل كان قد ألقى بهذا الكلام جانباً، ولاحظ بوسطن مندهشاً أنَّ عيني الرجل لم تعودا محمرتين، وبدا له مانويل وكأنه يعلم جيداً في غالب الأحيان، الواجبات التي ترميها الحياة في طريقه.

«هل تظن أنَّ الخاطفين معنيون بالأزياء الراقية والـ (هوت كوتور)[1]؟» سأل مانويل «إن موديلات هذه الألبسة عمرها على الأقل خمس سنوات، والألبسة القديمة! هي التي تقنع الشرطة».

ثم مضيا في طريق ضيق يذهب بهما إلى قلب الجبال، وكانا كلما ارتفعا علواً، أصبح المنظر الذي يطلون عليه أكثر اتساعاً وثراء، صخور عارية أصبحت ملساء جراء الأمطار التي دأبت على غسلها عبر مئات السنين، وفي المنخفضات والأجواف استوطنت أشجار الصنوبر، وسهول مخضرة طرية مرهفة تتوهج ألقاً، وجبال ممتدة حتى الأفق، تنتصب مفردة، وحيدة، خالية من السكان؛ وبين الحين والآخر، يلتمع في البعيد ما هو أبيض يدل على أنه منزل، وقد ينم ربما على وجود مزرعة ذات مبان مهجورة، لا شيء آخر،

---

(1) هوت كوتور Haute Couture–، تعني الألبسة الراقية. (المترجم)

وليس من بشر هناك أبداً.

إلا أن إسفلت الطريق كان سوياً وناعماً وجديداً، تم تحديد جانبيه الأيسر والأيمن بخط أبيض، وفي فسحة لوقوف السيارات، وحيث النظر منها إلى البعيد هو الأجمل، أوقف كل من مانويل وبوسطن السيارة هناك.

«ابتعد بنفسك قليلاً عن الطريق نزولاً إلى السهل»، قال له مانويل، «ولكن لا تذهب بعيداً أكثر مما ينبغي، وأنت لا تعلم أين كنت في الأيام الأخيرة، وأن أولئك قاموا بفرش ملاءة قماشية بين الأشجار، وأنك تمكنت في الليلة الماضية من الإفلات منهم، وقد مشيت في العتمة ساعات طويلة من دون أن تعلم إلى أين، فعلى الشرطة أن تبحث عنه! ولن يتمكنوا من معرفة المكان، ومن سيستغرب في مثل هذا القفر؟»، ثم ابتسم بابتهاج، «بعد قليل سيصل أوائل السواح متوجهين إلى بحيرة السد التي هنا، دعهم عندئذٍ يكتشفون وجودك، أما إن وجدت أن الأمر قد طال، فغير بعيد عن هنا، بعد المنعطف التالي، يتفرع من الطريق درب رملي يقود إلى حانة، الله وحده يعلم كيف يتحمل أصحابها مثل هذه العزلة هناك بعد أن يغادرها الزائر الأخير في المساء، وأنت تعلم ما اتفقنا عليه؛ فإن سارت الأمور طبقاً لما أعددناه: مرّ بعدئذٍ لزيارتي»، انحنى على الكرسي الذي بجانب السائق، وفتح الباب لبوسطن.

غادر بوسطن السيارة، كان الهواء قد عبق بأريج الصباح، ممزوجاً برطوبة الحشائش والصنوبر، لو لم تكن هذه السيارة، فكر بوسطن، ولو لم تكن هذه الثياب ذات الألوان الفاقعة، فكان من الممكن أن يكون كل شيء ما زال مثل غرناطة الملكين الإسبانيين، فكيف هي أمور الآخرين؟ إنني آمل أنهم نفذوا من البوابة.

«واعذرني»، قال مانويل كوراثون قبل أن يغلق باب السيارة. «أتسمعني، بني؟ اعذرني، ربما أنا في الحقيقة لم أصدق ذلك أيضاً».

ترك بوسطن نفسه ينحدر لمسافة ما على السفح، ينبغي أن يكون القميص متسخاً، كما ينبغي أن يكون بنطاله متسخاً أيضاً، وأن يكون كلاهما مغبرين، وتفوح منهما رائحة العرق، ثم رفع يده مودعاً من دون أن يستدير نحوه.

لم يكن ما يحصل الآن أقل غرابة مما حصل في المرة الأولى.

وميض آلات التصوير، الصحفيون، الشرطة، أمه التي تبكي، والأسئلة ذاتها.

كلا، لا أعلم، أين كنت، ربما تجدون في مكان ما كيس الظهر وفيه أشيائي.

كلا، لا أعلم لماذا اختطفوني، لقد ظننت أنهم يبغون الحصول على فدية.

أما أنهم لم يتقدموا بمطالب؟ فهذا أيضاً لا أعلم سببه.

أسئلة في مركز الشرطة، وأسئلة في الحانة المنعزلة الموجودة هناك عالياً فوق الوادي، حيث أخذته الشرطة من هناك؛ وأسئلة أيضاً في ***الهوستال***، ثم مرة أخرى في مركز الشرطة.

أنا لا أعرف حقيقة، وأنا لا أستطيع القول بأكثر من ذلك؛ فإسبانيتي ليست جيدة، لذا لم أستطع فهم الخاطفين تماماً.

ولكننا نجد إسبانيتك ممتازة، يا بني.

إذن قد أكون أتقنتها أكثر خلال الأيام الأخيرة.

كلا، أنا لا أعرف، وأنا لا أستطيع القول أكثر مما قلت.

«دعوا الفتى في حاله أخيراً!»، قالت السيدة هيلبرت، التي سُمِح لها بمرافقته كمترجمة، «إنكم تظهرون الأمور وكأنه سعى لاختطافه متعمداً! ألا تظنون أن ما عاناه الفتى مزعج له بما فيه الكفاية، وماذا كان عليه فعله؟

هل كنتم تتمنون لولدكم شيئاً كهذا؟» كانت عيناها تتطايران شرراً وهي تتحدث للشرطة، كانت لغتها الإسبانية ساحرة، وبالفعل، فبوسطن لم يكن له علم بشيء، ثم تابعت السيدة هيلبرت قائلة: «وهل كنتم سترغبون عندئذٍ، أن يتعامل مع ولدكم رجل شرطة متعنت برأيه على هذا النحو؟».

هزّ شرطي منكبيه، وبكت أمه، «كنت في الليلة الماضية تهذي وتصرخ في نومك!»، قالت له أمه هامسة، «كنت تتكلم عن التعذيب، وعن المحرقة».

حتى أمه ما كان يمكنه أن يحدثها عن حقيقة ما جرى له، فهي بالذات ينبغي أن تعرف أقل قدر ممكن.

«ها أنتم تسمعون!»، صاحت السيدة هيلبرت أمام الشرطة، «أية براهين تريدون أكثر؟ هل هددوك بالتعذيب، بوسطن؟».

هزّ بوسطن برأسه، وقامت السيدة هيلبرت بالترجمة، أما رجال الشرطة فكانوا ينظرون بارتياب.

«لقد تم تفتيش الأرض كلها»، قال أحد رجال الشرطة، «والشيء الوحيد الذي عثرنا عليه، هو آثار حديثة العهد لعجلات سيارة، في فسحة لتوقف السيارات قريبة جداً من المكان الذي عثر عليه، ماذا يقول عن ذلك؟».

هزّ بوسطن منكبيه. «لا أعلم شيئاً، لا أستطيع قول شيء أكثر من ذلك».

«اتركوه أخيراً لحال سبيله!»، صرخت السيدة هيلبرت، «إنني أحذركم! فالصحافة الألمانية تنتظر أمام الباب!».

ألقى مفتش الشرطة بنظره إلى بوسطن.

«إن فاتك تذكر شيء ما!»، قال له متشككاً، تم الإفراج عن بوسطن.

ليسوا أغبياء، فكر بوسطن، ولكنهم لم يستطيعوا إثبات كذبي، إلا أن ما حصل لي حقيقة، ما كانوا ليصدقوه على الإطلاق.

-53-

«يا رجل!»، قال طوقان. «أنا الآن فرح حقيقة بأننا نعود أخيراً إلى بلدنا، حقيقة، أنا فرح!»

«بجد!»، قال قدير.

«اللعنة على هذا الجو!»، قال سيرغاي.

برك الماء الموحلة المحاصرة بين أحجار الغرانيت المتباينة في سويتها، كانت قد تجمّعت أمام الكاتدرائية، كما تجمعت بين الأحجار الخشنة ذات اللون الأبيض والأسود التي تم رصف الطريق الحجرية بها في **_رياليخو_**. والمجاري التي شطفتها المياه على مرّ مئات السنين، ملأتها مياه متدفقة، كانت تندفع بغزارة عبر الأزقة الضيقة في **_ألبايثين_** حيث حي **_المغاربيين_**، وفوق المسالك النحيلة في **_القيصرية_**، حيث يقوم البازار الشرقي الذي يقع بين ساحة **_بلازا بيب رامبلا_** والخان العتيق، وفي عجلة من أمرهم قام التجار بنصب الستارة البلاستيكية التي لا نهاية لها فوق الأحذية المبوزة في مقدمتها، وفوق الوسائد الجلدية، والنراجيل والقناديل النحاسية. وفي **_كاليه ديل لوس رياس كاثوليكوس_** يحقق البائع الإفريقي المتجول، بمظلته الرخيصة القابلة للطي، كسباً خلال ساعات بما يفوق ما كان يحققه خلال ما تبقى من العام بكامله؛ فالسواح القادمون من الشمال الممطر البارد، والساعون في رحلتهم وراء الشمس كهدف رئيسي لهم، كانوا يتخاطفون بشراهة بضاعته من بين يديه.

نساء مسنات قصيرات القامة مرتديات ألبسة سوداء يجرين بعزم بخطواتهن القصيرة ممتطيات شباشبهن المنزلية الطرية، ساعيات صعوداً ونزولاً لشراء السمك والخبز، غير آبهات بالطقس خارجاً. الشوارع بدأت تخلو من العابرين، أما النساء المسنات، فكنّ وهنّ يفتحن أبواب منازلهن، يلقين نظرة أخيرة من خلفهن على ذلك الجو المكفهر الذي تركنه من ورائهن قبل أن يدلفن إلى داخل بيوتهن.

كنّ على يقين أن الشمس ستعيد للمدينة لونها في اليوم التالي، وستجف برك الماء الموحلة وسيعود البهاء عند أقدام جبال سييرا[1] التي ستسترد السائحين للحضور من جديد، كما وعدهم المرشد السياحي، بل قد يكون ذلك بعد ظهر هذا اليوم أيضاً.

كانت النساء المسنات يلقينَ بسمكهن داخل ثلاجة المطبخ، وبالخبز على طاولته، ففي الشتاء يقول المطر وحده الحقيقة، أما الشمس فهي كاذبة. ولكنهن كنّ مدركات أنهن سينهضن في صباح يوم ما ليجدن أن آخر ما يذكرنه من وجود بقية من الثلج على قمم الجبال المنتصبة على الجانب الآخر من الحمراء قد اختفى وسيعود الصيف جالباً معه الألوان والضياء إلى المدينة من جبال سييرا في شمال غرناطة، هكذا كان الحال دائماً، وهكذا سيكون الحال أيضاً في هذا العام.

«ألست فرحاً، بوسطن، أيها العجوز الثخين؟ إيي، يا ولد، لا بد أن تكون أنت في غاية الفرح بأنك ذاهب من هنا!».

إلى اللقاء طارق، فكر بوسطن، سالومون، إلى اللقاء، ويوهانّا، أنتِ أيضاً.

---

(1) سييرا – Sierra، والمقصود هنا جبال سييرا نيفادا– Nevada Sierra، وهي جبال تقع في الشمال من غرناطة، وجبال سيير نيفادا تعني بالإسبانية حرفياً، الجبال المقطوعة.

يا لكل ذلك الذي عانيته، آمل أن تكونوا جميعاً على ما يرام.

في مقدمة الحافلة، كانت تجلس أمه بجانب السيدة هيلبرت ومتدرب اللغة الإسبانية الخجول.

«إيبي، هل علمت ما كان قاله لنا مخرف في ذلك البازار؟ ذاك الذي قرب تلك الساحة؟ هل حدثك طوقان عمّا قال؟».

هزّ بوسطن برأسه.

«هل تعني باب– راملا»، قال بوسطن، «القيصرية».

هزّ سيرغاي رأسه، «اللعنة»، قال سيرغاي، «لقد بال الرجل في سرواله من الخوف! عندما قال لنا بأنك سافرت إلى الماضي! وبأنك سافرت عبر الزمن، لقد قال ذلك بالفعل! وكان مصدقاً تماماً لما قاله!»، ثم ضرب على فخذه.

«وهو حقاً ما فعلته»، قال بوسطن.

«إيبي، ثخين، أنت تغالي، هل تعلم ذلك؟» صرخ طوقان. كان المطر يجلد زجاج النافذة من الخارج بدفقات متقطعة، وباتجاه يكاد يكون أفقياً، وكانت قطرات المطر الثقيلة تسحب من ورائها خطاً مرتعشاً يتجه من الأمام إلى الخلف، لتقوم من ثم بصنع منحنىً حذر على غير رغبة منها باتجاه الأسفل، حيث يتجمع الماء عند الحافة السفلى للنافذة، طافية من فوق إطار العزل الكاوتشوكي لها، لتختفي أخيراً على الجدار المعدني للحافلة، وللحظة يخال المرء وكأن قطرات المطر اللاحقة تتوقف هنيهة وكأنها تتردد في وجهتها، قبل أن تتابع في النهاية انسيابها على مسار رفيقاتها اللاتي سبقنها.

وفي الخارج، على الجانب الآخر من وراء اللوح الزجاجي للنافذة، توجد إسبانيا، وكوستا ديلزول: مساكن نمطية، مجمعات سكنية، ضواحٍ لا حدود

لنهايتها، وفندق بني مباشرة بجانب الأوتوستراد، كتب على لوحة جدارية باللغات الإسبانية والألمانية والإنكليزية بأنه الوحيد في فخامته. مع ذلك، أحس بوسطن بأن شعوراً بدأ يخالجه، وأن صدره أخذ ينشرح قليلاً، ومن حين لآخر كان يتبدى له من خلف تلتين في لمحة خاطفة، خط صغير رمادي غير واضح المعالم، لا يلبث أن يختفي؛ إنه البحر الأبيض المتوسط.

«هل سمعتم يا ناس؟ إنه فعل ذلك حقاً!».

ضحكت الحافلة كلها، ألقت إليه سيلفيا بابتسامة، وضحك بوسطن معهم.

جماعتي، فكر بوسطن في نفسه، إنهم جماعتي.

«منتهى القرف!»، قال طوقان، «ولكن قرف حقيقي! في الماضي يا شيخ! لماذا ينبغي أن يكون هذا جيداً، وإلا؟ وإلا؟».

أومأ بوسطن.

«ربما من أجل أن يكون بالوسع اكتشاف أمريكا؟»، قال بوسطن.

حدق طوقان به وقد عصي عليه الفهم، قدير وسيرغاي انفجرا بالضحك، فضحك بوسطن أيضاً.

وفي مقدمة الحافلة ضحكت حتى السيدة هيلبرت ومتدرب اللغة الإسبانية الخجول، وبعد هنيهة، انخرطت أمه معهم بالضحك أيضاً.

في الطائرة، حين كانوا يتخطون الغيوم، أعشته الشمس الساطعة.

الأندلس، آب/أغطس، 1492

كانت الأمواج تدلّك شاطئ ميناء بالوس، الذي لا يلبث أن يمتصها. كانت ليلة تضيئها النجوم، التي كانت تتوهج على نحو خيالي شفيف،

مثل خمار أبيض.

«هناك!»، هتف سالومون، «إنه مذنب! لقد رأيت مذنباً!».

«الآن آن أوان ذلك»، قال إيزاك، «لقد قدموا ليقوموا بوداع الوطن إلى الأبد».

«وطارق؟»، سأل سالومون، «هل صحبه الراهب معه ليوصله إلى البوخاراس، كما وعده أن يفعل؟ وبوسطن؟ ماذا حلّ به؟ هل أمسكوا به؟».

بقي إسحاق صامتاً، ثم ما لبث أن هزّ رأسه، «كنا سنسمع بذلك فيما لو تم القبض على شريك الشيطان»، قال إسحاق، «وهذا ما يمكن أن يعني أن صديقك قد عاد إلى أهله، دعنا لا نفكر بذلك».

«واحد آخر أيضاً!»، هتف سالومون، وهو يشير إلى النجوم عالياً. «وهناك! وهناك أيضاً!» لقد ألقى برأسه على قذاله، «هل تظن أنها قد تجلب الحظ لنا، سنيور دي توورريس؟» وبقدميه كان يدفع الحصى البيضاء هنا وهناك، ثم يعود لدفعها هنا وهناك من جديد، «غداً سنقلع، وماذا سيأتي بعد ذلك؟».

وبدون إرادة منهما، راحا يدوران لا يلويان على شيء في الميناء، الذي كانت ثلاث سفن راسية فيه، وهي تتمايل مع تموج الماء، وكانت أشرعتها سامقة عالياً نحو السماء.

«بعد ذلك، سنكتشف عالماً جديداً؟»، قال إسحاق. ثم أخذ يتبسم. شهابان، ثم الثالث، وقد تصالبت في مساراتها وتوهجت، «أم أنك تشك بذلك؟ أقول لك إننا سنكتشف بعدئذٍ عالماً جديداً».

— انتهت —

شرح المصطلحات

أبو عبدالله	–	Abu abd'Alla	:	هو آخر أمير لغرناطة؛ انظر أيضاً (بوعبديل)
أثوليخو	–	Azulejo	:	الموزاييك المزجج، وهي هنا بلاطات خزفية من السيراميك المدهون بالألوان.
ألبيازين	–	Albaicin	:	أحد أحياء غرناطة ويسكنه اليوم الكثير من المغاربة.
الأندلس	–	Andalus	:	مصطلح يطلق على الأراضي التي كانت محكومة من قبل المسلمين في إسبانيا، وهي لا تمت بصلة من حيث اتساع رقعتها إلى المنطقة الموجودة في إسبانيا حالياً، والتي تحمل نفس الإسم. ذلك أن الأندلس كانت تكبر وتصغر، طبقاً للمرحلة التاريخية. حيث اقتصرت رقعة الأندلس في مرحلتها الأخيرة عندما أخذها الملوك الإسبان في العام 1492 على مملكة غرناطة وحدها.
إنكونابل	–	Inkunabel	:	مأخوذة من اللاتينية، وهي أول بداية للطبع بواسطة الحفر على ألواح خشبية في القرن الخامس عشر. يرجع بهذا الصدد إلى المعجم الألماني Warig, Bertelsmann، طبعة عام 2006، ص 771، والمقصود هنا هو أفضل مطبعة تعمل على المبدأ نفسه الذي كان قد عرف حديثاً في زمن أحداث الرواية. (المترجم)

أوتودافيه	–	autodafes	:	تنفيذ العقاب (فرنسية): أي تنفيذ عقوبة محكمة التفتيش، وهي غالباً في المحرقة. وقد أحصي تنفيذ عقوبات إعدام من قبل كبير المفتشين ورئيس محكمة التفتيش توركيمادا ما بين 400 إلى 8000 ضحية.
باتثيو دي لا أسيكويا	–	Patio de la Acequia	:	(إسبانية): فناء في الخينراليفي، أي القصر الصيفي.
	:			
الباثيو	–	Patio	:	(إسبانية): باحة، فناء داخلي.
باكتا سون سيرفاندا	–	Pacta sunt servanda	:	(باللاتينية) وتعني بأن العقد يجب أن ينفذ.
الباوغينفيللين	–	Bougainvilleen	:	نبات معرش مزهر بألوان عديدة، يعود أصله للقارة الأمريكية، وهو يزرع خاصة للتعريش على أسوار الحدائق بارتفاع يصل إلى المترين وله ألوان عديدة. انظر: Botanica,das A b c der Pflanzen, Könemann Verlagsgesellschaft, 1998 ,Deutschland. S,149 (المترجم)
بلازا بيب– رامبلا	–	Plaza Bib-Rambla	:	هي ساحة كبيرة في قلب المدينة القديمة لغرناطة ومتاخمة للقيصرية، والاسم مأخوذ من العربية وتعني ساحة باب الرملة.
البُوخاراس	–	Alpujaras	:	(إسبانية): وهي سلسلة جبال تقع بين غرناطة والبحر الأبيض المتوسط، وكانت هذه الجبال هي الموئل الأخير للمغاربيين في إسبانيا. وتشير إليها الكتابات التاريخية العربية لها باسم جبال، البُشَّارات أو البشاريس (المترجم)

بوسطن	–	Bosten	:	مدينة كبيرة تقع على الساحل الشرقي من الولايات المتحدة، وإليها هاجر في العام 1630 معتنقوا المذهب البيوريتاني من إنكلترا حيث عملوا على تأسيسها، والاسم نفسه يحمله فتى في هذا الكتاب.
البوعبديل	–	Boabdil	:	تحوير في اللغة الإسبانية لإسم أبو عبدالله. وهو آخر أمير لغرناطة (من أسرة بني الأحمر). وكان هذا قد سلم إمارته تلك في العام 1492 إلى الملكين الإسبانيين، فرديناند وإيزابيلا، إثر حصار طويل فرضاه عليه، وبموجب اتفاق الإستسلام، أقطعاه مملكة في جبال البوخاراس (البُشّارات) – Alpujarras. كما أعطي للمغاربيين بموجب ذلك الاتفاق حق الإبقاء على معتقداتهم الدينية وممارسة جميع تقاليدهم التي كانت لهم من قبل، إلا أنه تم خرق ذلك الاتفاق بوقت مبكر من جانب الملكين الكاثوليكيين، إذ تم تخيير المغاربيين في غرناطة في العام 1499 إما بالدخول في المسيحية، أو الهجرة لخارج البلاد، وهو ما كانوا قد طبقوه على اليهود في العام 1492. وقد جرى إثر ذلك حرق المكتبات والحمامات العربية وغيرها، كما جرى هدم الجوامع أو تحويلها إلى كنائس، كما تم منع التحدث باللغة العربية، وكان أبو عبدالله قد غادر جبال البُشّارات (البُخاراس) في العام 1494 إلى منفاه بمدينة فاس في مراكش، حيث عاش هناك حوالي أربعين عاماً أخرى.

بويرتا دي لا يوستيسا	–	Puerta de la Justicia	:	(إسبانية) بوابة العدالة؛ وهي بوابة المدخل إلى أرض القلعة الموجودة في الأعلى.
تالافيرا	–	Talavera	:	اسمه هرناندو دي تالافيرا، 1428 – 1507، كان الأب الذي تقدم له الملكة إيزابيلا اعترافاتها الكنسية، وهو مقرب منها، وهي شديدة الوثوق به. وقد عينته رئيساً لأساقفة غرناطة بعد الاستيلاء عليها، وكان قد سمح بترجمة الكتاب المقدس إلى العربية، كما سمح باستخدام الآلات الموسيقية العربية في القداديس الكنسية. وقد حاول كسب المغاربيين المسلمين للدين المسيحي عبر الحوار مع رجال الدين، وكان رئيساً للجنة العلماء التي عينتها إيزابيلا بين 1486 – 1490، من أجل فحص وتدقيق الخطط التي وضعها كولومبوس (للسفر إلى الهند عن طريق الغرب)، وقد رفضت تلك اللجنة خطط كولومبوس استناداً إلى أخطاء حسابية.
تشيكو	–	Chico	:	(إسبانية)، تعني فتى صغير.
توركيمادا	–	Torquemada	:	1420– 1498، منذ العام 1484 تسلم منصب كبير المفتشين لكامل إسبانيا. كان له تأثير شديد على كل من الملكين إيزابيلا وفدرديناند، وهو من أسس محكمة التفتيش، ويعتبر شديد القسوة.
جنوي	–		:	نسبة إلى جنوه، والمقصود به هنا هو كريستوف كولومبوس (المترجم)

الجنوي	–	Genueser	:	نسبة إلى ميناء جنوه، وهو كيرستوف كولومبوس، الذي يرجع أصله إلى مدينة جنوه الإيطالية.
الحمراء	–	Alhambra	:	قلعة مغاربية تقع على تل مرتفع في غرناطة. وكان يتبع الحمراء في العام 1492 ***القصبة*** وقصر ناصر الدين مع باحة الأسود، قاعة السفراء إلخ.. واليوم يتبع لها أيضاً القصر الذي بناه كارل الخامس، حفيد إيزابيلا وأبن يوهانّا. – ومن المعروف أن الحمراء أخذت اسمها من أسرة الملوك العرب الين بنوها والذين ينتمون لاسرة بني الأحمر (المترجم).
الخان	–	Karawanserei	:	وهو قائم الان تحت اسم الفندق–funduq أي نفس الاسم بالعربية، وهو المكان الذي كان يرتاح فيه المسافرون في فترة وجود المغاربيين في غرناطة مع دوابهم. وفندق غرناطة ما زال قائماً حتى اليوم في مكانه قبالة القيصرية.
خوديريا	–	juderia	:	(إسبانية): الحي اليهودي في غرناطة
خوديريا	–	juderia	:	(إسبانية): الحي اليهودي في رياليخو غرناطة.
الخينيراليفي	–	Generalife	:	هو القصر الصيفي للحكام المغاربيين، مبني فوق الحمراء وله حدائق خلابة.

دهيمي	–	dhimmi	:	أنهم الـ (Monotheisten) أي الموحدين بحسب الترجمة الألمانية، وهم أولئك الذين يعتقدون بإله واحد مثلهم مثل المسلمين. ويدخل في عداد هذه التسمية اليهود والنصارى، أو من يسمون (أهل الكتاب) ويكونون محميين في الإسلام لقاء دفع ضريبة (الجزية). وكلمة: دهيمي– dhimmi هي الترجمة الأجنبية لكلمة ذميّ. وقد جاء هذا التحوير لعدم وجود حرف (ذ) في اللغات الأجنبية فأصبحت (ذ) = (dh)، وكلمة dhimmi = ذمي. (المترجم)
رياليخو	–	Realejo	:	الحي اليهودي في غرناطه.
السانبينيتو	–	Sanbenito	:	جلباب يرتديه الضحية في محكمة التفتيش عندما تتم إحالته إلى الإعدام بالمحرقة.
سانتافي	–	Santa fe	:	(إسبانية): (تعني بالإسبانية: حرفياً الإيمان المقدس)، فخلال محاصرة غرناطة، كان قد احترق في العام 1491 معسكر الإسبان المبني من الخيم برمته. فأمرت إيزابيلا ببناء مدينة جديدة من الحجر على هيئة صليب. إذ إنها كانت تعتبر نفسها في معركة للاسترداد، أي استرداد إسبانيا من المغاربيين، باعتبارها حرباً صليبية. وهنا جرىأيضاً بتاريخ 1492/4/17 توقيع «اتفاقية سانتافي»، التي أجازت إيزابيلا بموجبها إلى كولمبوس القيام برحلته إلى الهند وأعطائه تنازلات بعيدة المدى، ولهذا السبب تحمل الاتفاقية اسم «اتفاقية استسلام سانتافي».

سانتآنجيل	–	Santangel	:	هو لويس سانتآنجيل، وكان يشغل وظيفة أمين خزانة فرديناند فون أراغون، وقد كان من *الكونفرسوس*، (أي من اليهود الين تحولوا إلى النصرانية). وحتى الآن لم يكتشف أحد، لماذا قدم كل ثروته إلى كولومبوس، كي يسهل له رحلته لاكتشاف طريق الهند. وفقط بدعمه تمكن كولومبوس من الحصول على موافقة الملكة الكاثوليكية لتنفيذ خطة الرحلة إلى الهند، وفقط بسبب محادثته مع الملكة أمكن الموافقة على إنجاز رحلته.
سي بو إيده	–	Se puede	:	(إسبانية)، وتعني حرفياً (أمن الممكن؟) أو (هل تسمحون؟)
سيبانغوس	–	Cipangus	:	اليابان
السيرفيتزا	–	cerveza	:	(إسبانية)، البيرة
سيرا	–	Sierra	:	والمقصود هنا Nevada Sierra، وهي جبال تقع في الشمال من غرناطة. وجبال سيرا نيفادا تعني بالإسبانية حرفيا، الجبال المقطوعة.
شالوم	–	Schalom	:	(عبرية): سلام تحية يتبادلها اليهود فيما بينهم. – وهي لصيقة بالكلمة العربية **سلام**.
صالا دي لوس إمباخادوريس	–	Sala de los embajadores	:	(إسبانية): صالة السفراء، أو صالة المبعوثين، أو صالة الـ أودين– Audien في الحمراء.
صنادل الباغاتا		alpagata	:	هي كلمة إسبانية، وتسمى أحياناً إسبادريه، أو خفافة، وهو حذاء وجهه مصنوع من قماش قطني، وأرضيته من القش المجدول.

الظهره	–	Zahara	:	تُكتب Zahara، : بعد أن اقتحم Marquis von Cadix مدينة فيّا لوينغا–Villaluenga المغاربية على نحو مفاجئ، ردّ المغاربيون باجتياح حصن الظهرة القشتالي – Zahara في ليلة عيد الميلاد، وتم أخذ سكانها عبيداً.
غران فيا	–	Gran Via	:	(إسبانية)، تعني حرفيا: الطريق الرئيسي، الشارع الرئيسي، وهو شارع في وسط غرناطة.
الغوارديا	–	guardia	:	كلمة إسبانية تعني دورية الحرس.
فرودو	–	Frodo	:	هو الشخصية الرئيسية في الرواية التي تحمل العنوان الألماني (Der Herr der Ringe). والرواية مترجمة للعربية عن الألمانية بعنوان: «سيد الخواتم»، مؤلفها البريطاني J. R. R. Tolkien، (المترجم)
الفندق	–	funduq	:	هكذا وردت كلمة (فندق) العربية بنصها في الأصل المترجم عنه.
فيلاتورم	–	Velaturm	:	هو برج مرتفع في قصر الحمراء ويعتبر أحد المعالم المميزة فيها فمنه يمكن الإطلال على كامل المدينة وما يحيط بها. (المترجم)
فيليب	–	Philipp	:	« فيليب الجميل» فون بورغوند، من أسرة هابسبورغ، 1478 – 1506، ابن القيصر مكسيميليان الأول، تزوج من يوهانّا، إبنة إيزابيلا وفرديناند، في العام 1496.
القيصرية	–	Alcaiceria	:	كانت سابقاً سوق الحرير لمدينة غرناطة، وهي الآن البازار أو ما يمكن التعبير عنه بالسوق السياحية.
كاتاييس	–	Cathais	:	الصين.

الكاراكي	–	Karacke	:	، وهي سفينة أكبر من السفن العادية المألوفة آنذاك، و ذات استخدام مزدوج عسكري وتجاري. (المترجم)
كاليه ديل لوس رياس كاثوليكوس	–	Calle de Los Reyes Cato´licos	:	هو اسم الزقاق الرئيسي في وسط غرناطة.
كبير المفتشين	–	Großinquisisitor	:	هو رئيس ديوان التفتيش (او محكمة التفتيش كما يسميها البعض). وكان يشغل هذا المنصب في العام 1492 المدعو توركيمادا.
الكورتادو		Cortado	:	كلمة إسبانية و cafe'cortado، تعني تلك القهوة التي تشرب في فناجين صغيرة جداً، وهي قوية ومركزة، تطفو رغوة الحليب على سطحها.
كوستا ديل سوول		Costa del Sol	:	الطرف الجنوبي من ساحل البحر الأبيض المتوسط الأسباني.
كولون	–	Colon	:	هو كريستوبال كولون، الاسم الإسباني لمكتشف أمريكا، كريستوف كولومبوس.
كونفرسوس	–	conversos	:	(إسبانية): وتعني تحول اليهودي إلى المسيحية.
لو سيانتو موتشو	–	Lo siento mucho	:	*(إسبانية): آسف.*
مارانوس	–	Marranos	:	(إسبانية): تعني خنازير، ثم أطلقت في أثناء المرحلة التي تتناولها الأحداث المذكورة على اليهود الذين تنصّروا في الظاهر ولكنهم بقوا في الحقيقة على دينهم وطقوسهم العبادية.

مارفيدي	–	Marvedi	:	هي عملة إسبانية خلال حكم الملكة إيزابيلا. وكانت قطعة ذهبية تعادل 100 مارفيدي.
مالاقا	–	Mal'aga	:	كما تعرف بالألمانية أو Malaka كما تكتب أحياناً، والاسم مأخوذ من العربية، وهي ميناء يقع في الأندلس، جنوب إسبانيا على البحر الأبيض المتوسط.
الماوريون		Mauren	:	هم المسلمون، الذين كان منشؤهم شمال أفريقيا وآسيا الصغرى، وقد حكموا في إسبانيا من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر عشر. (أي حوالي 700 عام) وقد حكموا في البداية إسبانيا بكاملها، ومع الوقت أخذوا يتراجعون أمام الحكام المسيحيين، إلى أن لم يتبق لهم سوى مملكة غرناطه، التي تم الاستيلاء عليها من قبل إيزابيلا وفرديناند في العام 1492. ويود المترجم أن يضيف إلى ما ذكرته الكاتبة أعلاه، ضرورة الرجوع إلى ملاحظته حول (المغاربيون)
ماي فلاور	–	Mayflower	:	هي سفينة شراعية، هاجر فيها من يسمون بالآباء الحجاج من بلايموث في إنكلترا إلى أمريكا. وكانوا متدينين، ومن المعتقد أنهم بوريتانيون، لم يتمتعوا بحرية ممارسة معتقداتهم في إنكلترا.
مايوركا		Mallorca	:	وهي جزيرة تقع في البحر المتوسط، وتعتبر منتجعاً سياحياً شهيراً. – وبعضهم يسميها مالوركا (المترجم)

المدينة	—	Medina	:	هي مدينة مقامة ضمن نطاق قصر الحمراء مخصصة لتكون فيها أبنية الخدمات والمساكن التي يقيم فيها من يخدمون في القصر.
المدينة	—	Medina	:	وهو التعبير نفسه الذي ورد في النص نقلاً عن أصلها الإسباني. والمدينة هنا بحسب ملحق مصطلحات الكاتبة، هي مدينة تقع في محيط الأرض التي يوجد عليها قصر الحمراء، وهي عبارة عن أبنية سكن للعاملين ولكل من يخدم في القصر. (المترجم)
مرسوم أو قانون اليهود	—	Judenedikt	:	قانون صدر بتاريخ 1492/3/31 وقع ملكا إسبانيا، إيزابيلا وفرديناند، مرسوماً، أمر يهود إسبانيا كلها، إما بالتحول إلى النصرانية، أو مغادرة إسبانيا وترك جميع أملاكهم ومقتنياتهم فيها، وحدثت إثر ذلك موجة من الهجرة الهائلة.
المغاربيون	—	Mauren	:	المغاربيون – تمت ترجمتها عن كلمة (ماورن – **Mauren**، أو الماوريون وهو ما استخدمته الكاتبة) وهو مصطلح مستخدم في اللغات الأجنبية يقصد به العرب الذين حكموا في الأندلس لمدة 700 عام. وكلمة (الماوريون – Mauren)،كما يكتفي البعض بالإبقاء عليها هكذا، تعني في اللغات الأوروبية، قبائل الأمازيغ (أو البربر المسلمون) والعرب. وتترجم كلمة Mauren أحياناً بالمغاربة فقط، لأن معبر فاتحي الأندلس كان من المغرب، الذي كان يعرف في وقت ما بمراكش.

وقد جاء الفتح العربي لإسبانيا، قادماً من شمال أفريقيا عبر مضيق جبل طارق (حوالي 12 كم) من الأراضي المعروفة حالياً بالمغرب، بقيادة طارق بن زياد، بجيش من قبائل الأمازيغ المسلمين بشكل رئيسي، ثم شارك الفرسان العرب في التدفقات اللاحقة على الجزيرة الأيبيرية، وكان هذا تكملة للفتح العربي انطلاقاً من شمال أفريقيا، بل والعديد من المراجع تترجم الكلمة بأنهم المسلمون من البربر في شمال أفريقيا من دون الإشارة للعرب.

وأمانة للترجمة، فقد اعتمدنا استخدام مصطلح (**المغاربيون**) وليس الماوريون أو المغربيون، كما تجنح بعض الترجمات،إذ في اعتقادنا أن (المغاربيين) فيها عمومية تقترب أولاً ما أمكن من أمانة النص من جهة، ويمكن ثانياً أن لا تُبعد الوجود العربي عن المعنى.

فـ (**المغاربيون**) تشمل كامل مكونات بلدان المغرب العربي في الشمال الإفريقي (وليس من المغرب فقط)، من العرب والأمازيغ (البربر) وهو واقع أقرب للحقيقة التاريخية، التي تؤكد أيضاً الدور الكبير للعرب الأمويين في بلاد الشام أيضاً في الوجود العربي في إسبانيا، وينصح المترجم الرجوع في هذا الصدد لفهم أكثر لبعض الوقائع التي وردت في أحداث هذه الرواية إلى موسوعة:

وراءه آثاراً عميقة، ليس في إسبانيا وحدها، بل في كل القارة الأوروبية. ففي حين كانت بقية أوروبا في ذلك الحين، تعاني سيطرة «العصور المظلمة»، كانت إسبانيا المغاربية على درجة عالية من الحضارة والتقدم. فالناس كانوا يقيمون فيها وزناً لأهمية العلم والفن، وأيضاً للهندسة والطب، كما كانت اللغة العربية في هذه الفترة هي لغة النخبة من المثقفين، أياً كان معتقدهم الديني. وكان علماء أوروبا يقصدون الأندلس ليطلعوا هناك على مكتبات العلوم والمعرفة المتوافرة فيها.

كما كانت توجد في الأندلس أيضاً علاقات كثيرة وحيوية بين الأديان المتباينة. فحيث إنَّ القرآن، وهو الكتاب المقدس لدى المسلمين، يعترف بكل من المسيحية واليهودية على أنهما دينان سماويان شقيقان، فقد عاش المسيحيون واليهود معاً في ظل دولة المغاربيين من دون الحاجة لأن يتحولوا إلى الإسلام أو أن تجري ملاحقتهم بسبب احتفاظهم بمعتقدهم، وإن كان عليهم على أي حال دفع ضريبة استثنائية، وكان يعمل أيضاً في بلاط الحكام المغاربيين (وأيضاً في بلاط الملوك الإسبان، حتى خلال مرحلة محاكم التفتيش)، الكثير من المستشارين اليهود، وكما كان هناك أطباء وعلماء يهود أيضاً. وحتى العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين كان في حالة قد تبدو لنا من منظور اليوم مدعاة للدهشة، والعديد من المسيحيين كانوا في خدمة المغاربيين: فكان على سبيل المثال ريسيموندو،رئيس الأساقفة المسيحي لـ (إلفيرا)، سفيراً للخليفة لدى بلاط القيصر أوتوس الأول، لقد كانت إسبانيا في عهد المغاربيين البلد الأكثر تقدماً في أوروبا، حتى إن تجنبنا أن نطنب كثيراً في كيل المديح.

لقد حدثت مذبحة لليهود في غرناطة في العام 1066 لم تعرف أسبابها،

ومن ثم فالقول بعدم وجود نزاعات على الإطلاق في إطار تعايش الديانات بعضها مع بعض ليس صحيحاً. إلا إنه كانت هناك حياة يومية، فيما بين الديانات. فكانت هناك زيجات مختلطة، وكان الناس يعيشون معاً بسلام لفائدة الجميع. وحتى عندما سيطر الحكام المسيحيون فيما بعد على المناطق المغاربية، كانوا يبقون على التقاليد السائدة في مناطق احتلالهم، فاستمر أولئك الحكام لقرون عديدة بعد ذلك في الإبقاء على بناء قصورهم من قبل الحرفيين المغاربيين المهرة، ووفقاً للطراز المغاربي أيضاً، كما كان من المسلم به إتقان اللغة العربية باعتبارها لغة النخبة من المتعلمين، ولوقت ما ساد حتى في المدن المسيحية نمط التعايش بين الديانات.

وعندما احتل «الملكان الكاثوليكيان»، الزوجان، إيزابيلا من قشتالة وفرديناند من أراغون، في العام 1492 غرناطة، التي ظلت لمدة مئتي عام، كآخر مملكة للمغاربيين على شبه الجزيرة الإسبانية، فإنه يمكن الافتراض، أنه في الوقت الذي كانت فيه دواعي الاحتلال بالنسبة إلى إيزابيلا هي بالتأكيد، السعي وراء الاسترداد بدافع من التعصب في الورع الديني، فإن الأمر بالنسبة إلى فرديناند كان اهتمامه بحيازة ثروة هذه المملكة التي تبلغ مساحتها ثلاثمائة كيلومتر طولاً، ومئة كيلومتر عرضاً. أما شخصيات هذا الكتاب فهي من خيالي، وكل ما يفكرون به وما يقولونه، ومثلما هو الحال مع بقية الشخصيات التاريخية الأخرى، إنما هو من ابتداعي، ولكن اعتماداً على ما قرأته عنهم.

وللحقيقة فإن محاكم التفتيش قد بدأت فعلاً في عهد إيزابيلا وفرديناند في إسبانيا، والتي بدأت أولاً ضد الكونفرسوس، أي اليهود المتنصرين، ومن ثم ضد اليهود على العموم، وبعدهم ضد المغاربيين، وتحولت في نهاية المطاف

لتكون ضد بعضهم البعض، وقد تم أولاً تهجير اليهود وتبعهم بعد ذلك المغاربيون، وتم الإبقاء على نقاء المسيحيين الإسبان الذين حكموا لقرون من السنوات بعد ذلك حيث ساد جو من الفزع والخوف. وأيضاً أسماء أدوات التعذيب التي تم ذكرها في الكتاب كانت موجودة، ووصف بعض الشخصيات مثل توركيمادا جاءت طبقاً لما قرأت عنه في الكتب التاريخية.

والبيانات التي ورد ذكرها كافة، من أرقام وتواريخ، هي صحيحة تاريخياً، بالطبع. ولكنني سمحت لنفسي بالمخاتلة قليلاً في واحدة منها. فقد تزوجت يوهانّا ابنة إيزابيلا الأمير فيليب فون بورغوند في العام 1496، وتمت خطبتها له وهي في الرابعة عشرة من عمرها في العام 1493. وعن رحلة فيليب إلى خطيبته التي وردت في الكتاب بأنها تمت في عام أبكر من ذلك، أي في العام 1492، هي غير معروفة، وكل ما في الأمر أنني وجدتها ملائمة لروايتي، وعلى فكرة فإن يوهانّا تم تسميتها بالفعل فيما بعد بـ «يوهانّا المخبولة»، وذلك بعد وفاة زوجها، في العام 1506، والتي كانت قد أحبته جداً. ولكن توجد رواية تنقض وتشكك بحكاية خبلها، ذلك أنها وبعد وفاة أمها في العام 1504، ورثت يوهانّا مكان أمها وتقاسمت المملكة مع أبيها – وكما لأبيها فرديناند، كان لابنها الأكبر أيضاً مصلحة في الإعلان بأن يوهانّا مجنونة، وبأنها غير صالحة للحكم.

الأكثر إثارة للفضول والاهتمام، ربما هو تاريخ كولومبوس، والرواية التاريخية عنه تكاد تكون في أيامنا هذه موحدة نسبياً. لقد كان كولومبوس، وهو ابن غزّال للصوف من جنوه، مصاباً بجنون العظمة، وقد ظل مرتهناً لفكرة ثابتة، وهي إصراره على اكتشاف طريق السفر إلى الهند عن طريق الغرب، وعلى نقيض العلماء الذين كانوا في زمانه ظل هو متشبثاً بوجهة

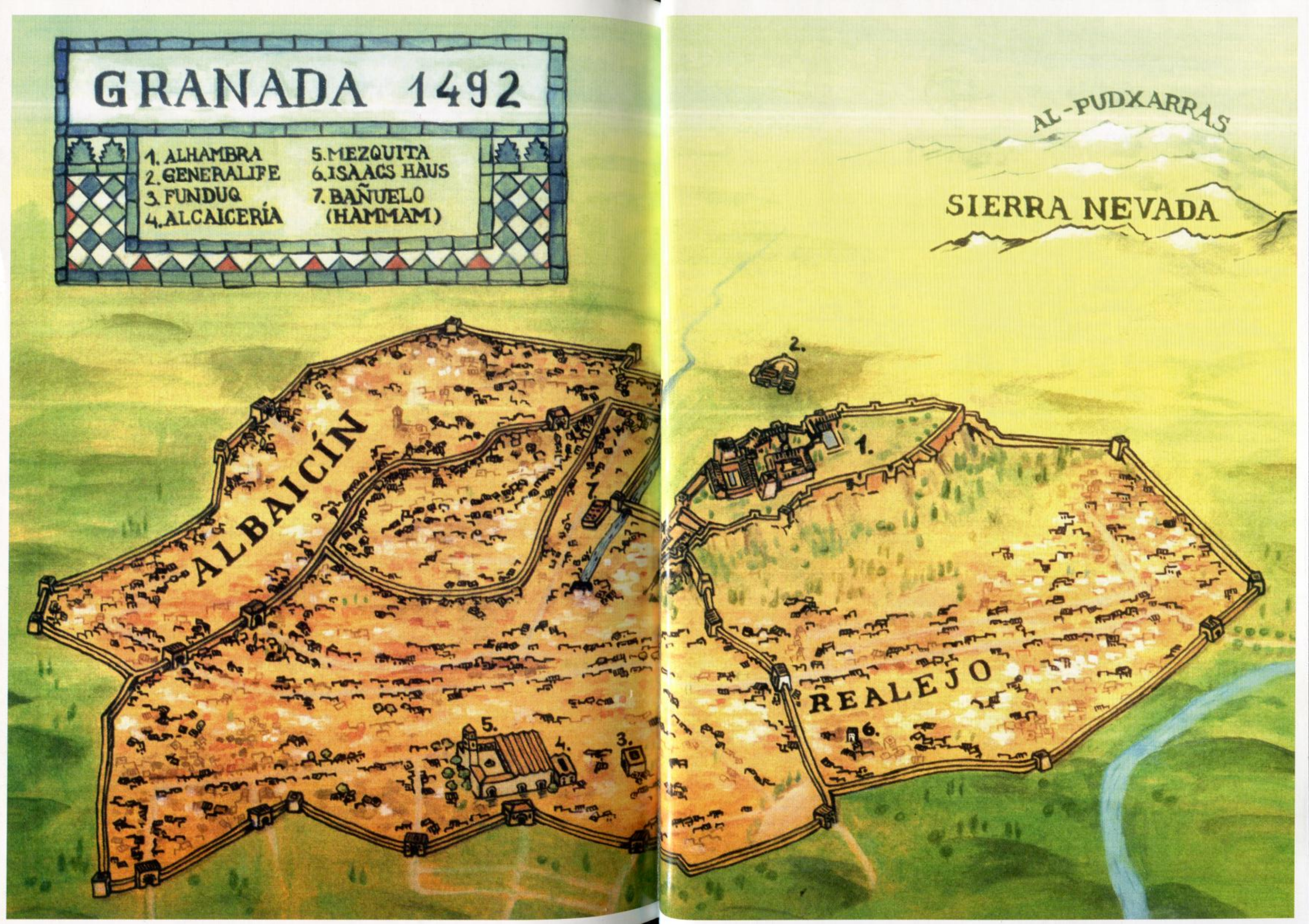
نظر لا معنى لها من وجهة نظر العالم آنذاك، ففي حين أن أولئك العلماء بحساباتهم الصحيحة، قالوا إنه لا يمكن لأحد القيام بالإبحار إلى الهند عن طريق الغرب بالسفن الشراعية ويظل باقياً على قيد الحياة، لأن الرحلة في هذا الطريق هي بكل بساطة طويلة جداً – وكون الأرض كروية، فذلك كان أمراً مسلماً به لدى العلماء وشائعاً بينهم منذ زمن بعيد –، أما قناعة كولومبوس فقد اعتمدت قبل كل شيء على نصوص محددة من الكتاب المقدس ذكرت في الرواية، وليس على الحسابات العلمية. ومن الواضح أيضاً أنه كان يرتكز في قناعته على ما كان يمتلكه من تلك الأوهام الدينية، ولهذا السبب، لم يأذن له، لا ملك البرتغال، ولا ملكة إسبانيا، القيام بهذه الرحلة البحرية. – وكون إيزابيلا قدمت له سفينتين شراعيتين وسفينة ثالثة من نوع الكاراكي[1]، هي واقعة حقيقية تمت بتأثير من أمين خزانة بلاط أراغون، اليهودي المتنصر سانتآنخيل، إلا أن معرفة الدواعي الحقيقية التي جعلته يدفع بثروته في هذه المغامرة، ظلت لغزاً حتى بالنسبة إلى البحوث الجارية حتى اليوم حول هذه المسألة، إذ إنها نقيض المصلحة السياسية لمملكة أراغون. فمملكة أراغون لم يكن لها مصلحة في وجود طريق جديدة إلى الهند؛ فعن طريق ميناء برشلونة كانت أراغون معنية بالبحر الأبيض المتوسط، فلماذا وقف أمين خزانة بلاط فرديناند فجأة داعماً لخطط كولومبوس؟ ولماذا دعم الرحلة عموماً، ولماذا حدث هذا فجأة؟ وحتى مسألة توجه كولومبوس مغادراً غرناطة إلى فرنسا غاضباً، وبأن الملكة بعثت له برسول ليعود إلى غرناطة، هي واقعة تاريخية مثبتة، إلا أن الكتابة التاريخية هنا لم تعط جواباً عن الأسئلة السابقة.

---

(1) Karacke، وهي سفينة أكبر من السفن العادية المألوفة آنذاك، و ذات استخدام مزدوج عسكري وتجاري. (المترجم)

فالمعلومات التاريخية في هذا الكتاب يمكن للمرء أن يمنحها إذن قيمة كبيرة.
وأيضاً بالنسبة إلى اليهودي لويس دي توريس، واصطحاب كولومبوس له كمترجم، هي واقعة مؤكدة ؛ أما ذهاب آخر باسمه بدلاً منه، فهي من ابتكاري. والشخصيات الجانبية الأخرى مثل طارق،وسالومون،وإسحاق، والراهب القصير، والفلاح، وبابلو، وقائد الجند، وآمّي، والجندي الثمل دائماً ذو الندبة على وجهه، كلها شخصيات تم ابتداعها، بما في ذلك شخصية بوسطن وكل الأشخاص الذين يقومون بدورهم في الوقت الحاضر، وأما إن كانت قد وُجدت شخصيات مثلهم أو وُجدت شخصيات تشبههم : فهذا ما أنا على ثقة تامة بحصوله.

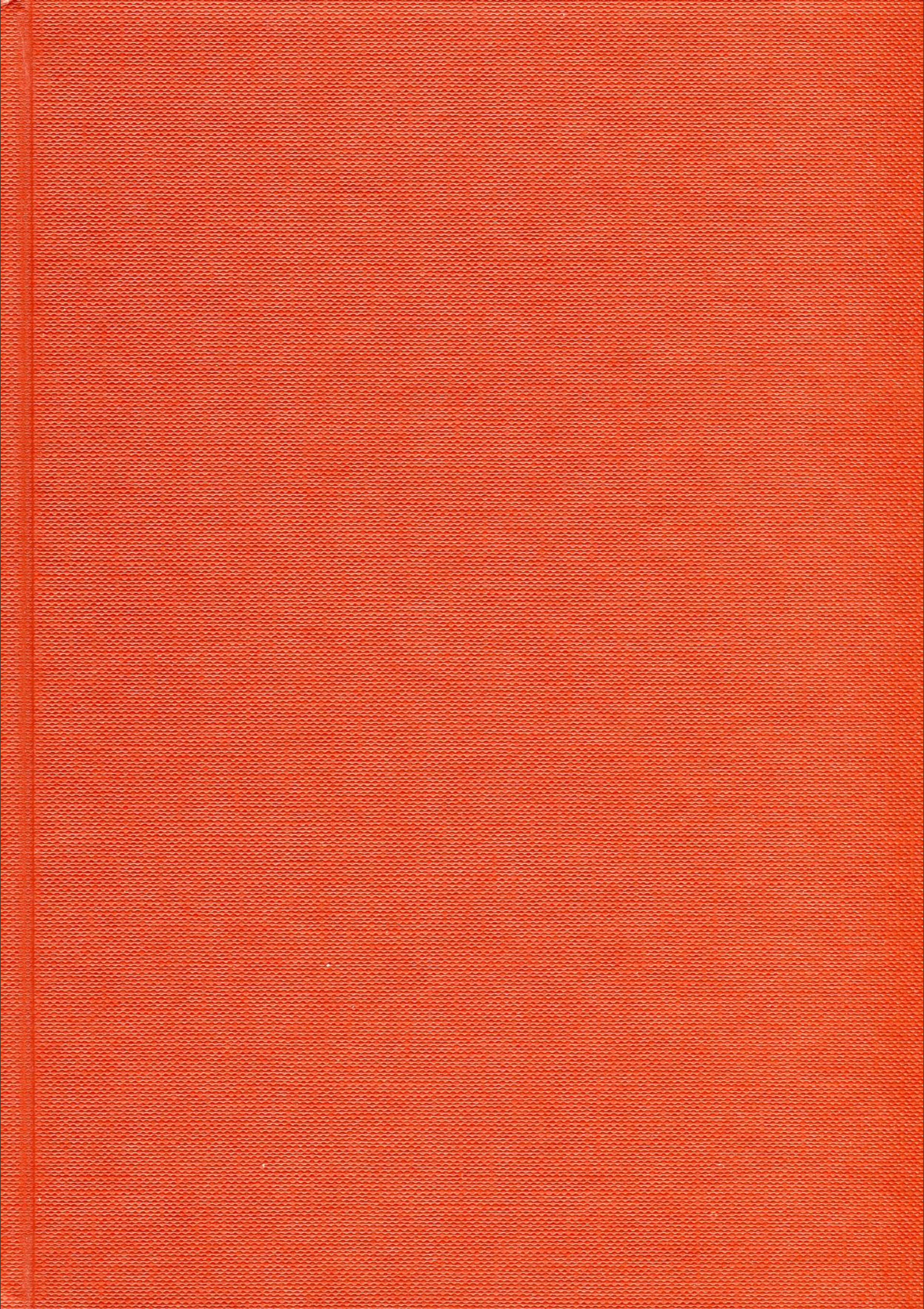
الحمراء


GRANADA 1492
1. ALHAMBRA
2. GENERALIFE
3. FUNDUQ
4. ALCAICERÍA
5. MEZQUITA
6. ISAACS HAUS
7. BAÑUELO (HAMMAM)
AL-PUDXARRAS
SIERRA NEVADA
ALBAICÍN
REALEJO
1.
2.
3.
4.
5.
6.
7.



نبذة عن المترجم :

ولد المترجم صاموئيل عبود في عام 1934 في سوريا، وهو يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، حيث درس في برلين. ما زال يشرف بعد تقاعده على الرسائل العلمية في الجامعة. وله عدة أبحاث في مجال الاقتصاد وقام بترجمة «النحلة مايا» كما ترجم بعض السير الذاتية عن الألمانية بتكليف من معهد غوته. يكتب في الصحافة اليومية في المجالين الاقتصادي والأدبي.



الحمراء

لكن نصيحتي مع ذلك، هي أن تأخذوا المسألة تماماً كما هي عليه. فإن كان كل واحد منكم قد أخذ خاتمه من أبيه وإن كان كلٌّ منكم يعتقدُ بأن خاتمه هو الخاتم الحقيقي، فليصدق ذلك فعلى كل منكم أن يتسابق مع الآخر، كي تأتيه القوة الكامنة في حجر خاتمه بالتسامح وبالتفاهم والمحبة الدافئة وبالخضوع المُحِب لله وبمعاونة بعضكم بعضاً وإن استمرت فاعلية القوة الكامنة في أحجار خواتمكم، منتقلة إلى أولادكم وأحفادكم، فسأدعوكم أنا بعدَ آلاف آلاف السنين إليّ من جديد للمثول أمام هذا الكرسي، حيث يكون جالساً حكيم آخر غيري وسيقول لكم: امضوا! هذا ما قاله القاضي المتواضع.

غوتهولد إفرايم ليسينغ

ناتان الحكيم





